روبيرت هاريس

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

بومبي

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

روبيرت هاريس

بـومبي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

twitter @baghdad_library

Copyright © All Prints Distributors & Publishers

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN: 978-9953-88-082-2

Copyright © Robert Harris 2003

ترجمة: حنان كسرواني

مراجعة: وفيق زيتون

الغلاف: برنارد يوسف

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

الإهداء ٧
الخريطة .... ٨ ـ ٩

مارس
الثاني والعشرون من شهر آب قبل يومين من حصول الثوران البركاني

كونتيسينيوم ١٣
أورا أنديسيما ٢٧
أورا ديوديسيما ٥١
فيسبيرا ٦٩
نوكتي إنتيمبيستا ٨٣

ميركيوري
الثالث والعشرون من شهر آب اليوم السابق لثوران البركان

ديلوكيولوم ٩١
أورا كوارتا ١١٣
أورا كوينتا ١٣١
أورا سيكستا ١٤٥
أورا سيبتا ١٦١
أورا ديوديسيما ١٨٩
فيسبيرا ٢٠٧
نوكتي كونكوبيا ٢٢٣

twitter @baghdad_library

جوبيتير
الرابع والعشرون من شهر آب يوم ثوران البركان

أورا بريما ٢٤٣
أورا كوارتا ٢٥٩
أورا سكستا ٢٨٣
أورا نونا ٢٩٧
فيسبيرا ٣١٥

فينوس
الخامس والعشرون من شهر آب اليوم الأخير للثوران البركاني

إنكليناتيو ٣٣٥
ديلوكيولوم ٢٤٣
أورا ألترا ٣٥٧
شكر وتقدير ٣٦٣

إلى جيل

twitter @baghdad_library

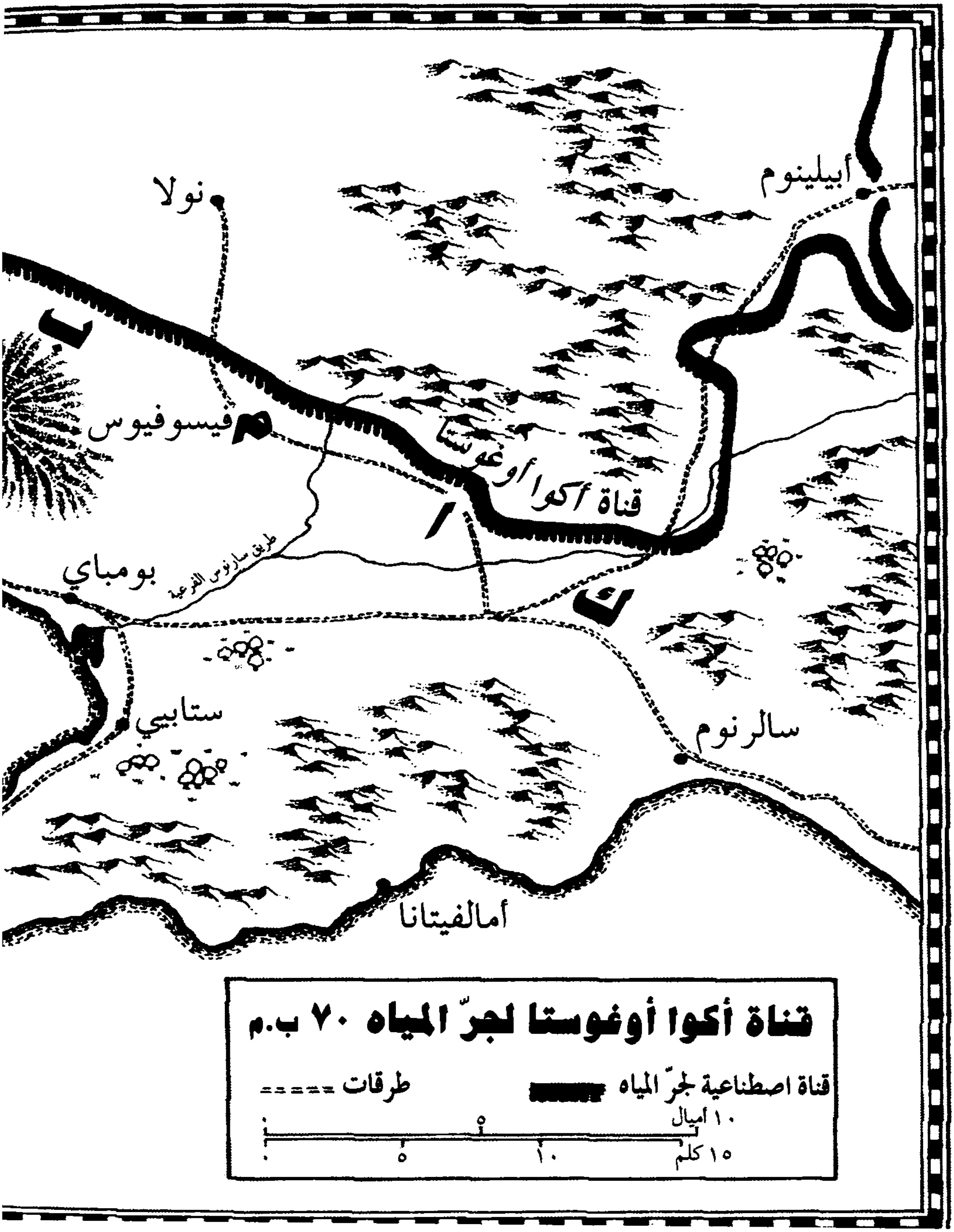
نولا
أبيلينوم
ب
فيسوفيوس
قناة أكوا أوغوستا
أ
طريق سارنوس الفرعية
بومباي
ك
ستابيي
سالرنوم
أمالفيتانا
قناة أكوا أوغوستا لجرّ المياه ٧٠ ب.م
قناة اصطناعية لجرّ المياه
طرقات
١٠ أميال
٥
١٥ كلم
١٠
٥

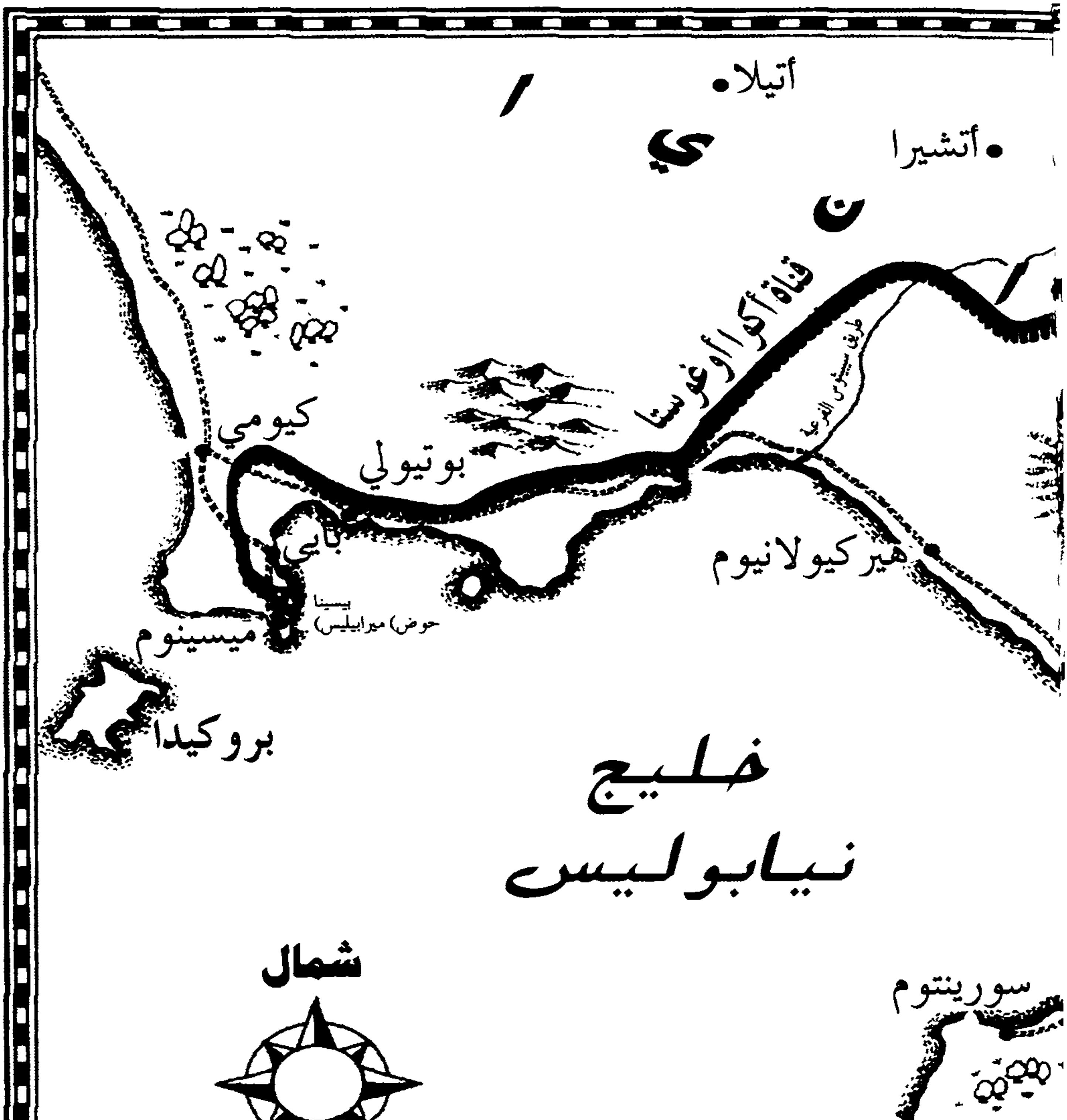

twitter @baghdad_library

ملاحظة من الكاتب

كان الرومان يقسمون النهار إلى ١٢ ساعة. تبدأ الساعة الأولى، أورا بريما، عند شروق الشمس. وتنتهي الساعة الأخيرة، أورا ديوديسما، عند مغيبها.

ويُقسم الليل إلى ٨ أقسام: فيسبيرا، بريما فاكس، كونكوبيا، إنتيمبيستا قبل منتصف الليل. وإنكليناتيو، غاليسينيوم، كونتيسينيوم، ديلوكيولوم بعد منتصف الليل.

كانوا يسمون أيام الأسبوع مون (قمر)، مارس، ميركيوري، جوبيتير، فينوس، ساتورن، سان (شمس).

تحدث فصول رواية بومبي على مدى ٤ أيام.

إن شروق الشمس على خليج نابوليس في الأسبوع الرابع من شهر آب في العام ٩٧ ب.م. كان في قرابة الساعة ٠٦:٢٠

مارس

الثاني والعشرون من شهر آب

قبل يومين من حصول الثوران البركاني

twitter @baghdad_library

كونتيسينيوم

الساعة: ٠٤:٢١

ثمة علاقةٌ وثيقةٌ ما بين حجم ثوران البراكين وفترة السكون الفاصلة التي تسبق هذا الثوران. إن معظم البراكين التي ظلت ساكنةً لقرونٍ هي التي أحدثت ثوراناً تاريخياً هائلاً.

جاك ـ ماري باردينتزيف، ألكساندر ماكبيرني، علم البراكين (الطبعة الثانية

غادروا القناة قبل بزوغ الفجر بساعتين وتسلّقوا التلال المطلّة على الميناء تحت ضوء القمر. كانوا ستّة رجالٍ يسيرون في طابورٍ واحدٍ ويتقدّمهم مهندس. أيقظهم بنفسه وأجبرهم على الخروج من أسرّتهم، فنهضوا وأوصالهم لا تزال متيبّسة من النوم وجبينهم مقطّبٌ من التعب ووجوههم مكفهرّة من الرقاد. يستطيع الآن سماع أصواتهم المتذمِّرة التي حملتها إليه الرياح الحارة والساكنة، فجاءت أعلى مما توقّعوا.

غمغم أحدهم:

«إنها مغامرة سخيفة!»

وقال آخر:

«على الفتيان ألا يبتعدوا عن كتبهم»

وسّع خطواته مبتعداً عنهم وقال في قرارة نفسه «فليثرثروا كما يحلو لهم».

وبعد قليل بدأ يشعر بحرارة الفجر وهو ينبلج معلناً قدوم نهار جديدٍ مفعمٍ بالصحو.

twitter @baghdad_library

كان المهندس أصغر سناً من معظم طاقم عمله وأقصر منهم قامةً، يتمتّع بجسدٍ مكتنزٍ وعضلاتٍ نامية، أما شعره فقصير وبني اللون. وكانت مقابض المعدّات التي يحملها تتدلّى من كتفه: فأسٌ ذات رأسٍ نحاسيٍّ ثقيل الوزن ورفش خشبيّ ما انفكّا يحتكّان بعنقه المسفوعة بالشمس. وعلى الرغم من ذلك، أجبر نفسه بقدر المستطاع على توسيع خطواته. وهكذا، وبقدمين حافيتين، صعد التل برشاقةٍ، الخطوة تلو الأخرى. ولم يتخلّص من حمله الثقيل إلا حين وصل إلى نقطةٍ أعلى من ميسينوم حيث مفترق الطريق وحيث قبع منتظراً لحاق الباقين به.

أزال العرق عن عينيه ومسحه بكمّ ردائه الإغريقيّ القصير. يا لجمال هذه الجنّات المشعّة والدافئة في هذا الجنوب. ومع أنّ الفجر كان على وشك البزوغ إلا أن مجموعة هائلة من الخدم أنارت السماء حتى الأفق. ها هما قرنا «توروس» وحزان وسيف الجبار أوريون، وها هو زحل والدب الأكبر وكوكب فينتاغر أو قاطف العنب والذي لطالما أشعّ لقيصر في اليوم الثاني والعشرين من شهر آب/أغسطس بعيد مهرجان فيناليا معلناً قدوم موعد حصاد العنب، وسيكون القمر مكتملاً في الغد. رفع المهندس يديه نحو السماء ووجّه أطراف أصابعه المستدقّة نحو النجوم البرّاقة، وفتح أصابعه ثم ضمّها. أعاد الكرّة فخيِّل إليه لوهلة أنه الظلّ والعدم، ذلك أنّ النور هو الجوهر.

تناهى إلى سمعه من ناحية المرفأ أصوات مياه البحر وهي تتخبّط على مجاذيف سفينة المراقبة الليلية التي تمر ما بين السفن الثلاثية المجاذيف الراسية في الميناء. وعبر الخليج، تلألأت الأنوار الصفراء الساطعة من مصابيح بعض مراكب الصيد. ارتفع صوت نباح كلب وتلاه صوت آخر، حينما قال المراقب كوراكس بصوته الأجشّ ذي اللّكنة المحليّة:

«أنظروا! أكواريوس(*) يلوّح للنجوم!»

(*) أكواريوس: برج الدلو.

فتعالت أصوات العمّال، العبيد والأحرار، وهم يصعدون رويداً رويداً الطريق الذي سبق أن سلكه المهندس، لاهثين، ساخرين وضاحكين.

أنزل المهندس يديْه قائلاً:

«على الأقل نحن لسنا بحاجةٍ للمشاعل بوجود سماءٍ منوِّرة كهذه!»

فجأةً عاوده النشاط فانحنى ليلتقط أدواته وحملها مجدداً على كتفيه وتابع:

«علينا متابعة الطريق»

عبس وهو يحدّق في الظلمة، لأنه كان أمامهم طريقان: الأول سيأخذهم ناحية الغرب بمحاذاة طرف القاعدة البحرية، أما الثاني فسيوصلهم ناحية الشمال، نحو منتجع باياي البحريّ.

قال لهم المهندس:

«أظن أنه علينا التوجّه إلى هذه الناحية»

فردّ كوراكس ساخراً:

«يظنّ!»

كان المهندس قد قرّر منذ الأمس أن أفضل طريقةٍ للتعامل مع المراقب هي تجاهله، لذلك ومن دون أن ينبس ببنت شفةٍ أدار ظهره للبحر والنجوم وشرع يصعد ناحية الجزء المظلم من التلّة. ففي النهاية ليست القيادة سوى الاختيار الأعمى لطريقٍ من دون سواه والادعاء الواثق أن القرار مبنيّ على المنطق؟

كان الطريق الذي اختاره أشدّ انحداراً، فكان عليه الانتقال من جنب إلى آخر، وأحياناً استخدام يده الخالية كي يجرّ نفسه. وكانت رجلاه تنزلقان مخلِّفتين وراءهما وابلاً من الحجارة، تنهمر مصدرة جلبةً في الظلام.

نظر الرجال إلى تلك التلال التي جفّفتها حرائق الأدغال الصيفيّة، فبدت لهم صحاري قاحلة، بيد أن المهندس خالفهم في الرأي. ومع ذلك شعر بأنّ الثقة التي سبق وأحسّ بها قد بدأت تضعف، فحاول تذكّر شكل الطريق الذي استكشفه بعد ظهر الأمس.

twitter @baghdad_library

كان طريقاً ملتوياً وضيقاً وبالكاد يسمح بمرور بغل. تنتشر فيه بقعٌ شاسعةٌ من العنب الجاف، تغدو خضراء باهتةً حيث تستوي الأرض، إشارةً إلى وجود حياة، ثمّ اتّضح أنها ليست سوى فروع جديدة من اللبلاب تحاول تسلّق جلمود.

بعد أن قطع المهندس نصف الطريق صعوداً عاد أدراجه. توقّف برهةً ثم دار حول نفسه، إما لأن عينيه قد اعتادتا على ذلك، وإمّا لأن الفجر على وشك البزوغ، وهو ما يدل على أن وقتهم قد شارف على النفاد. توقّف الآخرون خلفه فكان يستطيع سماع تنفّسهم وهم يلهثون بصعوبة.

أمامهم الآن قصة أخرى يستطيعون سردها في ميسينوم عن الأكواريوس الجديد الذي أيقظهم وأخرجهم من أسرّتهم قصراً، والذي أجبرهم على التوجّه نحو التلال في منتصف الليل، وكلّ ذلك في «مغامرةٍ سخيفة». وعندما فكّر بذلك شعر بطعم مرارة العلقم في فمه.

ارتفع صوت كوراكس بسخريةٍ مجدداً:

«هل ضللنا الطريق أيها الفتى؟»

فأجابه المهندس بتحدٍّ:

«أنا أبحث عن صخرة»

ولكنّه أخطأ بإجابته إذ أنّ الرجال لم يحاولوا حتى إخفاء قهقهتهم هذه المرة وقال أحدهم:

«إنه كالفأر الذي يركض في قدرٍ للبول»

فأردف المهندس:

«أعلم أنّها هنا في مكان ما، فقد وضعت عليها علامة بالطبشور».

انفجر الرجال ضحكاً فالتفت المهندس ناحيتهم: «كوراكس» القصير الجسد والعريض المنكبين، و«بيكو» الطويل الأنف والذي يعمل كنحّات جصّ،

و«موسى» الممتلىء الجسد الذي يعمل كرصّاف قرميد، والعبدان «بولايتس» و«كورفينوس». حتى أجسادهم غير المتحيّزة بدت وكأنّها تسخر وتهزأ منه.

فقال لهم:

«هيّا اضحكوا. هذا جيّد. ولكن أقسم أننا إن لم نجد الصخرة قبل بزوغ الفجر سنعود إلى هنا غداً مساء. وهذا يشملك أنت يا غافيوس كوراكس ولكن إحرص على أن تكون واعياً هذه المرة».

عمّ الصمت المكان بعد ذلك وبصق كوراكس على الأرض وتقدم نصف خطوة إلى الأمام، فيما استعد المهندس للعراك.

كانوا قد حضّروا أنفسهم للمشاجرة منذ ثلاثة أيام، أي منذ وصول المهندس إلى ميسينوم، إذ لم تمر دقيقة واحدة لم يحاول كوراكس خلالها الاستخفاف به أمام بقية الرجال.

فكّر المهندس: إذا تعاركنا سيفوز هو إذ أنّها معركة خمسة ضد واحد. سيرمون بجسدي من فوق الجرف وسيقولون أنني انزلقت نحو الظلمة. ولكن كيف ستنطلي الخدعة على من في روما إذا فُقِد الساقي المسؤول عن قناة أكوا أوغوستا في أقلّ من أسبوعين؟

وقفوا وجهاً لوجه لبرهةٍ بدت دهراً، وكانوا قريبين من بعضهم البعض إلى درجة أن المهندس استطاع أن يشتمّ رائحة النبيذ المعتّق تفوح من فم الرجل العجوز.

صرخ «بيكو» بحماسٍ وأشار إلى مكانٍ ما. ومن وراء كتفيْ كوراكس استطاع المهندس رؤية صخرةٍ وضع على وسطها إشارة بخط سميكٍ وأبيض اللون.

* * *

«أتيليوس» هو اسم المهندس، واسمه بالكامل «ماركوس أتيليوس بريموس». إلا أنه كان يكفيه اسم «أتيليوس» فقط. فهو رجل عمليّ ولم يملك

twitter @baghdad_library

الوقت لكل هذه الألقاب الفاخرة التي أثارت اهتمام أبناء بلدته ومنها «لوبوس» و«بانتيرا» و«بولتير» أي «ذئب» و«نمر» و«جمال». من يخدعون بحق السماء؟ وعلاوة على ذلك فهل لاسم آخر أن يشعره بفخرٍ وشرفٍ في تاريخ مهنته أكثر من الإسم الذي تحمله «أتيليّا»، عشيرة مهندس القنوات على مدى أربعة أجيالٍ على التوالي؟

لقد عُيّن جد والده من قبل «ماركوس أغريبا» من قسم منجنيق الفيلق الثاني عشر «فولميناتا»، للعمل على بناء قناة «أكوا جوليا». أما جده فصمم قناة «أنيو نوفوس» وأكمل والده بناء «أكوا كلوديا» التي وصلت حتى تلة «إيسكيلين» على مسافة سبعة أميال من الأقواس، وبسطها في يوم تكريسها للآلهة كالسجادة الفضية تحت أقدام الإمبراطور.

والآن تم إرساله، هو الذي يبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً، إلى الجنوب، إلى منطقة «كامبانيا» لتكون قناة «أكوا أوغوستا» في عهدته.

سلالةٌ بأكملها مبنية على المياه!

حدّق بعينيه نصف المغمضتين نحو الظلمة. قناة «أوغوستا»! إنها حقاً تحفة فنية رائعة وأحد أعظم أعمال الهندسة الفذّة. وكان من الفخر أن تبقى في عهدته.

في مكانٍ بعيدٍ في الجهة المقابلة للخليج وعلى مرتفعات جبال صنوبر «إيبينيوس»، ضمت القناة بين أحضانها مياه ينابيع «سيرينوس» وحملتها غرباً. ووجّهتها داخل ممراتٍ متعرّجةٍ تحت الأرض ونقلتها فوق وهادٍ وفوق قناطر مرتفعة، ودفعتها إلى المرور عبر الوديان من خلال تشعّبات ضخمةٍ لتكمل طريقها نحو سهول «كامبانيا» ثم حول جبل «فيسوفيوس» البعيد. وحملتها جنوباً نحو شاطىء «نيابوليس» وأخيراً على طول شبه جزيرة «ميسينوم»، نحو المدينة البحرية المغبّرة. وعلى مدى ستّين ميلاً جرفتها مروراً بمنحدراتٍ حادةٍ بطول إنشين في كلّ مئة ياردة.

كانت هذه القناة الأطول في العالم، وكانت أطول حتى من قنوات روما

العظيمة وأكثرها تعقيداً. فأخواتها في الشمال لم تغذّ سوى مدينة واحدة ولكن قناة «أوغوستا» الأفعوانية تؤمّن المياه لحوالى تسع مدن تقع حول خليج «نيابوليس». فهي تمر أولاً عبر بومبي عند نهاية طريق فرعيةٍ طويلة، ثم تصل إلى «نولا» و«أسيراي» و«أتيلا» و«نيابوليس» و«بوتيولي» و«كيومي» و«بايي» حتى تصل أخيراً إلى «ميسينوم».

وهنا يكمن أساس المشكلة في رأي المهندس. إذ أن القناة تؤمّن المياه للعديد من المدن وتؤمّنها لروما عبر أكثر من ست قنواتٍ، وإن توقّفت إحداها عن العمل يمكن للقنوات الأخرى التعويض عن النقص في المياه. أما هنا فلا وجود لمخزون مياهٍ احتياطيّ خاصة في فترة القحط هذه والتي ما زالت مستمرّةً منذ ثلاثة أشهر. فالآبار التي كان تؤمّن المياه على مدى أجيالٍ مضت تحوّلت إلى أنابيب من الغبار. ونضبت الينابيع كما نضب النهر الذي أصبح قاعه طريقاً يستخدمه المزارعون لنقل بهائمهم إلى السوق. أما قناة "أوغوستا" فقد بدأت تظهر عليها علامات التقادم لأن مستوى مخزونها الضخم من المياه لم يفتأ في تناقصٍ مستمرّ على مدار الساعة.

وهذا ما دفع بالمهندس إلى النهوض قبل بزوغ الفجر قاصداً التلة بدلاً من ملازمة فراشه كالعادة.

أخرج أتيليوس من الكيس المصنوع من الجلد والموضوع على حزامه قطعةً صغيرةً من خشب الأرز المصقول، حفر على أحد جوانبها مكاناً لوضع الذقن. لقد صُقلت الخشبة ولُحفت بعد أن حُفّت بجلد أجداده. فقد قيل إن قطعة الخشب هذه أعطاها «فيتروفيوس» مهندس الملك أغسطس العظيم لجد والده كطلسم، كما أكّد العجوز أن روح اله المياه «نبتون» تعيش داخله. ولكن لا يملك أتيليوس أيّ وقت للآلهة، أولئك الفتية ذوي الأقدام المجنّحة، والنساء الممتطيات الدلافين، والشيوخ الذين يقذفون الصواعق من أعالي الجبال في نوباتٍ من الغضب. كلّها حكايات أطفالٍ ولا تمت إلى الرجال بصلة. كان يؤمن بالحجارة والمياه وبالمعجزة اليومية التي تحصل بعد مزج حصّتين من

twitter @baghdad_library

الكلس مع خمس حصصٍ من الرمل المحلّي الأحمر اللون فتؤدي إلى خلق مادةٍ تقبع تحت المياه بتماسكٍ أصلب من الصخر.

ولكن مع ذلك، فإن الأحمق وحده هو الذي ينكر وجود الحظّ. ولو استطاعت قطعة الخشب هذه التي ورثها أباً عن جد أن تمدّه بذلك... مرّر أصابعه فوق طرف الخشبة، للمرة الأولى سيجرّب كلّ شيء.

ترك مخطوطات «فيتروفيوس» الخاصة به في روما. فالأمر ليس بهذه الأهمية إذ أنّ تعاليمها قد حُفرت في ذهنه منذ نعومة أظافره، كما تعلّم الأولاد الآخرون تعاليم «فيرجيل» الدينيّة. وما زال بمقدوره حتى اليوم تلاوة مقاطع بأكملها غيباً.

هذه هي النباتات التي يجدر بك البحث عنها والتي تشير إلى وجود المياه: السماء، الصفصاف البرّي، جار الماء، الغبيّة اللبلاب وإلى ما هنالك من النباتات التي لا تنبت من دون رطوبة.

قال لهم «أتيليوس» آمراً إيّاهم:

«كوراكس، تعالَ إلى هنا وأنت يا كورفينوس إلى هناك. بيكو خذ العمود وضعه في المكان الذي أدلك عليه. أما أنتما فراقبا المكان جيداً».

نظر كوراكس إليه بنظراتٍ شذرة حين مرّ من جانبه فقال له أتيليوس: «إلى اللقاء».

كان الاستياء بادياً على وجه المراقب بقدر ما تفوح منه رائحة النبيذ. إلا أنّ الوقت كاف أمامهما لتسوية خلافاتهما حين يعودون إلى «مسينوم»، أما الآن فعليهم الإسراع.

ظهرت سحابة رمادية اللون فأخفت النجوم تحتها وغادر القمر مكانه في السماء. وعلى بعد خمسة عشر ميلاً نحو الشرق وفي وسط الخليج، بدأ «جبل فيسوفيوس» المشجّر يتراءى للعيون. ستشرق الشمس من ورائه.

«هكذا تتأكّد من وجود المياه: استلقِ وبطنك على الأرض، راقب منطقة

البحث قبل الشروق بعد أن تسند ذقنك على الأرض. بهذه الطريقة لن يرتفع مستوى النظر أعلى مما يجب إذ أن الذقن ثابتة...

جثا أتيليوس على العشب المحروق ثم انحنى إلى الأمام ووضع في صف واحدٍ قطعة الخشب على بعد خمسين خطوة من الإشارة الموضوعة على الصخرة. بعدها أسند ذقنه على الأرض وبسط ذراعيه. كانت الحرارة لا تزال تتصاعد من التربة جرّاء حرائق الأمس.

تطاير الرماد إلى وجهه حين تمطّى على الأرض. لا أثر للندى. سبعون أو ثمانون يوماً من الجفاف. العالم بأكمله يحترق! و«كوراكس» ينظر بطرف عينيه وهو يقوم بحركةٍ نابية ويقول:

ـ «لا زوجة لأكواريوس لذلك تراه يحاول مضاجعة أمّنا الأرض!»

نظر إلى اليمين فرأى جبل فيسوفيوس قاتماً فيما أسدلت الشمس بعضاً من خيوطها عند حافّته. فكان عليه رفع يده ليقي وجهه من شدة الضياء وهو ينظر بعينين نصف مغمضتين إلى جانب التلّ.

احفر في الأماكن التي تستطيع فيها رؤية المياه تتبخّر وترتفع بكثافة في الهواء، فهذا دليل لا يمكن أن يظهر في الأماكن الجافة...

«ها قد رأيت الإشارة سريعاً» أو «لم ترها على الإطلاق!» هذا ما كان يردده والده دائماً أمامه.

حاول مسح الأرض بسرعةٍ ونظامٍ محوّلاً نظره من بقعة أرضٍ إلى أخرى. بيد أن الأرض بأكملها بدت على الصورة نفسها: أعشابٌ محروقةٌ بنية ورمادية اللون، وخطوط من التربة الحمراء بدأت تتهدّج تحت أشعة الشمس.

أضحت الرؤية غير واضحةٍ، فرفع نفسه على مرفقيه وفرك عينيه بسبّابته ثمّ ثبت ذقنه مجدداً.

هناك!

كان البخار الذي يتصاعد دقيقاً للغاية وكأنّه خيط صنّارة الصيد. لم يكن

twitter @baghdad_library

يرتفع بكثافة كما قال «فيتروفيوس» بل على العكس كان يرشح قريباً من الأرض فبدا وكأنه خطافٌ عالقٌ في صخرةٍ وأحدهم يحاول التلاعب به. صعد البخار بتعرّجٍ ناحيته ثم توارى عن الأنظار فصرخ المهندس وأشار إلى المكان وقال: «هناكَ يا بيكو» هناك!»

تحرك نحّات الجص إلى البقعة المنشودة بتثاقل. أضاف أتيليوس:

«إرجع قليلاً. أجل هناك. ضع إشارة في ذلك المكان».

وقف المهندس على رجليه ثم هرع مندفعاً إلى مكان وقوف الرجال وهو يزيل الغبار الأحمر والرماد الأسود عن ثوبه الإغريقيّ ويبتسم وهو يحمل قطعة خشب الأرز السحرية. اجتمع الرجال الثلاثة حول المكان بينما كان بيكو يحاول إدخال العمود في الأرض، بيد أنّها كانت صلبة للغاية فتعذّر غرسه في الأرض بعمق.

قال أتيليوس مبتهجاً بالنصر:

ـ «أرأيتموه؟ لا بدّ أنكم رأيتم البخار فقد كنتم أقرب منّي إليه!»

نظروا إليه بعيونٍ خاليةٍ من التعبير فأضاف:

ـ «كان لافتاً للنظر. هل لاحظتم ذلك؟ وارتفع بهذا الشكل».

وقام بسلسلةٍ من الحركات القصيرة بشكلٍ أفقيٍّ بمسطّح يده وأردف:

«إنه كالبخار المتصاعد من مرجلٍ قام أحدهم بهزّه».

انتقل بعينيه من رجلٍ إلى آخر. في البدء كانت الابتسامة مرتسمة على محياه ثمّ بدأت تتلاشى تدريجياً.

هزّ «كوراكس» برأسه وقال:

ـ «إنّ عينيك تخدعانك أيها الفتى. سبق أن قلت لك إنه لا وجود لأيّ نبعٍ هنا فأنا ضليعٌ بهذه التلال منذ أكثر من عشرين عاماً.

وأضاف وهو يدوس برجله على العشب الجاف مكوّناً غيوماً من الغبار:

ـ «أمّا بالنسبة إلى الدخان، فيمكن لحريق الأدغال أن يبقى مندلعاً تحت الأرض لأيّامٍ وأيّام».

أجابه أتيليوس:

ـ «أعرف الفرق ما بين الدخان والبخار، وما رأيته كان بخاراً؟

إنّهم يتظاهرون بالعمى. لا بد أنّ هذا ما يفعلون.

جثا أتيليوس على ركبتيه وربّت على التراب الأحمر، وبدأ يحفر بيديه العاريتين مزيلاً بأصابعه الحجارة التي تعترض طريقه. واجه صعوبةً وهو يحاول التخلّص من درنةٍ مفحّمةٍ أبت التنازل عن مكانها. لقد ظهر شيء ما هنا. إنه متيقن من ذلك وإلا فكيف عادت نبتة اللبلاب إلى الحياة بهذه السرعة لولا وجود النبع!

قال من دون أن يدير ظهره:

«أحضر العدّة يا «أكواريوس»

«ولكن أيها الساقي!»

«قلتُ أحضر العدّة!»

* * *

حفروا وحفروا طوال الصباح وكانت الشمس تزحف ببطءٍ فوق زرقة مياه الخليج الحارّة فتحوّلت من قرصٍ أصفر مشعٍّ إلى نجم أبيض غازي. ومن شدة القيظ صرّت الأرض كوتر قوس إحدى آلات حصاد جدّه الضخمة.

مرّ ولدٌ بالقرب منهم وهو يجرّ عنزةً هزيلةً بواسطة رسنٍ ناحية البلدة. لم يروا شخصاً غيره، وحتّى ميسينوم ذاتها كانت متواريةً عن الأنظار، قابعةً خلف حافّة الجرف. إلا أنّ أصواتاً قادمةً من البلدة كانت تتناهى إلى مسامعهم بين الفينة والأخرى كالأوامر الصادرة من المدرسة العسكريّة وأصوات المطارق والمناشير من المسفن.

twitter @baghdad_library

كان أتيليوس يعتمر قبّعةً قديمةً من القشّ يحمي بها وجهه، وكان أكثر من يقوم في العمل بينهم. فقد استمرّ في الحفر حتّى حين كان الآخرون يتوقّفون عن عملهم في بعض الأحيان ليتمدّدوا تحت أيّ فيءٍ يجدونه. وكان مقبض الفأس ينزلق من يديه جرّاء عرقه المتصبّب فأمسى حمله يزداد صعوبةً كما بدأت القروح تتشكّل في راحة يده. أمّا رداؤه فالتصق بجسده حتى غدا جلده الثاني، ولكنّه لم يظهر الضعف أمام الرجال. وبعد فترةٍ حتّى «كوراكس» ذاته كفّ عن الكلام.

في النهاية توصلوا إلى استحداث حفرة بعمق ضعفيْ طول الرجل، وتتسع لشخصين منهم كي يعملا فيها. وكان هناك ينبوع فعلاً، ولكنه كان يرتد إلى الوراء كلما قاربوا إلى الوصول إليه. فتراهم يواصلون الحفر، فتلحق الرطوبة بالتراب الأحمر الموجود في قعر الحفرة. ولكنه ما يلبث أن يجف من جديد بفعل حرارة الشمس الشديدة، فيعمدون إلى حفر طبقة أخرى، فيتكرر الأمر ذاته.

لم يعترف أتيليوس بالهزيمة حتى حلول الساعة العاشرة بعدما تعرضوا لأقصى درجات الحرارة. فأخذ يراقب آخر بقعة رطوبة وهي تتبخر وتضمحل، ثم ضرب بفأسه مثبتاً إياها على حافة الحفرة وسحب نفسه إلى الأعلى. نزع قبعته عن رأسه وأخذ يهوّي بها وجنتيه المحترقتين. أما كوراكس فجلس على صخرة وأخذ يراقبه. وللمرة الأولى لاحظ أتيليوس أن كوراكس لا يعتمر قبعة، فقال:

«قد يذوب دماغك بفعل هذه الحرارة الشديدة من دون قبعة».

فتح قِربة الماء وسكب بعضاً منه في يده، ورشه على وجهه وعلى مؤخر عنقه، ثم شرب. كانت المياه ساخنة جداً، لذا لم تنعشه البتة حيث أحس وكأنه يشرب الدماء.

«لقد وُلدت في هذا المكان، لذا فالحر لا يزعجني. في كامبانيا نعتبر هذا الطقس بارداً».

ثم تنخّع كوراكس وبصق ورفع ذقنه العريض مشيراً ناحية الحفرة: «ماذا عسانا نفعل بهذه الحفرة؟»

حدّق أتيليوس بالحفرة التي شكّلت فراغاً بشعاً على جانب التل، حيث يحيط بها كومات كبيرة من التراب. إنها تمثاله ونتاج غباوته. فقال: «سنتركها على حالها. غطوها بالألواح الخشبية، وعندما يهطل المطر سيرتفع الينبوع، سترون».

«عندما يهطل المطر سوف لن نحتاج إلى ينبوع».

كانت فكرة سديدة، مما اضطر أتيليوس إلى موافقته الرأي.

بعد برهة من التفكير أضاف: «بوسعنا أن نمد أنبوباً منها».

كان أتيليوس يتسم بالرومانسية فيما يتعلق بالمياه. إذ أخذ فجأة يرتسم في مخيلته مشهد قروي ساحر: «بوسعنا ري هذه الجانب بأكمله من التل. وقد نزرع أشجار ليمون وزيتون هنا. ويسعنا تحويل الأرض إلى مصاطب، ويمكن لنا أن نزرع أيضاً كروماً من العنب. .».

قال كوراكس: «عنب!» ثم هز برأسه مستنكراً: «إذاً بتنا مزارعين الآن! إسمعني أيها الخبير الغضّ الآتي من روما ودعني أطلعك على شيء. لم تفشل قناة أكوا أوغوستا في جر المياه منذ ما يناهز قرن من الزمن. وسوف لن تفشل الآن، حتى وأنت مسؤول عنها».

«نأمل ذلك». أنهى المهندس شرب آخر قطرة من المياه. كان يشعر أن وجنتيه تحمرّان خجلاً نتيجة للمهانة التي تعرّض لها، ولكن أفلحت شدة الحرارة بإخفاء شعوره بالخزي. وضع قبعة القش على رأسه وثبتها في مكانها وأنزل طرفها إلى الأمام ليقي وجهه من أشعة الشمس: «حسناً يا كوراكس، إجمع الرجال. لقد فرغنا من العمل هنا لهذا اليوم».

ثم جمع معداته وانطلق دون انتظار البقية، إذ بوسعهم إيجاد طريق العودة بأنفسهم.

وجب عليه أن يحاذر أين يطأ قدماه، فمع كل خطوة تنطلق مجموعة من السحليات ثم تتجه إلى باطن الأرض الجاف. فبدا له أن المكان أشبه بإفريقيا

twitter @baghdad_library

منه بإيطاليا، وعندما وصل إلى الطريق الساحلية ظهرت ميسينوم تحتها تتلألأ تحت سديم القيظ وكأنها واحة صحراوية، حيث تضج فيها ـ أو هكذا تراءى له- أصوات حشرات الصرصار.

كانت مقرات الأسطول الإمبراطوري الغربي تعتبر بمثابة انتصار للإنسان على الطبيعة. بيد أنه بحكم طبيعة المكان لا يمكن لأية بلدة التواجد فيه. ذلك أنه ليس ثمة نهر يمد السكان بالمياه، ما خلا بعض الآبار أو الينابيع. وبالرغم من ذلك، قرر أوغوستوس العظيم أن الإمبراطورية بحاجة إلى ميناء، تبسط عبره سيطرتها على البحر المتوسط. وها هي ذا، تجسيد للقوة الرومانية: الأطراف المدوّرة الفضية المتلألئة لمرافئها الداخلية والخارجية. السفن الحربية الخمسون التي تتلألأ مقدماتها الذهبية وذيولها المروحية الشكل تحت أشعة شمس العصر. وأرض المدرسة العسكرية البنية المغبّرة الخاصة بالاستعراضات. والسقوف المرصوفة بالقرميد الأحمر والجدران البيضاء للمدينة المتحضّرة ترتفع فوق غابة من الصواري الكثيفة في المسفن.

لقد جُمع في قطعة الأرض الضيقة هذه، حيث ليس ثمة مياه عذبة تُذكر، عشرة آلاف بحّار وعشرة آلاف مواطن. ووحدها قناة جر المياه جعلت الحياة ممكنة في ميسينوم.

أخذ يفكر من جديد في البخار الذي تصاعد من الحفرة، وكيف بدا له أن النبع يرتد عائداً إلى الصخور. يا لغرابة هذا البلد! ثم نظر بندم إلى يديه المتقرحتين.

«مغامرة سخيفة».

هز برأسه رافضاً الفكرة، وطَرَفَ بعينيه ليبعد العرق عنهما، ثم واصل السير بتثاقل إلى البلدة.

أورا أنديسيما

الساعة ١٧:٤٢

من المهم في عملية رصد البراكين والتنبؤ بثورانها معرفة المدة الزمنية الفاصلة بين تكوّن حمم جديدة والثوران الناجم عن ذلك. في العديد من البراكين يمكن قياس هذه المدة الزمنية بالأسابيع أو الأشهر، ولكن في براكين أخرى تبدو المدة الزمنية أقصر بكثير حيث يمكن أن تكون أياماً أو ساعات.

علم البراكين (الطبعة الثانية)

في فيللا أورتنسيا، تلك الدار الساحلية الرائعة الواقعة على الأطراف الشمالية لمدينة ميسينوم، كانوا يتحضرون لإعدام عبد، بأن يطعموه لأسماك الأنقليس.

لم تكن ممارسة خارجة عن المألوف في ذلك الجزء من إيطاليا حيث يوجد في العديد من المنازل الضخمة على امتداد خليج نيابوليس مزارع سمك مميزة وخاصة بها. سمع المالك الجديد لفيللا أورتنسيا، المليونير نوميريوس بوبيديوس أمبلياتوس، أول مرة بالقصة عندما كان فتى صغيراً، إنها قصة الأرستقراطي الأوغوستي فيديوس بوليو الذي كان يرمي بالخدم غير الرشيقين في بحيرة الأنقليس خاصته كعقاب لهم جراء كسرهم أطباقاً. ولطالما كان يرمز إلى هذا الفعل بكل إعجاب كونه أفضل تعبير عن التحلي بالسلطة. السلطة والخيال والدهاء والأسلوب المميز.

twitter @baghdad_library

لذا وبعد مرور العديد من السنوات وعندما تسنى لأمبلياتوس أيضاً امتلاك مسمكة ـ لا تبعد سوى بضعة أميال عن منزل فيديوس بوليو القديم في بوسيليبون على الخط الساحلي ـ وعندما أتلف أحد عبيده غرضاً ذا قيمة كبيرة، بطبيعة الحال تبادرت هذه السابقة إلى ذهنه. لقد وُلد أمبلياتوس نفسه عبداً، وقد اعتقد أن على الأرستقراطي التصرف بهذه الطريقة.

تم تجريد الرجل من جميع ملابسه إلى حد الملابس الداخلية، ورُبطت يداه إلى الوراء، ثم تم سوقه نزولاً حتى الحافة المطلة على البحر. قاموا بجرح ربلتي ساقيه بالسكين لإحداث نزيف من الدم يجذب انتباه سمك الأنقليس. كما تم أيضاً رشه بالخل إذ يُقال أنه يثير جنون هذه الأسماك.

تم ذلك في وقت متأخر من العصر وكان الجو حاراً جداً.

كانت أسماك الأنقليس موجودة في حوض ضخم خاص بها، وقد بُني بعيداً جداً عن أحواض الأسماك الأخرى لكي تبقى معزولة عنها. ويمكن الوصول إلى هذا الحوض عبر ممر إسمنتي ضيق ممتد في الخليج. كانت هذه الأسماك من نوع أبو ذقن التي يُعرف عنها ضراوتها، حيث يماثل طولها طول الرجل ويماثل عرضها عرض جذعه، ورأسها مسطح، وأسنانها حادة، وخطمها عريض. بُنيت مسمكة الفيللا منذ مئة وخمسين عاماً ولا أحد يعلم عدد الأسماك التي تقبع في شبكة الأنفاق المعقّدة وفي المساحات المخفية المبنية في قعر الحوض. لا بد وأنه يوجد أعداد كبيرة منها، ربما المئات. إن الأسماك الأكبر سناً عبارة عن وحوش ويوجد على العديد منها مجوهرات. وهناك سمكة تحمل قرطاً ذهبياً مثبتاً على زعنفتها الصدرية، يُقال أنها كانت السمكة المفضلة لدى الإمبراطور نيرون.

كانت أسماك أبو ذقن هي أكثر ما يثير الرعب في قلب ذاك العبد، لأنه يتحمّل منذ وقت طويل مسؤولية إطعامها، وقد أخذ أمبلياتوس يسخر من واقع هذا الأمر. لذا كان العبد يصرخ ويكافح حتى قبل سوقه على الممر. فقد اعتاد كل صباح على رؤية كيفية تحرك الأسماك عندما كان يرمي لها وجبتها المكوّنة من رؤوس الأسماك وأحشاء الدجاج، وكان يرى كيف يموج سطح المياه عندما

تستشعر الأسماك وجود الدم، وكيف كانت تخرج مسرعة من مخابئها لتتقاتل على الطعام ثم لا تلبث أن تقطّعه إرباً.

في الساعة الحادية عشرة وبالرغم من اشتداد القيظ، خرج أمبلياتوس نفسه من الفيللا ومشى الهوينى متوجّهاً للمشاهدة، وكان يرافقه ابنه المراهق سيلسينوس إضافة إلى مدبر منزله سكوتاريوس، وبعض زبائنه (الذين لحقوا به من بومبي ومكثوا في جواره منذ الفجر بانتظار تناول العشاء)، ومجموعة من عبيده الذكور تقارب المئة حيث قرر أمبلياتوس أنهم سيتعظون من مشاهدة هذا الحدث. وقد أمر أن تظل زوجته وابنته داخل المنزل، إذ إن هذا المشهد ليس مناسباً للنساء. تم تجهيز كرسي ضخم له إضافة إلى كراسي أخرى أصغر حجماً من أجل الضيوف. ولم يكن امبلياتوس يعرف اسم هذا العبد الضال، فقد جاء مع أحواض السمك ضمن الصفقة عندما ابتاع الفيللا مقابل عشرة ملايين في وقت سابق من السنة.

تضم الأحواض جميع أصناف السمك وتمتد على طول الشاطئ الذي يطل عليه المنزل، حيث هناك سمك القاروس البحري بلحمه الأبيض السميك، وسمك البوري الرمادي الذي تطلّب جدراناً عالية حول حوضه لمنعه من القفز عنه ومبارحته، والسمك المفلطح، والسمك الببغائي، والسمك العريض، وسمك الجُلكا، وسمك القنجر، وسمك النازلي.

ولكن أغلى كنوز أمبلياتوس البحرية على الإطلاق والتي تجعل بدنه يرتجف لدى التفكير في المبلغ الذي دفعه ثمناً لها، بالرغم من أنه لا يحب السمك أصلاً، هي أسماك البوري الأحمر، أي سمك أبو ذقن ذاك الجميل الشكل، والذي يُعرف عنه صعوبة تربيته وتتدرج ألوانه من اللون الزهري الفاتح إلى اللون البرتقالي. وهذه الأسماك بالتحديد هي التي أقدم العبد على قتلها، ولم يكن أمبلياتوس يعرف أو يأبه إن كان العبد قد قتل هذه الأسماك نتيجة سبق إصرار وتصميم أو نتيجة للإهمال، ولكن ها هي ذا مجمّعة حول بعضها البعض بعد أن فارقتها الحياة كما كانت تتجمع وهي على قيد الحياة، وكأنها سجادة متعددة الألوان طافية على سطح حوضها، وقد اكتُشف أمرها في وقت سابق من عصر

twitter @baghdad_library

ذاك اليوم. كانت بضعة أسماك منها لا تزال على قيد الحياة عندما عُرض هذا المشهد على أمبلياتوس، ولكنها ما لبثت أن نفقت وهو يشاهدها وقد أخذت تتلوى كأوراق الشجر في قعر الحوض، ثم طفت على السطح لتنضم إلى الأسماك الأخرى. لقد نفقت كل هذه الأسماك بفعل التسمُّم. وكانت كل واحدة من هذه الأسماك لتعود على أمبلياتوس بستة آلاف بأسعار السوق الراهنة، حيث تساوي سمكة بوري واحدة خمسة أضعاف ثمن العبد البائس الذي كان يُفترض به العناية بها. والآن لم تعد تنفع شيئاً عدا الحرق. لقد أصدر أمبلياتوس الحكم على الفور: «إرموه لسمك الأنقليس!»

راح العبد يصرخ وهم يقتادونه ناحية حافة الحوض، وكان يصيح قائلاً: إن الذنب ليس ذنبه وإن الطعام ليس السبب في موتها، بل إن المياه هي السبب. فليبعثوا وراء الساقي.

الساقي!

حدّق أمبلياتوس في سطح البحر الساكن. كان يصعب عليه تمييز شكل العبد الذي يتلوّى خوفاً والعبدين الآخرين اللذين يمسكان به أو العبد الرابع الذي كان يحمل خُطّافاً للقوارب أشبه بالرمح وكان يغرسه في ظهر الرجل المحكوم عليه بالموت. لم يكن أمبلياتوس يراهم سوى أشكال عمودية مظللة تحت سديم الحرارة الشديدة والأمواج المتلألئة. رفع يده كما يفعل الأمبراطور، وهو يطبق قبضة يده، وإبهامه مواز للأرض. شعر بنوع من الألوهية في سلطته ومع ذلك كان مفعماً بالحشرية البشرية البسيطة. انتظر لوهلة من الوقت وهو يتمتع بطعم هذا الإحساس، ثم فجأة فتل معصمه ورفع إبهامه إلى الأعلى. ارموه!

* * *

تعالت صرخات العبد المترنّح على حافة حوض أسماك الأنقليس من أمام الواجهة البحرية وسارت على المصاطب وفوق حوض السباحة وخرقت سكون المنزل حيث كانت المرأتان تختبئان.

هرعت كوريليا أمبلياتا إلى غرفتها ورمت بنفسها على السرير، ووضعت

الوسادة على رأسها. ولكنها عجزت عن تفادي سماع الصرخات المتعالية. كانت على عكس والدها تعرف اسم العبد، إنه يوناني يُدعى هيبوناكس، كما كانت تعرف اسم والدته التي تدعى آتيا وتعمل في المطبخ والتي بدا صوت نواحها عندما بدأت تندب ابنها أفظع من أصوات صراخه. وعندما عجزت عن تحمّل سماع الصراخ أكثر من بضع لحظات، عاودت النهوض وأخذت تركض في أرجاء الفيللا المهجورة ساعية إلى إيجاد المرأة النائحة التي كانت قابعة بجانب عمود في الحديقة المعزولة.

عندما وقعت عينا آتيا على كوريليا خرّت على أطراف ثوبها وبدأت بالعويل غند قدميها اللتين كانت تنتعل فيهما خفين. وأخذت تقول مراراً وتكراراً إن ابنها بريء وإنه صرخ لها قائلاً لدى اقتياده إن المياه هي السبب. المياه. ثمة خطب في المياه، فلِمَ لا يستمع إليه أحد؟

ربّتت كوريليا على شعر آتيا الذي يشتعل شيباً وحاولت أن تصدر أصوات مؤاساة قدر الإمكان. لم يكن بيدها القيام بما هو أكثر من ذلك. فقد كانت تدرك جيداً أن لا جدوى من التوجّه إلى أبيها والتماس الرحمة منه. فهو لا يصغي إلى أحد، وخصوصاً النساء، ومن بينهن ابنته التي يتوقع منها الطاعة المطلقة، وأي تدخل منها سيؤكد موت العبد أكثر. وأمام التماسات آتيا لم تجد ما تقوله لها سوى أن ما بيدها حيلة.

وبعد هذا الجواب الذي لقيته من كوريليا، انتفضت المرأة المسنّة التي كانت في واقع الأمر في الأربعينات من عمرها. ولكن باعتقاد كوريليا تماثل دورة حياة العبيد دورة حياة الكلاب، ولذلك بدت لها آتيا على الأقل في الستينات من عمرها. وفجأة ابتعدت عن كوريليا ومسحت دموعها بذراعها بعنف:

«يجدر بي البحث عن المساعدة».

قالت كوريليا بلطف: «آتيا. آتيا من الذي سيمد لك يد العون؟»

«لقد نادى طالباً إحضار الساقي. ألم تسمعيه؟ يجدر بي جلب الساقي».

twitter @baghdad_library

«وأين هو؟»

«قد يكون في قناة جر المياه الموجودة أسفل التل حيث يعمل المراكبيون».

ثم وقفت آتيا على رجليها وهي ترتجف ولكن يملؤها التصميم، وكانت تتلفت حول نفسها بجموح. كانت عيناها حمراوتين وثوبها وشعرها في حالة فوضى. بدت أشبه بامرأة مجنونة، وقد أيقنت كوريليا على الفور أن أحداً لن يلقي لها أي بال. سوف يضحكون عليها، أو سيرمونها بالحجارة لإبعادها عن وجههم.

فقالت لها: «سوف آتي معك». وبعد سماع صرخة فظيعة أخرى صدرت من ناحية الواجهة البحرية لملمت كوريليا أطراف ثوبها بيد وأمسكت معصم المرأة المسنّة باليد الأخرى، وركضتا سوياً في الحديقة. مرّتا بمحاذاة كرسي البواب الفارغة، ثم خرجتا من الباب الرئيسي وباتتا في الشارع العام تحت حرارة الشمس القوية.

* * *

إن نهاية قناة أكوا أوغوستا عبارة عن خزان أرضي ضخم يبعد بضع مئات من الخطوات جنوب فيللا أورتنسيا، قابع على المنحدر ويطل على المرفأ ويُعرف منذ أمد بعيد بِـ (بيسينا ميرابيليس) أو حوض المعجزات.

عندما ينظر المرء إليه من الخارج لا يجده مميزاً جداً. ويمر معظم سكان ميسينوم بمحاذاته دون إلقاء نظرة ثانية عليها. إنه يبدو على السطح مبنى منخفض الارتفاع وسقفه مسطّح ومغطى بالقرميد الأحمر ويزينه نبات اللبلاب المعترش الأخضر. يبلغ طوله طول مبنى مدني وعرضه بعرض نصف مبنى، ويحيط به المحال والمخازن والحانات والشقق ويتوارى في الشوارع الخلفية المغبّرة فوق القاعدة البحرية.

لا يمكن سماع الهدير المتوسطي العميق الناجم عن تدفّق المياه إلا ليلاً حينما تخفت أصوات الناس وأصوات صرخات التجار. ولا يسعك تقدير روعة هذا الخزان العظيم إلا إذا دخلت إلى الباحة وفتحت الباب الخشبي الضيق

ونزلت بضع خطوات إلى البيسينا نفسه. إن السقف المقنطر مدعّم بثمانية وأربعين عموداً، يبلغ ارتفاع كل عمود خمسين قدماً، رغم أن مياه الخزان تغمر معظم طول الأعمدة. ويعتبر صدى صوت المياه التي تتدفّق على السطح كافياً لدبّ الرجفة في عظام المرء.

أحب ما على قلب المهندس أن يقف هنا ويستمع إلى هذا الصدى لساعات غارقاً في بحر أفكاره. إن أصوات تدفق المياه في قناة الأوغوستا لا يقع على أذنيه كمجرد هدير متواصل ومضجر بل كنوتات جسم مائي ضخم: إنها موسيقى التحضّر. يوجد فتحات تهوئة في سقف البيسينا، وعند فترات العصر عندما تتطاير قطرات الزبد وسط أشعة الشمس وتتراقص أقواس القزح بين الأعمدة، أو عند فترات المساء عندما يتم إقفال المكان وتعكس النار التي تشتعل على مشعله نورها على سطح المياه الأملس وكأنها الذهب الذي يُرشَّش على خشب الأبنوس، في هذه اللحظات بالتحديد يشعر أنه ليس موجوداً في خزان على الإطلاق وإنما في معبد مكرّس للإله الأوحد الذي يستحق الإيمان به.

في بداية الأمر كان أتيليوس يبتغي بنزوله عن التلال ودخوله إلى الباحة في نهاية فترة العصر تفقد مستوى المياه في الخزان، فقد بات ذلك هوسه. ولكن عندما حاول فتح الباب وجده موصداً، ثم تذكّر أن كوراكس يحمل المفتاح في حزامه. كان منهك القوى لذا عدل عن فكرته. كان بوسعه سماع هدير الأوغوستا البعيد فتأكد أن المياه لا تزال تتدفق وهذا جل ما يهم. ولاحقاً عندما عمد إلى تحليل أفعاله توصّل إلى الاستنتاج بأنه لا يسعه لوم نفسه على أي تقصير في العمل، فما كان بيده فعل أي شيء. صحيح أن الأمور كانت ستنقلب منقلباً آخر بالنسبة إليه على الصعيد الشخصي، ولكن ليس لهذا الأمر أهمية كبيرة في سياق الأزمة الأوسع.

لذا ولّى مدبراً عن البيسينا وأخذ يحدق في أرجاء الباحة المهجورة. كان قد أمر في الليلة الماضية أن يُصار إلى ترتيب المكان ومسحه خلال غيابه، وقد شعر بالسرور لكون الأمر قد تحقّق، إذ إن منظر الباحة المنظمة يبعث الراحة في نفسه، فقد اعتاد في طفولته على رؤية مناظر الصفائح المعدنية المكدّسة فوق

twitter @baghdad_library

بعضها البعض بترتيب، وكذلك قوارير الكلس الضيّقة العنق، وأكياس الرمل المحلي الأحمر، وأنابيب التراكوتا الحمراء الطويلة. كما كان معتاداً على اشتمام الروائح أيضاً مثل رائحة الكلس الحادة، وغبرة الصلصال الحراري المتروك طيلة النهار تحت حرارة الشمس.

توجّه إلى المخزن، وأنزل على أرضه الترابية معداته. فتل كتفه الذي يؤلمه، ثم مسح وجهه بكم قميصه، وعاود الدخول إلى الباحة في الوقت الذي وصل فيه الآخرون. توجّهوا مباشرة ناحية نافورة الشرب دون تكليف نفسهم عناء إلقاء التحية عليه، وتداوروا على شرب الماء ورش رؤوسهم وأجسادهم، كوراكس ثم موسى ثم بيكو. أما العبدان فقد جلسا القرفصاء في الظل منتظرين الرجال الأحرار حتى يفرغوا. أدرك أتيليوس أنه أثار حفيظتهم طيلة النهار، ولكن بالرغم من ذلك لا يزال يستطيع التعايش مع عدائيتهم، فقد سبق له أن تعايش مع أوضاع أكثر سوءاً.

نادى كوراكس قائلاً له إن بوسع الرجال الكف عن العمل لهذا اليوم، فلم يلقَ منه سوى انحناءة ساخرة. ثم أخذ يصعد على السلّم الخشبي الضيّق متوجّهاً إلى مقر إقامته.

كانت الباحة رباعية الزوايا، حيث أن جهتها الشمالية هي عبارة عن جدار (البيسينا ميرابيليس)، أما جنوباً وغرباً فيوجد مخازن ومكاتب القناة الإدارية، وشرقاً يوجد مقر السكن: مسكن للعبيد في الطابق الأرضي، وفوقه شقة للساقي. أما كوراكس والرجلان الحران الآخران فيعيشون في البلدة مع عائلاتهم.

فكّر أتيليوس الذي خلّف والدته وأخته وراءه في روما أنه بعد حين ربما ينقلهما إلى ميسينوم أيضاً ويستأجر منزلاً ترعاه له والدته. ولكن في الوقت الراهن، فإنه ينام في غرفة العزّاب الضيّقة التي كانت لسلفه إكزومنيوس الذي كان لديه بضعة أغراض طلب أتيليوس نقلها إلى الغرفة الإضافية الصغيرة الموجودة في نهاية الممر.

ما الذي حدث لإكزومنيوس؟ كان هذا السؤال هو الأول الذي طرحه أتيليوس عندما وصل إلى المرفأ. ولكن لم يمتلك أحد الجواب على هذا السؤال أو إن كانوا يمتلكون الإجابة فإنهم عزفوا عن مده بها. كانت جميع تساؤلاته تلقى صمتاً مطبقاً. وبدا أن إكزومنيوس المسن وهو رجل صقليّ تولى إدارة قناة أوغوستا لحوالي عشرين سنة قد عمد منذ ما يناهز الأسبوعين وبكل بساطة إلى مغادرة المكان صباحاً ولم يُسمع عنه شيء منذ ذلك الوقت.

في الأحوال الطبيعية كانت دائرة الوصاية على الموارد المائية في روما التي تدير شؤون القنوات الموجودة في المنطقتين رقم واحد واثنين (لاتيوم وكامبانيا) تترك الأمور على حالها لبعض الوقت. ولكن نظراً لحالة الجفاف الحاصلة، وأهمية الأوغوستا الاستراتيجية، وواقع أن مجلس الشيوخ قد توجه إلى قضاء العطلة الصيفية في الأسبوع الثالث من تموز وتواجد نصف أعضائه في فيللاتهم الصيفية حول الخليج تمّ تعيين بديل على الفور. تسلم أتيليوس قرار الاستدعاء في الثالث عشر من شهر آب عند فترة الغسق لدى إتمامه لبعض أعمال الصيانة الروتينية في أونيو نوفوس. وبحضور الوصي على الموارد المائية نفسه، أسيليوس أفيولا ، في مقره الرسمي الواقع على تلة بالاتين، تم تكليفه بهذه الوظيفة. يتمتع أتيليوس بالذكاء والحيوية والتفاني في العمل، وقد كان السيناتور يدرك كيف يمن على الرجل بالإطراءات عندما يبتغي منه غرضاً ما، وخصوصاً أنه ليس لديه زوجة أو أطفال ليبقوه في روما. هل بوسعه المغادرة في اليوم التالي؟ بالطبع وافق أتيليوس على الفور، إذ إنها فرصة هائلة لتحسين حياته المهنية. ودّع عائلته وغادر على متن العبارة اليومية من أوستيا.

كان قد بدأ بكتابة رسالة لوالدته وأخته، وقد وضعها على الطاولة المجاورة للسرير الخشبي الصلب. إنه ليس ماهراً جداً بكتابة الرسائل، لذلك ضمّنها معلومات روتينية: لقد وصلت، والرحلة كانت آمنة، والطقس حار. وقد كتب هذه الجمل بخط يده غير المرتّب وهذا جل ما استطاع إليه سبيلاً. لم تتضمن هذه الرسالة أية إشارة إلى الارتباك الذي يعتمل في نفسه: الشعور الثقيل بالمسؤولية، ومخاوفه حول النقص في المياه، وعزلة وظيفته. ولكنهما امرأتان،

twitter @baghdad_library

لذا أنّى لهما معرفة مثل هذه الأمور؟ كما أنه تعلم أن يعيش حياته وفق المدرسة الرواقية التي تقضي بوجوب عدم تضييع الوقت على الأمور التافهة، وقيام المرء بعمله دون أي تذمّر، وأن يكون المرء على حاله في جميع الظروف سواء أكانت ألماً شديداً أو حداداً على فقد شخص مقرب أو المرض، إضافة إلى حفاظ المرء على بساطة أسلوب حياته: سرير صغير قابل للطي والنقل وعباءة.

جلس على حافة السرير. وكان العبد الذي يُعنى بتدبير شؤون شقته ويدعى فيلو قد ترك له إناء من الماء وطشتاً صغيراً، إضافة إلى بعض الفاكهة ورغيف خبز وإبريق من النبيذ وقطعة من الجبن الأبيض الصلب. غسل نفسه بانتباه وتناول جميع الطعام، ومزج بعض النبيذ بالماء وشربه. ثم استلقى على السرير إثر شعوره بالإنهاك الشديد مما منعه حتى عن إبعاد حذائه وقميصه جانباً وأغمض عينيه، وانتقل على الفور إلى تلك المنطقة الفاصلة بين النوم والصحو التي تهيم فيها زوجته المتوفية على الدوام، وسمع صوتها يناديه بنبرة استدعاء طارئ: «أيها الساقي! أيها الساقي!»

* * *

كانت زوجته تبلغ الثانية والعشرين من عمرها فحسب عندما أخذ يشاهد جثتها تُساق لتُضرم فيها النيران كنوع من الطقس الجنائزي. أما هذه المرأة فإنها أصغر سناً من زوجته، ربما تبلغ الثامنة عشرة من العمر. ومع ذلك، فقد أخذ قلبه يخفق بقوة لأنه لا يزال هناك ما يكفي من الحلم عالقاً في ذهنه، كما أن هناك ما يكفي من الاشتباه بين سابينا وتلك الفتاة الموجودة في الباحة. إنهما تمتلكان لون الشعر الأسود نفسه، وبياض البشرة نفسه، وسحر القامة نفسه. كانت واقفة تحت نافذته وتنادي باسمه:

«أيها الساقي!»

جذبت أصوات الصراخ العالية بعض الرجال من الظلال وعند وصوله إلى آخر السلالم كانوا قد شكلوا نصف دائرة حولها. كانت ترتدي فستاناً أبيض واسعاً مكشوفاً جداً عند منطقة الرقبة والأكمام. إنه رداء يليق ارتداؤه في

المجالس الخاصة حيث يكشف بياض ذراعيها وصدرها إلى درجة لا يجدر بسيدة محترمة كشفه أمام الناس. انتبه إلى أنها ليست وحدها، إذ ترافقها عبدة، وهي امرأة مسنّة نحيفة تدب فيها الرجفة، وشعرها الذي يشتعل شيباً نصفه مرفوع إلى الأعلى ونصفه مسدل على ظهرها.

كانت الفتاة مخطوفة الأنفاس وتبربر كلاماً له علاقة بحوض من أسماك أبو ذقن الحمراء نفقت عصر ذاك اليوم في مسمكة والدها، وبسمٍّ في الماء، ورجل سيُرمى لأسماك الأنقليس، وأنه يتوجب عليه مرافقتهما فوراً. لقد وجد صعوبة في فهم كل كلامها.

رفع يده لمقاطعتها وسألها عن اسمها.

فعرّفت عن نفسها بعجل قائلة: «أنا كوريليا أمبلياتا إبنة نوميريوس بوبيديوس أمبلياتوس وأسكن في فيللا أورتنسيا». لاحظ أتيليوس لدى ذكرها لاسم والدها أن كوراكس والرجال تبادلوا النظرات. «هل أنت الساقي؟»

قال كوراكس: «الساقي ليس هنا».

لوح له المهندس بيده ليبتعد: «أنا المسؤول عن القناة».

«إذاً تعال معي».

بدأت تسير ناحية البوابة وبدت متفاجئة لعدم لحاق أتيليوس بها على الفور. فبدأ الرجال يضحكون عليها. وقلّد موسى وركيها المتأرجحين وهو يرفع رأسه بشموخ قائلاً: «آه، أيها الساقي تعال معي...»

استدارت ودموع الارتباك تلمع في عينيها.

قال أتيليوس بتروٍ غير خال من اللطف: «يا كوريليا أمبلياتا، قد لا أملك القدرة على تحمل نفقة شراء سمك أبو ذقن الأحمر لآكله، ولكني أعتقد جازماً أنه سمك بحري. ومسؤوليتي لا تشمل نطاق البحر».

قهقه كوراكس وأشار بيده. «هل تسمع ما قالته؟ إنها تحسبك نبتون!»

twitter @baghdad_library

ارتفعت ضحكات الرجال، فطلب منهم أتيليوس بحدة التزام الصمت.

«إن والدي يعدم رجلاً. وهذا العبد كان يصرخ منادياً بجلب الساقي. هذا جل ما أعرفه. أنت أمله الوحيد. هل ستأتي أم لا؟»

قال أتيليوس: «مهلاً»، وأشار برأسه ناحية المرأة المسنة التي كانت تضع يديها على وجهها وتنحب وهي حانية الرأس. «من هذه؟»

«إنها والدته».

فساد الصمت بين الرجال.

«هل فهمت الأمر الآن». مدت كوريليا يدها ولمست ذراعه. وقالت بلطف: «تعال أرجوك».

«هل يعرف والدك بقدومك؟»

«لا».

قال كوراكس: «أنصحك بعدم التدخل».

وجدها أتيليوس نصيحة سديدة. إذ إنه في حال توجه المرء للمساعدة في كل مرة يسمع فيها حول عبد يُعامل بقسوة لما تسنى له أي وقت ليأكل أو ينام. حوض مياه بحرية مليء بأسماك أبو ذقن نافقة؟ هذا أمر لا يتعلق به بتاتاً. فنظر إلى كوريليا. ولكن رغم كل شيء إن كان العبد المسكين يطلب وجوده فحري به الذهاب.

بشائر. نُذُر. تكهنات.

بخار ماء يتصاعد كخيط صيد. ينابيع ترتد إلى الوراء داخل الأرض. وساقٍ اختفى في الهواء الساخن. أفاد الرعاة أنهم رأوا عمالقة في مراعي منحدرات جبل فيسوفيوس السفلى. ووفقاً للرجال، فإن امرأة في هركيولانيوم أنجبت طفلاً له زعانف بدل الرجلين. والآن أسماك أبو ذقن الحمراء نفقت في ميسينوم في عصر يوم واحد والسبب مجهول تماماً.

يجدر بالمرء أن يتفهّم الأمور قدر الإمكان.

حك أذنه: «كم تبعد هذه الفيللا؟»

«أرجوك. إنها تبعد حوالي بضع مئات من الخطوات. ليست بعيدة على الإطلاق».

جذبته من ذراعه، فسمح لنفسه بالإنجرار معها. فثمة صعوبة في مقاومة هذه المرأة، كوريليا أمبلياتا. ربما يجدر به على الأقل مرافقتها لتعود إلى عائلتها؟ إذ إنه ليس من الآمن جداً على امرأة في سنها ومركزها الإجتماعي أن تسير في شوارع مدينة بحرية. نادى من فوق كتفه لكوراكس طالباً منه أن يتبعه ولكن كوراكس أبى ذلك. وكرّر له قائلاً: «لا تتدخل!» وقبل أن يدرك أتيليوس ما الذي يحدث كان قد وصل إلى خارج البوابة وبات في الشارع وغاب الآخرون عن نظره.

* * *

يبدأ سكان شاطىء البحر المتوسط بالخروج من منازلهم قبل ساعة أو نحوها من فترة الغسق. ليس لأن وطأة الحر تكون قد خفّت كثيراً في ذاك الوقت، وإنما لأن حجارة المنازل تصبح أشبه بحجارة التنّور. فترى النساء المسنّات يجلسن على كراسي بجانب شرفات منازلهن الأمامية ويمسكن مراوح يهوّين بها أنفسهن. أما الرجال فيقفون في الحانات يشربون ويتجاذبون أطراف الحديث. هناك رجال من جميع أرجاء الإمبراطورية: بيسيون ودلماتيون ذوو لحى طويلة، ومصريون يضعون في آذانهم أقراطاً ذهبية، وألمان ذوو شعر أحمر اللون، ويونانيون وسيليسيون ذوو بشرة زيتونية اللون، ونوبيون مفتولو العضلات يتمتعون ببشرة سوداء مثل سواد الفحم وأعينهم محتقنة دماً بسبب النبيذ. جميع هؤلاء الرجال إما أنهم في غاية اليأس أو في غاية الطموح أو في غاية الغباء لكونهم مستعدين لتضييع خمس وعشرين سنة من عمرهم في التجذيف مقابل الحصول على الجنسية الرومانية. من مكان ما في أسفل المدينة وبالقرب من واجهة المرفأ صدر صوت تدفّق المياه.

كانت كوريليا تصعد السلالم بسرعة وهي تحمل أطراف تنورتها بيديها

twitter @baghdad_library

وخفّاها ناعمان لا يصدران أية طقطقة على الأرض الصخرية، والعبدة تركض أمامهما، وكان أتيليوس يركض بتباطؤ وراءهما. تمتم بينه وبين نفسه قائلاً: «(بضع مئات من الخطوات. ليست بمسافة بعيدة على الإطلاق، نعم ولكن الطريق كله صعود على التل». بات قميصه ملتصقاً بظهره بفعل العرق.

وأخيراً أصبحوا يسيرون على مستوى الأرض ويوجد أمامهم جدار عال وطويل، قاتم اللون، وفيه بوابة مقوّسة، ويتوّجها دلفينان من الحديد الصلب يقفزان لتبادل قبلة. هرعت المرأتان وعبرتا المدخل الخالي من الحراسة، وبعد أن ألقى أتيليوس نظرة في أرجاء المكان، تبعهما، متنقلاً في برهة من الزمن من واقع مليء بالضجة والغبار إلى عالم ساكن من الزرقة خطف أنفاسه. اللون الفيروزي، اللازَوَرْد، اللون النيلي، اللون الصفّيري، ظهرت أمام عينيه كل ألوان الزرقة التي أنتجتها الطبيعة الأم، من المياه الضحلة اللامعة، إلى المياه العميقة، إلى الأفق البعيد، إلى السماء. والفيللا نفسها امتدت نزولاً على شكل سلسلة من المصاطب وظهرها لجانب التل، ووجهها للخليج، مبنية كرمى لهذا المنظر الرائع فحسب. وترسو على الفُرْضَة سفينة فاخرة فيها عشرون مجذافاً ومطلية باللون القرمزي والذهبي وظهر السفينة مفروش بسجاد يليق باللون القرمزي.

لم يكن لديه متسع من الوقت ليلحظ الأمور الأخرى عدا هذه الزرقة الغالبة، إذ عادوا لينطلقوا من جديد، ولكن هذه المرة كانت كوريليا في المقدمة وتقوده إلى الأسفل مروراً بتماثيل ونوافير، وعشب يتم ريّه، حيث ساروا على أرض مرصوفة بالفسيفساء ترتسم عليها صور مخلوقات بحرية، ثم خرجوا إلى مصطبة فيها حوضِ سباحة لونه أزرق أيضاً مؤطّر بالرخام ويقع باتجاه البحر. وهناك طابة قابلة للنفخ تتقلب بهدوء على الأرض المرصوفة وكأنها تُركت في منتصف مباراة.

فجأة ذهل لواقع أنّ هذا المنزل الكبير يبدو مهجوراً جداً. وعندما أشارت كوريليا إلى الدرابزين ووضع يديه على هذا الدرابزين الحجري المنخفض

الارتفاع وانحنى إلى الأمام، عندها رأى السبب بأم عينه. كان معظم سكان المنزل يتجمّعون على الشاطئ.

استغرق بعض الوقت حتى تمكّن ذهنه من جمع كل عناصر المشهد. المكان هو المسمكة وقد توقّع ذلك، ولكنه وجدها أكبر بكثير مما تصور وقديمة بحسب ما تبدو له. ربما بُنيت في آخر سنوات انهيار الجمهورية حينما درجت العادة على تربية الأسماك حيث كانوا يبنون مجموعات من الجدران الإسمنتية في الصخور تحوي أحواضاً مستطيلة. كانت تطفو على سطح أحد الأحواض أسماك نافقة، وعلى مسافة بعيدة كانت مجموعة من الرجال تحدّق في شيء ما موجود في المياه، شيء كان أحدهم يلكزه بخطّاف قوارب. اضطر أتيليوس إلى وضع يده فوق عينيه حتى يتمكّن من تمييزهم، وكلما أمعن النظر فيهم ازداد شعوره بانقباض في معدته. ذكّره المشهد بمشهد القتل الذي شهده في المدرّج. بذاك السكون الذي كان يعمه. ذاك التآمر النزوي بين الجمهور والضحية.

بدأت خلفه المرأة المسنة تحدث أصواتاً تشبه العويل الرقيق الناجم عن اليأس والأسى. رجع خطوة إلى الوراء والتفت ناحية كوريليا وهز برأسه مستنكراً ما يحدث. أراد الهرب من هذا المكان، إذ كان يتوق للعودة إلى وظيفته البسيطة والمحترمة. فليس بيده ما يفعله هنا.

ولكنها كانت تعيق طريقه وتقف على مسافة قريبة جداً منه. قالت له: «أرجوك ساعدها».

كانت عيناها أكثر زرقة حتى من عينيّ سابينا. بدا وكأن عينيها جمعتا زرقة الخليج وعكستا هذه الزرقة عليه. تردد في البداية ثم حرّك فكه ثم استدار وتوجّه بنظره مجدّداً ناحية البحر.

أبعد نظراته عن خط الأفق متقصّداً تلافي النظر إلى ما يحدث عند الحوض تاركاً النظر يعود مجدداً إلى الشاطئ محاولاً تقييم الوضع برمته بعين الاحتراف. رأى بوابات لسدود خشبية، ومسكات حديدية لرفعها، وشبكيّات معدنية فوق

twitter @baghdad_library

بعض الأحواض لمنع الأسماك من الهرب، ومجازات وأنابيب. الكثير من الأنابيب.

توقف قليلاً ثم تلفّت في أرجاء المكان من جديد ونظر إلى جانب التل. إن الأمواج بحركتها ارتفاعاً وهبوطاً تتدفّق عبر حواجز القضبان المعدنية المتصالبة وتدخل إلى جدران أحواض الأسماك الإسمنتية الموجودة تحت السطح لتمنع مياه الأحواض من الركود. لم يكن يعرف سوى هذا القدر. ولكن الأنابيب. هز برأسه إشارة إلى أنه بدأ يفهم. لا بد أن الأنابيب تجر المياه العذبة من اليابسة لتختلط مع مياه البحر لتخفف قليلاً من ملوحتها كما في البحيرة الضحلة. البحيرة الضحلة الاصطناعية. إنها الظروف الأمثل لتربية الأسماك. والأسماك التي تُعتبر تربيتها الأكثر حساسية والتي تمثّل شرفاً لا يحظى به سوى الأغنياء هي أسماك أبو ذقن الحمراء.

قال بصوت خافت: «أين تقع الإمدادات التي تربط قناة جر المياه بالمنزل؟»

هزت كوريليا برأسها وقالت: «لستُ أدري».

فخطر له أن الأنابيب التي تصل القناة بالمنزل لا بد وأن تكون ضخمة نظراً لمدى ضخامة هذا المنزل.

جثا بقرب حوض السباحة وغرف بيده غرفة من المياه الدافئة وتذوقها ثم عبس وأخذ يقلّبها في فمه وكأنه خبير نبيذ. وجد المياه نظيفة على حد علمه. ولكن مع ذلك قد لا يعني هذا شيئاً. حاول أن يتذكر آخر مرة تفقّد فيها تدفّق القناة. ليس قبل الليلة الفائتة قبل خلوده إلى النوم.

«متى نفقت الأسماك؟»

نظرت كوريليا إلى العبدة فوجدتها ضائعة في عالمها الخاص. «لستُ أدري. ربما منذ ساعتين؟»

«ساعتان!»

قفز من فوق الدرابزين ونزل على المصطبة السفلى الموجودة تحته وأخذ يجد السير ناحية الشاطئ.

* * *

هناك عند الشاطئ لم يكن المشهد مسلياً بقدر ما كان متوقعاً له. ولكن ما هو المسلي هذه الأيام؟ أخذ يغمر أمبلياتوس الشعور أنه وصل إلى مرحلة ما ـ ربما السن أو الثروة ـ حيث يعتبر تزايد التوقعات أكثر تميزاً من الفراغ الذي تولده الراحة. فقد ارتفع صوت صراخ الضحية وتدفقت الدماء منه، ثم ماذا بعد؟ مجرد ميتة أخرى.

كانت البداية هي الجزء الأفضل: التحضير البطيء الذي تبعته المدة الزمنية الطويلة التي طفت خلالها الضحية ووجهها فوق سطح المياه، حيث التزم العبد الهدوء التام في رغبة منه لعدم لفت انتباه الأسماك الموجودة تحته وهو يركّز انتباهه ويتمايل في المياه. إنه مشهد مسل. أخذ الوقت يطول تحت حرارة الشمس القوية، فبدأ أمبلياتوس يظن أن مسألة قصة الأنقليس برمتها مبالغ فيها وأن فيديوس بوليو لم يكن بقدر الروعة والابتكار بقدر ما تخيله. ولكن لا: بوسع المرء دوماً الاعتماد على الأرستقراطية! في اللحظة التي كانت يتحضر فيها لمغادرة المكان، بدأت المياه تتماوج، ثم فجأة اختفى الوجه كفلينة صنارة الصيد ليعاود الصعود من جديد لبرهة وترتسم على وجهه نظرة المفاجأة الساخرة ثم اختفى كلياً. كان هذا التعبير الذي ارتسم على وجه العبد هو الأكثر إمتاعاً له، وبعده بات كل شيء مملاً ومشاهدته لا تبعث على الراحة تحت أشعة شمس العصر الآفلة.

نزع أمبلياتوس قبعة القش عن رأسه وأخذ يهوّي بها وجهه، ثم نظر في الأرجاء بحثاً عن ابنه. في البداية يبدو على سيلسينوس أنه يحدق إلى الأمام مباشرة ولكن بعد معاودة النظر إليه ترى عينيه مغمضتين وكان هذا الفعل مألوفاً عند الصبي. لطالما بدا أنه يفعل ما يُطلب منه، ولكن لا تلبث أن تدرك أنه

twitter @baghdad_library

يقدم الطاعة بشكل آلي وبجسده فقط، إذ أن انتباهه موجود في مكان آخر. لكزه أمبلياتوس بإصبعه على صدره، ففتح سيلسينوس عينيه.

ماذا كان يدور في ذهنه؟ ربما بعض التفاهات الشرقية. ألقى أمبلياتوس اللوم على نفسه. فعندما كان الفتى في السادسة من عمره ـ وكان هذا قبل اثنتي عشرة سنة ـ بنى أمبلياتوس معبداً في بومبي على نفقته الخاصة وأهداه إلى عَبَدَة إيزيس. ولأنه كان عبداً في السابق لم يتشجّع لبناء معبد لجوبيتير الإله الأعظم والأروع، ولا للأم فينوس، أو لأي إله أو إلهة من الآلهة الحارسة المقدسة الأخرى. أما إيزيس فهي مصرية، وهي إلهة مناسبة للنساء ومصففي الشعر والممثلين وصانعي العطور وما شابه. وقد قدم المبنى باسم سيلسينوس بهدف إيصال الفتى إلى المجلس الحاكم في بومبي، وقد أفلح في ذلك، ولكن لم يتوقع أن يأخذ سيلسينوس الأمر على محمل الجد. ولكنه فعل، وهذا دون أدنى شك ما كان يسرح فيه. كان سارحاً في أوزيريس إله الشمس وزوج إيزيس، الذي يُذبح كل مساء عند غروب الشمس على يد أخيه الخائن الذي يُدعى سيت، جالب الظلام. وكيف أن البشر حينما يموتون يحكم عليهم حاكم مملكة الموتى وإن وجدهم على قدر من الأهلية يمنحهم الحياة الأبدية، لينهضوا مجدداً في الصباح مثل أوروس وريث أوزيريس، الشمس الجديدة المنتقمة، جالب النور. هل حقاً يؤمن سيلسينوس بكل هذه التفاهات الصبيانية؟ هل حقاً يعتقد أن هذا العبد نصف المأكول على سبيل المثال قد يعود من الموت عند غروب الشمس ليتمم انتقامه عند الفجر؟

كان أمبلياتوس يستدير ليطرح عليه هذا السؤال بالتحديد عندما تشتت انتباهه إثر سماعه صرخة من خلفه. كان ثمة جلبة في عداد العبيد المتجمعين، فاستدار أمبلياتوس أكثر في كرسيه. رأى رجلاً لا يعرفه ينزل على السلالم من الفيللا، يلوّح بيده فوق رأسه وينادي.

* * *

كانت مبادئ الهندسة بسيطة وعالمية في روما وبلاد الغال وفي كامبانيا،

وهذا ما كان أتيليوس يحبه فيها. حتى وهو يركض كان يحاول تصوّر ما لا يسعه رؤيته. إن خط القناة الأساسي سيكون في أعلى تلك التلة وراء الفيللا، قابعاً على عمق ياردة واحدة تحت سطح الأرض، مثبتاً على محور من الشمال إلى الجنوب، من بايي نزولاً إلى بيسينا ميرابيليس. إن الذي كان يمتلك الفيللا لدى بناء الأكوا أوغوستا قبل أكثر من قرن لا بد وأنه مدّد أنبوبين منها. واحد موصول ببركة كبيرة لتغذية المنزل بالمياه، والآخر موصول بحوض السباحة ونوافير الحديقة: وإن كان ثمة تلوث في شبكة الأنابيب، فلا بد أن يستغرق يوماً كاملاً حتى ينتشر في الإمدادات كلها استناداً إلى حجم الحوض. ولكن الأنبوب الآخر يوصل قسماً من مياه الأوغوستا مباشرة نزولاً إلى المسمكة ليتدفّق في الأحواض المتعدّدة. وإن كان ثمة مشكلة في القناة سيكون حينها التأثير في الأحواض مباشراً. كانت قد بدأت لوحة القتل تأخذ شكلاً واضحاً أمامه: سيد المنزل ـ وهو أمبلياتوس على ما يُفترض ـ ينهض عن كرسيه باندهاش، والمشاهدون يديرون ظهورهم إلى الحوض، وجميع العيون منصبة عليه وهو ينزل على السلالم الأخيرة. توجه مسرعاً إلى طريق المسمكة الإسمنتي المنحدر وأخذ يبطئ في مشيته لدى اقترابه من أمبلياتوس ولكنه لم يتوقف.

قال بعد أن تخطاه راكضاً: «اسحبوه من الماء».

ملأ وجه أمبلياتوس النحيف الغضب والتفت إلى الوراء وصرخ قائلاً شيئاً ما، فاستدار أتيليوس على الفور وهو لا يزال يركض ولكن رجوعاً الآن ورفع كفيه وقال: «أرجوكم اسحبوه».

فغر أمبلياتوس فاه ولكنه رفع يده ببطء حينها وهو لا يزال يحدق بأتيليوس، وقام بإيماءة صغيرة أحدثت سلسلة من التحركات وكأن الجميع كانوا بانتظار هذه الإيماءة بالتحديد. وضع مدبر المنزل إصبعين في فمه وأطلق صافرة للعبد الحامل لخطّاف القوارب، ثم أشار له بيده صعوداً كي يرفعه، عند ذلك استدار العبد ورمى بالخطّاف على سطح حوض أسماك الإنقليس وأمسك بشيء ما وبدأ يجرّه.

twitter @baghdad_library

كان أتيليوس قد وصل تقريباً إلى الأنابيب، وعندما اقترب منها وجدها أكبر مما بدت له من المصطبة. إنها مصنوعة من التاراكوتا ويوجد اثنان منها، ويبلغ قطر كل واحد أكثر من قدم. ينبثق هذان الأنبوبان من جانب التل ويقطعان الطريق المنحدِر سوياً ثم ينحرفان عن بعضهما البعض على حافة المياه ثم يسيران في اتجاهين معاكسين على جانب المسمكة. ويوجد في كل من الأنبوبين صفيحة تفحّص غير مصقلة ـ قطعة من أنبوب غير محكمة يبلغ طولها قدمين ومقطوعة بطريقة متقاطعة ـ وعندما وصل إليهما وجد أن أحدهما تم نزعه من مكانه ولم تتم إعادته بطريقة صحيحة. وفي مكان قريب يوجد إزميل وكأن الذي كان يستخدمه فوجئ بشيء ما.

جثا أتيليوس على ركبتيه ووضع الإزميل في الفجوة وحرك نزولاً وصعوداً إلى أن اخترقت معظم المجال، ثم لواه رافعاً الطرف المسطح مفسحاً في المجال ليضع أصابعه تحت الغطاء ويرفعه صعوداً. رفع الغطاء وضغط عليه فأوقعه دون أن يكترث لمدى ثقله. ثم وضع وجهه على الفور فوق المياه الجارية وأخذ يشمها. بعد أن تحررت المياه من ضغط الأنبوب عليها، باتت رائحة المياه قوية جداً لدرجة أنها حثت فيه الرغبة على التقيؤ. رائحة عفن لا يمكن للمرء أن يخطئها كرائحة البيض المعفّن.

رائحة نفس إله مثوى الأموات: حادس.

رائحة الكبريت.

* * *

لقد مات العبد. وقد بدا ذلك جلياً حتى عن بُعد. رأى أتيليوس الذي كان جاثياً بالقرب من الأنبوب المفتوح بقايا جثته تُسحب من بركة أسماك الأنقليس وتُغطى بكيس، ورأى الجمهور يتفرّق حيث بدأ أفراده يدلفون عائدين إلى الفيللا. وفي الوقت نفسه قطعت العبدة المسنة ذات الشعر الشائب طريقها وسطهم متوجهة في الاتجاه المعاكس نزولاً إلى البحر، وتفادى الآخرون النظر إليها وكأنها مصابة بمرض خطير جداً. عندما وصلت إلى الجثة رفعت يديها إلى

السماء وبدأت تهتز من جنب إلى آخر بكل هدوء. لم يلاحظ أمبلياتوس وجودها، فقد كان يسير ناحية أتيليوس بكل عزم ووراءه كوريليا إضافة إلى شاب صغير السن يشبهها ـ وهو على الأرجح أخوها ـ وبضعة أشخاص آخرين، اثنان منهم يحملان خنجرين في حزاميهما.

عاد المهندس وركّز انتباهه على المياه. هل كان ضغط المياه يخف أم هذا نسج خياله فحسب؟ بكل تأكيد باتت رائحة المياه أخف وطأة بعد أن فُتح الأنبوب وتعرض للهواء. دسّ يديه في المياه المتدفقة وعبس محاولاً تقدير قوة التدفق، في الوقت الذي أخذت فيه المياه تفتل وتنثني بين أصابعه نظير العضلة أو الكائن الحي. في إحدى المرات، عندما كان فتى صغيراً رأى فيلاً يُقتل ضمن ألعاب التسلية الرومانية ـ حيث اصطاده رماة الأسهم والرماح الذين يرتدون جلد النمر. ولكن الذي بقي في ذاكرته بشكل مقتضب ليس مشهد القتل وإنما طريقة تصرّف مدرب الفيل الذي كان قد رافق هذا الحيوان الضخم من إفريقيا، حيث جلس القرفصاء بجانب أذن ذاك الفيل وهو ملقى على التراب في حالة احتضار وأخذ يهمس له. هذا هو شعوره في تلك اللحظة. إذ بدا له أن قناة جر المياه، الأكوا أوغوستا الهائلة، تموت بين يديه.

سمع صوت يقول له: «أنت موجود على ممتلكاتي الخاصة».

رفع رأسه فوجد أمبلياتوس يحدق فيه نزولاً. كان مالك الفيللا في منتصف الخمسينات من عمره، يتسم بقصر القامة ولكنه عريض المنكبين وصلب. كرر أمبلياتوس قائلاً: «أنت على ممتلكاتي».

«نعم أنا موجود على ممتلكاتك، ولكن المياه تعود للأمبراطور». ثم وقف أتيليوس ومسح يديه بقميصه. بعد أن شعر بالغضب لهدر هذه الكمية الكبيرة من المياه العزيزة وسط موجة جفاف من أجل تدليل أسماك رجل ثري. «يجدر بكم إقفال بوابات السدود التي توصل مياه القناة. يوجد كبريت في الأنابيب الرئيسية وسمك أبو ذقن الأحمر لا يوافقه تعكر المياه. هذا ـ وقد شدّد على هذه الكلمة ـ ما قتل أسماكك العزيزة».

twitter @baghdad_library

أرجع أمبلياتوس رأسه بعض الشيء إلى الوراء متحملاً الإهانة. كان يتحلى بوجه لا بأس به، إن لم نقل إنه وسيم. حيث تشبه عيناه في زرقتهما عيني ابنته. «ومن تكون أنت؟»

«ماركوس أتيليوس. الساقي في أكوا أوغوستا».

عبس المليونير ثم قال: «أتيليوس. ما الذي حصل لإكزومنيوس؟»

«ليتني أعرف».

«ولكن بالتأكيد ما يزال إكزومنيوس الساقي هو المسؤول؟»

«لا قلتُ لك أنا الساقي المسؤول الآن». لم يكن المهندس في مزاج يسمح له بإلقاء المجاملات. بل تصرّف بازدراء وقساوة وغباء. ربما في موقف آخر كان ليسرّه إلقاء بعض المجاملات ولكن في الوقت الراهن لا يملك الوقت لذلك.

«يجدر بي العودة إلى ميسينوم. لدينا حالة طارئة في القناة».

«ما هي هذه الحالة الطارئة؟ أهي نحس ما؟»

«بوسعك اعتبارها نحساً».

همّ أتيليوس بالمغادرة ولكن وقف أمبلياتوس سريعاً في طريقه وقال: «أنت أهنتني، وعلى ممتلكاتي الخاصة وأمام عائلتي. والآن تحاول المغادرة دون تقديم الاعتذار؟» قرّب وجهه من وجه أتيليوس كثيراً لدرجة أن المهندس استطاع رؤية العرق المتصبب من مفرق شعره. كانت تفوح منه رائحة الزعفران العطرة، وهو أغلى أنواع المراهم. «من أعطاك إذناً بالمجيء إلى هنا؟»

فأجاب أتيليوس: «إن كنت قد أهنتك بأية طريقة من الطرق..». ولكنه ما لبث أن تذكر العبدة المسكينة بثيابها الرثة، فاختنق الاعتذار في حنجرته:

«ابتعد عن طريقي».

حاول أن يفتح طريقه بالقوة ولكن أمبلياتوس أمسك بذراعه وسحب أحدهم خنجراً. وبعد برهة أدرك أنه بطعنة واحدة فحسب ينتهي أمره.

«لقد أتى بسببي يا أبي. أنا دعوته».

«ماذا؟»

استدار أمبلياتوس حول كوريليا. لم يعرف أتيليوس أبداً ما الذي كان ليفعله بحق كوريليا، وإن كان سيعمد إلى ضربها، ذلك لأنه في اللحظة نفسها سمعوا صرخة قوية. فقد كانت المرأة المسنة تسير على الطريق المنحدر، وقد لطخت وجهها وذراعيها وثوبها بدماء ابنها، وكانت تشير بيدها إلى الأمام حيث كان الإصبعان الأول والأخير من كفها النحيل ممدودين إلى الأمام. وكانت تصرخ بلغة عجز أتيليوس عن فهمها. ولكن بعد هنيهة لم يعد بحاجة إلى فهم اللغة: فاللعنة تعني اللعنة بأية لغة قيلت، وهذه المرة هي موجهة مباشرة إلى أمبلياتوس.

ترك ذراع أتيليوس واستدار ناحيتها بكل صلابة وعلى وجهه تعابير عدم المبالاة، وبعد عجزه عن إيجاد كلام يُقال بدأ يضحك. ساد الصمت لوهلة، ثم بدأ الآخرون بالضحك أيضاً. حدق أتيليوس بكوريليا، التي هزت له برأسها هزاً خفيفاً وأشارت له بعينيها إلى الفيللا، وبدت وكأنها تقول: سوف أكون على ما يُرام يمكنك الذهاب. وهذا كان آخر ما رآه أو سمعه، إذ أدار ظهره للمشهد وبدأ يصعد الدرب المؤدي إلى داره. أخذ يصعد خطوتين ثم ثلاث خطوات في آن معاً وراح يركض على رجلين من حديد وكأنه رجل هارب في حلم.

twitter @baghdad_library

أورا ديوديسيما

الساعة: ١٨:٤٨

قبيل حدوث الثوران مباشرة قد يلحظ وجود تزايد في النسب التالية: الكبريت/ الكربون، ثاني أوكسيد الكبريت/ ثاني أوكسيد الكربون، الكبريت/ الكلور، إضافة إلى الكمية الإجمالية لحمض الهيدروكلوريك... وغالباً ما يكون التزايد الملحوظ في نسب مكونات التربة إشارة إلى أن الحمم ارتفعت داخل البركان الخامد وبات متوقَّعاً حدوث ثوران.

علم البراكين (الطبعة الثانية)

تعتبر قناة جر المياه صنيعة الإنسان ولكنها تخضع لقوانين الطبيعة. قد يحتجز المهندسون مياه ينبوع ما ويحولون مجراه عن مساره الطبيعي، ولكن بمجرد أن يبدأ في التدفق يسير دون هوادة ولا يعود بالإمكان إيقافه، إذ يسير بمعدل سرعة ميلين ونصف الميل في الساعة. ولم يكن بيد أتيليوس ما يفعله لمنعه من تلويث مياه ميسينوم.

ولكنه لا يزال يمتلك أملاً ضئيلاً واحداً وهو أن وجود الكبريت محصور في فيللا أورتنسيا، وأن التسرب موجود في خط الأنابيب تحت المنزل، وأن منزل أمبلياتوس مجرد جيب معزول من التلوث على منحنى الخليج الجميل.

دام هذا الأمل طيلة المدة التي استغرقها للنزول على التلة وصولاً إلى بيسينا ميرابيليس، لاستدعاء كوراكس من مقر السكن ـ حيث كان يلعب الملاكمة مع موسى وبيكو ـ وشرح ما حصل له، والانتظار بنفاذ صبر ليفتح المراقب باب

twitter @baghdad_library

الخزان. وفي تلك اللحظة تبخّر الأمل كلياً حيث قضت عليه الرائحة الكريهة نفسها التي اشتمها داخل الأنابيب في المسمكة.

نفخ كوراكس خديه إشارة إلى شعوره بالقرف: «إنها كرائحة أنفاس الكلاب».

«لا بد أن هذه الرائحة تتزايد منذ ساعات».

«منذ ساعتين».

«ساعتان! .» لم يستطع المراقب إخفاء شعوره بالرضا: «حينما جعلتنا نتسلق ذاك التل في مغامرتك السخيفة؟»

«ولو كنا هنا هل سيشكل الأمر فارقاً؟»

نزل أتيليوس بضع درجات وهو يضغط بظاهر كفه على أنفه. كان الضوء يخفت، ووسط انعدام الرؤية ومن وراء الأعمدة أمكنه سماع صوت المياه التي تتدفق عبر القناة وتصب في الخزان، ولكنها لا تتدفق بالقوة الشديدة التي كانت عليها سابقاً. وجد واقع الحال تماماً كما توقعه عندما كان في المسمكة: الضغط يتضاءل بسرعة شديدة.

نادى العبد اليوناني بولايتس، الموجود في الأعلى، والذي كان ينتظر في أعلى السلالم طالباً منه إحضار بعض الأغراض: مشعل، خريطة لخط القناة الرئيسي، وإحدى القوارير ذات القفل من المخزن، والتي كانوا يستخدمونها لأخذ عينات من المياه.

توجّه بولايتس لجلب الأغراض بكل طاعة، وأخذ أتيليوس يحدق في الظلمة مسروراً لكون المراقب عاجزاً عن رؤيته، فالوجه يمثل الإنسان بل الوجه هو الإنسان ذاته.

«كم مضى لك على العمل في الأوغوستا يا كوراكس؟»

«عشرون عاماً».

«هل حصل مثل هذا الأمر من قبل؟»

«على الإطلاق. لقد جلبت علينا الحظ السيء».

أكمل أتيليوس طريقه بحذر على الدرجات الباقية مبقياً يده على الجدار متوجهاً إلى حافة الخزان. فجعلته المياه المتدفقة من فم الأوغوستا، إضافة إلى الرائحة والضوء الخافت لآخر ساعات النهار، يشعر وكأنه ينزل إلى الجحيم. حتى أنه كان يوجد قارب تجذيف يرسو بالقرب من قدميه: معدّية مناسبة لنقله عبر نهر الأموات ستيكس.

حاول أن يطلق دعابات بشأن الموقف لإخفاء الرعب التي كانت يعتمل في داخله. فقال لكوراكس: «بوسعك أن تكون الشارون خاصتي (من سيقلني عبر نهر الأموات)، ولكنني لا أملك نقوداً كي أدفع لك أجرك».

«حسناً إذاً سيتحتم عليك أن تهيم على وجهك في الجحيم إلى الأبد».

كان هذا مضحكاً. ضرب أتيليوس بقبضة يده على صدره، كعادته عندما يفكر، ثم عاود النداء ناحية الباحة في الأعلى: «أسرِع يا بولايتس!»

«أنا قادم أيها الساقي!»

ظهر ظل العبد النحيف أمام الباب حاملاً بيديه مشعلاً وشعلة. نزل على السلالم مسرعاً وأعطاهما لأتيليوس الذي قرّب الطرف المشتعل من رأس المشعل وأناره محدثاً صوتاً خفيفاً وبعض الحرارة. فظهرت ظلالهم وهي تتراقص على الجدران الإسمنتية.

صعد أتيليوس على متن القارب بحذر رافعاً المشعل بيده عالياً، ثم استدار ليجمع الخرائط الملفوفة والقارورة الزجاجية. كان القارب خفيفاً وغير عميق القعر، ويُستخدم لأعمال الصيانة في المخزن. عندما صعد كوراكس على متن القارب جعله يغرق عميقاً في المياه.

أخذ أتيليوس يقنع نفسه أنه يجدر به مكافحة الذعر الذي ينتابه، كما يجدر به أن يكون سيد نفسه:

twitter @baghdad_library

«لو حصل مثل هذا الأمر لدى وجود إكزومنيوس ماذا كان سيفعل؟»

«لستُ أدري. ولكن دعني أخبرك أمراً واحداً. لقد كان يعرف هذه المياه أكثر من أي شخص آخر. لذا كان سيتنبأ بحدوث مثل هذا الأمر».

«لعل هذا ما حصل، ولهذا السبب هرب».

«لم يكن إكزومنيوس جباناً. ولم يهرب إلى أي مكان».

«إذاً أين هو يا كوراكس؟»

«قد قلتُ لك أيها الفتى الوسيم مئة مرة: لستُ أدري».

انحنى المراقب إلى الأمام وفك الحبل من حلقة الإرساء ودفع بالقارب بعيداً عن السلالم، ثم استدار وجلس بمواجهة أتيليوس ورفع المجذافين بيديه. بدا وجهه مقابل ضوء المشعل قاتماً وماكراً وأكبر من سنواته الأربعين. لديه زوجة وعدد كبير من الأطفال مكدسين في شقة تقع في الشارع المقابل للخزان. أخذ أتيليوس يتساءل عن سبب مقت كوراكس له إلى هذه الدرجة. هل يعود السبب إلى أنه اشتهى منصب الساقي لنفسه ولم يعجبه مجيء رجل أصغر سناً منه من روما لاحتلال المنصب؟ أو هل هناك أسباب أخرى؟

طلب من كوراكس التجذيف ناحية وسط البيسينا، وعندما وصلا إلى المكان أعطاه المشعل وفتح القارورة ورفع كميّ قميصه. كم مرة سبق له أن رأى والده يقوم بهذا العمل في خزان كلوديا الأرضي وفي أنيو نوفوس على تلة إيسكويلين؟ لقد بيّن له والده كيف أن لكل شبكة أنابيب نكهتها الخاصة، ولكل منها نكهة مغايرة للأخرى بقدر ما للنبيذ من نكهات متعددة. كانت الأكوا مارسيا الأحلى مذاقاً، حيث تجر مياهها من ثلاثة ينابيع صافية تنبع من نهر أونيو، والأكوا ألسيتينا الأقرف مذاقاً وهي عبارة عن مياه بحيرة وسخة لا تنفع إلا لري الحدائق، والأكوا جوليا، ومياهها دافئة وسلسة إلى ما هنالك. وقد قال والده إنه يتحتم على الساقي الماهر معرفة ما هو أكثر من قوانين الهندسة ومسائل الهيدروليك الجامدة. يجدر به امتلاك القدرة على تذوق المياه واشتمامها

والإحساس بها ومعرفة الصخور والأتربة التي سارت فيها حتى ختمت رحلتها بالظهور على سطح المياه، فحياة العديد من الأشخاص تعتمد على هذه المهارة.

مرّت صورة والده في ذهنه. كان قد قُتل وهو في عمر الخمسين على يد رئيسه في العمل الذي عمل إلى جانبه طيلة حياته تاركاً مسؤولية العائلة على رأس أتيليوس الذي كان في عمر المراهقة. وفي النهاية لم يتبق من أتيليوس الكثير. لم يبق منه سوى غطاء رقيق من الجلد الأبيض مشدود فوق عظام رفيعة.

كان والده يعرف ما عساه يفعل في مثل هذه الحالة.

وجّه أتيليوس فم القارورة نزولاً ناحية الماء، ثم انحنى من فوق جانب القارب وغطّسها عميقاً بقدر استطاعته فاسحاً المجال للهواء للخروج من القارورة على شكل فقاعات، ثم أعاد إقفالها وسحبها من الماء.

بعد أن عاد وجلس في القارب، فتح القارورة من جديد ومرّرها رواحاً وجيئة أمام أنفه. شرب منها قليلاً وتغرغر بها ثم ابتلعها. وجد طعمها مراً ولكنه قابل للشرب. مررها لكوراكس الذي بادلها بالمشعل، فشرب كل المياه الموجودة فيها مرة واحدة، ثم مسح فمه بظاهر كفه. وقال: «لا بأس بها إن مزجتها مع قدر كاف من النبيذ».

اصطدم القارب بعمود، فلاحظ أتيليوس الخط الآخذ في الاتساع بين الإسمنت الجاف والرطب حيث كان ظاهراً جداً ويقع على ارتفاع قدم تقريباً فوق سطح الخزان. كان الخزان يجف بوتيرة أسرع مما يمكن للأوغوستا أن تعاود ملأه.

فعاد ليشعر بالذعر من جديد. فقرر أن عليه مكافحة هذا الشعور.

«كم تبلغ سعة البيسينا؟»

«مائتان وثماني وحدات خماسية».

رفع أتيليوس المشعل ناحية السقف الذي كان مختفياً وسط حلكة الظلام

twitter @baghdad_library

فوقهم بحوالي خمسة عشر قدماً. وهذا يعني أن عمق المياه يبلغ على الأرجح خمسة وثلاثين قدماً وثلثا الخزان ممتلئ. لذا افترض أنه يحوي الآن مئتي وحدة خماسية. في روما كانوا يعملون على قاعدة أن الوحدة الخماسية الواحدة تسد احتياجات ما يوازي مئتي شخص يومياً. ويضم الموقع العسكري البحري في ميسينوم عشرة آلاف عسكري إضافة إلى عشرة آلاف مدني تقريباً.

عملية حسابية بسيطة للغاية.

هذا يعني أن لديهم مياهاً تكفيهم ليومين. أخذ يفترض أنهم في حال قاموا بتقنين المياه بحيث تتدفق لساعتين فجراً وساعتين وقت الغسق، وأن تركيز مادة الكبريت في قعر البيسينا قليل بقدر ما هو عليه في أعلاها. وراح يحاول التفكير بتركيز: إن الكبريت في النبع الطبيعي دافئ، وبالتالي يرتفع إلى السطح. ولكن حينما يبرد لتصل درجة حرارته إلى درجة حرارة المياه المحيطة به، ماذا عساه يحصل حينها؟ هل ينتشر؟ أو يطفو على السطح؟ أو يرسو في القعر؟

حدّق أتيليوس ناحية طرف الخزان الشمالي، حيث تتدفق مياه الأوغوستا: «يجدر بنا تفقّد ضغط المياه».

فشرع كوراكس يجذف بقوة محوّلاً القارب بمهارة من حول العمدان باتجاه المياه المتدفقة، وحمل أتيليوس المشعل بيد وباليد الأخرى فتح الخرائط وبسطها على ركبتيه بساعِده.

كان يعرف أن طرف الخليج الغربي بأكمله من نيابوليس إلى كيومي مليء بالكبريت. لقد تم استخراج كتل خضراء شفافة من الكبريت من مناجم من تلال لوكوجاي التي تقع شمالاً على بُعد ميلين من خط القناة الرئيسي. ثم هناك ينابيع الكبريت الساخنة حول بايي، التي يأتي إليها الناس من أرجاء الإمبراطورية وثمة بركة تدعى بوسيديان ـ سُميت تيمناً برجل حرّره الإمبراطور كلوديوس-كانت على قدر كبير من الحرارة بحيث يُطهى فيها اللحم. حتى البحر في بايي يتصاعد منه أحياناً بخار مليء بالكبريت، حيث يغطّس فيه المرضى أجسامهم على أمل التماثل للشفاء. لا بد وأنه في مكان ما من هذه المنطقة الداخنة ـ حيث كان

يقع كهف العرّافة الروحانية سيبيل وحيث البؤر اللاهبة تؤدي إلى عالم الأموات السفلي ـ لحق التلوث بالأوغوستا

وصلا إلى نفق القناة، فترك كوراكس القارب يسير على هداه لفترة من الوقت، ثم ما لبث أن جذّف بكل مهارة في الاتجاه المعاكس وتوقّف بجانب عمود تحديداً. وضع أتيليوس الخرائط جانباً ورفع المشعل، فعكس نوره على طبقة الفطر العفِن الأخضر، ثم أشعل رأس نبتون العملاق المنحوت في الصخر والذي تتدفق من فمه الأوغوستا عادة على شكل سيل قوي قاتم اللون. ولكن حتى خلال الوقت الذي استغرقهما للوصول بالقارب من عند السلالم خفت قوة التدفق، وباتت المياه تسيل رفيعة مترقرقة.

أطلق كوراكس صافرة خافتة: «لِمَ أحسبني سأعيش لوقت أرى فيه الأوغوستا تجف. لقد كنتَ على حق أيها الفتى الوسيم لشعورك بالقلق». نظر إلى أتيليوس وللمرة الأولى ظهرت في عينيه لمحة خوف: «تحت أية نجوم ولدتَ حتى جلبت علينا كل هذا؟»

وجد المهندس صعوبة في التنفس. فضغط بيده على أنفه من جديد ونقل المشعل إلى ما فوق سطح الخزان. بدا من خلال انعكاس الضوء على المياه الداكنة الساكنة وكأن ثمة حريقاً في أعماق المياه.

فأخذ يفكر: «إن هذا مستحيل. لا يعقل لقنوات جر المياه أن تفشل بكل بساطة، وليس بهذا الشكل وخلال ساعات». كانت خطوط الشبكات الرئيسية مرصوفة الجدران ومطلية بإسمنت مقاوم للمياه ومحاطة بغلاف إسمنتي سماكته قدم ونصف القدم. إن المشاكل العادية ـ مثل الأخطاء البنيانية، التسريب، الترسبات الكلسية التي تضيّق القناة ـ كلها أمور تستغرق شهوراً أو حتى سنوات حتى تتنامى. لقد استغرقت قناة كلوديا قرناً كاملاً من الزمن حتى تعطلت عن العمل تدريجياً.

تشتّت تفكير أتيليوس بفعل صرخة سمعها من العبد بولايتس منادياً: «أيها الساقي!»

twitter @baghdad_library

أدار رأسه نصف استدارة ولكنه عجز عن رؤية السلالم بسبب الأعمدة التي بدت وكأنها ترتفع كأشجار سنديان صلبة وسط مستنقع قاتم اللون وقذر.

«ما الأمر؟»

«ثمة شخص في الباحة أتى ممتطياً جواده أيها الساقي! ويحمل رسالة تفيد بأن القناة تعطّلت عن العمل».

تمتم كوراكس قائلاً: «إننا نرى ذلك بأم العين أيها اليوناني الأخرق».

مد أتيليوس يده وأخذ الخرائط من جديد. «من أي مدينة أتى؟» توقع من العبد أن يرد عليه قائلاً من بايي أو كيومي أو بوتيولي بأسوأ الأحوال. أما من نيابوليس فستكون كارثة.

ولكن أتى الجواب مثل ضربة تلقاها في معدته: «من نولا!»

* * *

كان المرسال مغطى بالغبار بشكل كثيف إلى درجة أنه بدا أشبه بالشبح منه بالرجل. ولدى سرده للقصة ـ التي تفيد بأن المياه كفت عن التدفق في خزان نولا عند الفجر وأن ذلك تزامن مع انبعاث رائحة كبريت قوية بدأت منذ منتصف الليل ـ سُمع أصوات نقر حوافر خيول على الطريق خارجاً، ثم دخل حصان آخر إلى الباحة.

نزل الراكب عن ظهر الجواد بمهارة وقدم لأتيليوس ورقة بَرْدي ملفوفة، وهي عبارة عن رسالة من أعيان مدينة نيابوليس تفيد بأن الأوغوستا كفّت عن جر المياه هناك عند الظهر. قرأها أتيليوس بتمعن محاولاً إبقاء وجهه خالياً من التعابير. أصبح هناك تجمع لعدد كبير من الأشخاص داخل الباحة. هناك حصانان، وراكبان، ويحيط بهم مجموعة من عمال القناة الذين تركوا وجبتهم المسائية للإصغاء إلى ما يحدث. بدأت الجلبة تثير انتباه المارة في الطريق، إضافة إلى بعض أصحاب المحال. وصرخ صاحب مطعم صغير في الجهة المقابلة: «أيها الساقي ما الذي يجري؟»

أخذ أتيليوس يفكر بأنه لن يتطلّب الأمر كثيراً حتى ينتشر الذعر بين الناس بسرعة انتشار النار في الهشيم. وكان قد بدأ يشعر بشرارة هذا الذعر تعتمل في صدره. نادى عبدين طالباً منهما إقفال بوابة الباحة، وطلب من بولايتس أن يحرص على تقديم الطعام والشراب للمرسالين: «موسى وبيكو إجلبا عربة وابدآ بتحميلها كلساً سريعاً، رملاً أحمر محلياً، معدات، وكل ما قد نحتاج إليه لتصليح خط الأنابيب. وبقدر ما يمكن لثورين أن يجرا».

تبادل الرجلان النظرات وقال موسى معترضاً: «ولكننا لا نعرف طبيعة الضرر. وقد لا تكفي حمولة عربة واحدة».

«عندها نأتي بمعدات إضافية لدى مرورنا في نولا».

مشى ناحية مكتب القناة، فتبعه المرسال الآتي من نولا.

«ولكن ماذا عساي أقول للمحتسِبين؟» كان هذا الراكب صغير السن جداً. ووجهه ملطّخ كله بالغبار ما عدا فتحتيّ عينيه حيث يشير اللون الوردي فيهما إلى نظرته المشوبة بالخوف. «يريد الكهنة تقديم الأضاحي لنبتون. إنهم يقولون إن الكبريت ينبئ بالسوء».

«قل لهم إننا نعي المشكلة». وأشار أتيليوس بالخرائط التي يحملها وأضاف: «قل لهم إننا ننظم حملة للتصليح».

عبر أتيليوس المدخل المنخفض السقف ودخل إلى المهجع الصغير. كان إكزومنيوس قد ترك سجلات الأوغوستا في حالة فوضى: فواتير بيع، وصولات وقوائم حسابات، سندات إذنية، آراء وشروط قانونية، تقارير المهندسين، وقوائم جرد المخازن، ورسائل من قسم الوصاية على الموارد المائية، وأوامر من ضابط البحرية في ميسينوم ـ يعود بعضها إلى عشرين أو ثلاثين سنة ـ وهي منثورة خارج صناديقها وعلى الطاولة وعلى الأرض الإسمنتية. نظف أتيليوس الطاولة بكوع يده وفتح الخرائط.

نولا! كيف يعقل هذا؟ نولا عبارة عن مدينة كبيرة وتقع على بُعد ثلاثين ميلاً شرق ميسينوم ولا تقرب أبداً من حقول الكبريت. استخدم إبهامه للإشارة

twitter @baghdad_library

إلى المسافات. باستخدام العربة والثورين يلزمهم يومان على أحسن تقدير لمجرد الوصول إليها. والآن في الساعة العاشرة قد حان دورهم أخيراً وبشكل محتوم. أظهرت له الخريطة بكل وضوح كيفية انتشار المشكلة، حيث جف منسوب المياه بشكل حسابي دقيق. وأخذ يشير إلى الأماكن على الخريطة بإصبعه وشفتاه تتحركان بوتيرة خفيفة: ميلان ونصف الميل في الساعة! إن جفت المياه في نولا عند الفجر، إذاً فلا بد وأن أتشيرا وأتيلا لحقتا بها في منتصف الصباح. وإن فقدت نيابوليس التي تبعد اثني عشر ميلاً عن ميسينوم على الخط الساحلي مخزونها عند الظهر، إذاً فلا بد وأن بوتيولي لحقت بها في الساعة الثامنة وكيومي في الساعة التاسعة، وبايي في العاشرة. والآن أخيراً وبشكل محتوم في الساعة الثانية عشرة قد حان دورهم.

جفّت المياه من ثماني مدن. وحدها بومبي التي تبعد بضعة أميال عن نولا لم يُعرف عنها شيء حتى الآن. ولكن حتى دون احتسابها، بات ما يناهز المئتي ألف شخص دون مياه.

كان يعي أن المدخل وراءه يصيبه العتمة حيث أتى كوراكس واتكأ على إطار الباب وأخذ يراقبه.

لف الخرائط ودسها تحت إبطه.

«أعطني مفتاح السدود».

«لماذا؟».

«أليس الأمر جلياً؟ سوف أوقف تدفق المياه من الخزان».

«ولكنها مياه العسكر. لا يسعك فعل ذلك دون أخذ الإذن من الأميرال».

«إذاً لِمَ لا تحصل أنت على إذن الأميرال؟ أما أنا فسأقفل هذه السدود». للمرة الثانية في ذاك اليوم بات وجه كل منهما على بعد مسافة قليلة جداً: «إسمعني يا كوراكس. إن بيسينا ميرابيليس خزان احتياطي استراتيجي، هل فهمت؟ هو موجود لهذا الغرض، لكي يتم إيقاف تدفقه في الحالات الطارئة،

وكل لحظة نهدرها في الجدال نخسر المزيد من المياه. والآن أعطني المفتاح وإلا ستُساءل عن فعلك هذا في روما».

«حسناً لك ما تشاء أيها الفتى الوسيم». ودون أن يبعد عينيه عن وجه أتيليوس، أخذ المفتاح من الحلقة الموجودة على حزامه. «إعلم أنني سوف أذهب وأقابل الأميرال، وسأخبره بما كان يجري. وعندها سنرى من الذي سيُساءل عن أفعاله».

جذب أتيليوس المفتاح ومر بجانبه متوجهاً إلى الباحة، ونادى أقرب عبد قائلاً: «أقفل البوابة ورائي يا بولايتس. يمنع على أي كان الدخول دون إذني».

«حاضر أيها الساقي».

كان لا يزال يوجد حشود من الأشخاص الفضوليين في الطريق، ولكنهم فتحوا له المجال للمرور. لم يلقِ بالاً للأسئلة التي أخذوا يطرحونها عليه. استدار يساراً، ثم يساراً من جديد، ثم نزل على سلالم شديدة الانحدار. كانت المياه لا تزال تتدفّق في الأنابيب على بُعد مسافة. صوت تدفقها فوق رأسه وهي محصورة بين الجدران. أخذ الناس يلتفتون للتحديق به، فراح يبعدهم عن طريقه. تمسكت عاهرة صغيرة، لا يتعدى سنها العشر سنوات، بذراعه وأبت تركه إلى أن دس يده في الكيس الموجود على حزامه وأعطاها بضعة نقود نحاسية. رآها تشق طريقها وسط الحشود وتعطيها إلى رجل سمين من كبادوكيا وهو مالكها كما يبدو جلياً. فأخذ أتيليوس يلعن غباءه وهو يجد السير مسرعاً.

إن المبنى الذي يضم بوابة السد عبارة عن مبنى مكعب صغير مصنوع من القرميد الأحمر وبالكاد يفوق في ارتفاعه طول الرجل. ويوجد بجانب الباب تمثال لإيجيريا إلهة الينابيع. وعند قدميها ثمة بضعة جذوع لأزهار ذابلة وبعض الكتل العفنة من الخبز والفاكهة وهي أضاحٍ قدمتها نساء حوامل يعتقدن أن إيجيرا شريكة نوما، أمير السلام، ستسهل علَيهن الولادة عندما يحين موعدها. خرافة أخرى لا نفع لها، وهدر للطعام.

أدار المفتاح في القفل، وشد بغضب الباب الخشبي الثقيل.

twitter @baghdad_library

بات الآن على المستوى ذاته مع أرض بيسينا ميرابيليس. تصب المياه من الخزان تحت وطأة الضغط في نفق في الجدار عبر شبكة برونزية ملتفة كالدوامة في القناة المفتوحة عند قدميه، ثم تُمد إلى ثلاثة أنابيب تنتشر على شكل مروحة وتختفي تحت الأحجار اللوحية المرصوفة خلفه حاملة المياه إلى المرفأ وإلى مدينة ميسينوم. يتم التحكّم بالتدفّق عبر بوابة سد مثبتة على الجدار يتم تحريكها بمسكة خشبية مثبتة على دولاب حديدي، أضحت متصلبة نتيجة عدم استخدامها، مما اضطره إلى ضربها بكعب يده لحلّها. ولكن عندما فتلها بقوة مديراً ظهره لها بدأت تتحرك. أخذ يفتل هذه المسكة بكل ما أمكنه من سرعة، فنزلت البوابة محدثة قعقعة أشبه بشَعْريّة التحصين. فأخذت تسد تدريجياً تدفق المياه إلى أن توقف التدفّق نهائياً مخلفاً رائحة غبار رطب. لم يبق في القناة الحجرية سوى بُريكة موحلة أخذت تتبخر بسرعة شديدة تحت حرارة الشمس فوجد حجمها يتقلص. انحنى إلى الأسفل وغمس أصابعه في البقعة الرطبة، ثم مرر أصابعه على لسانه فلم يجد أي طعم للكبريت.

أخذ يفكر بأنه قد فعلها الآن، وحرم القوات البحرية من المياه وسط موجة من الجفاف دون أخذ الإذن من السلطات وبعد ثلاثة أيام من تسلمه لمهامه. ثمة رجال قد تم خلعهم من مناصبهم وإرسالهم إلى التعذيب بطواحين الدّوس لاقترافهم جرائم أقل وطأة. فخطر له كم كان غبياً لسماحه لكوراكس بأن يكون أول الذاهبين إلى الأميرال. فبالتأكيد ستُشكل محكمة للاستقصاء. ومنذ هذه اللحظة يحرص المراقب على إلقاء اللوم على شخص محدّد.

بعد إقفاله لباب غرفة السد، أخذ يحدق في الشارع المزدحم صعوداً ونزولاً. لم يكن أحد يوليه انتباهاً، إذ أنهم غافلون عما هو على وشك الحدوث. شعر وكأنه يمتلك سراً هائلاً، وقد جعلته هذه المعلومات يحاول الهرب من عيون الناس. مشى في زقاق ضيق ناحية المرفأ، وقد لزم الحائط في مشيته، وعيناه لا تبارحان الميزاب في جانب الطريق لتجنب نظرات الناس.

* * *

تقع فيللا الأميرال في أقصى طرف ميسينوم، وللوصول إليها اضطر المهندس إلى السير حوالي نصف ميل، حيث أخذ يمشي وإنما في بعض الأحيان ونتيجة للذعر الذي ينتابه يأخذ في الجري، فقطع ممراً ضيقاً ثم عبر جسراً خشبياً معلقاً يفصل بين مرفأي القاعدة البحرية.

كان قد تم تحذيره من الأميرال قبل مغادرته روما. قال له الوصي على الموارد المائية: «القائد العام هو غايوس بلينيوس. وعاجلاً أو آجلاً ستلتقي ببليني الذي يحسب أنه يعرف كل شيء عن كل الأمور. ستحتاج إلى أن تلاطفه بحذر، ويجدر بك إلقاء نظرة على آخر كتاب له ويدعى (التاريخ الطبيعي). ويحوي الكتاب كل الحقائق التي اكتُشفت حول الطبيعة الأم في سبعة وثلاثين مجلّداً».

كان ثمة نسخة من هذه المجلدات في المكتبة العامة في بورتيكوس في أوكتيفيا، ولم يتسنّ للمهندس الوقت لقراءة أكثر من قائمة المحتويات.

«العالم، شكله، وحركته. كسوف الشمس، وخسوف القمر. الصواعق الرعدية. الموسيقى الصادرة عن النجوم. بشائر السماء، حوادث مسجلة. أشعة السماء، تثاؤب السماء، ألوان السماء، لهب السماء، أكاليل السماء، دوائر مفاجئة. الكسوف. وابل الحصى...»

كان ثمة كتب أخرى لبليني في المكتبة: ستة مجلدات حول فن الخطابة، وثمانية مجلدات حول قواعد اللغة، وعشرون مجلداً حول الحرب في ألمانيا حيث ترأس سلاح الفرسان، وثلاثون مجلداً حول تاريخ الإمبراطورية الحديث حيث خدم كمدير مالي في إسبانيا وبلاد الغال البلجيكية. تساءل أتيليوس كيف تسنى له كتابة هذا القدر من الكتب والإرتقاء إلى هذه المناصب العالية في الإدارة الإمبراطورية في الوقت عينه. قال الوصي: «لأنه ليس لديه زوجة». ثم ضحك على النكتة التي أطلقها. «كما أنه لا ينام أيضاً. سترى كيف لن يتوانى عن إظهار أخطائك».

كانت السماء حمراء اللون نتيجة غروب الشمس وأمست البحيرة الضحلة

twitter @baghdad_library

الكبيرة على يمينه حيث يتم تشييد السفن الحربية وإصلاحها مهجورة في فترة المساء. وكان ثمة طيور بحرية تزقزق بحزن بين القصب. وعلى يساره في المرفأ الخارجي كانت معدّية ركاب تقترب منه وأشرعتها مرفوعة وعلى كل جنب منها اثنا عشر مجذافاً يتم تغطيسها في المياه بتناغم وهدوء وهي تسير بين السفن الثلاثية المجاذيف التابعة للأسطول الإمبراطوري والتي ترسو في المرفأ. كان الوقت متأخراً جداً على الرحلة الواصلة ليلاً من أوستيا مما يعني أنها على الأرجح رحلة محلية. إن ثقل المسافرين المتجمعين على ظهر المعدية المكشوف كان يضغط بها نزولاً

«شلالات من الحليب والدم واللحم والحديد والصوف والقرميد. بشائر. الكرة الأرضية في وسط العالم. زلازل. فجوات. ثقوب هوائية. أعاجيب تمتزج فيها النار والمياه: بقع معدنية، النفثالين، مناطق متقدة على الدوام. النمط التوافقي للعالم...»

كان يسير بسرعة تفوق سرعة جفاف الأنابيب وعندما مر بمحاذاة قوس النصر الذي يزين مدخل المرفأ رأى أن المياه لا تزال تتدفق في النافورة العامة الضخمة الموجودة في تقاطع الطرق. وحولها يتجمهر الحشد الذي اعتاد على التجمع هناك وقت الغروب، وهم بعض البحارة الذين يُسكرون رؤوسهم المرتبكة، وأطفال يرتدون ملابس بالية، يتصارخون ويرشون بعضهم بالماء، وصف من النسوة والعبيد يحملون أواني فخارية على خصورهم وأكتافهم بانتظار الحصول على المياه من أجل المساء. وهناك تمثال رخامي لأغسطس العظيم وقد وُضع بدقة على جانب التقاطع المزدحم من أجل تذكير المواطنين بالشخص الذي جلب لهم هذه النعمة، ويحدق التمثال بالموجودين من أعلى ببرودة وقد تجمّد في حالة شباب أبدي.

سارت المعدّية المزدحمة بمحاذاة رصيف الميناء. وقد تم رمي معبرَيها الأمامي والخلفي، فراح الخشب يتقوّس بفعل ثقل الركاب الذين يسيرون عليه للوصول إلى الشاطئ. وكانت الأمتعة تُرمى من يد إلى أخرى. وكان ثمة مالك لمعديّة نقل يركض في أرجاء السفينة ويركل حمّاليه لينهضوا على أرجلهم بعد

أن تفاجأ لسرعة مغادرة الركاب. نادى أتيليوس أحدهم من الجهة المقابلة ليسأل عن الوجهة التي أتت منها المعديّة فصرخ مالك معديّة النقل مجيباً إياه من فوق كتفه: «من نيابوليس يا صديقي وقبل ذلك من بومبي».

بومبي.

همّ أتيليوس بالمضي قدماً في طريقه، ولكنه فجأة توقف وأعاد النظر في المشي. أخذ يفكر في مدى غرابة الأمر، والغريب أنهم لم يسمعوا كلمة من بومبي وهي المدينة الأولى على خط الأنابيب الرئيسية. فتردّد في السير، ثم استدار ودسّ نفسه وسط الوفود القادمة. «هل ثمة أحد منكم من بومبي؟» أخذ يلوح بخرائط الأوغوستا الملفوفة لجذب الإنتباه إليه. «هل كان أحدكم في بومبي هذا الصباح؟» ولكن لم يبدِ له أحد أي انتباه. كانوا يشعرون بالعطش بعد الرحلة، فأدرك أنه لا بد لهم من ذلك إن كانوا قادمين من نيابوليس، إذ أن المياه جفت في الأنابيب وقت الظهر. مر معظم الناس عن جانبيه متشوقين للوصول إلى النافورة جميعهم ما عدا واحداً وهو رجل دين مسن يعتمر قبعة مخروطية الشكل ويحمل قضيب عرّافين متقوّساً ويسير ببطء متأملاً السماء.

قال عندما أوقفه أتيليوس: «لقد كنت في نيابوليس عصر هذا اليوم ولكني كنت هذا الصباح في بومبي؟ لماذا؟ هل ثمة ما يسعني فعله لمساعدتك يا بني؟» وارتسمت في عينيه الحمراوين نظرة ماكرة وانخفض صوته: «لا داع للخجل. أنا متمرس في تفسير جميع الظواهر المعتادة: الصواعق الرعدية، أحشاء حيوانات الأضاحي الرومانية، بشائر الطيور، المظاهر غير الطبيعية وتفسيراتي معقولة».

قال له المهندس: «هل لي بسؤالك أيها الأب متى غادرت بومبي؟»

«في ساعات الفجر الأولى».

«وهل كانت المياه تتدفق في النوافير؟ هل كان ثمة مياه؟»

كان ثمة الكثير يتوقف على جوابه لذا خشي أتيليوس الإجابة.

twitter @baghdad_library

«نعم كان هناك مياه». عبس العرّاف ورفع قضيبه ناحية الضوء الخافت. «ولكن عندما وصلت إلى نيابوليس كانت الشوارع جافة واشتممت في الحمامات رائحة الكبريت. لهذا السبب قررت الالتحاق بالمعدية والمجيء إلى هنا». عاد ونظر بعينين نصف مغمضتين إلى السماء بحثاً عن الطيور. «الكبريت نذير شؤم».

وافقه أتيليوس القول: «نعم هذا صحيح. ولكن هل أنت واثق؟ وهل أنت واثق أن المياه كانت جارية؟»

«نعم يا بني أنا واثق».

كان ثمة جلبة حول النافورة فالتفت الرجلان للنظر إلى ما يحدث. بداية لم يكن يحصل شيء يُذكر وإنما مجرد تدافع، ولكن سرعان ما تحول الناس إلى ملاكمة بعضهم بعضاً. بدت الحشود وكأنها تتجمع على بعضها البعض ومن وسط التجمع بدأت تتطاير في الهواء أوان فخارية كبيرة حيث استدارت ببطء وحطت على جانب الرصيف وتحطمت إلى أجزاء صغيرة، وبدأت امرأة بالصراخ، وأخذ رجل يرتدي قميصاً إغريقياً يشق طريقه وسط ظهور الحشود قابضاً بإحكام على قِربة ماء بين ذراعيه. كان الدم يتدفق من جرح أصيب به على صدغه. تعثر ثم نهض وأخذ يجد السير إلى أن غاب في زقاق.

فأخذ المهندس يفكر أن الأمور ستبدأ على هذا المنوال. أولاً ستجف هذه النافورة ثم ستجف النوافير الأخرى في أرجاء المرفأ، ثم مياه الحوض الكبير في المدرّج. ثم الحمامات العامة ثم الصنابير في المدرسة العسكرية وفي الفيللات الكبيرة. سوف لن يخرج شيء من الأنابيب الفارغة ما عدا قرقعة الترسبات المتناثرة وصفير الهواء المتدفق.

لقد جفت أنابيب المياه البعيدة وماتت بأنّة عميقة.

كان أحدهم يصرخ قائلاً إن ذاك اللعين الآتي من نيابوليس قد قطع طريقه وصولاً إلى الأمام بالتدافع وأخذ آخر قطرة من المياه. فالتفتت الحشود إلى هذا الأمر وكأنها وحش له عقل واحد ونبض واحد وأخذت تتدفق إلى الطريق

الضيق سعياً وراءه. وفجأة وبالسرعة التي نشب فيها الشجار توقف مخلفاً وراءه مشهداً من الأواني المهشمة والمتروكة وامرأتين تجلسان القرفصاء على التراب بالقرب من حافة النافورة الساكنة وأيديهما مرفوعة فوق رأسيهما حماية لهما.

twitter @baghdad_library

فيسبيرا

الساعة: ٢٠:٠٧

يمكن للهزات الأرضية أن تحدث في أماكن فيها ضغط مركّز مثل أماكن الصدع البيولوجي المجاورة، وفي الأماكن المجاورة جداً للحمم حيث تحدث تغيّرات في الضغط.

هارالدور سيغوردسون (محرر)

موسوعة البراكين

يقع مقر الأميرال الرسمي على أعلى التل مطلاً على المرفأ، وحينما وصل أتيليوس إلى المكان وتم إرشاده للتوجه إلى التراّس كان قد حل الغسق. على امتداد الخليج وفي جميع الفيللات المجاورة للبحر كان يتم إشعال جميع المشاعل وقناديل الزيت والمجمّرات، لذا بدأ تدريجياً ينبعث خيط من الضوء الأصفر المتكسّر، وأخذ ينتقل في الجو ميلاً بعد ميل مظهراً تقوّس خط الساحل، ثم اختفى في السديم البنفسجي ناحية كابري.

لدى وصول المهندس وجد قائد المئة البحري الروماني يغادر مسرعاً مرتدياً زيه كاملاً، إذ كان يرتدي درعاً للصدر ويعتمر خوذة ذات عُرف وعلى حزامه يتأرجح سيف. وكان يتم تنظيف بقايا وجبة كبيرة عن الطاولة الحجرية الموجودة تحت تعريشة. في البداية لم يثقف أتيليوس الأميرال ببصره ولكن بمجرد أن أعلن العبد عن وصوله قائلاً: ماركوس أتيليوس بريموس، ساقي الأكوا أوغوستا! التفت إليه رجل سمين في منتصف الخمسينات من عمره واقف في

twitter @baghdad_library

أقصى طرف التراس، وتقدّم ناحيته وتبعه الأشخاص الذين خمّن أتيليوس أنهم الضيوف الذين كانوا يتناولون العشاء معه: أربعة رجال يتصبّبون عرقاً في ثوب التّوغة الفضفاض، وواحد منهم على الأقل وبالنظر إلى الخط الأرجواني المرتسم على زيه الرسمي هو السيناتور. وأتى خلفهم شخص خنوع، حاقد، ولا يمكن تلافيه ألا وهو كوراكس. كان قد خُيّل لأتيليوس ولسبب ما أن هذا الرجل العالِم سيكون نحيفاً، ولكن في الواقع كان بليني سميناً حيث ينتأ كرشه بشكل كبير إلى الأمام مثل المنقار الموجود في مقدمة إحدى سفنه الحربية. وكان يمسح جبهته بمنديله.

«هل يُفترض بي اعتقالك الآن أيها الساقي؟ تعلم أن بوسعي ذلك وهذا أمر جلي جداً». كان يمتلك صوت رجل سمين حيث يُطلق صفيراً عالياً عند التنفس، وقد استحال صوته أجشاً أكثر وهو يعد التهم على أصابعه الممتلئة. «بادئ ذي بدء أنت متهم بعدم الكفاءة ـ من عساه يشكك بصحة ذلك؟ ثم الإهمال ـ أين كنتَ عندما لوّث الكبريت المياه؟ ثم عصيان الأوامر ـ بأي حق كففت عنا المياه؟ ثم الخيانة ـ نعم، بوسعي توجيه تهمة الخيانة لك. ماذا عن التسبب بحالة عصيان عند منطقة المسفن الإمبراطورية؟ اضطررتُ إلى إرسال كتيبة مؤلفة من مئة مقاتل من القوات البحرية، خمسون منهم ليهشموا بعض الرؤوس في البلدة ويحاولوا إعادة بسط النظام العام. والخمسون الآخرون أرسلتهم إلى الخزان ليحرسوا الكمية المتبقية من المياه أياً كانت. أما بالنسبة إلى الخيانة..» ثم كف عن الكلام نظراً إلى انقطاع نفسه. بدا بخديه المنتفخين وشفتيه المغضّنتين وخصل شعره الرمادية المعقوصة والمسدلة نزولاً بفعل التعرق أشبه بملاك مسن غاضب سقط من سقف مدهون ومقشّر. تقدم أحد أصغر ضيوفه ـ وهو فتى تغطي البثور وجهه يقارب سنه العشرين سنة ـ ليسند له ذراعه ولكن أبعده بليني برفع كتفيه. وخلف المجموعة كان كوراكس واقفاً وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة يُظهر فيها صف أسنانه القاتمة. لقد أفلح في بث السم بفعالية فاقت حتى توقعات أتيليوس. يا له من سياسي ماكر. حتى أن بوسعه تعليم السيناتور خدعة أو اثنتين.

لاحظ أتيليوس ظهور نجمة فوق فيسوفيوس. في الواقع لم يسبق له أن أمعن النظر إلى الجبل، وبالتأكيد ليس من هذه الزاوية. كانت السماء قاتمة ولكن الجبل كان قاتماً أكثر، بل أسود اللون تقريباً حيث يشهق إلى ارتفاع عال فوق الخليج مشكلاً في نهايته قمة مستدقّة الرأس. فأخذ يجول في ذهنه أن لب المشكلة يكمن هناك. في مكان ما على هذا الجبل. وليس على الجهة البحرية وإنما على جهة اليابسة على المنحدر الشمالي الشرقي.

ثم أخيراً أفلح بليني في التكلّم: «من أنت بأية حال؟ فأنا لا أعرفك. أنت صغير جداً في السن. ما الذي حصل للساقي الأصيل؟ ما كان اسمه؟»

قال كوراكس: «إكزومنيوس».

«نعم إكزومنيوس بالضبط. أين هو؟ وماذا يظن أسيليوس أفيولا أنه فاعل بإرساله صبياً لنا ليقوم بعمل الرجال؟ تكلم؟ هيا! ماذا لديك لتقوله دفاعاً عن نفسك؟»

كان جبل فيسوفيوس يشكل خلف الأميرال هرماً طبيعياً رائعاً زاده رونقاً وجود أشعة الضوء الخافتة الصادرة من الفيللا المطلة على الواجهة البحرية والتي تنير قاعدته. في بضعة أماكن كان النور أكثر إشعاعاً، فخمّن المهندس أن هذه مدن. لقد تعرف عليها من الخريطة، وأقرب مدينة ستكون هيركيولانيوم وأبعد مدينة بومبي.

وقف أتيليوس مستقيم الظهر وقال: «أحتاج إلى سفينة».

* * *

نشر خريطته على الطاولة في مكتبة بليني وقد وضع على جانبيها قطعتي مغناطيس أخذهما من خزانة العرض. تحرك عبد مسن وراء الأميرال حيث كان يشعل الشموع في شمعدان برونزي جميل. وكانت تصطف على الجدران خزائن مصنوعة من خشب الأرز وتتكدس عليها لفافات من أوراق البردي في أوعية شبيهة بأقراص العسل. وبالرغم من كون باب التراس مفتوحاً على مصراعيه إلا أنه لم تدخل أية نسمة هواء من ناحية البحر لتخفّف من وطأة الحر الشديد.

twitter @baghdad_library

أخذت خيوط الدخان السوداء الزيتية تتصاعد من الشمعات بشكل ساكن، وشعر أتيليوس بالعرق يتصبب على جانبي بطنه مما أشعره بالحكاك والانزعاج وكأنها حشرة تزحف على جلده.

قال الأميرال: «أخبر السيدات أننا سنعاود الانضمام إليهن بعد فترة وجيزة». التفت من ناحية العبد إلى ناحية المهندس وهز له برأسه. «حسناً أسمعنا ما لديك».

وعلى ضوء الشموع جال أتيليوس ببصره في وجوه الحاضرين الذين أخذوا يراقبونه. لقد تم إخباره بأسمائهم قبل جلوسهم وأراد أن يحرص على تذكرهم جميعاً. كان هناك بيديوس كاسكوس وهو سيناتور مسن بالكاد تذكره حيث احتل منصب القنصل منذ سنوات عديدة ويمتلك الآن فيللا كبيرة على ساحل هيركيولانيوم. وهناك بومبونيانوس، رفيق قديم لبليني من الجيش، وقد أتى عبر البحر من فيلته في ستابيا لتناول العشاء عند بليني. وأنتيوس، قبطان بارجة الأميرال (فيكتوريا). أما الشاب التي تغطي البثور وجهه فهو ابن أخت بليني ويدعى غايوس بلينيوس كاسيليوس الثاني.

وضع إصبعه على الخريطة وانحنوا جميعاً حتى كوراكس إلى الأمام.

«هذا هو المكان الذي اعتقدتُ في البداية أن العطل موجود فيه أيها الأميرال ـ هنا في الحقول المحترقة حول كيومي ـ وهذا يعلل سبب وجود الكبريت. ولكني عدتُ وعلمت أن المياه قد كفت عن التدفق في نولا أيضاً -هنا في الناحية الشرقية ـ حصل ذلك عند الفجر. والتوقيت في غاية الأهمية، لأنه وفقاً لشاهد كان موجوداً في بومبي في ساعات الفجر الأولى، كانت المياه لا تزال تتدفق في النوافير هناك صباح هذا اليوم. وكما ترى تبعد بومبي أكثر من نولا عن خط الأنابيب الرئيسي، لذا بحكم المنطق وجب أن تشح مياهها في منتصف الليل. ولأن ذلك لم يتم فهذا يعني أمراً واحداً، لا بد وأن العطل موجود هنا ـ رسم دائرة حول المكان ـ في مكان ما هنا، على هذا الخط الممتد خمسة أميال حيث تسير القناة بالقرب من فيسوفيوس».

عبس بليني لدى النظر إلى الخريطة: «ولِمَ السفينة؟ كيف ستستخدمها؟»

«أعتقد أنه لا يزال لدينا مياه تكفينا ليومين. فإذا انطلقنا براً من ميسينوم لنكتشف ما الذي حدث نحتاج على الأقل يومين حتى نجد مكان العطل. ولكن إذا توجهنا بحراً إلى بومبي ـ إن سافرنا دون أية حمولة وأخذنا معظم ما نحتاجه من المدينة ـ عندها ستتمكن من البدء بالتصليحات من الغد».

وسط الصمت الذي تلا كلامه، سمع المهندس صوت التقطّر المتواتر للساعة المائية الموجودة بجانب الباب. وقد تشكلت قشرة من الشمع على بعض البعوضات التي تحوم حول الشموع.

قال بليني: «كم رجل لدينا؟»

«لدينا خمسون رجلاً بالإجمال، ولكن معظمهم منتشر على امتداد خط الأنابيب ويقومون بصيانة الأحواض والخزانات في المدن. ولدي اثنا عشر رجلاً في ميسينوم. يمكنني اصطحاب نصفهم معي. وإذا احتجنا إلى مزيد من الأيدي العاملة سأستأجر بعض العمال من بومبي».

قال أنتيوس: «بوسعنا إعطاؤه سفينة صغيرة أيها الأميرال. في حال غادر في أولى ساعات الفجر سيصل إلى بومبي منتصف الصباح».

بدا على كوراكس الرعب لمجرد سماعه الإقتراح: «ولكن مع فائق احترامي، إلا أنني أرى أن كلامه هذا ليس إلا هذياناً من قِبله أيها الأميرال. لو كنتُ مكانك لما أبديت اهتماماً كبيراً لما يقوله. في البداية أود لو أعلم أنّى له هذه الثقة بأن المياه لا تزال جارية في بومبي».

«لقد التقيت برجل في المسفن أيها الأميرال في طريقي إلى هنا. إنه عرّاف. وكانت المعدّية المحلية قد رست لتوها. وقال لي إنه كان في بومبي صباح هذا اليوم».

سخر منه كوراكس قائلاً: «عرّاف! إذاً من المؤسف أنه لم ينبأ مسبقاً بكل هذا الذي حل علينا. ولكن لا بأس لنفترض أنه يقول الحقيقية، ولنفترض أن

twitter @baghdad_library

العطل موجود في بومبي. أنا أعرف هذا الجزء من خط الأنابيب أكثر من أي شخص آخر، يبلغ طوله خمسة أميال وكله تحت الأرض. سيستغرق الأمر أكثر من يوم واحد لمجرد أن نكتشف مكان العطل فيه».

اعترض أتيليوس قائلاً: «هذا غير صحيح. بوجود هذا القدر الكبير من المياه المتسرّبة من الأنابيب، حتى الأعمى بوسعه إيجاد مكان العطل».

«بوجود هذه الكمية الكبيرة من المياه المحتجزة داخل النفق، كيف لنا الدخول إليه والقيام بالتصليحات؟»

قال المهندس: «إسمعوا! عندما نصل إلى بومبي ننفصل إلى ثلاث مجموعات..». في الواقع لم يكن قد رتّب هذه الفكرة جيداً في رأسه، مما اضطره إلى اختلاقها خلال سياق كلامه. ولكنه شعر أن أنتيوس يقف إلى جانبه والأميرال لم يرفع بعد عينيه عن الخريطة، فأسهب في الكلام: «تتوجه المجموعة الأولى إلى الأوغوستا وتتبع الأنابيب الفرعية من بومبي حتى تقاطعها مع الخط الرئيسي ثم تتوجه غرباً. أؤكد لكم أن إيجاد مكان العطل لن يكون بالمهمة الشاقة. أما المجموعة الثانية فتبقى في بومبي وتجمع ما يكفي من الرجال والمعدات للقيام بالتصليحات. وتتوجه المجموعة الثالثة إلى الجبال، إلى الينابيع في أبيلينوم، حاملة تعليمات بقطع إمداد الأوغوستا».

رفع السناتور عينيه وتوجه إليه بنظرة حادة: «هل يمكن تنفيذ هذا؟ في روما عندما يُراد إقفال قناة جر مياه من أجل القيام بالتصليحات تبقى مقفلة لأسابيع»؟

«وفق الرسوم يا سيناتور، نعم يمكن تنفيذ هذا الأمر..». شعر أتيليوس أن الإلهام قد نزل عليه ولكن لم يلحظ ذلك سواه. كانت العملية برمتها تأخذ شكلها الكامل في رأسه، حتى وهو يقوم بشرحها: «لم يسبق لي رؤية ينابيع سيرينوس بنفسي، ولكن وفق هذه الخرائط يبدو أنها تصب في حوض مع قناتين. وتتجه معظم المياه غرباً إلينا. ولكن تمتد قناة أصغر حجماً شمالاً لتغذية بينيفينتوم. إذا أرسلنا كل المياه شمالاً وتركنا القناة الغربية حتى تجف، بوسعنا الدخول إليها والقيام بالتصليحات. وأعني أننا لسنا مضطرين إلى سدها وتغيير

مجراها بشكل مؤقت، وهذا ما نضطر إلى فعله لدى تصليح قنوات روما، قبل أن نبدأ بأعمال الصيانة حتى. بوسعنا العمل بوتيرة أسرع بكثير».

نقل السيناتور عينيه المنخفضتين إلى كوراكس. «هل هذا صحيح أيها المراقب؟»

وافق كوراكس بتردد قائلاً: «ربما». بدا أنه يشعر بالهزيمة، ولكن ما كان ليستسلم دون عراك: «مع ذلك ما زلت أصر على أنه يتفوه بالترّهات في حال كان يحسب أننا سنتمّم العمل في يوم أو يومين أيها الأميرال. فكما قلت لكم أنا أعرف هذه الأنابيب. كانت لدينا مشاكل هنا قبل حوالي عشرين سنة عندما حصل الزلزال الكبير. وكان إكزومينوس هو الساقي وكان جديداً في عمله. كان قد وصل لتوه من روما وكانت مهمته الأولى، وعملنا عليها سوياً. صحيح أن خط الأنابيب الرئيسي لم يُسد كلياً، أعترف بذلك، ولكن مع ذلك أخذنا أسابيع حتى أفلحنا في تصليح جميع الشقوق التي لحقت بالنفق».

«أي زلزال كبير؟» لم يسبق لأتيليوس أبداً أن سمع بهذا الأمر.

تدخل ابن أخت بليني للمرة الأولى وقال: «في الحقيقة وقع هذا الزلزال قبل سبع عشرة سنة. وحصل في الخامس من شهر شباط خلال فترة حكم ريغيولوس وفيرجينيوس كقنصلين. كان الإمبراطور نيرون في نيابوليس، واقفاً على المسرح في ذاك الوقت. يصف الفيلسوف سينيكا ما حصل. لا بد وأنك قرأت كتاباته يا خالي؟ المقطع الذي يدور عن الزلزال موجود ضمن كتاب (مسائل الطبيعة)، إنه الكتاب السادس».

قال الأميرال بحدة: «نعم يا غايوس، شكراً لك. لقد قرأته، إلا أنني وكما يبدو جلياً شاكر لك على إعطائي المرجع». حدق بالخريطة ثم نفخ خديه وتمتم قائلاً: «أتساءل. .». استدار في كرسيه وصرخ منادياً لعبد: «درومو إجلب لي كأس النبيذ بسرعة!»

«هل أصابك أي سوء يا خالي؟»

twitter @baghdad_library

«لا   لا». وضع بليني ذقنه على معصميه وأعاد انتباهه إلى الخريطة. «إذاً هذا ما ألحق الضرر بالأوغوستا؟ زلزال؟»

فاعترض أنتيوس قائلاً: «لكُنا بكل تأكيد شعرنا به؟ فهذا الزلزال الأخير دمر جزءاً لا يُستهان به من بومبي. إنهم لا يزالون يعيدون البناء، وتنتشر ورش البناء في نصف المدينة. ليس لدينا أية تقارير تشير إلى وقوع زلزال».

واصل بليني كلامه وكأنه يتوجّه بهذا الكلام إلى نفسه: «مع ذلك فإن هذا الطقس بكل تأكيد يشبه طقس الزلزال. بحر ساكن الأمواج. سماء لا نسمة هواء فيها لدرجة أن الطيور لا تكاد تستطيع الطيران. في الظروف العادية كنا نتوقع هبوب عاصفة، ولكن عندما يتقاطع ساتورن وجوبيتر ومارس مع الشمس بدل أن ينطلق الرعد في الهواء ترى الطبيعة تطلقه أحياناً في جوف الأرض. هذا هو تعريف الزلزال برأيي، إنه صاعقة رعدية منطلقة من جوف الأرض».

تحرّك العبد بجانبه حاملاً بيديه صينية وفي وسطها قارورة زجاجية كبيرة مليئة حتى حدود الثلاثة أرباع. تنحنح بليني ورفع النبيذ ناحية ضوء الشموع.

همس بومبونيانوس برهبة: «يبلغ الكاكوبي الأربعين من عمره ولا يزال يتلذذ بشرب الخمر الجيد». ثم لعق شفتيه المنتفختين بلسانه: «لن أمانع في شرب كأس أخرى يا بليني».

«بعد قليل.   انظر الآن». مرر بليني النبيذ رواحاً وجيئة أمامهم. كان سميكاً وثقيل القوام وبلون العسل. شم أتيليوس رائحة تعتقه الحلوة عندما مر الشراب تحت أنفه. «والآن شاهدوا عن كثب أكثر». وضع الكأس بحذر على الطاولة.

في البداية لم يفهم المهندس الفكرة التي يحاول بليني إيصالها، ولكن حينما أمعن النظر بالكأس أكثر وجد أن سطح النبيذ يهتز ببطء. دوائر صغيرة تنبثق من الوسط كاهتزاز وتر مثبت. رفع بليني الكأس، فتوقفت الحركة، ثم أعاد وضعها فعادت الحركة.

«لاحظتُ هذا الأمر خلال العشاء. لقد دربتُ نفسي على التيقظ للأمور التي

تحدث في الطبيعة والتي قد لا ينتبه إليها الآخرون. الاهتزاز ليس متواصلاً أترون الآن، النبيذ ساكن».

قال بومبونيانوس: «هذا أمر ملحوظ جداً يا بليني. أنا أهنئك. أخشى أنه حينما أحمل كأساً بيدي لن أعمد إلى وضعها على الطاولة بتاتاً ما لم تفرغ كلياً».

كان السيناتور أقل تأثراً. كتّف ذراعيه وأرجع ظهره إلى الكرسي خلفه وكأنه حوّل نفسه إلى أضحوكة ما بمراقبته لمثل هذه الخدعة الطفولية. «لا أدري ما الملحوظ بهذا الصدد. إذاً فهذه الطاولة تهتز؟ قد يرجع السبب إلى أي شيء. الرياح..».

«ليس ثمة رياح».

«وقع خطوات ثقيلة في مكان ما. أو ربما كان بومبونيانوس يلكز إحدى السيدات تحت الطاولة».

خفّفت الضحكات من حدة التوتر. وحده بليني لم يبتسم: «إننا نعلم أن هذا العالم الذي نعيش فيه والذي يبدو لنا ساكناً جداً هو في الواقع يدور بشكل أبدي بسرعة لا توصف. وقد تنتج هذه الكتلة التي تدور في الفضاء صوتاً وقعه أعلى من قدرة آذاننا على التقاطه. فالنجوم الموجودة في السماء على سبيل المثال قد تكون ترن كالأجراس الهوائية لو استطعنا سماعها فحسب. هل يعقل أن تكون الحركة الموجودة في كأس النبيذ هذه هي التعبير المادي لهذا التناغم السماوي نفسه؟».

«إذاً لماذا تتوقف ثم تبدأ من جديد؟»

«ليس لدي جواب يا كاسكاس. ربما تدور الأرض لفترة من الوقت بسكون وفي فترة أخرى تواجه مقاومة. ثمة مدرسة تقول إن الرياح تنتج عن سير الأرض باتجاه معين والنجوم باتجاه آخر. أيها الساقي ما رأيك؟»

قال أتيليوس بلباقة: «أنا مهندس أيها الأميرال ولستُ بفيلسوف». ففي رأيه

twitter @baghdad_library

كانوا يضيعون الوقت. فكّر في ذكر الظاهرة الغريبة لانبعاث البخار على جانب التل صباح ذاك اليوم، ولكنه عدل عن فكرته هذه. نجوم رنّانة! كان ينقر برجليه بنفاذ صبر: «جل ما يسعني قوله لكم إن خط الأنابيب التابع لقناة جر المياه مبني بطريقة يحتمل فيها أعتى القوى. حيث تسير الأوغوستا تحت سطح الأرض، وهذا شأنها معظم الطريق الذي تمتد فيه، فهي تقع على ارتفاع ستة أقدام وبعرض ثلاثة أقدام وتقبع على أساس إسمنتي سماكته إنش ونصف الإنش ولها جدران تتمتع بالمقاييس نفسها. لذا فأي قوة أثرت فيها لا بد أن تكون هائلة».

«أكثر قوة من القوة التي تهز نبيذي؟» ثم نظر الأميرال إلى السيناتور: «إلا إن لم نكن نتعامل مع قوة طبيعية على الإطلاق. في كلتا الحالتين ما عساها تكون؟ عملية تخريب مقصودة، ربما موجهة لأذية الفيلق؟ ولكن من عساه يجرؤ على القيام بذلك؟ إذ إنه لم يطأ أي عدو أجنبي على هذا الجزء من إيطاليا منذ أيام هنيبعل».

«وعملية التخريب لا تعلل وجود الكبريت».

قال بومبونيانوس فجأة: «كبريت. إنها المواد الموجودة في الصواعق الرعدية أليس كذلك؟ ومن الذي يرسل الرعد؟» تلفت من حوله بحماسة. «إنه جوبيتير! يجدر بنا التضحية بثور أبيض لجوبيتير كونه إله الهواء العلوي، ولنجعلْ العرّافين يدققون في أحشائه. سوف يخبروننا ما عسانا نفعل».

ضحك المهندس فسأله بومبونيانوس: «وما المضحك في الموضوع؟ إنه ليس أمراً مضحكاً بقدر فكرة أن الأرض تطير في الفضاء، الأمر الذي يثير السؤال يا بليني إن سمحت لي هو: لماذا لا نقع عنها».

قال بليني بلطف: «إنه اقتراح ممتاز يا صديقي. بصفتي الأميرال، وبما أنه يصادف أيضاً أنني رئيس كهنة ميسينوم أؤكد لك لو أنني كنت أملك ثوراً أبيض لكنت قتلته على الفور. ولكن في الوقت الراهن نحتاج إلى حل أكثر عملانية». أرجع ظهره إلى الكرسي ومسح وجهه بمنديله ثم فتحه وتفحصه وكأنه قد يحوي

دليلاً مهماً. «حسناً أيها الساقي سوف أعطيك السفينة التي طلبتها». ثم التفت إلى القبطان وسأله: «أيها القبطان أي السفن هي الأسرع في الفيلق؟»

«إنها المينيرفا أيها الأميرال. سفينة توركواتوس. وقد عادت لتوها من رافينا».

«جهّزها للإبحار عند ساعات الفجر الأولى».

«حاضر أيها الأميرال».

«وأريد وضع ملاحظات عند جميع النوافير تفيدون فيها الناس أنه تم البدء بالتقنين. سوف يُسمح بتدفق المياه مرتين في اليوم فحسب، ولمدة ساعة واحدة عند الفجر وعند الغسق تحديداً».

جفل أنتيوس لدى سماعه هذا الكلام. «أنسيتَ أن الغد يوم عطلة أيها الأميرال؟ إنه عيد فلكاناليا إن كنت تذكر؟»

«أنا أعي تماماً ان الغد عيد فلكاناليا».

قال أتيليوس في قرارة نفسه: «وإن يكن». ففي عجلته لمغادرة روما وفي خضم قلقه على القناة نسي التقويم تماماً. الثالث والعشرون من شهر آب، يوم فلكان، حيث تُرمى الأسماك الحية على النيران المضرمة في الهواء الطلق كأضاحٍ لإرضاء إله النار.

فأصر أنتيوس على فكرته قائلاً: «ولكنْ ماذا عن الحمّامات العامة؟»

«ستُقفل حتى إشعار آخر».

«سوف لن يعجبهم هذا الأمر أيها الأميرال».

«حسناً ليس بيدنا حيلة. وعلى كل حال، لقد تساهلنا معهم جداً». رمق بومبونيانوس بنظرة سريعة. «لم تُبنَ الإمبراطورية بأيدي رجال يقضون أيامهم متكاسلين في الحمّامات. سينفع الناس أن يتذوقوا ما كانت الحياة عليه من قبل. غايوس، حرّر لي رسالة كي أوقعها وأرسلها إلى المحتسبين في بومبي

twitter @baghdad_library

نطلب منهم فيها توفير كل ما يلزم من رجال ومعدات لتصليح القناة. أنت تعلم هذا النوع من الأمور. «باسم الإمبراطور تيتوس سيزار فيسباسيانوس أوغوستوس وتبعاً للسلطة الممنوحة لي من قبل مجلس شيوخ روما وشعبها إلخ. إلخ. كلام يجعلهم يقفزون من أرضهم. يبدو واضحاً يا كوراكس أنك تعرف المكان الذي يحيط بجبل فيسوفيوس أكثر من أي شخص آخر. أنت من يجدر به التوجه إلى هناك على ظهر جواد وتحديد العطل، في الوقت الذي يجمع فيه الساقي فرقة العمل في بومبي».

فغر المراقب فاه نتيجة للصدمة.

«ما الأمر؟ هل ترفض القيام بذلك؟»

«لا أيها الأميرال». أخفى كوراكس توتره سريعاً ولكن لم يخفَ على أتيليوس هذا التوتر. «أنا لا أمانع التوجه للتفتيش عن مكان العطل. ولكن أليس من المنطقي أكثر أن يبقى واحد منا في الخزان للإشراف على عملية التقنين؟». قاطعه بليني بنفاد صبر. «سيكون التقنين من مسؤولية البحرية. إنها مسألة فرض النظام العام بشكل أساسي».

لبرهة من الوقت بدا كوراكس وكأنه سيدخل ضمن جدال ولكنه ما لبث ن حنى رأسه وقد ارتسم العبوس على وجهه.

صدرتْ من ناحية التراس أصوات نساء ثم تعالت الضحكات.

أخذ أتيليوس يفكر فجأة: إن المراقب لا يريد له الذهاب إلى بومبي. إن كل هذا الأداء الذي قام به الليلة يهدف لدفعي بعيداً عن بومبي.

ظهرت امرأة شعرها مصفّف بشكل مرتب أمام الباب. لا بد وأنها تبلغ الستين من عمرها. لم يسبق لأتيليوس أن رأى في حياته لآلىء بقدر حجم تلك التي تحيط برقبتها. وجهت إصبعها ناحية السيناتور: «عزيزي كاسكاس حتّامَ تنوي إبقاءنا ننتظر». قال بليني: «أعذرينا يا ركتينا، لقد فرغنا تقريباً. هل يريد أحد إضافة أي شيء؟» أخذ ينظر إليهم الواحد تلو الآخر. «لا إذاً في هذه الحال أقترح أن نعود إلى العشاء».

دفع كرسيه إلى الوراء ووقف الجميع. صعّب حجم بطنه الكبير عليه النهوض. فقدم له غايوس ذراعه ولكن لوّح له الأميرال كي يبعدها. فاضطر إلى الترنح إلى الأمام عدة مرات وانقطع نفسه نتيجة الجهد الذي بذله حتى تمكن أخيراً من دفع نفسه إلى الوقوف على رجليه. تمسك بالطاولة بيد وباليد الأخرى مد يده ليحمل كأسه، ثم توقف وأصابعه الممدودة عالقة في الهواء.

كان النبيذ قد عاود الاهتزاز بشكل طفيف.

نفخ خديه: «أعتقد أنه عليّ التضحية بهذا الثور الأبيض يا بومبونيانوس». ثم قال لأتيليوس: «وأنت ستعيد إلي المياه بعد يومين». التقط الكأس وارتشف رشفة: «وإلا فصدقني سنحتاج جميعاً إلى حماية جوبيتير».

twitter @baghdad_library

نوكتي إنتيمبيستا

الساعة ٢٣:٢٢

تعكّر حركة الحمم المياه الجوفية، وتوتّر في تدفّقها وحرارتها.

موسوعة البراكين

بعد ساعتين كان المهندس ممدداً على سريره الخشبي الضيق عارياً والنوم يجافيه، بانتظار بزوغ الفجر. كان قد اختفى صوت قناة المياه المألوف والذي كان أشبه بالتهويدة وحلت محله جميع أصوات الليل الخافتة: الصرير الصادر عن نعال الحراس الموجودين في الشارع خارجاً، وخشخشة الفئران في الرافدات، والسعال المتقطع الجاف لأحد العبيد في مقرات السكن في الأسفل. أغمض عينيه ثم ما لبث أن فتحهما سريعاً. وسط معمعة الأزمة كان قد أفلح في نسيان منظر الجثة التي تم سحبها من حوض أسماك الأنقليس، ولكن وسط الظلام وجد نفسه يعيد تذكّر المشهد برمّته. ذلك الصمت المطبق على حافة المياه، والإمساك بالجثة بواسطة خطّاف وجرها إلى الشاطئ، والدماء، وعويل المرأة، ووجه الفتاة القلِق وأوصالها البيضاء الناصعة.

كان يشعر بالإنهاك الشديد مما أبعد عنه الشعور بالراحة، فأنزل رجليه الحافيتين على الأرض الدافئة. كان ثمة قنديل زيتي صغير مضاء على الطاولة الجانبية وإلى جانبه تقبع رسالته التي كان يكتبها رغبة بإرسالها إلى دياره. فوجد أنه لم يعد هناك جدوى من إكمالها. إما أن يصلح القناة وعندها سيبعث لوالدته وأخته رسالة لدى عودته، وإما أنهما ستريانه بعد أن يتم إرجاعه موصوماً بالعار

twitter @baghdad_library

إلى روما على متن سفينة ليواجه محكمة استقصاء، وهذا الأمر ليس سوى تدنيس لشرف العائلة.

حمل القنديل وأخذه إلى الرف الموجود على حافة السرير ووضعه بين التماثيل الصغيرة التي تمثل أرواح أسلافه. ركع على الأرض ومد يده وحمل تمثال والد جده. هل يُعقل أن ذاك الرجل كان أحد المهندسين الأوائل العاملين في قناة الأوغوستا؟ وجد أن هذا الأمر ليس بالمستحيل، فقد أظهرت سجلات مجلس الوصاية على الموارد المائية أن أغريبا استحضر فرقة عاملة تتألف من أربعين ألف شخص من عبيد وفيلقيين وبنى القناة خلال ثمانية عشر شهراً. حصل ذلك بعد ست سنوات من بنائه لقناة جوليا في روما، وقبل سبع سنوات من بنائه لقناة فيرغو. وبكل تأكيد عمل والد جده في كلتا القناتين. كان يشعر بالسرور للتفكير بأن فرداً سابقاً من آل أتيليوس قد توجه جنوباً إلى هذه الأرض القاحلة، وربما جلس في هذا المكان بالتحديد في الوقت الذي كان يحفر فيه العبيد البيسينا ميرابيليس. شعر بأن شجاعته تتنامى، فالرجال هم الذين بنوا قناة الأوغوستا وهم الذي سيقومون بإصلاحها. هو سوف يقوم بإصلاحها.

أخذ يفكر بوالده. ثم وضع التمثال وأخذ غيره ومرر إبهامه بلطف على رأسه الناعم.

كان والدك رجلاً شجاعاً، إحرص على أن تكون شجاعاً مثله.

عندما أنهى والده العمل على قناة كلوديا كان لا يزال صغير السن، ولكنه كان دائماً يسمع قصة يوم الافتتاح، وكيف أنه في الشهر الرابع من عمره تناقلته أكتاف المهندسين وسط الحشد الكبير المتواجد على تلة إيسكويلين. فكان يتبدّى له أحياناً أن بوسعه تذكّر هذه الحادثة جيداً، حيث كان العجوز كلوديوس يرتعش ويتلعثم وهو يقدم الأضاحي إلى نبتون، ثم ظهور المياه في القناة وكأن هذا حصل بفعل سحر ما في اللحظة نفسها التي رفع فيها يديه إلى السماء. ولكن لم يكن لذلك أية علاقة بتدخل الآلهة، على الرغم من شهيق الحاضرين. لقد حصل ذلك لأن والده كان ملماً بقوانين الهندسة وقد فتح السدود في أعلى

القناة قبل ثماني عشرة ساعة بالضبط من وصول الاحتفال إلى ذروته، ثم عاد على ظهر جواده إلى المدينة بسرعة فاقت سرعة المياه.

أخذ يتأمل في قطعة الطين الموجودة في راحة يده.

وأنت يا والدي؟ هل سبق لك أن أتيت إلى ميسينوم؟ هل عرفت إكزومنيوس؟ لطالما كان سقاة روما أشبه بالعائلة، متقاربين من بعضهم البعض كالعُصبة، كما كنت تقول. هل كان إكزومنيوس أحد أولئك المهندسين الموجودين على تلة إيسكويلين يوم انتصارك؟ هل أرجحني بين يديه مثل الباقين؟

حدّق في التمثال لفترة من الوقت ثم قبّله ووضعه بحذر إلى جانب التماثيل الأخرى.

ثم رجع إلى الوراء وجلس على وركيه.

في البداية اختفى الساقي ثم اختفت المياه. كلما فكر في الأمر أكثر ترسخت قناعته بوجود صلة بين الأمرين. ولكن ما هي هذه الصله؟ حدّق من حوله في الجدران الخشنة. ليس ثمة أي دليل هنا، هذا مؤكد. ليس ثمة أي أثر تُرك من قِبل أي شخص في هذه الحجرة الفارغة. مع ذلك ووفقاً لكوراكس ظل إكزومنيوس يدير قناة الأوغوستا لمدة عشرين سنة.

حمل القنديل وخرج إلى الممر، وهو يغطي اللهب بيده. فتح الستارة فأضاء القنديل المهجع حيث يتم تخزين ممتلكات إكزومنيوس. صندوقان خشبيان، شمعدان برونزي، عباءة، صندل، وقدر للبول. لم تكن بالأغراض الكثيرة التي تشير إلى مدة طويلة من الزمن. لاحظ أن الصندوقين ليسا مقفلين.

حدّق باتجاه السلالم ولكن الصوت الوحيد الذي كان يصدر من الأسفل هو صوت الشخير. ظل يحمل القنديل بيد وباليد الأخرى رفع غطاء الصندوق الأقرب وأخذ يتفحص محتوياته. كان يحوي ملابس قديمة بأغلبه، وقد انبعثت منها رائحة عرق قوية خلال تحريكه لها. وجد في الصندوق قميصين وملابس داخلية وتوغا وجميعها مطوية بترتيب. أقفل الغطاء بكل هدوء ورفع غطاء الصندوق الآخر. لم يجد الكثير في هذا الصندوق أيضاً. وجد كاشطة جلد

twitter @baghdad_library

لإزالة الزيت في الحمامات، وتمثالاً مضحكاً لبريابوس له قضيب طويل جداً، وكوباً من الفخار مخصصاً لرمي أحجار النرد، وعلى أطرافه أكثر من قضيب. وهناك أحجار النرد نفسها، وبضعة مرطبانات زجاجية تحوي مختلف الأعشاب والمراهم، وصحنان، وقدح برونزي صغير مطلي بطريقة بشعة.

خض أحجار النرد بلطف شديد داخل الكوب ثم رماها. فحالفه الحظ. أربع ستات ـ رمية فينوس. جرب مرة أخرى، فرمى رمية فينوس أخرى. ثم رمى رمية فينوس ثالثة. يا له من نرد منحاز!

وضع النرد جانباً وحمل القدح. هل كان فعلاً برونزياً؟ تفحّصه عن كثب، فلم يكن واثقاً جداً من هذا الأمر. وزنه بيده وقلّبه ثم تنفّس عليه وفرك كعبه بإبهامه. ظهرت لطخة ذهبية وجزء من حرف ب محفور عليه. فركه من جديد فأخذ يظهر تدريجياً المعدن اللامع إلى أن اتضح له جميع الأحرف الأولية.

ن.ب.ن.أ.م

يرمز الحرف م إلى كلمة المعتق أي العبد الذي تم تحريره.

عبد حرره رجل يملكه تبدأ كنيته بحرف ب، وقد كان في غاية الثراء وفي غاية الجرأة، ليشرب النبيذ من قدح ذهبي.

فجأة سمع صوتها بوضوح في أذنيه وكأنها تقف إلى جانبه:

إسمي كوريليا أمبلياتا، إبنة نوميريوس بوبيديوس أمبلياتوس، مالك فيللا أورتنسيا.

* * *

انسدلت أشعة القمر على الطريق الضيقة المرصوفة بأحجار سوداء، ورسمت ظلال الأسقف المسطحة، وبدا الطقس حاراً كما كان عليه في أواخر عصر اليوم السابق، وقد كانت أشعة القمر قوية بقدر أشعة الشمس. لدى صعوده على السلالم بين المنازل المغلقة الساكنة، أخذ يتخيّلها تسير أمامه وتراءت له حركة وركيها تحت الفستان الأبيض البسيط.

بضع مئات من الخطوات. أجل، ولكن الطريق كلها صعود.

عاد من جديد إلى مستوى الأرض ثم وصل إلى الجدار العالي للفيللا الكبيرة عندما قفزت هرة رمادية اللون فوق الجدار واختفت على الجانب الآخر. وبدا فوق البوابة المقفلة دلافين فضية اللون متشابكة وتقبّل بعضها بعضاً. سمع صوت البحر عن بُعد وهو يتحرك باتجاه الشاطئ وأصوات الصرصار في الحديقة. ضرب بيده على القضبان الحديدية ووضع وجهه على المعدن الدافئ. كانت غرفة البواب مغلقة ومدعّمة بقضبان، وليس بالإمكان رؤية أي ضوء.

أخذ يتذكّر ردة فعل أمبلياتوس لدى وصوله إلى الشاطئ: «ماذا حصل لإكزومنيوس؟ ولكن طبعاً ما يزال إكزومنيوس الساقي؟» لمس في صوته أثر المفاجأة، والآن أخذ يفكر بهذا الأمر، وربما يوجد في صوته ما هو أكثر من ذلك: التنبّه إلى الخطر.

«كوريليا!» نادى اسمها بكل لطف. «كوريليا أمبلياتا!»

لم يتلقَّ أي جواب. ثم صدر همس من وسط الظلام، كان خافتاً جداً لدرجة أنه كاد ألا يسمعه: «لقد رحلت».

لقد كان صوت امرأة، وقد صدر من مكان ما عن يساره. تراجع عن البوابة وحدّق في الظلال، لم يسعه تبيّن أي شيء عدا عن كومة خرق صغيرة مقابل الجدار. اقترب أكثر فوجد أن كومة الملابس تتحرك ببطء، ونتأت قدم نحيلة أشبه بالعظمة، كانت والدة العبد الميت. ركع على ركبة واحدة ولمس بحذر قماش فستانها الخشن، فارتجفت ثم أنّت وتمتمت شيئاً. سحب يده فوجد دماء على أصابعه.

«هل يسعك الوقوف؟»

كرّرت له قائلة: «لقد رحلتْ».

رفعها بحذر إلى أن جلست واتّكأت على الجدار. انحنى رأسها المتورم إلى

twitter @baghdad_library

الأمام، فلاحظ أن شعرها المتلبّد قد خلّف بقعة رطبة على الجدار. لقد تم جلدها بالسوط وتعرضت لضرب عنيف ثم رُميت خارج المنزل حتى تموت.

ن.ب.ن.أ.م.: نوميريوس بوبيديوس نوميراي أمبلياتوس.المعتق

منحته عائلة بوبيديوس حريته. وقد كان من مسلّمات الحياة أنه ليس ثمة سيد أقصى قلباً من الشخص الذي كان عبداً فيما مضى.

ضغط بإصبعه بلطف على رقبتها ليتأكد مما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. ثم وضع ذراعاً تحت ركبتيها ووضع الذراع الأخرى حول كتفيها. لم يبذل مجهوداً كبيراً للنهوض، فالمرأة لم تكن سوى بضعة عظام وخرق بالية. في مكان ما في الشوارع وبالقرب من المرفأ كان المراقب الليلي ينادي بحلول قسم الظلام الخامس: «ميديا نوكتيس إنكليناتيو» أي منتصف الليل.

وقف المهندس باستقامة وانطلق نزولاً على التل مع أفول نهار مارس وحلول نهار ميركيوري.

ميركيوري

الثالث والعشرون من شهر آب

اليوم السابق لثوران البركان

twitter @baghdad_library

ديلوكيولوم

الساعة ٠٦:٠٠

قبل سنة ٧٩ ب.م. تجمّع تحت البركان خزّان من الحمم. ليس بالإمكان معرفة الوقت الذي بدأت فيه هذه الحمم تتشكل، ولكن بلغ حجمها على الأقل ٣,٦ كيلومترات مكعّبة، وتقع تحت السطح بحوالي ثلاثة كيلومترات، وهي مكوّنة من طبقات وغنية بالمادة القلوية المتفجرة (٥٥٪ من ثاني أوكسيد السيليكون، وحوالي ١٠٪ من أوكسيد البوتاسيوم)، وتعلوها حمم أكثر كثافة تحوي كمية أكبر من الحديد والمغنيسيوم.

بيتر فرانسيس، البراكين: منظور أرضي

في أعلى المنارة الحجرية الكبيرة المتوارية خلف مرتفع موجود على رأس بحري في الجهة الجنوبية، كان العبيد يطفئون النيران تحية لبزوغ الفجر. من المفترض أن هذا المكان هو مكان مقدس، ووفقاً لفيرجيل، تم في هذا المكان تحديداً دفن ميسينوس، رسول الطرواديين بعد أن ذبحه إله البحر تريتون، وقد أُلقي إلى جانبه مجاذيفه وبوقه.

أخذ أتيليوس يراقب الضوء الأحمر وهو يختفي وراء الرأس المزروع بالأشجار، في حين أخذت ظلال السفن الحربية الموجودة في المرفأ تتضح أكثر للعيان تحت السماء الرمادية. استدار وعاود المشي على رصيف الميناء إلى حيث كان الآخرون ينتظرون، وأخيراً تمكن من رؤية وجوههم. رأى موسى، وبيكو، وكورفينوس، وبولايتس، وقد باتوا مألوفين بالنسبة إليه كعائلته. ولكن لم يظهر بعد أي أثر لكوراكس.

twitter @baghdad_library

كان موسى يقول: «تسعة مواخير! صدقني إذا أردت ممارسة الجنس، فبومبي هي المكان الأنسب. حتى بيكو بوسعه أن يخوض هذه التجربة بغية بعض التغيير». ثم نادى عندما شاهد أتيليوس يقترب منهم: «مرحباً أيها الساقي! أخبر بيكو أن بوسعه ممارسة الجنس».

كانت تفوح من الرصيف رائحة القذارةِ وأحشاء السمك النتنة. وقع نظر أتيليوس على بطيخة معفنة ثم على فأرة نافقة منتفخة يميل لونها إلى البياض عند قدمه بين أعمدة الرصيف. كم يشكِّل هذا المكان مصدر وحي للشعراء! ثم فجأة تاق إلى أحد البحار الشمالية الباردة التي سمع عنها. ربما البحر الأطلسي أو البحر الجرماني. إلى أرض يجتاح فيها المد الرمال والصخور بشكل يومي. إلى مكان صحي أكثر من هذه البحيرة الرومانية الفاترة.

قال: «بعد أن نقوم بتصليح قناة الأوغوستا بوسع بيكو أن يضاجع كل نساء إيطاليا، لن يهمني ذلك البتة».

«هاك يا بيكو سيغدو عضوك بطول أنفك قريباً».

كانت السفينة التي وعد بها الأميرال راسية قبالتهم، واسمها «مينيرفا» تيمناً باسم إلهة الحكمة وعلى مقدّمتها حُفر شكل بومة، رمز ألوهيتها. إنها سفينة أصغر حجماً من السفينة الضخمة الثلاثية المجاذيف، وقد بُنيت من أجل السرعة، يوجد وراءها قائم خلفي عال، ثم يُلف باتجاه متن السفينة نزولاً نظير لاسع العقرب الذي يتحضّر للدغ.

«كوكولا وزميرينا، ثم هناك تلك اليهودية مارثا ذات الشعر الأحمر. وفتاة يونانية صغيرة إذا كنت تحب هذا النوع من الأمور. بالكاد تبلغ والدتها العشرين من عمرها».

تمتم أتيليوس قائلاً: «ما نفع السفينة من دون طاقم؟» كان القلق قد بدأ يلازمه منذ تلك اللحظة، فهو لا يسعه تضييع حتى ساعة واحدة من الوقت. «بولايتس أركض إلى مقرات السكن فثمة فتى جيد هناك، تحرّ لنا عما يجري».

«إيغل وماريا..».

نهض العبد الشاب على رجليه.

قال كورفينوس: «لا داع لذلك»، وأشار برأسه ناحية مدخل المرفأ. «ها قد أتوا».

قال أتيليوس: «لا بد أن سمعك أقوى من سمعي»، ثم سمعهم هو الآخر. مئة زوج من الأقدام، يجدّون السير على الطريق قادمين من المدرسة العسكرية. لدى عبور المشاة جسر الممر الخشبي، تحول الصوت المتناغم الحاد إلى دوي متواصل صادر عن تماسّ الجلد بالخشب، ثم ظهرت بضعة مشاعل. تقدّمت الوحدة إلى الشارع المؤدي إلى مقدمة المرفأ وتقدّمهم خمسة منهم جنباً إلى جنب، وثلاثة ضباط يرتدون دروعاً للجسد وخوذات متوّجة بريشة. توقف الطابور بمجرد صدور النداء الذي يأمرهم بذلك، ومع صدور النداء الثاني تفرق عناصر الطابور واتجه البحارة ناحية السفينة. لم يتفوه أي منهم بكلمة، وانسحب أتيليوس إلى الوراء سامحاً لهم بالمرور. كانوا يرتدون قمصاناً عارية الأكمام، فظهرت أكتاف المجذفين غير المتناسقة، كما بانت أذرعتهم المفتولة العضلات إلى درجة كبيرة بحيث بدت غير متناسقة البتة مع أسفل أجسادهم.

قال أطول الضباط: «أنظر إليهم. إنهم خيرة القوات البحرية: الثيران البشرية». ثم التفت إلى أتيليوس ورفع قبضته تحية له. «أنا توركواتوس قبطان سفينة المينيرفا».

«أنا المهندس ماركوس أتيليوس، هيا بنا».

* * *

بعد وقت قصير فرغوا من تحميل السفينة، ولم يَرَ أتيليوس جدوى من جر قوارير الكلس السريع الثقيلة وأكياس الرمل الأحمر من الخزان وشحنها معهم عبر الخليج. فإذا كانت بومبي كما تم وصفها له أي تضج بالبنّائين فسوف

twitter @baghdad_library

يستخدم رسالة الأميرال لمصادرة ما يريده. أما المعدات فإنها مسألة أخرى، وعلى الرجل أن يستخدم دوماً معداته الخاصة.

نظّم سلسلة بشرية لتمرير المعدات إلى سطح المركب حيث أخذ يسلم العدّة إلى موسى الذي يقوم بدوره برميها إلى كورفينوس: فؤوس، مناشير، رفوش، أوان خشبية لحمل الإسمنت الرطب، مجراف لخلط الإسمنت، المِرْزَبات، المعاول، وقطع الحديد الثقيلة التي كانوا يستخدمونها ليدقوها في أماكن محددة. ظلت المعدات تنتقل إلى أن وصلت في النهاية إلى بيكو الواقف على سطح سفينة المينيرفا. لقد عملوا بنشاط دون تبادل كلمة واحدة، وعندما فرغوا كان قد طلع الصبح عليهم وأخذت السفينة تتجهز للإبحار.

سار أتيليوس على المعبر وقفز نازلاً على سطح السفينة. كان هناك صف من الملاحين يحملون خطّافات وينتظرون لدفع السفينة بعيداً عن الرصيف، وكان توركواتوس واقفاً في منصته الواقعة تحت القائم الخلفي بالقرب من مدير الدفة، فنادى قائلاً: «هل أنت جاهز أيها المهندس؟» فرد عليه أتيليوس بالإيجاب. كلما أبكروا في المغادرة كان ذلك أفضل.

اعترض بيكو قائلاً: «ولكن كوراكس ليس هنا؟»

فقال أتيليوس في قرارة نفسه: «سحقاً له، فعدم وجوده يبعث على الراحة. بوسعي القيام بالعمل وحدي. «ها هو كوراكس».

تم رفع حبال الإرساء. وأُنزلت خطافات السفينة كالرماح وارتبطت بالرصيف. شعر أتيليوس بأن سطح السفينة تحت قدميه يهتز عندما كان يتم نزع المجاذيف من أماكنها وبدأت المينيرفا بالإبحار. عاود النظر ناحية الشاطئ، كان ثمة حشد من الناس قد تجمعوا حول النافورة العامة بانتظار ظهور الماء. تساءل إن كان وجب عليه المكوث في الخزان مدة كافية للإشراف على فتح السدود. ولكنه خلّف وراءه ستة عبيد لإدارة البيسينا، كما أن المبنى مطّوق من قِبل جنود البحرية التابعين لبليني.

صرخ بيكو قائلاً: «ها هو ذا. أنظروا إنه كوراكس!» أخذ يلوح بيديه فوق رأسه. «كوراكس! نحن هنا!» ثم رمق أتيليوس بنظرة اتهام. «أترى. وجب عليك الانتظار!»

كان المراقب يسير بتكاسل بجانب النافورة حاملاً حقيبة على ظهره وقد بدا غارقاً في التفكير، ولكنه ما لبث أن رفع رأسه وثقفهم ببصره فطفق يركض بشكل سريع نسبة إلى رجل في الأربعينات من عمره. أخذت الفجوة بين السفينة ورصيف الميناء تتسع بسرعة ـ ثلاث أقدام ثم أربع أقدام ـ فبدا لأتيليوس أنه يستحيل على كوراكس التمكن من القفز على متن السفينة، ولكن حينما وصل إلى طرف الرصيف، رمى حقيبته على متن السفينة ثم قفز وراءها. فمد عنصران من الملاحين أيديهم وأمسكا بذراعه ورفعاه إلى متن السفينة. حط على السفينة منتصباً على رجليه بالقرب من القائم الخلفي، ثم حدق في أتيليوس ومد في وجهه إصبعه الوسطى. فأشاح المهندس ببصره عنه.

كانت سفينة المينيرفا تتوجه إلى خارج المرفأ ومقدمتها منتصبة أمامها، ويوجد على جانبي هيكلها الضيق أربعة وعشرون مجذافاً متحركاً. سُمع صوت طبل تحت ظهر السفينة، فوُضعت راحة المجاذيف في المياه. سُمع الصوت من جديد، فظهرت المجاذيف على سطح المياه. كان ثمة رجلان عند مقبض كل مجذاف يقومان بجذبه، فراحت السفينة تسير إلى الأمام بشكل بطيء في البداية، ولكن سرعتها أخذت تتزايد مع تسارع ضربات الطبل. كان مرشد السفينة منحنياً فوق حامل المنقار الخاص بمحاربة السفن المعادية ويحدق إلى الأمام وما لبث أن أشار بيده إلى جهة اليمين، فأصدر توركواتوس أمراً وعندها أدار مدير الدفة بصعوبة المجذاف الضخم الذي يخدم كدفة بهدف بالمرور بين سفينتين ثلاثيتي المجاذيف راسيتين. للمرة الأولى خلال الأربعة أيام الأخيرة، شعر أتيليوس بنسمة هواء بسيطة تلفح وجهه.

صرخ توركواتوس قائلاً: «لديك جمهور أيها المهندس!» وأشار باتجاه التلة

twitter @baghdad_library

فوق المرفأ. تعرف أتيليوس على التراس الأبيض الطويل في فيللا الأميرال الواقعة وسط بساتين نبات الآس، فظهرت هيئة بليني الممتلئ نفسه وهو يتكئ مقابل الدرابزين. فأخذ يتساءل عما يدور في ذهن الرجل المسن. رفع أتيليوس يده بتردد وبعد وهلة رد عليه بليني. ثم مرت المينيرفا بين السفينتين الحربيتين الضخمتين، المسماتين كونكورديا ونبتون، وعندما عاود أتيليوس النظر إلى التراس وجده مهجوراً.

على مسافة بعيدة، وراء جبل فيسوفيوس، كانت الشمس قد بدأت بالبزوغ.

* * *

راح بليني يراقب السفينة التي أخذت سرعتها تتزايد متوجهة إلى عرض البحر والمجاذيف تتخبط في المياه مخلّفة زبداً أبيض. أثار هذا المشهد ذكرى بعيدة منسية في ذهنه تدور حول نهر الراين القاتم لدى انبلاج الفجر-في فيتيرا، قبل ثلاثين سنة تقريباً ـ وقائد القوة البحرية للفيلق الخامس (القُبَّرات) يأخذ فرسانه إلى الضفة البعيدة. يا لها من أوقات! يتمنى لو أنه يتمكن من الإنطلاق مجدداً في رحلة لدى بزوغ الفجر، أو ما هو أفضل من ذلك قيادة أسطول للقتال، وهو الأمر الذي لم يُقدم عليه خلال السنتين اللتين احتل فيهما منصب الأميرال. ولكن المجهود الذي بذله لمجرد الخروج من مكتبه والتوجه إلى التراس لرؤية المينيرفا وهي تبحر ـ حيث نهض من كرسيه وخطا بضع خطوات قصيرة ـ قد خطفت انفاسه منه. وعندما رفع يده ليرد بواسطتها على تحية المهندس الذي يلوح له بيده، شعر وكأنه يرفع حملاً ثقيلاً.

«لم تمنح الطبيعة الإنسان نعمة أفضل من قصر أمد الحياة. فالحواس تضعف، وتصاب الأطراف بالخدار، ويضعف السمع والبصر والتذوق، حتى الأسنان والأعضاء المسؤولة عن التغذية تموت قبلنا، مع ذلك تُعتبر هذه المرحلة جزءاً من الحياة».

كلمات شجاعة يسهل على المرء كتابتها حينما يكون في ريعان الشباب،

والموت بعيد عنه في مكان ما على تل ناءٍ. ولكنها تصبح أصعب عندما يصبح المرء في السادسة والخمسين من عمره، والعدو يتقدم على مرأى العيون قاطعاً السهل.

أسند بطنه الكبيرة على الدرابزين آملاً ألا يكون أي من مساعديه قد انتبهوا إلى ضعفه، ثم أبعد نفسه وعاد إلى الداخل.

لطالما كنّ محبة للشبان من أمثال أتيليوس. ليس بالطريقة اليونانية القذرة بالطبع ـ فلم يتسن له الوقت لمثل هذه التفاهات على الرغم من أنه شهد الكثير منها في الجيش ـ وإنما هو معجب به معنوياً كونه تجسيداً للمزايا الرومانية العضلية. قد يحلم السيناتورات بالإمبراطوريات، والجنود يقومون بغزو هذه الإمبراطوريات، ولكن المهندسين الذين يقومون بتعبيد الطرقات ويحفرون قنوات جر المياه هم الذي يقومون فعلياً ببناء هذه الإمبراطوريات، وهم الذين منحوا روما امتدادها العالمي. قطع على نفسه وعداً أنه لدى عودة الساقي سيدعوه إلى العشاء ويأخذ رأيه بشأن المشكلة الحقيقة التي لحقت بقناة الأوغوستا. وسيقومان سوياً بمراجعة بعض النصوص الموجودة في مكتبة الأميرال، وسيعلّمه بعض ألغاز الطبيعة التي لا تقف مفاجآتها عند حد. على سبيل المثال، هذه الارتجاجات المتقطعة المتناغمة، ماذا عساها تكون؟ سيتوجب عليه تحديد أسباب هذه الظاهرة، وتضمينها النسخة التالية لكتاب التاريخ الطبيعي. كل شهر يكتشف شيئاً جديداً يحتاج إلى التفسير.

وقف عبداه اليونانيان بقرب الطاولة ينتظرانه بكل صبر. الأول اسمه آلكمان ويقوم بالقراءة له بصوت عال، والثاني يدعى أليكسيون، يملي عليه بليني ما يريد كتابته. إنهما يرافقانه منذ منتصف الليل، فالأميرال عوّد نفسه على العمل دون أخذ قسط كبير من الراحة. فبات شعاره: «أن تكون صاحياً يعني أن تكون على قيد الحياة». الرجل الوحيد الذي كان يعرف عنه أن بوسعه العيش بهذا القدر القليل من الراحة كان الإمبراطور الراحل فيسباسيان. كانا يلتقيان في روما في منتصف الليل ليتداولا في الشؤون الرسمية. ولهذا السبب عيّنه فيسباسيان

twitter @baghdad_library

مسؤولاً عن الأسطول. وكان ينعته بِـ «عزيزي بليني اليقظ دوماً» بلكنته القروية، ثم يقرص خده.

جال بنظره في أرجاء الغرفة متفحصاً الكنوز التي راكمها من خلال رحلاته التي طالت كل أرجاء الإمبراطورية. هناك مئة وستون دفتر ملاحظات سجل فيها كل حقيقة مثيرة للاهتمام كان قد قرأها أو سمع عنها (عرض عليه لارشيوس ليسينيوس، حاكم إسبانيا تاراكونينسيس، أربعماية ألف سسترس مقابل المجموعة كلها، ولكنه رفض هذا العرض الذي لم يغرِه). وقطعتان من المغناطيس، تم استخراجهما من داسيا، وتلتصقان ببعضهما البعض بسحرهما الغامض. وكتلة صخرية رمادية لامعة من مقدونيا، أُشيع عنها أنها سقطت من النجوم. وكهرمان ألماني فيه بعوضة قديمة محتجزة بين خلاياه الشفافة. وقطعة زجاج مقعّرة التُقطت في إفريقيا، تجمّع أشعة الشمس وتعكسها في نقطة لها حرارة مرتفعة إلى درجة أنها تحرق الخشب القاسي وتجعل لونه قاتماً. وساعته المائية، الساعة الأكثر دقة في روما، وقد صُنعت وفق تفاصيل أعطاها كتيسيبيوس الإسكندرية، مخترع الساعة المائية، وفتحات هذه الساعة مطلية بالذهب ومرصعة بالجواهر لدرء الأعطال والتلف عنها.

الساعة هي ما يحتاج إليه. لقد قيل إن الساعات تشابه الفلاسفة: لا يسعك إيجاد اثنتين منها متوافقتين تماماً. ولكن الساعة التي تُصنع بيد كتيسيبيوس هي أفلاطون الساعات.

«أحضر لي قدحاً من الماء يا آلكمان. لا .». غيّر رأيه عندما وصل العبد إلى منتصف الطريق متوجهاً ناحية الباب، ويعود السبب في ذلك إلى أن الجغرافي سترابو قد وصف خليج نيابوليس بـ «قدر النبيذ».

«بل أرى أن تجلب لي قدحاً من النبيذ، فسيكون ذلك أفضل. ولكن نبيذ رخيص مثل نبيذ سورينتام». ثم جلس بتثاقل. «حسناً يا أليكسيون أين وصلنا؟»

«كنا نحرر رسالة إلى الإمبراطور أيها الأميرال».

«آه. أجل هذا صحيح». بما أن النهار قد طلع سيتوجب عليه أن يبرق

بإشارات ضوئية إلى الإمبراطور الجديد تيتوس ليعلمه بالمشكلة التي طرأت على القناة. ستبعث من برج الإشارة إلى برج الإشارة مباشرة إلى روما وستكون بين يديّ الإمبراطور ظهراً. وأخذ يتساءل ماذا عسى السيد الجديد للعالم أن يصنع حيال هذا الأمر؟

«يجدر بنا أن نبرق إلى الإمبراطور، وبعد ذلك أظننا سنبدأ بكتابة دفتر ملاحظات جديداً وتدوين بعض الملاحظات العلمية. هل يثير هذا الأمر اهتمامك؟»

«أجل أيها الأميرال». أخذ العبد مرقمه ولوح الشمع محاولاً أن يكبت نفسه ويمنعها من التثاؤب فتظاهر بليني بعدم رؤية ذلك. نقر بأصابعه على شفتيه وقد كان يعرف تيتوس جيداً. فقد خدما في جرمانيا سوياً. إنه ساحر ومثقف وذكي وعديم الرحمة تماماً. لذا من شأن خبر يدور حول حرمان ربع مليون إنسان من المياه أن يوقعه بكل سهولة في إحدى نوبات غضبه الساخطة. لذلك فإن هذا الخبر يحتاج إلى صياغة حذرة.

فبدأ بالقول: إلى صاحب الجلالة المبجّل، الإمبراطور تيتوس، القائد العام للأسطول، ميسينوم.

تحياتي!.

* * *

مرت المينيرفا بين حاجزي الأمواج الإسمنتيين الضخمين في المرفأ وخرجت إلى الخليج الرحب. كان الضوء الأصفر الخفيف لشمس الصباح الباكرة يلمع على المياه. ووراء أجمة الأعمدة التي أشارت إلى مكان مَربى المحار حيث تغط طيور النورس وتطلق الصيحات، رأى أتيليوس المسمكة في فيللا أورتنسيا. نهض على رجليه ليحظى برؤية أفضل وثبّت نفسه نظراً إلى تماوج السفينة.

التراسات، وممرات الحديقة، والمنحدر حيث وضع أمبلياتوس كرسيه لمشاهدة الإعدام، تعرجات خط الشاطئ، المساند بين أحواض السمك، بركة

twitter @baghdad_library

سمك الأنقليس الكبيرة الموضوعة بعيداً عن الأحواض الأخرى. وجد أن كل هذه الأماكن مهجورة، وقارب الفيللا القرمزي والذهبي اللون لم يعد يرسو على طرف الرصيف.

الوضع يشبه تماماً ما قالته آتيا: لقد رحلوا.

لدى مغادرة أتيليوس للخزان أي قبل طلوع الفجر لم تكن المرأة المسنة قد استعادت عافيتها بعد، حيث وضعها على فراش من القش في إحدى الغرف قرب المطبخ، وطلب من العبد المسؤول عن المكان، فايلو، استدعاء طبيب والاعتناء بها. رسم فايلو على وجهه تعابير الاستغراب، ولكن طلب منه أتيليوس حينئذ وبحزم أن ينفذ ما أمره به. في حال ماتت فإن ذلك يرحمهم ويخلصهم من عبئها، وفي حال تعافت، فإن بوسعها البقاء، وعلى كل حال سيتوجب عليه أن يشتري عبداً جديداً ليرعى شؤون ملابسه وطعامه. كانت متطلباته قليلة لذا فالعمل سيكون ضئيلاً. إنه لم يلقِ في حياته بالاً لمثل هذه الأمور. فسابينا كانت ترعى شؤون المنزل حينما كانا متزوجين. وبعد رحيلها تولت والدته هذه المهمة.

بدت الفيللا الكبيرة قاتمة ومسدلة المصاريع وكأن ثمة جنازة دعت إلى ذلك، حيث بدت صرخات طيور النورس أشبه بعويل الناحبين.

قال موسى: «سمعت أنه دفع عشرة ملايين ثمناً لها».

علق أتيليوس على هذه الملاحظة بإطلاق صوت حلقي دون أن يشيح بنظره بعيداً عن الفيللا. «إنه ليس هناك الآن»..

«أمبلياتوس؟ بالطبع ليس هناك. إنه لا يتواجد هناك قط. إنه يملك منازل في كل مكان. ويمكث في أغلب الأحيان في بومبي».

«بومبي؟»

استدار حينها المهندس ووجد موسى جالساً متصالب القدمين ويباعد بين ركبتيه ويستند بظهره على المعدات ويأكل حبة تين. لطالما بدا موسى وكأنه لا يكف عن الأكل، فزوجته ترسله إلى العمل كل يوم محملاً بكمية طعام تكفي

لإطعام ستة أشخاص. دس باقي حبة التين في فمه ولعق أصابعه. «إن أصله من هناك. لقد جمع ثروته من بومبي».

«ولكنه وُلد عبداً».

قال موسى بمرارة: «هذا ما يُقال هذه الأيام. العبد يأكل من طبق فضي في حين يعمل المواطن الصادق والمولود حراً منذ بزوغ الشمس حتى مغيبها مقابل حفنة من المال».

كان الرجال الآخرون يجلسون بالقرب من القائم الخلفي مجمّعين حول كوراكس الذي كان يميل برأسه إلى الأمام ويتكلم بصوت منخفض إذ كان يقص عليهم قصة تتطلب الكثير من الإشارات اليدوية التوضيحية والكثير من هز الرأس الثقيل. خمّن أتيليوس أنه يصف لهم اجتماع الليلة الفائتة مع بليني.

فتح موسى سدادة قِربة الماء وشرب منها، ثم مسح أعلاها ثم عرضها على أتيليوس. أخذها المهندس منه وجلس القرفصاء بالقرب منه. كان طعم المياه مراً على نحو مثير للغرابة. كبريت. شرب المزيد من المياه ليس لأنه يشعر بالعطش بقدر رغبته بأن يكون ودوداً، ثم مسحها بدوره وأعادها إليه.

قال بحذر: «أنت محق يا موسى. كم يبلغ أمبلياتوس من العمر؟ إنه لم يبلغ الخمسين من عمره. ومع ذلك تحول من عبد إلى إلى سيد لفيللا أورتنسيا في الوقت الذي نحتاج فيه أنا أو أنت إلى العمل بشكل مضنٍ لنجمع ما يكفينا لشراء شقة مليئة بالحشرات. كيف يعقل لأي إنسان أن يحقق هذا الإنجاز بشكل مستقيم؟».

قال موسى وهو ينظر من فوق كتفه بصوت خافت: «مليونير مستقيم؟ إنه أمر مستحيل جداً. سمعتُ أنه بدأ بتجميع المال بعد الزلزال. لقد حصل على حريته بإرادة الرجل المسن بوبيديوس. كان أمبلياتوس شاباً بهي الطلعة ولم يكن يرد طلباً لسيده. وكان الرجل المسن فاسقاً لذا لا أحسبه يترك كلبه وشأنه. وأمبلياتوس اعتنى له بزوجته أيضاً إذا فهمت قصدي» وغمز موسى بعينيه: «على أي حال حصل أمبلياتوس على حريته وعلى بعض المال من مكان ما، ثم قرر

twitter @baghdad_library

جوبيتير أن يحسن الأمور بعض الشيء. كان ذلك في عهد نيرون. كان زلزالاً مدمراً جداً، أسوأ مما يتخيّله أي مخلوق. كنتُ حينئذ في نولا وصدقني حسبت أن حياتي قد وصلت إلى نهايتها». قبّل تميمة الحظ خاصته المؤلفة من قضيب وخصيتين والمصنوعة من البرونز وتتدلى من عقد جلدي من رقبته: «ولكن كما تعرف يقولون إن خسارة إنسان معين هي مكسب لآخر. كانت بومبي أكثر المدن التي تأذت. ولكن في الوقت الذي كان الجميع يغادرونها ويقولون إن المدينة دُمرت بالكامل، كان أمبلياتوس يسير في الاتجاه المعاكس ويشتري الأماكن المدمرة. فحصل على بعض الفيللات الكبيرة مقابل مبلغ زهيد من المال وأصلحها وقسّمها إلى ثلاث أو أربع فيللات، ثم باعها جميعاً وجمّع منها ثروة».

«ليس ثمة شيء مخالف للقانون في هذا الفعل».

«ربما لا ولكن هل كان فعلاً يمتلكها حينما باعها؟ هذا هو السؤال». نقر موسى على جانب أنفه: «لقد مات مالكوها. أو فُقدوا. والورثة الشرعيون موجودون في الطرف الآخر من الإمبراطورية. ولا تنسَ أن نصف المدينة كان تحت الركام. لقد أرسل الإمبراطور مفوضاً من روما لتصنيف الأملاك وممتلكيها، وكان يدعى سوديوس كليمينز».

«ورشاه أمبلياتوس؟»

«لنقل فقط إن سوديوس غادر رجلاً أغنى مما كان عليه حينما وصل إلى هنا. أو هذا ما يُقال».

«وماذا عن إكزومنيوس؟ كان هو الساقي لدى حصول الزلزال، لا بد وأنه كان يعرف أمبلياتوس».

لاحظ أتيليوس على الفور أنه ارتكب خطأ، فشعاع الرغبة بالثرثرة قد انطفأ سريعاً في عيني موسى. فتمتم قائلاً: «لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع». وأخذ يشغل نفسه بحقيبة الطعام التي يحملها. «كان إكزومنيوس رجلاً جيداً، وكان العمل معه مريحاً».

لاحظ أتيليوس أنه يتكلم بصيغة الماضي عن إكزومنيوس، إذ قال «كان رجلاً جيداً، وكان العمل معه مريحاً»، فحاول ان أن يطلق مزحة بهذا الصدد. «أتعني أنه لم يعتد على جرّكم من سريركم قبل طلوع الفجر؟»

«لا بل أعني أنه كان مستقيماً وما كان ليعمد إلى محاولة دفع رجل صادق لقول أكثر مما يُفترض به قوله».

صرخ كوراكس قائلاً: «يا موسى! عمّ تتكلم عندك؟ أنت تثرثر كالنساء. تعال إلى هنا واحتسِ شراباً».

نهض موسى على رجليه مباشرة وأخذ يسير متأرجحاً على ظهر السفينة بغية الانضمام إلى الآخرين. وفي الوقت الذي رمى فيه كوراكس له قربة النبيذ، قفز توركواتوس عن القائم الخلفي وتوجّه إلى وسط ظهر السفينة حيث يوجد الأشرعة والصاري.

«أخشى أننا لن نحتاج إلى هذه». كان توركواتوس الضخم ينظر إلى السماء وذراعاه على وركيه، وكانت أشعة الشمس القوية تنعكس على صدره، وكان الطقس حاراً حتى في تلك الساعة المبكرة: «حسناً أيها المهندس لنَرَ ما بوسع ثيراني فعله». وطأ بقدميه على السلم ونزل إلى الطبقة السفلى، وبعد قليل تزايد وقع ضربات الطبل وشعر أتيليوس أن سرعة السفينة قد تزايدت بعض الشيء. لمعت المجاذيف، وتقلّصت فيللا أورتنسيا الساكنة أكثر فأكثر كلما ابتعدت السفينة.

* * *

أخذت المينيرفا تتقدم، في الوقت الذي انسدلت فيه حرارة شمس الصباح على الخليج، وكان المجذّفون يجذّفون بنفس الوتيرة السريعة لمدة ساعتين. ظهرت غيوم من البخار وهي تتصاعد من شرفات الحمامات المفتوحة في بايي، وعلى التلال فوق بوتيولي بانت حرائق مناجم الكبريت الخضراء القاتمة.

جلس المهندس بعيداً عن الجميع ويداه ملتفتان حول ركبتيه وقبعته نازلة

twitter @baghdad_library

على عينيه لتقيهما الحرارة الشديدة، وراح يراقب الساحل الذي يمرون بمحاذاته مفتشاً في اليابسة عن دليل يفسّر ما حصل للأوغوستا.

وجد أن كل شيء يتسم بالغرابة حول هذا الجزء من إيطاليا. حتى الرمال الحمراء القصديرية في بوتيولي تتصف بسحر من نوع ما، إذ إنها حين تُمزج بالكلس وتوضع تحت سطح البحر تصبح صلبة كالصخر. هذا الرمل البيتيولي الأحمر، كما يسمونه تيمناً بمصدره، كان الاكتشاف الذي غيّر وجه روما ومنح عائلته مهنتها. فما كانوا يحتاجون إلى بنائه بأيدي عاملة كثيرة باستخدام الحجر والقرميد في الماضي، بات اليوم يُبنى بين ليلة وضحاها. بواسطة الإسمنت وقوالبها البنائية أغرق أغريبا أرصفة ميسينوم الضخمة، وزوّد الإمبراطورية بقنوات جر المياه الأوغوستا هنا في كامبانيا، وجوليا وفيرغو في روما، ونيموسوس في الغال الجنوبية. لقد أُعيد تكوين العالم.

ولكن لم يُستخدم هذا الإسمنت المائي في أي مكان بقدر الفعالية التي استُخدم بها في الأرض التي اكتُشف فيها. الأرصفة الممتدة في البحار والفُرضات، والتراسات، والسدود، وحائل الأمواج، ومزارع الأسماك كلها غيّرت خليج نيابوليس. وفيللات بأكملها تبدو شاهقة من بين الأمواج وطافية على الشاطئ. إن المكان الذي كان مرتعاً للأشخاص فائقي الغنى أمثال قيصر وكراسوس وبومبي اجتاحته اليوم طبقة جديدة من أصحاب الملايين وهم رجال من أمثال أمبلياتوس. تساءل أتيليوس كم من المالكين المسترخين والمرتاحين في أحضان شهر آب الشديد الحرارة الذي تمدد وتثاءب ووصل إلى أسبوعه الرابع قد باتوا على علم بأمر العطل الذي لحق بالقناة. فخمّن أن كثيراً منهم لا يعلمون بالأمر. فالمياه هي شيء يحمله العبيد للمنازل أو تنزل بشكل عجائزي من أنبوب أحد حمامات سيرجيوس أوراتا. ولكنهم سيعلمون بهذا الأمر قريباً. سيعلمون بمجرد أن يبدأوا بالشرب من أحواض السباحة.

مع توغلهم أكثر ناحية الشرق كانوا يجدون أن جبل فيسوفيوس يبسط نفسه أكثر على الخليج. وكانت منحدراته السفلى عبارة عن فسيفساء من الحقول المزروعة والفيللات، ومن منتصفه صعوداً يصبح زيتي اللون حيث تغطيه غابات

عذراء. وفوق قمته العالية تطفو بضعة غيوم لا تتحرك. قال توركواتوس إن الصيد على هذا الجبل رائع، حيث يوجد الخنازير البرية والغزلان والأرانب الوحشية. لقد خرج للصيد عدة مرات مع كلابه وشبكته إضافة إلى قوسه. ولكن على المرء أن يحذر من الذئاب، كما أنه خلال فصل الشتاء تكلل الثلوج قمة الجبل.

جلس توركواتوس القرفصاء بالقرب من أتيليوس ونزع خوذته عن رأسه ومسح جبينه وقال: «يصعب تخيل وجود الثلج في مثل هذا الحر».

«وهل يسهل تسلق هذا الجبل؟»

«ليس أمراً في غاية الصعوبة، إنه أسهل مما يبدو عليه. إن قمة الجبل تصبح مسطحة تقريباً حينما تبلغها. لقد جعله سبارتاكوس مخيماً لجيشه المتمرد. لا بد وأنه كان قلعة طبيعية. ولا عجب أن ذاك القذر، أفلح في صد الفيالق لمدة طويلة. عندما تكون السماء صافية بوسعك أن ترى حتى خمسين ميلاً».

كانوا قد عبروا مدينة نيابوليس وأصبحوا بمحاذاة مدينة أصغر حجماً، قال توركواتوس إنها تسمى هيركيولانيوم. على الرغم من أن خط الساحل كان أشبه بسلسلة متواصلة من الأبنية ـ جدران بلون المَغرة الصفراء وسقوف حمراء، تخرقها أحياناً أشجار السرو الخضراء الطويلة ـ إلا أنه لم يكن من المستحيل معرفة أين تنتهي مدينة ما وأين تبدأ الأخرى. بدت هيركيولانيوم جليلة وراضية عن نفسها على قعر الجبل المترف ونوافذها مواجهة للبحر، وثمة تحف ناصعة الألوان تتخذ بعضها أشكال مخلوقات البحر موضوعة في المياه الضحلة. وعلى الشواطئ هناك مظلات حيث يسحب الناس خيوط الصيد من الفُرضات. وتملأ أرجاء المكان المحيط بالمياه الراكدة أصوات الموسيقى وصرخات الأولاد الذين يلعبون بالكرة.

قال توركواتوس: «هذه أروع فيللا على الخليج». وهز رأسه ناحية منزل ضخم جداً ذي أعمدة واقع على خط الشاطئ ويرتفع على شكل تراسات فوق مستوى البحر. «هذه فيللا كالبورنيا. لقد حظيت بشرف توصيل الإمبراطور الجديد إلى هناك الشهر الفائت في زيارة للقنصل السابق بيديوس كاسكوس».

twitter @baghdad_library

«كاسكوس؟» تخيل أتيليوس السيناتور الأشبه بالسحلية الذي قابله في الاجتماع في الليلة الفائتة وهو مقمّط بالتوغا الأرجوانية اللون. «لم أكن أعرف بتاتاً أنه بهذا القدر من الثراء».

«لقد ورث ثروته من زوجته ريكتينا التي كانت لها صلة ما بعائلة بيزو. غالباً ما يأتي الأميرال إلى هنا لاستخدام المكتبة. هل ترى تلك المجموعة من الشخصيات التي تقرأ في الظل بقرب الحوض؟ إنهم فلاسفة». وجد توركواتوس هذا الأمر مضحكاً جداً. «بعض الرجال يربون الطيور كطريقة لتمضية الوقت، والبعض الآخر يربون الكلاب. أما السيناتور فإن لديه فلاسفة».

«وإلى أية فصيلة ينتمي هؤلاء الفلاسفة؟»

«إنهم أتباع إبيقوروس. وفقاً لكاسكوس، إنهم يعتبرون الإنسان فانياً والآلهة لا تأبه لمصيره لذا يجدر بهذا الإنسان الاستمتاع بنفسه».

«كان بوسعي أن أخيره بهذا الأمر بنفسي».

ضحك توركواتوس من جديد واعتمر خوذته وأحكم ربطة الذقن: «لم يعد أمامنا الكثير للوصول إلى بومبي أيها المهندس. ما يزال أمامنا نصف ساعة لنصل».

وعاود المشي ناحية القائم الخلفي.

وضع أتيليوس يده فوق عينيه وأخذ يتأمل الفيللا. لم يولِ في حياته الفلسفة أهمية كبيرة. لِمَ يرث إنسان معين مثل هذا القصر، في حين تمزق أسماك الأنقليس إنساناً آخر، وإنسان ثالث يكسر ظهره وهو يجذّف في سفينة وسط حلكة الظلام. يمكن للإنسان أن يُصاب بالجنون لدى محاولته فهم كيفية ترتيب العالم بهذا الشكل. لِمَ عساه اضطر إلى مشاهدة زوجته تموت نصب عينيه وهي ما زالت صغيرة؟ فليأته أحد ما بفلاسفة قادرة على الإجابة على هذه التساؤلات، وعندها سيعتبر أن لهم جدوى.

لطالما أرادت أن تأتي لتمضية العطلة على خليج نيابوليس، ولطالما قام

بتأجيل ذلك متذرِّعاً بأنه شديد الانشغال، والآن فات الأوان. إنه يشعر بالأسى على ما فقده، وبالندم على ما فشل في القيام به. إنهما الشعوران المؤلمان اللذان يعذّبانه، وقد عاد ووقع فريسة لهما على حين غرة وفرّغاه من الداخل كحالهما دائماً شعر بفراغ جسدي في أعلى معدته. وهو ينظر إلى الساحل تذكّر رسالة أراه إياها صديق له يوم جنازة سابينا، وقد حفظها عن ظهر قلب. منذ ما يناهز القرن من الزمن، كان القاضي سيرفيوس سالبيكوس يبحر من آسيا عائداً إلى روما غارقاً في الهم والغم عندما وجد نفسه يتأمل شاطئ البحر المتوسط. بعد ذلك وصف شعوره لسيسيرو الذي كان قد فقد ابنته هو الآخر منذ فترة قريبة: «هنا خلفي كانت تقع أجينا، وأمامي تقع ميغارا وعلى يميني بيراوس وعلى يساري كورينث. كانت هذه البلدات مزدهرة فيما مضى، ولكنها الآن ليست سوى ركام أمام الناظرين، وبدأت أفكر في نفسي: كيف عسانا نتذمر إن مات أحدنا أو قُتل ونحن مخلوقات فانية، في الوقت الذي تقبع فيه جثث العديد من البلدات في بقعة واحدة وقد هجرها الجميع. راجع نفسك يا سيرفيوس وتذكر أنك وُلدت فانياً. هل يعقل أن تتأثر كثيراً لفقدان روح ضعيفة لامرأة صغيرة مسكينة؟»

ولكن بالنسبة إلى أتيليوس وبعد مرور أكثر من سنتين لا يزال الجواب على حاله: أجل.

* * *

ترك الحر يغدق العرق على جسمه ووجهه لفترة من الوقت، ولا بد أنه غفا رغماً عنه، لأنه حينما فتح عينيه وجد أن المدينة قد اختفت، وأن ثمة فيللا ضخمة أخرى تقبع تحت ظلال أشجار الصنوبر العملاقة المظلّلة، وعبيداً يسقون العشب ويلتقطون الأوراق عن سطح حوض السباحة. هز رأسه ليصفي ذهنه، ثم مد يده ليأخذ الكيس الجلدي الذي يحمل فيه ما يحتاج إليه، حيث يحوي رسالة بليني إلى المحتسبين في بومبي، وحقيبة صغيرة فيها النقود الذهبية، إضافة إلى خارطة للأوغوستا.

twitter @baghdad_library

لطالما كان العمل عزاءه الوحيد. فتح الخارطة وأسندها على ركبتيه فغمره إحساس مفاجئ بالقلق. وجد أن نِسَبَ الخارطة لم تكن دقيقة البتة، فقد فشلت في توضيح كبر حجم فيسوفيوس الذي لم يجتازوه بعد والذي، بكل تأكيد وبعد أن عاود النظر إليه، يمتد على مساحة سبعة أو ثمانية أميال. إن الجبل الذي بدا بحجم عرض الإبهام على الخارطة، قد استغرق منهم نصف رحلة صباحية شاقة تحت أشعة الشمس الحارقة. أنّب نفسه على سذاجته لقيامه بالتبجح بشأن ما سيفعله أمام شخص جالس في مكتبته بكل راحة دون أن يتفقد أولاً الأرض الفعلية. إنه خطأ المبتدئ الكلاسيكي.

دفع نفسه للوقوف على قدميه وشق طريقه ناحية الرجال الذين كانوا يجلسون القرفصاء على شكل دائرة ويلعبون النرد. كان كوراكس يضع يده فوق الوعاء ويهزه بقوة. لم يرفع رأسه حينما وقع ظل أتيليوس عليه. فتمتم قائلاً: «هيا يا فورتونا أيتها العاهرة المسنة»، ثم رمى النرد. حصل على الرقم واحد ـ كلب ـ فأنّ، وأطلق بيكو صرخة فرح ثم جمع كومة النقود النحاسية.

قال كوراكس: «كان الحظ يحالفني إلى أن أتى». وأشار بإصبعه إلى أتيليوس «إنه أسوأ من الغراب يا شباب. تذكروا أنني قلت لكم الآتي: سوف يقودنا جميعاً إلى الهلاك».

قال المهندس وهو يجلس القرفصاء بالقرب منهم: «أنا لستُ كإكزومينوس، أراهن أنه كان دوماً يربح». التقط النرد بيديه وقال: «لمن هذا النرد؟»

«إسمعوا لنلعب لعبة أخرى. عندما نصل إلى بومبي سيتوجه كوراكس أولاً إلى جانب جبل فيسوفيوس البعيد ليجد العطل في قناة الأوغوستا. ويجب أن يرافقه أحد. لِمَ لا ترمون النرد لنرى من سيحصل على هذا الشرف؟»

تساءل موسى: «الرابح سيرافق كوراكس!»

قال أتيليوس: «لا، بل الخاسر».

ضحك الجميع ما عدا كوراكس.

كرر بيكو قائلاً: «الخاسر!. هذا طريف».

تداوروا على هز النرد، حيث لف كل رجل الكوب بيديه وقام بهزه، وهمس كل منهم صلاة معينة لجلب الحظ.

كان موسى آخر من رمى، فرمى كلباً. فبدت عليه خيبة الظن.

قال بيكو بطريقة غنائية: لقد خسرت. موسى هو الخاسر!»

قال أتيليوس: «حسناً لقد حسم النرد الأمر. سيحدد كوراكس وموسى مكان العطل».

سأله موسى: «ماذا عن الآخرين؟»

«سيتوجه بيكو وكورفينوس على ظهر الخيل إلى أبيلينوم ويقفلان السدود».

«لا أفهم لماذا سيذهب اثنان إلى أبيلينوم وماذا سيفعل بولايتس؟»

«سيبقى بولايتس معي في بومبي ويتولى أمر المعدات والنقل».

قال موسى بمرارة: «كم هذا عادل! الرجل الحر ينهكه التعب ويتصبب عرقاً على الجبل، والعبد يضاجع العاهرات في بومبي». ثم أمسك بالنرد ورماه في البحر. «هذا هو رأيي بحظي».

صدرت صرخة تحذير من الربان الموجود في مقدمة السفينة. «بومبي أمامنا». فاستدارت الرؤوس الستة باتجاهها.

* * *

أخذت بومبي تظهر للعيان شيئاً فشيئاً من وراء لسان بحري. وبدت على عكس توقعات المهندس، إذ ليس فيها منتجعات على طول خط الخليج الساحلي كما في بايي أو نيابوليس. وإنما هي مدينة أشبه بالقلعة بُنيت لتحتمل حصاراً، وهي متراجعة عن البحر مسافة ربع ميل ومشيّدة على أرض مرتفع، ويقع مرفأها تحتها.

لم يلحظ أتيليوس أن جدرانها لم تعد متواصلة إلا حينما اقتربوا منها،

twitter @baghdad_library

فسنوات السلام الرومانية الطويلة حثت آباء المدينة على التخفيف من دفاعاتهم. وقد سُمح بتشييد المنازل فوق الأسوار الواقية وببناء تراسات عريضة ومظلّلة بأشجار النخيل نزولاً باتجاه الرصيف. ويقبع بين السقوف المسطحة معبد يطل على البحر. وفوق العمدان الرخامية اللامعة يوجد، وفق ما بدا لأتيليوس للوهلة الأولى، إفريز من التماثيل الأبنوسية. ولكنه عاد ولاحظ أن هذا الإفريز ليس إلا مخلوقات حية. إنهم نحاتون عراة تقريباً، وقد حرقت أشعة الشمس أجسادهم فاستحالت سوداء اللون، وكانوا يتحركون رواحاً وجيئة مقابل الصخر الأبيض حيث يعملون على الرغم من أنه يوم عطلة رسمية. وقد حمل الهواء الحار وقع الأزاميل وهي تنقر على الصخر وصوت المناشير الخشن ونقله إلى السماع بكل وضوح.

كان النشاط يدب في أرجاء المكان برمته، حيث يسير الناس على أعلى الجدار ويعملون في الحدائق التي تطل على البحر. وهناك أناس يحتشدون في الطريق في وسط المدينة، منهم من يسير على رجليه ومنهم من يمتطي الجياد ومنهم في العجلات وعلى ظهور العربات، بحيث يشكّل هؤلاء وراءهم غيمة من الغبار ويسدون الممر الشاهق الذي يوصل المرفأ ببوابتي المدينة الكبيرتين. لدى وصول المينيرفا إلى مدخل المرفأ الضيق تعالى ضجيج الحشود أكثر، فبالنظر إليهم يُعرف أنهم حشد احتفالي ويتقاطرون إلى وسط المدينة من الريف للاحتفال بعيد فولكان. جال أتيليوس بنظره على منطقة المسفن بحثاً عن النوافير ولكنه لم يجد لها أثراً.

كان الرجال جميعاً يلتزمون الصمت ويقفون في طابور وكل منهم غارق في بحر أفكاره.

التفت إلى كوراكس قائلاً له: «من أين تأتي المياه إلى وسط المدينة؟»

فقال كوراكس وهو يحدق بإمعان في المكان: «من الجهة الأخرى من المدينة». بالقرب من بوابة فيسوفيوس، هذا إن..». وشدّد على كلمة «إن» ثم أكمل قائلاً: «إن كانت لا تزال تتدفق».

فقال أتيليوس في قرارة نفسه إنه في حال تبين في نهاية الأمر أن المياه قد كفت عن التدفق فسيكون أمراً محرجاً جداً، إذ سيتبين أنه جرهم جميعاً إلى هذا المكان بالإستناد إلى كلمة عرّاف مسن أخرق.

«من يعمل هناك؟»

«عبد من المدينة. ولكن لن تجد فيه عوناً كبيراً».

«لماذا؟»

أطلق كوراكس ضحكة عالية وهز برأسه، ولكنه رفض الإجابة جاعلاً الأمر يبدو كمزحة.

«حسناً، سوف نبدأ من عند بوابة فيسوفيوس». صفق أتيليوس بيديه: «هيا يا شباب لقد سبق لكم أن رأيتم وسط مدينة يعج بالناس من قبل. لقد انتهت رحلة التطواف».

باتوا الآن داخل المرفأ حيث وجدوا مستودعات ورافعات مكدسة عند حافة المياه. ويوجد وراءهم نهر يدعى نهر السارنوس وفقاً لخارطة أتيليوس. يعج هذا النهر بمراكب نقل البضائع التي تنتظر إفراغها من بضائعها. أخذ توركواتوس يطلق الأوامر بصوت عال ويسير على امتداد السفينة. تباطأت ضربات الطبل إلى أن توقفت نهائياً. ورُفعت المجاذيف إلى داخل السفينة. وأدار مدير الدفة دفته بعض الشيء، فأخذوا يسيرون على الممر بخطى بطيئة، ولا يفصل بين الرصيف وظهر المركب أكثر من قدم من المياه الصافية. قفز اثنان من البحارة حاملين حبال إرساء على الشاطئ وربطاهما بسرعة وإحكام حول العمود الحجري. وبعد برهة رست المينيرفا محدثة اهتزازاً كبيراً كاد يوقع أتيليوس من طوله.

وخلال محاولته الحفاظ على توازنه وقع نظره على قاعدة عمود مربعة كبيرة وصخرية لها رأس نبتون حيث تتدفق المياه من فمه وتصب في قدر له شكل صدفة المحار والمياه تفيض من هذا القدر ـ وسوف لن يفارق هذا المشهد ذاكرته البتة ـ حيث رأى المياه تسيل وتغسل الحصى المرصوفة على الشوارع وتصب دون أن ينظر إليها أحد في البحر. لم يكن ثمة من ينتظر دوره ليشرب.

twitter @baghdad_library

ولم يكن أحد يولي المياه أي انتباه. ولِمَ عساهم يفعلون ذلك؟ إنها مجرد معجزة عادية. وثب عن جانب السفينة المنخفض واتجه ناحية المياه وهو يشعر بصلابة الأرض الغريبة بعد الرحلة التي قام بها قاطعاً الخليج. أنزل كيسه ووضع يديه في قوس المياه الصافية، غرف غَرفة ورفع يديه إلى فمه. وجد طعم المياه حلواً ونقياً فكاد يطلق ضحكة عالية نتيجة شعوره بالراحة والسرور. ثم وضع رأسه تحت الأنبوب وترك المياه تسيل على كل مكان، في فمه وفتحتي أنفه وفي أذنيه وعلى مؤخر عنقه، وهو غافل عن الناس الذين كانوا يحدقون به وكأن موجة جنون قد عصفت به.

أورا كوارتا

الساعة: ٠٩:٤٨

تظهر دراسات النظير التي أُجريت على الصُهَارَة البركانية النابولية وجود علامات لامتزاج كبير مع الصخور المحيطة، مما يشير إلى أن خزان الصهارة ليس جسماً ذائباً واحداً متواصلاً، بل إنه يبدو أشبه بالإسفنجة حيث تنزّ الصهارة من العديد من الشقوق داخل الصخر. تغذي طبقة الصُهارة الضخمة عدة خزانات أصغر حجماً وتكون أقرب إلى السطح وأصغر من أن تُحدّد بتقنيات زلزالية...

الجمعية الأمريكية لتطوير العلم، مجلة الأخبار، «طبقات صُهارة ضخمة تغذي جبل فيسوفيوس»، ١٦ تشرين الثاني ٢٠٠١

يمكن للمرء شراء كل ما يحتاج إليه من مرفأ بومبي. ببغاوات هندية، عبيد نوبيون، الملح النِّتري من برك بالقرب من القاهرة، كمّون صيني، قرود أفريقية، عبدات شرقيات معروفات ببراعتهن في الجنس... والحصول على الأحصنة أمر في غاية السهولة، فهناك ستة تجار يمكثون حول خيمة الزبائن. كان أقرب تاجر يجلس على كرسي تحت لافتة عليها رسمة بشعة لبيغاسوس المجنّح وتحمل كلمة «باكولوس»: أي أحصنة سريعة جداً للآلهة.

قال أتيليوس للتاجر: «أحتاج إلى خمسة أحصنة، ولا أريدها ضعيفة. أريد أحصنة قوية جيدة قادرة على العمل طيلة النهار، وأريدها الآن».

«ليس ثمة مشكلة أيها المواطن». كان باكولوس رجلاً قصيراً أصلع ووجهه

twitter @baghdad_library

أحمر وعيناه كامدتان كعيني السكارى، وكان يضع في إصبعه خاتماً حديدياً واسعاً أخذ يفتله بتوتر: «لن تواجهك مشاكل في بومبي، طالما أنك تملك المال. بعد إذنك أود عربوناً، فأحد أحصنتي قد سُرق الأسبوع الماضي».

«وأريد أيضاً ثيران. أريد فريقين وعربتين».

«في يوم عطلة؟» ثم طقطق لسانه: «أعتقد أن هذا الأمر سيتطلب وقتاً أطول».

«كم سيستغرق الأمر؟»

«دعني أرَ». نظر باكولوس إلى الشمس بعينين نصف مغمضتين. فكلما جعل المهمة تبدو أصعب، أمكنه طلب مالٍ أكثر. «ساعتين أو ربما ثلاث ساعات».

«موافق».

تجادلوا على السعر حيث طلب التاجر مبلغاً كبيراً جداً من المال، فقام أتيليوس على الفور بتقسيمه على عشرة. وحتى حينما تصافحا في النهاية، كان واثقاً أنه تم الضحك عليه وقد أزعجه هذا الأمر، كما كان ينزعج لدى حصول أي هدر، ولكن لم يكن لديه الوقت ليساوم أكثر. طلب من التاجر أن يجلب أربعة أحصنة على الفور إلى بوابة فيسوفيوس، ثم مشى بين التجار نحو المينيرفا.

خلال ذلك كان قد سُمح للطاقم بالصعود إلى متن السفينة، وقد خلع معظمهم قمصانهم المُخْضَلَّة، ففاحت من أجسادهم رائحة العرق القوية فبدت مماثلة للرائحة الكريهة المنبعثة من معمل صلصة السمك المجاور حيث تتحلل الفضلات السائلة في الراقود تحت أشعة الشمس. كان كورفينوس وبيكو يقطعان طريقهما بين المجذّفين ويحملان المعدات ويرميانها عن جانب السفينة إلى موسى وبولايتس. وكان كوراكس واقفاً وظهره إلى السفينة محدقاً ناحية المدينة، وبين الحين والآخر ينهض بنفسه على أطراف أصابعه لينظر من فوق رؤوس الحشد.

لاحظ كوراكس وصول أتيليوس فتوقف وقال: «إذاً المياه لا تزال تتدفق هنا»، ثم كتّف يديه. بدا وكأن ثمة سمة بطولية تقريباً في عناده وعدم استعداده للاعتراف بأنه كان مخطئاً. عندها أدرك أتيليوس دونما أدنى شك أن بمجرد انتهاء هذا الوضع سيتوجّب عليه التخلّص منه.

فوافقه أتيليوس القول وأجابه: «نعم لا تزال تتدفق». لوّح إلى الآخرين كي يوقفوا ما كانوا يقومون به ويتجمّعوا. وتم الاتفاق على ترك بولايتس كي يُتِمَّ تفريغ الحمولة ويحرس المعدات على الرصيف على أن يبلغه أتيليوس أين عساه يلتقي بهم. ثم توجّه الخمسة الباقون إلى البوابة الأقرب، وسار كوراكس وراءهم. كلما نظر أتيليوس إلى الخلف، شعر وكأن كوراكس يفتش عن أحد ما حيث ما فتئ يفتل رأسه من جنب إلى آخر.

سار المهندس أمامهم على المنحدر متوجّهاً من المرفأ إلى جدار المدينة، ثم ساروا تحت معبد فينوس نصف المنتهي، ثم دخلوا إلى نفق البوابة المعتم. رمقهم موظف الجمارك بنظرة اتهامية للتأكد مما إذا كانوا يحملون أشياء قد يقدِمون على بيعها، ثم هز لهم برأسه سامحاً لهم بالدخول إلى المدينة. لم يكن الطريق الواقع خلف البوابة شديد الانحدار بقدر المنحدر، ولا شديد الانزلاق، ولكنه أضيق منه لدرجة أنهم كادوا يُسحقون بين الأعداد الكبيرة الوافدة إلى بومبي. وجد أتيليوس نفسه يمر بمحاذاة متاجر ومعبد ضخم آخر وهذا المعبد مشيّد باسم أبولو، ثم وصل إلى الساحة العامة المفتوحة التي تعج بالنشاطات.

كان المكان مثيراً للدهشة نسبة إلى كونه بلدة ريفية حيث هناك الباسيليقا، وسوق مغطّاة، ومزيد من المعابد، ومكتبة عامة، وكل هذه الأماكن تغطيها ألوان ناصعة وتتلألأ تحت أشعة الشمس. وثمة ثلاث أو أربع دزينات من تماثيل الأباطرة أو الوجهاء المحليين موجودة على قواعد عالية، ولكنها لم تكن جميعها منتهية. وكان ثمة شبكة من السقالات الخشبية تغطي بعض أكبر المباني. كانت الجدران العالية موجودة بغرض احتجاز ضجيج الحشود وعكسه عليهم، حيث هناك أصوات الفلوت والطبول الصادرة عن الأشخاص الذين يسلون الناس في الشوارع، وصرخات المتسوّلين ومدرّبي الصقور، وصوت نضج

twitter @baghdad_library

الطعام الذي يتم طهيه. وكان بائعو الفاكهة يعرضون تيناً طازجاً وشرحات زاهية من البطيخ، بينما يجلس بائعو النبيذ القرفصاء بجانب صفوف من الأمفورات الحمراء الموضوعة في أعشاش من القش الأصفر. وعند أسفل تمثال مجاور، يجلس حاوٍ ويضع رجلاً على رجل وينفخ في مزمار، فترى ثعباناً رمادي اللون ينهض بأبهة عن سجادة موجودة أمامه، وثعباناً آخر يقوم بالالتفاف حول عنقه. وثمة قطع صغيرة من السمك يتم قليها على موقد في الهواء الطلق. وهناك عبيد يئنّون تحت وطأة أكوام الخشب الثقيلة حيث يتناوبون بين بعضهم البعض على حملها وتكديسها في المَشعَلة الكبيرة التي يتم تشييدها في وسط الساحة من أجل الأضحية التي ستُقدّم في المساء لفولكان. وهناك حلاق وضع إعلاناً لنفسه يقول فيه إنه ضليع في قلع الأسنان وقد وضع كومة من الأسنان السوداء والرمادية يبلغ ارتفاعها قدماً لإثبات ما يقوله.

نزع المهندس قبعته ومسح جبينه، ومنذ تلك اللحظة أحس أن في ذلك المكان أمراً ما لم يعجبه كثيراً. وجدها مدينة مخادعين مليئة بأناس استغلاليين، فهذا المكان يظل يرحب بالناس طوال المدة التي يستغرقها خداعهم. توجه إلى كوراكس بالسؤال عن مكان المحتسبين ـ فاضطر إلى وضع يده على فمه قرابة أذن الرجل كي يتمكن من إسماعه ما يقول ـ فأشار المراقب ناحية صف من ثلاثة مكاتب يحد الطرف الجنوبي للساحة، وجميع هذه المكاتب مقفلة بسبب عطلة العيد. وثمة لوحة إعلانات طويلة مغطاة بالإعلانات مما يشير إلى وجود بيروقراطية شديدة. أطلق أتيليوس الشتائم بينه وبين نفسه، إذ ليس ثمة شيء سهل.

صرخ لكوراكس قائلاً: «أنت تعرف الطريق إلى بوابة فيسوفيوس، لذا قُدْ أنت المسيرة».

كانت المياه تضخ عبر المدينة، وخلال قيامهم بقطع الطريق بصعوبة ناحية الطرف المقابل من الساحة، سُمِع صوت تدفّق المياه في المرحاض العمومي الكبير بجانب معبد جوبتير وفورانها في الشوارع الباقية.

ظل يسير وراء كوراكس محاذياً له، ومرة أو مرتين وجد نفسه يطأ بقدميه على السيول الصغيرة التي كانت تجري في المزاريب وتجرف معها الغبار والنفايات على المنحدر ناحية البحر. عدّ سبع نوافير وكلها تفيض بالمياه. وبدا جلياً أن الخسارة التي مُنيت بها الأوغوستا ما هي إلا مكسب لبومبي، إذ أن قوة ضخ الأوغوستا لا تجد لها مكاناً إلا هنا. لذا في الوقت الذي كان الجفاف يعصف بالمدن المحيطة بالخليج تحت وطأة الحرارة القوية، ها هم أطفال بومبي يلعبون بالمياه في الشوارع.

كان صعود التلة أمراً شاقاً حيث تتوجه حشود الناس في الاتجاه المعاكس أي نزولاً نحو الساحة. وحينما وصلوا إلى البوابة الشمالية الكبيرة، وجدوا باكولوس بانتظارهم مع أحصنتهم. كان قد ربطها بعمود بجانب مبنى صغير محاذٍ لجدار المدينة. قال أتيليوس: «القلعة المائية؟» فهز كوراكس برأسه.

عرفها المهندس من النظرة الأولى، بحيث تشبه مبنى بيسينا ميرابيليس المغطى بالقرميد الأحمر وهناك صوت تدفق المياه القوي نفسه. بان المكان وكأنه أعلى نقطة في المدينة وقد بدا لهذا الأمر معنى: من المؤكد أن تمر قناة جر مياه تحت جدران المدينة حيث يكون المكان الأكثر ارتفاعاً. عاد وحدّق إلى أسفل التلة فرأى أبراج المياه التي تنظم ضغط المياه، وأرسل موسى إلى داخل القلعة ليجد العبد المسؤول عن المياه بينما وجه انتباهه إلى الأحصنة التي لم تبدُ في غاية السوء. ليس بالإمكان إشراكها في سباق في سيرك ماكسيموس ولكنها ستفي بالغرض. عَدّ كومة صغيرة من النقود الذهبية وأعطاها إلى باكولوس، فما كان منه إلا أن اختبر كل قطعة نقود بأسنانه: «والثيران؟»

فوعده باكولوس وهو يضغط بيديه بقوة على قلبه ويدير عينيه صوب السماء قائلاً إنها ستكون جاهزة في الساعة السابعة، وسيتولى أمر جلبها على الفور. ودعا لهم بأن تحل عليهم جميع بركات ميركيوري خلال رحلتهم ثم مضى، فلاحظ اتيليوس أنه ذهب إلى الحانة الموجودة في الشارع المقابل.

وزّع المهمات على الأحصنة وفقاً لقوتها. أعطى أفضل حصانين إلى بيكو

twitter @baghdad_library

وكورفينوس على أساس أنهما أكثر من سيقوم بالتنقل، وكان لا يزال يفسر لكوراكس الحانق الأسباب التي دعته إلى ذلك عندما عاود موسى الظهور ليعلن أنه لم يجد في القلعة المائية أحداً.

«ماذا؟» استدار أتيليوس وقال: «ليس ثمة أحد هناك على الإطلاق؟»

«إنه عيد فولكان، أنسيت؟»

قال كوراكس: «قلت لك إنه لن يكون لك عون البتة».

«الأعياد!» شعر أتيليوس أنه يود لو يلكم القرميد من شدة إحباطه. «حري بهذه المدينة أن يكون فيها أشخاص مستعدون للعمل». وفكّر في رحلته الاستكشافية الصغيرة بضيق وعاود التفكير كم أنه كان يفتقر إلى الحكمة حينما كان في مكتب الأميرال حيث اختلط عليه ما هو قابل للتطبيق نظرياً بما هو قابل للتطبيق على أرض الواقع، وليس بيده ما يفعله الآن. فتنحنح وقال: «حسناً تعرفون جميعاً ما عليكم القيام به؟ بيكو وكورفينوس هل سبق لأي منكما الذهاب إلى أبيلينوم من قبل؟»

فقال بيكو: «أنا ذهبت إليها».

«ما هو شكل المكان هناك؟»

«تجري الينابيع تحت معبد مخصص لآلهة المياه وتصب في حوض داخل تمثال الحوريات. ويُدعى الساقي المسؤول هناك بروبوس وهو كاهن في الوقت نفسه».

«ساقٍ كاهن!» ضحك أتيليوس بسخرية وهز برأسه: «حسناً بوسعك إخبار هذا المهندس السماوي، أياً كان، أن الآلهات بحكمتهن السماوية تطلبن منه إقفال السد الأساسي وتحويل كل المياه إلى بينيفينتوم. إحرص على تنفيذ هذا الأمر بمجرد وصولك. يتوجّب عليك يا بيكو أن تبقى في أبيلينوم وتحرص على أن يبقى مقفلاً طوال مدة اثنتي عشرة ساعة، ثم تعاود فتحه من جديد. اثنتا عشرة ساعة بالضبط. هل فهمت كلامي؟»

فهزّ بيكو برأسه.

قال كوراكس بتهكّم: «وإذا فشلنا في إجراء التصليحات خلال اثنتي عشرة ساعة فماذا يحصل عندها؟»

«لقد خطر لي هذا الأمر. بمجرد أن يتم إيقاف جريان المياه، يترك كورفينوس بيكو في الحوض ويسير مع مجرى الأوغوستا نزولاً على الجبال إلى أن يصل إلينا في المنطقة الشمالية الشرقية من فيسوفيوس. وعندئذ سيتضح لنا مقدار العمل المتوجب علينا القيام به. إن عجزنا عن إصلاح العطل خلال اثنتي عشرة ساعة، عندها ينقل الخبر إلى بيكو ليبقي السد مقفلاً إلى أن ننتهي. وهذا يتطلب امتطاء الخيل لمدة طويلة يا كورفينوس. هل أنت جاهز لهذه المهمة؟»

«نعم أيها الساقي».

«يا لك من رجل طيب».

كرّر كوراكس قائلاً وهو يهز برأسه: «اثنتا عشرة ساعة! هذا يعني أننا سنعمل طيلة الليل».

«ما الأمر يا كوراكس أخائف أنت من العتمة؟» فأفلح مرة أخرى في استدراج ضحكة من أفواه الرجال الآخرين.

«عندما تحدد مكان العطل، فلتجرِ تقييماً لكمية المواد التي سنحتاج إليها من أجل التصليحات وكم سنحتاج من أيدٍ عاملة. إبق أنت هناك وأرسل موسى ومعه التقرير. سأحرص على الطلب من الأوصياء ما يكفينا من المشاعل إضافة إلى كل ما سنحتاج إليه. وبمجرد أن أحمّل العربتين، سأنتظر هنا في القلعة المائية حتى أسمع خبراً منك».

«ماذا يحصل لو لم أحدّد مكان العطل؟»

خطر لأتيليوس أن المراقب قد يعمد إلى تخريب المهمة بأكملها جراء المرارة التي يشعر بها: «عندها سننطلق في كل الأحوال ونصل إليك قبل هبوط الليل». ثم ابتسم وقال: «لذا لا تحاول أن تعبث معي».

twitter @baghdad_library

«أنا واثق أن كثيرين يتمنون العبث معك أيها الفتى الوسيم ولكني لست واحداً منهم». وبعد أن رمقه كوراكس بنظرة لها معنى أضاف: «أنت بعيد جداً عن ديارك أيها الشاب ماركوس أتيليوس لذا خذ بنصيحتي. في هذه المدينة إحمِ ظهرك دائماً إن فهمت قصدي».

ثم ألقى بيده على خصيتيه وحركهما رواحاً وجيئة بنفس الطريقة المريبة التي قام بها على جانب التل في اليوم السابق عندما كان أتيليوس يبحث عن الينبوع.

* * *

جمعهم عند الحدود المقدسة الواقعة وراء بوابة فيسوفيوس حيث سيقوم بتوديعهم قبل أن يتفرقوا، وقد تم إبقاء هذا المكان خالياً من المباني تبجيلاً للآلهة الحارسة للمدينة.

كان الطريق يلتف حول البلدة كحلبة سباق ويمر بمحاذاة تحف برونزية ثم يخترق مقبرة كبيرة. فيما كان الرجال يمتطون جيادهم انتاب أتيليوس شعور بأنه يتحتم عليه قول شيء ما، خطاب ما أشبه بخطاب القيصر ليلة المعركة، ولكنه لطالما عجز عن إيجاد مثل هذا النوع من الكلمات: «بعد أن نتم هذه المهمة سأبتاع النبيذ للجميع». ثم أضاف ببرود: «سأبتاعه من أفضل مكان في بومبي».

ثم قال موسى مشيراً إليه: «وامرأة. لا تنس النساء أيها الساقي».

«بالنسبة للنساء، أنت اشترِها لنفسك».

«هذا إن استطاع إيجاد عاهرة تقبل به».

«تباً لك يا بيكو. أراكم لاحقاً أيها الخرْقى».

وقبل أن يتسنى لأتيليوس التفكير بأي أمر آخر ليقوله كانوا يركلون بأعقاب أقدامهم على جوانب أحصنتهم ويشقون طريقهم وسط الحشود متوجهين إلى المدينة، حيث سار كوراكس وبيكو من جهة اليسار متوجهين إلى نولا، وبيكو وكورفينوس إلى اليمين نحو نوسيريا وأبيلينوم. وفيما هم يجتازون خَبباً المقبرة،

نظر كوراكس إلى الوراء، ليس إلى أتيليوس وإنما رفع رأسه ونظر ناحية جدران المدينة، وتوجهت نظراته إلى أبراج المراقبة والأسوار للمرة الأخيرة، ثم أحكم جلسته بثبات أكثر على السرج واستدار باتجاه فيسوفيوس.

تابع المهندس سير الفرسان إلى أن اختفوا وراء القبور، تاركين وراءهم غباراً بنياً فوق التوابيت الحجرية مما يبين أنهم مروا من هناك. وقف بضع لحظات، وبالكاد كان يعرفهم، ومع ذلك فهو يعلق الكثير من آماله عليهم، وقد ذهب معظم مستقبله معهم. ثم عاود التوجّه إلى بوابة المدينة.

عندما انضم إلى صف المشاة المنتظرين عند البوابة، انتبه إلى وجود رابية صغيرة في الأرض حيث تمر القناة تحت جدار المدينة، وقد غفل عنها من قبل. توقف واستدار تابعاً خط القناة وصولاً إلى أقرب فتحة، ودُهش حينما رأى أن مسارها يشير مباشرة إلى قمة فيسوفيوس. وسط غمامة الغبار والحر بدا الجبل من الريف أضخم حجماً مما بدا عليه من البحر، ولكنه بدا أكثر ميلاً إلى اللون الأزرق الرمادي منه إلى الأخضر. أخذ أتيليوس يفكر أنه من المستحيل أن تكون الإمدادات متوجهة صعوداً قاطعة المسافة الطويلة إلى جبل فيسوفيوس نفسه. فخمن أنه لا بد وأنها تنحرف إلى ناحية الشرق عند حافة المنحدرات السفلى ثم تمتد داخل الأراضي لتنضم إلى خط الأوغوستا الأساسي. ولكنه تساءل أين يحدث ذلك بالضبط. تمنى لو كان يعرف شكل الأرض ونوعية الصخور والتربة. ولكن بالنسبة إليه، كامبانيا ليست سوى لغز.

عاد وعبر البوابة المظلّلة، ثم دخل إلى الباحة الصغيرة مدركاً فجأة أنه بات وحيداً في بلدة غريبة. ما الذي تعرفه بومبي عن الأزمة الحاصلة خلف جدرانها أو هل تعبأ بها؟ بدا له وكأن هذا النشاط الغافل عن الأحداث يسخر منه. سار بجانب القلعة المائية ثم دخل إلى زقاق قصير يؤدي إلى مدخلها: «هل يوجد أحد هنا؟»

لم يجبه أحد، وأمكنه من هنا سماع هدير المياه الجارية في القناة بشكل

twitter @baghdad_library

أوضح. وعندما فتح الباب الخشبي المنخفض أصابه على الفور الرذاذ الرطب واشتم الرائحة القوية الحادة والحلوة، الرائحة التي ظلت تلاحقه طيلة حياته، رائحة المياه العذبة على الصخور الدافئة.

توجّه إلى الداخل، كان ثمة شباكان فوق رأسه دخل منهما شعاعان من النور كسرا حدة الظلمة الباردة. ولكنه لم يكن بحاجة إلى الضوء ليعرف شكل القلعة فقد سبق له أن رأى العشرات منها على مدى السنوات، وكلها متشابهة، حيث أنها كلها مبنية حسب مبادئ فيتروفيوس. كان نفق خط بومبي أصغر حجماً من خط الأوغوستا الأساسي، ولكنه مع ذلك يتسع للرجل كي يدخل فيه ويجري التصليحات. وتتدفق المياه من فمه عبر شبكة برونزية وتصب في خزان إسمنتي ضحل مقسّم بواسطة بوابات خشبية ويغذي بدوره مجموعة من ثلاثة أنابيب معدنية كبيرة. يجر الأنبوب الرئيسي المياه إلى نوافير الشرب، والواقع إلى يساره يجر المياه إلى المنازل الخاصة، والواقع على يمينه يجر المياه إلى الحمامات العامة والمسارح. أما الأمر غير العادي فهو قوة ضخ المياه. لم تكن المياه تبلل الجدران فحسب بل إنها جرفت معها كمية من الركام داخل النفق، فعلق على الشبكة المعدنية. رأى أتيليوس على الشبكة بعض الأوراق وجذوع شجر حتى أنه رأى قطع صخور صغيرة، فاستنتج أنه يوجد إهمال في الصيانة. إذاً لا عجب من قول كوراكس إن العبد المسؤول عن المياه عديم الفائدة.

وضع رجلاً فوق جدار الخزان الإسمنتي ثم وضع الرجل الأخرى، وأنزل نفسه إلى البركة الملتفّة كالدوامة، فوصلت المياه حتى حدود خصره تقريباً، وبدا الأمر أشبه بالنزول في بركة من الحرير الدافئ. مشى عدة خطوات بصعوبة ناحية المصبّعة ووضع يديه تحت المياه حول طرف إطار الشبكة وأخذ يبحث عن البراغي التي تشدها، وعندما وجدها قام بفكها. كان ثمة برغيان إضافيان في الأعلى، ففكهما أيضاً ورفع المصبّعة ووقف جانباً ليدع الأوساخ تخرج.

«هل ثمة أحد هنا؟»

أجفله هذا الصوت الذي سمعه ونظر إلى مصدره فرأى شاباً يافعاً واقفاً أمام الباب: «بالطبع يوجد أحد هنا أيها الغبي. كيف يبدو لك الأمر؟»

«وما الذي تفعله؟»

«أنت العبد المسؤول عن المياه؟ إذاً أنا أقوم بعملك نيابة عنك. هذا ما أقوم به. انتظر عندك». أعاد أتيليوس وضع المصبّعة في مكانها وأعاد تثبيت البراغي عليها، ثم سار وصولاً إلى جانب الخزان ورفع نفسه إلى الأعلى: «أنا ماركوس أتيليوس، الساقي الجديد لقناة الأوغوستا. وبأي اسم ينادونك عدا عن الغبي الكسول؟»

«إسمي تيرو أيها الساقي». كانت عينا الفتى مفتوحتين على نحو واسع نتيجة شعوره بالخوف والبؤبؤان يتحركان من جانب إلى آخر. «سامحني». ثم خرّ على ركبتيه: «إننا في يوم عطلة رسمية أيها الساقي، وقد نمت متأخراً، أنا..».

«لا بأس. لا يهم». كان الفتى في السادسة عشرة من عمره تقريباً فحسب، ويبدو أوهن البشر، يماثل في نحافته الكلاب الضالة، فندم أتيليوس على قسوته: «هيا إنهض عن الأرض. أريد منك أن تأخذني إلى المجلس الحاكم». مد أتيليوس يده ولكن تجاهلها العبد، وعيناه لا تزال تتحركان رواحاً وجيئة. لوّح أتيليوس براحة يده أمام وجه تيرو: «هل أنت أعمى؟»

«نعم أيها الساقي».

مرشد أعمى!. لا عجب أن كوراكس ابتسم عندما سأله أتيليوس عنه. مرشد أعمى في مدينة غريبة: «ولكن كيف عساك تؤدي مهامك وأنت أعمى؟».

«إن سمعي أقوى من سمع أي إنسان». على الرغم من شعور تيرو بالتوتر إلا أنه تكلم بكل فخر: «بوسعي أن أعرف من خلال صوت المياه كيفية تدفقها وإن كان ثمة ما يعيقها، وبوسعي شمّها، وبوسعي تذوقها بحثاً عما يعكر صفوها». ثم رفع رأسه وأخذ يشم الهواء: «هذا الصباح ليس هناك حاجة كي أعدّل البوابات. لم يسبق لي أن سمعت المياه تتدفق بهذه القوة».

twitter @baghdad_library

«هذا صحيح». هز المهندس برأسه: كان قد قلّل من تقدير الصبي. «الخط الأساسي مسدود في مكان ما بين هذا المكان ونولا. ولهذا السبب أتيت إلى هنا لكي أحصل على المساعدة في تصليحه. أنت ملك لهذه البلدة؟» فهز تيرو برأسه. «من هم أعضاء المجلس الحاكم؟»

أجاب تيرو بسرعة: «ماركوس هولكونيوس وكوينتوس بريتيوس. والمحتسِبان هما لوشيوس بوبيديوس وغايوس كوسبيوس».

«من منهم المسؤول عن مخزون المياه؟»

«بوبيديوس».

«أين عساي أجده؟»

«إنه يوم عطلة».

«اين يقع منزله إذاً»؟

«في أسفل التل أيها الساقي، ناحية البوابة الشمالية. على اليسار، بعد التقاطع مباشرة». ونهض تيرو على رجليه بلهفة: «بوسعي أن أدلك على الطريق إن شئت».

«أستطيع أن أجد الطريق بنفسي بكل تأكيد».

«لا لا». كان تيرو قد وصل إلى الزقاق تواقاً إلى إثبات قدرته على المساعدة: «بوسعي أن آخذك إلى هناك. سترى».

* * *

أخذا يجدان السير سوياً نزولاً ناحية البلدة، فبانت تحتهما كمجموعة من سقوف التراكوتا المتجهة ناحية البحر المتلألىء. وعلى اليسار هناك القمم الزرقاء لشبه جزيرة سورينتوم. وعلى اليمين هناك جانب فيسوفيوس المغطى بالأشجار. وجد أتيليوس صعوبة في تخيل مكان أروع من هذا لبناء مدينة، حيث تقع عالية عن الخليج فلا تزعجها هبات النسيم التي تحدث بين الفينة

والأخرى، وقريبة بالقدر الكافي من الشاطئ مما يتيح لها الاستمتاع بمنافع التجارة على البحر المتوسط، فلا عجب أن عاودت النهوض بهذه السرعة بعد الزلزال.

تشكل المنازل صفاً على الطرقات، وليس على نسق مباني الشقق في روما الممتدة في غير اتساق، بل هي منازل واجهتها ضيقة ولا نوافذ لها بحيث بدت وكأنها تدير ظهرها إلى الحشود وتنظر إلى الداخل أي إلى نفسها. تكشف الأبواب المفتوحة عما يوجد خلفها: ممرات موزاييك باردة، حديقة مشمسة، نافورة. ولكن عدا عن هذه المناظر، فإن الشيء الوحيد الذي يكسر رتابة لون الجدران الكئيبة هي شعارات الانتخابات المطلية باللون الأحمر.

لقد أجمعت الجماهير كاملة على ترشح كوسبيوس لترؤس مكتب المحتسبين.

يحثكم تجار الفاكهة إلى جانب هلفيوس فيستاليس بقوة على انتخاب ماركوس هولكونيوس بريسكوس كحاكم يتمتع بسلطة قضائية.

يحثكم عبدة إيزيس قاطبة بقوة على انتخاب لوشيوس بوبيديوس الثاني كمحتسب.

«يبدو أن مدينتكم قاطبة مهووسة بأمر الانتخابات يا تيرو. الوضع هنا أسوأ من روما».

«يصوّت الرجال الأحرار لانتخاب أعضاء المجلس الحاكم الجدد كل شهر آذار أيها الساقي».

كانا يسيران بسرعة، وتيرو يتقدّم أتيليوس بعض الشيء وقد أخذ يشق طريقه بحذر على أرضية الشارع المرصوفة والتي تعج بالناس، وبين الحين والآخر يطأ بقدميه في الميزاب الموجود على جانب الطريق فيرشش المياه الجارية فيها. مما اضطر المهندس إلى الطلب منه الإبطاء في المشي، فاعتذر تيرو.

أردف ببهجة: «لقد أصبت بالعمى منذ ولادتي». كان قد رُمي خارج أسوار

twitter @baghdad_library

المدينة وتُرك هناك ليموت. ولكن أحد الأشخاص أنقذه واعتاش من خلال القيام بمهمات لحساب البلدة مذ كان في السادسة من عمره. ويستدل على وجهة سيره بالفطرة.

قال أتيليوس عندما صادف الإسم نفسه للمرة الثالثة: «هذا المحتسِب بوبيديوس، لا بد أن عائلته هي التي كانت في أحد الأيام تمتلك أمبلياتوس كعبد لها».

ولكن علَى الرغم من حدة سمع تيرو، إلا أنه بدا وكأنه لم يسمعه.

وصلا إلى تقاطع طرق كبير يجلله قوس نصر ضخم يستند على أربعة أعمدة رخامية، وتنتصب تحت السماء الزرقاء الصافية مجموعة من أربعة أحصنة مصنوعة من الحجر حاملة صورة النصر في عربتها الذهبية. كان التمثال مُهدى إلى هولكونيوس آخر، ألا وهو ماركوس هولكونيوس روفوس وقد توفي قبل ستين عاماً. وقف أتيليوس بعض الوقت حتى يقرأ الكلمات المحفورة عليه: الترّيبيون العسكري، كاهن أغسطس، حاكم لخمس مرات، حامي البلدة.

أخذ يفكر أنه دائماً يجد الأسماء القليلة نفسها: هولكونيوس، بوبيديوس، كوسبيوس... يعمد المواطنون العاديون إلى ارتداء أثواب التُّوغة في كل فصل ربيع، والتوجه لسماع الخطابات، وإيداع الألواح التي تحمل أصواتهم الانتخابية في الوعاء وانتخاب أعضاء جدد للمجلس الحاكم. ولكن ها هي الوجوه المألوفة نفسها تتكرّر سنة بعد أخرى. لم يكن المهندس يولي السياسيين الكثير من وقته تماماً، كذلك كان مع الآلهة.

كان على وشك إنزال رجله ليقطع الشارع، ثم فجأة عاد وسحبها، وبدا له أن الأحجار الكبيرة تهتز بعض الشيء. كانت تجتاح البلدة موجة حر جافة كبيرة، وبعد برهة من الوقت وجد نفسه يهتز بعنف كحاله عندما كانت المينيرفا ترسو، مما اضطره إلى الإمساك بذراع تيرو ليدرء عن نفسه الوقوع. أخذ بعض الأشخاص يصرخون، وجفل حصان، وفي الزاوية المقابلة من تقاطع الطرق انزلق حجر قرميد عن سقف منحدر الطراز وتكسّر على الطريق المرصوف. لبضع

دقائق ساد الصمت المطبق في وسط بومبي، ثم عاد النشاط تدريجياً يعم المكان. تنفس الناس الصعداء وعاودوا تبادل الأحاديث، وقام سائق بضرب حصانه المذعور بالسوط على ظهره فسارت العربة إلى الأمام.

استغل تيرو الجلبة التي حدثت بين الناس وانتقل إلى الجهة المقابلة. وبعد القليلِ من التردد تبعه أتيليوس متخوفاً من معاودة الأحجار الكبيرة الاهتزاز تحت نعليه الجلديين. ودفعه هذا الإحساس إلى الشعور بالتوتر الشديد. إن لم يكن بوسعك الوثوق بالأرض التي تسير عليها، إذاً بماذا عساك تثق؟

انتظره العبد وعيناه الخاليتان من التعبير اللتان تبحثان دوماً عما لا يسعه رؤيته رسمتا على وجهه نظرة عدم ارتياح دائمة: «لا تقلق أيها الساقي. فهذا الأمر ما فتئ يتكرر طيلة الصيف. خمس مرات، عشر مرات، حتى أنه حصل في اليومين الماضيين. إن الأرض تتذمر من الحرارة الشديدة!»

مد يده إلى أتيليوس ولكنه تجاهلها، إذ وجدها مهينة، بحيث يقوم الأعمى بطمأنة البصير، ثم صعد على الرصيف العالي دونما مساعدة، وقال بانزعاج: «أين ذاك المنزل اللعين؟» فأشار تيرو إلى باب في الشارع المقابل على مسافة قريبة نزولاً.

لم يبدُ منظر المنزل جميلاً جداً إذ هناك الجدران القاتمة نفسها. يوجد فرن على جهة من جهاته وثمة طابور من الناس ينتظرون لدخول دكان حلواني. كما كان هناك رائحة بول كريهة منبعثة من الغسيل في الجهة المقابلة حيث تُرك بعض القدور على الرصيف ليبوّل فيها المارة (ليس ثمة أفضل من بول الإنسان لتنظيف الغسيل). بجانب مقر الغسيل هناك مسرح. وفوق دار المسرح يوجد شعار آخر من تلك الشعارات المطلية باللون الأحمر والمنتشرة في كل مكان: يحث جيران لوشيوس بوبيديوس على انتخابه كمحتسب وسوف يثبت لكم جدارته. ما كان أتيليوس ليجد المنزل أبداً وحده.

«هل لي بطرح سؤال عليك أيها الساقي؟»

«ماذا تريد؟»

twitter @baghdad_library

«أين إكزومنيوس؟»

«لا أحد يعرف يا تيرو، فلقد اختفى».

استوعب العبد الكلام وهز رأسه ببطء. «كان إكزومنيوس مثلك. هو الآخر لم يكن يقوى على الاعتياد على الاهتزازات. قال إن ذلك يذكّر بالفترة السابقة للزلزال الكبير الذي حصل منذ عدة سنوات. في السنة التي وُلدت فيها».

بدا لأتيليوس أنه على وشك البكاء، فوضع يده على كتفه وأخذ يتفحصه بدقة.

«هل كان إكزومنيوس في بومبي في الآونة الأخيرة؟»

«بالطبع كان يعيش هنا».

أحكم أتيليوس قبضته وسأله: «كان يعيش هنا؟ في بومبي؟»

شعر أتيليوس بالارتباك، ومع ذلك استوعب على الفور أن هذا الكلام صحيح. وهذا يعلل سبب خلو غرفة إكزومنيوس في ميسينوم من الممتلكات الشخصية، والسبب الذي دعا بكوراكس إلى معارضة مجيئه إلى هنا، وسبب تصرف المراقب بهذا الشكل الغريب في بومبي. كل ذاك التلفّت في الأرجاء والبحث بين الحشود عن وجه مألوف.

قال تيرو: «كان يستأجر غرفة في مقر أفريكانوس. لم يكن يمكث هنا طوال الوقت، وإنما في أغلب الأحيان».

«ومتى كانت آخر مرة تحدثت فيها إليه؟»

«لا يسعني التذكّر». راح يبدو على الفتى علامات الخوف. أدار رأسه وكأنه يحاول النظر إلى يد أتيليوس الموجودة على كتفه. فأزاح المهندس يده بسرعة، وربّت له على ذراعه مطمئناً إياه.

«حاول أن تتذكر يا تيرو. فالمسألة مهمة».

«لست أدري».

«قبل احتفال نبتون أم بعده؟» كان قد صادف عيد نبتون في الثالث والعشرين من تموز: وهو التاريخ الأكثر قداسة بالنسبة لرجال قنوات جر المياه.

«بعد الاحتفال بكل تأكيد. ربما منذ أسبوعين».

«أسبوعان؟ إذاً لا بد وأنك كنت من أواخر الأشخاص الذين تحدثوا إليه. وكانت الارتجاجات تثير فيه القلق؟» هز تيرو برأسه موافقاً من جديد. «وأمبلياتوس؟ كان صديقاً مقرباً من أمبلياتوس أليس كذلك؟ هل كانا يقضيان كثيراً من الوقت سوياً؟»

أشار العبد إلى عينيه قائلاً: «أنا فاقد للبصر ا».

أخذ أتيليوس يفكر: صحيح ولكني أراهن أنك كنت تسمعهما، إذ لا يمكن لأي صوت الفرار من هاتين الأذنتين. توجه بنظراته إلى الشارع المقابل، إلى منزل بوبيديوس. «حسناً يا تيرو، بوسعك العودة إلى القلعة. وقم بأعمالك النهارية. أنا ممتن لك على المساعدة».

«شكراً لك أيها الساقي». انحنى تيرو لأتيليوس وأخذ يده وقبّلها، ثم استدار وأخذ يتسلق التلة باتجاه بوابة فيسوفيوس وهو يتنقل من جانب إلى آخر بين الحشد المحتفل.

twitter @baghdad_library

أورا كوينتا

الساعة: ١١:٠٧

> إن تكوّن حمم جديدة يحدث ثوراناً عبر تعكير التوازن الحراري أو الكيميائي أو الميكانيكي للحمم الأقدم وجوداً داخل خزان ضحل. ويمكن للحمم الجديدة الآتية من مصادر أكثر عمقاً وحرارة أن ترفع فجأة حرارة الحمم المترسبة الأكثر برودة مسببة حدوث عمليتي الحَمل الحراري والتبنّر فيها
>
> **علم البراكين (الطبعة الثانية)**

كان للمنزل باب مزدوج موصد بإحكام ومزوّد بخشبات قائمة ومفاصله برونزية. دق أتيليوس عليه بضع مرات بقبضته، فبدا أن الصوت الذي أحدثه خافتاً جداً جراء الصخب الصادر من الشارع. وعلى الفور فُتح الباب ولكنه ظل مواربا وظهر البوّاب وهو نوبي طويل القامة جداً وعريض المنكبين يرتدي قميصاً قرمزياً عاري الكمين. بدت ذراعاه الضخمتان السوداوتان ورقبته في غاية الصلابة وكأنها جذع شجرة وقد دهنها بالزيت فأخذت تلمع كالخشب الإفريقي الصلب المدهون.

قال أتيليوس بخفة: «أرى أنك بوّاب مؤهل جداً لحراسة هذا الباب».

لم يبتسم البواب وقال: «أفصِح عن سبب مجيئك».

«أنا ماركوس أتيليوس، الساقي المسؤول عن قناة الأوغوستا، وأود تقديم تحياتي إلى لوشيوس بوبيديوس الثاني».

twitter @baghdad_library

«إنه يوم عطلة رسمية. وهو ليس في المنزل».

وضع أتيليوس قدمه مقابل الباب: «إنه الآن في المنزل».

فتح حقيبته وأخرج رسالة الأميرال: «هل ترى هذا الختم؟ أعطه إياه وقل له إنه من القائد العام للأسطول في ميسينوم. أخبره إنني أريد مقابلته في مسألة خاصة بالإمبراطور».

نظر البواب إلى قدم أتيليوس، ففي حال قام بإغلاق الباب بقوة سيقصمها وكأنها جذع شجرة صغير. وقاطعهما صوت رجل من وراء البواب: «هل قال إنها مسألة تخص الإمبراطور يا ماسافو؟ حري بك إدخاله». فتردد النوبي الذي كان برأي أتيليوس يحمل الإسم الأنسب بالنسبة إلى شكله، ثم تراجع خطوة إلى الوراء ودخل المهندس بسرعة عبر فتحة الباب. فأغلق العبد الباب وراءه وأوصده، وعند ذلك خفت الصخب الصادر عن المدينة.

كان الرجل الذي تكلم قبل هنيهة يرتدي الزي القرمزي نفسه الذي يرتديه البواب، ويعلّق في حزامه كومة من المفاتيح، لذا فهو على الأرجح القهرمان المسؤول عن التدبير المنزلي. أخذ الرسالة ومرر إبهامه على الختم ليرى إن كان مكسوراً. وبعد أن أرضته النتيجة، نظر إلى أتيليوس متفحصاً إياه: «إن لوشيوس بوبيديوس مشغول إذ إنه يستضيف بعض الأشخاص احتفالاً بعيد فولكان. ولكني سأحرص على أن يستلم الرسالة».

قال أتيليوس: «لا، يجدر بي إعطاؤه إياها بنفسي وفي الحال».

مد أتيليوس يده، فأخذ القهرمان ينقر باللفافة الورقية على أسنانه في محاولة منه للتوصل إلى قرار بشأن ما عساه يفعل: «حسناً». ثم أعطى أتيليوس الرسالة وقال: «اتبعني».

مشى أمامه في رواق ضيق ناحية القاعة المركزية المشمّسة. وللمرة الأولى، بدأ أتيليوس يقدّر كِبَر مساحة هذا المنزل القديم. فأدرك أن واجهة المنزل الضيقة ليست سوى تمويه فحسب. أخذت عيناه تتفحصان المكان من خلال مجاز ضيق من فوق كتفيّ القهرمان ويمتد هذا المجاز على مساحة تفوق المئة

والخمسين قدماً وصولاً إلى الداخل، فأخذ يُبصر مناظر متتالية من الألوان والإضاءة. حيث هناك ممر مظلّل أرضيته مرصوفة بفسيفساء من اللون الأبيض والأسود، وهناك الضياء الباهر الذي يغمر القاعة المركزية بنافورتها الرخامية، ثم هناك غرفة المكتب المخصصة لاستقبال الزوار يحرسها تمثالان نصفيان برونزيان، وأخيراً هناك حوض سباحة ذو صف من الأعمدة تلتف عليها عروق نبات الكرمة المعترش. كان يسمع زقزقة عصافير دوري في مطيَر في مكان ما، إضافة إلى أصوات نساء يتضاحكن.

دخلا إلى القاعة الرئيسية فقال له القهرمان بنبرة حادة: «انتظر هنا» ثم اختفى إلى جهة اليسار وراء ستارة تحجب ممراً ضيقاً. جال أتيليوس بنظره في الأرجاء. هنا استُخدم المال، المال القديم، لشراء خصوصية كاملة وسط بلدة تعج بالناس. كانت الشمس فوق الرؤوس مباشرة، وتشع من خلال الفتحة المربعة في سقف القاعة، وكان الهواء دافئاً وحلواً تعبق فيه رائحة الورود. ومن موقعه هذا أمكنه رؤية معظم حوض السباحة. هناك تماثيل برونزية جميلة تزين السلالم في الطرف القريب، منها: أسد، وأفعى ترفع رأسها وسط جسمها الملتف، وأبولو يعزف على القيثارة. وفي آخر القاعة هناك أربع نساء يجلسن على كنبات يهوين أنفسهن بالمراوح، ووراء كل منهن تقف خادمتها. لاحظن أن أتيليوس يحدق بهن، فصدر صوت ضحكات خافتة من وراء المراوح. وشعر أن وجهه يحمرّ نتيجة الإحراج فأدار لهن ظهره بسرعة وعندها فُتحت الستارة وعاد القهرمان مشيراً له بالتقدم.

أدرك أتيليوس على الفور من خلال الرطوبة ورائحة الزيوت أنه يتم اصطحابه إلى الحمامات الخاصة في المنزل. فأخذ يدور في خلده أنه لا بد وأن الحمامات موجودة في جناح خاص بها، لأنه مع وجود مثل هذا الثراء الفاحش، لماذا تمتزج الحمامات مع بقية أرجاء المنزل؟ اصطحبه القهرمان إلى غرفة تبديل الملابس وطلب منه خلع حذائه، ثم عاودا الخروج إلى الممر متوجهين إلى الحمام حيث كان يتمدد رجل مسن سمين جداً على طاولة ووجهه إلى الأسفل وهو عارٍ ويقوم شاب بتدليكه. كان ردفاه الأبيضان يهتزان في

twitter @baghdad_library

الوقت الذي يقوم فيه المدلك بأداء حركات أشبه بالتقطيع صعوداً ونزولاً على عموده الفقري. أدار رأسه بعض الشيء لدى مرور أتيليوس ورمقه بنظرة واحدة محتقنة دماً، ثم أغمض عينيه من جديد.

فتح القهرمان باباً، فانبعثت غيمة من البخار المعطر من الداخل المعتم، ثم تنحى جانباً سامحاً للمهندس بالمرور.

في البداية وجد أتيليوس صعوبة في الرؤية داخل غرفة الحمام الساخن. لم تكن ثمة إنارة ما عدا تلك الصادرة من مشعلين مثبتين على الجدار ومن الجمرات داخل الموقد وهو المصدر الذي ينبعث منه البخار وينتشر في أرجاء الغرفة. تدريجياً أفلح أتيليوس في رؤية حوض استحمام كبير يظهر فيه ثلاثة رؤوس شعرها أسود وكأن لا أجساد لها وتطفو فوق الماء. حدثت دوائر في الماء حينما تحرك أحد الرؤوس وترششت المياه عندما رُفعت يد وتم التلويح بها بروية.

قال صوت منهك: «هنا أيها الساقي. لديك رسالة لي من الإمبراطور على ما أعتقد؟ لا أعرف هؤلاء الفلافيون، وأعتقد أنه تحدّر من جابي ضرائب. ولكن نيرون كان صديقاً مقرّباً لي».

كان ثمة رأس آخر يتحرك وأمر قائلاً: «إجلب لنا مشعلاً! دعنا نرى على الأقل من الذي يقوم بإزعاجنا في يوم العيد هذا».

أخذ عبد واقف في زاوية الغرفة لم يكن أتيليوس قد تنبه إلى وجوده أحد المشعلين عن الجدار ووضعه بالقرب من وجه المهندس حتى يتمكنوا من رؤيته، فالتفتت الرؤوس الثلاثة باتجاهه. شعر أتيليوس أن مسامات بشرته تتفتح، والعرق يتصبب بشدة من جسمه. كانت الأرض المرصوفة بالفسيفساء ساخنة جداً تحت قدميه فأدرك أنها تدفئة مركزية رومانية. إن وسائل الترف والرفاهية متراكمة فوق بعضها البعض في منزل آل بوبيديوس. وتساءل إن كان أمبلياتوس قد أُجبر على التصبّب عرقاً فوق الفرن في منتصف الصيف حينما كان عبداً في هذا المكان.

لم يحتمل الحرارة المنصبّة على خده فقال: «هذا ليس بالمكان المناسب لمناقشة مسائل تخص الإمبراطور»، ثم دفع بذراع العبد بعيداً عنه: «من الذي يكلمني؟»

فقال الرأس الثالث: «إنه بكل تأكيد فتى فظ».

فقال صاحب اللهجة الواهنة: «أنا لوشيوس بوبيديوس وهذان السيدان هما غايوس كوسبيوس وماركوس هولكونيوس. وصديقنا المقدّر الموجود في الحمام هو كوينتيس بريتيوس. والآن هل بت تعرف من نحن؟»

«أنتم أعضاء المجلس الحاكم الأربعة في بومبي».

قال بوبيديوس: «صحيح، وهذه مدينتنا أيها الساقي لذا صُنْ لسانك».

كان أتيليوس يعرف كيفية سير النظام. إن بوبيديوس وكوسبيوس بصفتهما محتسِبَيْن بوسعهما إعطاء رخص لإتمام جميع الأعمال، من بناء المواخير إلى الحمامات، إنهما مسؤولان عن إبقاء الشوارع نظيفة وعن استمرار تدفق المياه ومواصلة فتح المعابد. أما هولكونيوس وبريتيوس، فهما لجنة من رجلين يرأسان المحكمة في الباسيليقا وينشران عدالة الإمبراطور: جلد هنا، وصلب هناك، ومن دون شك غرامات لملأ صناديق الدولة كلما سنحت الفرصة. ما كان ليستطيع إنجاز الأعمال من دونهم، لذا أجبر نفسه على الوقوف بصمت منتظراً إياهم كي يبدأوا بالكلام. وأخذ يفكر في الوقت، وفي أنه يخسر الكثير من الوقت.

بعد بعض الوقت قال بوبيديوس: «حسناً، أعتقد أنني تعرضت للحرارة لمدة كافية من الوقت». تنهد ووقف، بدا شكله أشبه بالشبح وسط البخار، ومد يده طلباً لمنشفة. عاد العبد ووضع المشعل على حامله وركع أمام سيده ولف قطعة قماش حول خصره. «حسناً أين هي تلك الرسالة؟» أخذها وتوجه إلى الغرفة المجاورة، فتبعه أتيليوس.

كان بريتيوس مستلقياً على ظهره، وبدا جلياً أن العبد الشاب يقدم له ما هو أكثر من مجرد تدليك، أزاح الرجل المسن يديّ العبد ومد يده ليأخذ

twitter @baghdad_library

منشفة. كان وجهه أحمر. وقد عبس في وجه أتيليوس وقال: «من هذا إذاً يا بوبي؟»

«إنه الساقي الجديد المسؤول عن الأوغوستا. إنه بديل إكزومنيوس، وأتى من ميسينوم». كسر بوبيديوس الختم وفتحه وفتح لفافة الورق. كان في بداية الأربعينات من عمره ويتمتع بالوسامة، وعكس شعره الأسود المملّس فوق أذنيه الصغيرتين شكل أنفه المعكوف عندما انحنى إلى الأمام ليقرأ الرسالة. كان جلد جسمه أبيض اللون وناعماً وخالياً من الشعر، فخطر على بال أتيليوس أنه ربما عمد إلى نتف الشعر عن جسمه، فشعر بالاشمئزاز.

في هذه الأثناء قَدِمَ الآخرون من الحمام والحشرية تنتابهم لمعرفة ما يجري، وكانت المياه تتقطّر منهم على الأرض البيضاء والسوداء. كانت ترتسم على الجدران لوحة جصيّة تصوّر حديقة مسوّرة بسور خشبي، وثمة فجوة في الجدار فيها قاعدة عمود منحوتة على شكل حورية مياه وعليها طَشْت رخامي مدوّر.

استند بريتيوس على كوعه ورفع نفسه ثم قال: «إقرأها بصوت عالٍ يا بوبي لنعرف ماذا تقول؟»

ظهر العبوس على وجه بوبيديوس ذي البشرة الناعمة. «إنها من بليني: باسم الإمبراطور تيتوس قيصر فيسباسيانوس أغسطس ووفقاً للسلطة الممنوحة لي من قبل مجلس الشيوخ وشعب روما..».

قال بريتيوس: «دعنا من هذه المقدمات، ادخل في صلب الموضوع». حف إصبعيه سوياً، الإبهام والوسطى، وكأنه يعد المال. «ماذا يريد؟»

«يبدو أن قناة جر المياه قد تعطلت في مكان ما بالقرب من فيسوفيوس. فجفت جميع المدن غربي نولا إنه يقول إنه يريدنا، بل يأمرنا حسبما يقول، بتوفير الرجال والمعدات اللازمة على الفور من مستعمرة بومبي من أجل إجراء التصليحات لقناة الأوغوستا تحت إمرة المهندس ماركوس أتيليوس الأول الآتي من قسم الوصاية على الموارد المائية في روما».

«حقاً؟ وهل لي بالسؤال عمن سيدفع الفاتورة؟»

«إنه لا يأتي على ذكر ذلك».

قاطع أتيليوس الحديث قائلاً: «المال ليس المسألة المهمة. أؤكد لحضراتكم أن مجلس الوصاية على الموارد المائية سيدفع جميع التكاليف».

«حقاً؟ وأنت تتمتع بالسلطة لتقطع هذا الوعد؟»

تردّد أتيليوس. «بوسعك الوثوق بي».

«الوثوق بك؟ ثقتنا بك لن تعيد الذهب إلى خزينتنا في حال نفذ منها».

قال أحد الرجال الآخرين: «أنظروا إلى هذا». كان في منتصف العشرينات من عمره، مفتول العضلات وصغير الرأس، فخمّن أتيليوس أنه حتماً الحاكم اليافع الثاني، المحتسب، كوسبيوس. فتح الصنبور فوق الطشت المدور فتدفقت المياه. «ليس ثمة جفاف هنا، هل ترى ذلك؟ إذاً فدعوني أسأل السؤال الآتي: ما علاقتنا نحن بهذا الأمر؟ أنت تريد الرجال والمعدات؟ إذهب إلى إحدى تلك المدن التي لا تملك المياه. إذهب إلى نولا. أما نحن فغارقون في المياه. أنظر!» ولإثبات وجهة نظره فتح الصنبور أكثر وترك المياه تتدفق.

قال بريتيوس بمكر: «بالإضافة إلى ذلك هذا الوضع مفيد لنا من الناحية التجارية. إن أي شخص موجود على الخليج ويحتاج إلى حمام أو إلى شربة ماء سيضطر إلى المجيء إلى بومبي. ويصادف هذا اليوم يوم عطلة أيضاً. ما رأيك يا هولكونيوس؟»

عدّل الحاكم الأكبر سناً المنشفة حول خصره وكأنها توغة وفقال: «من المهين للكهنة أن يروا الرجال يعملون في يوم عيد مقدس. يجدر بالناس أن تفعل كما نفعل نحن. عليهم الإجتماع مع أصدقائهم وعائلاتهم ليشاهدوا الشعائر الدينية. أرى أن نطلب من هذا الشاب ومع كامل احترامنا للأميرال بليني أن يغرب عن وجهنا».

أطلق بريتيوس ضحكة عالية ودق على جانب الطاولة موافقاً على هذا

twitter @baghdad_library

الرأي. ابتسم بوبيدوس ولف الورقة. «أعتقد أن جوابنا وصلك أيها الساقي. لماذا لا تعود في الغد وسنرى ما يسعنا فعله لك».

حاول أن يعيد له الرسالة ولكن أتيليوس مشى بمحاذاته وتخطاه ثم أقفل الصنبور. يا لهذه الصورة التي بدا عليها الثلاثة والمياه تتقطر منهم ـ مياهه هو ـ وبريتيوس معهم بعضوه المنتصب الذي ضاع بين طيات حجره. أصبحت الحرارة المعطرة بشكل قوي لا تُحتمل، فمسح وجهه بكم قميصه.

«والآن إسمعوني يا حضرات. بدءاً من منتصف هذه الليلة، ستفقد بومبي أيضاً مياهها. سيتم تحويل جميع مخزون المياه إلى بينيفينتوم، حتى نتمكن من دخول نفق القناة لإصلاحه. لقد أرسلت رجالي إلى الجبال لإقفال السدود». حصلت بعض التمتمات دليلاً على الغضب ولكنه رفع يده: «بكل تأكيد من مصلحة جميع السكان في الخليج التعاون؟» ثم نظر إلى كوسبيوس: «نعم، صحيح أنه بوسعي الذهاب إلى نولا للحصول على المساعدة ولكن سيكلفني ذلك على الأقل يوماً كاملاً. وهذا سيكون يوماً إضافياً تفتقرون فيه إلى المياه كحالهم هم».

قال كوسبيوس: «نعم ولكن ثمة فارقاً واحداً، سيكون لدينا بعض العلم بذلك، ما رأيك بهذه الفكرة يا بوبيديوس: بوسعنا إصدار بيان نطلب فيه من مواطنينا أن يملأوا كل الأواني التي يملكونها، وبتلك الطريقة ستكون مدينتنا هي المدينة الوحيدة التي تمتلك مخزوناً من المياه».

قال بريتيوس: «حتى أن بوسعنا بيع هذه المياه. وكلما طالت مدة الجفاف ارتفع سعر المياه».

«المياه ليست ملكاً لكم لتبيعوها». كان أتيليوس يجد صعوبة في التحكم بأعصابه: «إن رفضتم مساعدتي أقسم أن أول شيء سأقوم به بعد إصلاح خط القناة الرئيسي هو العمل على قطع خط الإمداد إلى بومبي». لم يكن يتمتع بأية سلطة تخوله إصدار مثل هذا التهديد، ولكنه أصدره على كل حال موجهاً إصبعه إلى صدر كوسبيوس: «وسأرسل إلى روما طالباً منهم أن يبعثوا لي مفوضاً إلى

هنا للتحقيق في موضوع إساءة استخدام القناة الأميرية. سأجعلكم تدفعون ثمن كل كوب إضافي استخدمتموه بشكل فائض عن حصتكم المشروعة».

صرخ بريتيوس قائلاً: «هذا هراء».

قال كوسبيوس بحنق: «لقد لمسني. هل رأيتم جميعاً ذلك؟ هذا الحقير وضع إصبعه القذر عليّ!». رفع ذقنه إلى الأعلى واقترب من أتيليوس متحضراً للعراك. كان يمكن للمهندس أن يقابل حركته بمثلها ولكن كان سينتج عن هذه الحركة نتائج كارثية بالنسبة إليه وبالنسبة إلى مهمته، لولا أن الستارة أزيحت وظهر وراءها رجل آخر بدا جلياً أنه كان يقف في الممر يصغي إلى حديثهم.

كان أتيليوس قد سبق له اللقاء به مرة واحدة فحسب، ولكنه ما كان لينساه: إنه نوميريوس بوبيديوس أمبلياتوس.

* * *

إن أكثر ما أصاب أتيليوس بالذهول بعدما تعافى من صدمة رؤيته من جديد هو مدى إذعانهم جميعاً له. حتى أن بريتيوس أنزل رجليه السمينتين عن جانب الطاولة وقوّم جلسته، وكأن ثمة قلة احترام في استلقائه في حضرة عبده السابق. وضع أمبلياتوس يده على كتف كوسبيوس مهدئاً إياه وهمس بضع كلمات في أذنه ثم غمز له وشعّث له شعره، وطوال هذا الوقت عيناه لا تبارحان أتيليوس.

تذكّر المهندس بقايا العبد في حوض سمك الأنقليس وظهر المرأة العبدة المليء بالجروح. «لماذا كل هذا أيها السادة؟» ثم فجأة ابتسم أمبلياتوس ابتسامة عريضة وأشار إلى أتيليوس. «أتتجادلون في الحمام؟ في يوم احتفال ديني؟ هذا أمر مرفوض. أين نشأتم جميعاً؟»

قال بوبيديوس: «هذا الساقي الجديد المسؤول عن القناة».

«أنا أعرف ماركوس أتيليوس فلقد التقينا من قبل، أليس كذلك أيها الساقي؟ هل لي برؤية هذه الورقة؟» أخذ رسالة بليني من يد بوبيديوس وجال بنظره عليها سريعاً ثم حدق في أتيليوس. كان يرتدي قميصاً طرفه مطرز باللون

twitter @baghdad_library

الذهبي. وشعره يلمع وتفوح منه رائحة المعطرات الغالية نفسها التي شمّها المهندس في اليوم السابق.

«ما هي خطتك؟»

«أن أتبع الخط من بومبي رجوعاً إلى نقطة التقائه مع الأوغوستا. ثم أجدُّ السير بمحاذاة الخط الرئيسي ناحية نولا إلى أن أجد مكان العطل».

«وماذا تحتاج؟»

تردد أتيليوس قائلاً: «ما زلت لا أعلم ماذا أحتاج بالضبط». فقد أربكه ظهور أمبلياتوس. «كلس سريع. رمل أحمر محلي. قرميد. أخشاب. مشاعل. رجال».

«كم تريد من كل ما ذكرت؟»

«لعلي أحتاج إلى ست أمفورات من الكلس بادئ ذي بدء، واثنتي عشرة سلة من الرمل الأحمر، وخمسين قدماً من الأخشاب، وخمسمئة حجر قرميد، وقدر ما يمكنك تأمينه من مشاعل، وعشر أياد قوية. قد أحتاج إلى عدد أقل وقد أحتاج إلى أكثر. هذا يعتمد على مدى الضرر الذي لحق بالقناة».

«متى ستعرف؟»

«سيعود أحد رجالي بالخبر اليقين عصر هذا اليوم».

هزّ أمبلياتوس برأسه: «حسناً إن كنتم تريدون رأيي يا حضرات، أعتقد أن علينا بذل ما بوسعنا للمساعدة. لا يجدر بنا أبداً السماح للآخرين بالقول إن مستعمرة بومبي القديمة أدارت ظهرها لالتماس قادم من الإمبراطور. إضافة إلى ذلك لدي مسمكة في ميسينوم تستنفذ المياه كما يستنفذ بريتيوس النبيذ. أريد أن تعود مياه القناة لتتدفق من جديد بأسرع وقت ممكن. ما رأيكم؟»

تبادل أعضاء المجلس الحاكم نظرات ضيق فيما بينهم، وفي النهاية قال بوبيديوس: «لعلنا تسرعنا بعض الشيء».

وحده كوسبيوس خاطر بإظهار بعض العناد: «ما زلت أرى أن هذه المسؤولية تقع على عاتق نولا».

قاطعه أمبلياتوس قائلاً: «لقد سوينا الأمر إذاً. سأسمح لك بأخذ كل ما تحتاج إليه يا ماركوس أتيليوس إن تكرمت وانتظرت في الخارج». نادى من فوق كتفه إلى القهرمان: «سكوتاريوس! أعطِ الساقي حذاءه».

لم يتكلم أي من الآخرين مع أتيليوس أو ينظروا إليه. كانوا أشبه بالتلامذة المشاغبين الذين أمسك بهم معلمهم.

أخذ المهندس حذاءه وخرج من الحمام إلى ممر معتم، وتم إغلاق الستارة وراءه بسرعة. استند مقابل الحائط لينتعل حذاءه محاولاً الإستماع إلى ما يقولونه، ولكنه لم يسمع أية كلمة. سمع من ناحية القاعة الرئيسية صوت ترشيش المياه وكأن أحداً ما غطس في حوض السباحة، فذكّره ذلك بأن المنزل مليء بالناس بسبب عطلة العيد، الأمر الذي جعله يحسم أمره من ناحية عدم رغبته بأن يخاطر ويسترق السمع فيمسك به أحد ما خلال ذلك، ففتح الستارة الثانية وخرج مجدداً إلى تحت أشعة الشمس القوية. في القاعة الرئيسية كان سطح الحوض يتماوج بقوة نتيجة الغطسة، وفي الطرف الثاني من القاعة كانت زوجات أعضاء المجلس الحاكم يتابعن الثرثرة. وقد انضمت إليهن كهلة تعوزها الأناقة وتجلس باحتشام على مسافة بسيطة منهن وقد وضعت يديها في حجرها. مرّ من ورائهن بضعة عبيد يحملون صواني عليها أطباق، وكانت رائحة الطعام تعبق في المكان. بكل تأكيد كان يتم التحضير لوليمة كبيرة.

لمح وميضاً أسود تحت المياه المتلألئة، وبعد وهلة ظهرت السبّاحة على السطح.

«كوريليا أمبلياتا».

تلفظ باسمها بصوت عال من غير قصد، ولكنها لم تسمعه. هزّت برأسها وأبعدت شعرها الأسود عن عينيها المغمضتين وجمعته إلى الوراء بيديها. كان كوعاها مفتوحين ووجهها الأبيض مرفوعاً ناحية الشمس غافلة عن مراقبته لها.

twitter @baghdad_library

همس قائلاً: «كوريليا»، غير راغب بلفت انتباه النسوة الأخريات وهذه المرة التفتت إليه. استغرقت بعض الوقت حتى أفلحت في رؤيته وسط القاعة الرئيسية الشاسعة، ولكن عندما وجدته أخذت تسبح باتجاهه. كانت ترتدي ثوباً رقيقاً وصل إلى حدود ركبتيها وعندما خرجت من المياه لفت أحد ذراعيها حول صدرها ووضعت الذراع الآخر بين فخذيها وكأنها فينوس متواضعة تنهض من بين الأمواج. مشى ناحية حوض السباحة وتخطى أقنعة آل بوبيديوس الأموات. كانِ ثمة شرائط حمراء بين أقنعة وجوه الأموات بحيث تظهر الشريطة التي تربط كل وجه بالآخر بطريقة متقاطعة تعود إلى أجيال سابقة.

همست قائلة: «أيها الساقي يجدر بك مغادرة هذا المكان!» كانت واقفة على السلالم الدائرية التي تؤدي إلى خارج الحوض. «أخرج! هيا! فأبي هنا وإن رآك. . ».

«فات الأوان على ذلك، فقد التقينا». تراجع إلى الوراء بعض الشيء حتى يصبح بعيداً عن مرأى النسوة الموجودات على الطرف الآخر من الحوض. خطر له أنه حري به أن يشيح بنظره بعيداً توخياً للاحترام. ولكنه عجز عن إبعاد عينيه عنها. «ماذا تفعلين هنا؟»

«ماذا أفعل هنا؟» نظرت إليه وكأنه أخرق ما، ثم مالت ناحيته. «أين عساي أكون؟ إن أبي يملك هذا المنزل».

في البداية لم يفهم جيداً ما قالته.

«ولكن تم إخباري إن لوشيوس بوبيديوس يسكن هنا. . ».

«هذا صحيح».

كان لا يزال يشعر بالارتباك. «إذاً؟»

«سوف نتزوج». قالت هذا الكلام ببرود ثم هزت بكتفيها، فوجد في هذه الحركة دلالة فظيعة وكأنه يأس خالص، ثم فجأة اتضح كل شيء بالنسبة إليه: سبب ظهور أمبلياتوس الذي لم يُعلَن عنه، إذعان بوبيديوس له، وطريقة إذعان

الآخرين له. بطريقة من الطرق قام أمبلياتوس بالتآمر لشراء المنزل من فوق رأس بوبيديوس والآن سيمدد ملكيته بشكل تام، عبر تزويج ابنته إلى سيده السابق. إن فكرة أن يقوم ذاك الرجل اللعوب الكبير السن بجسمه المنتوف الشعر بمشاطرة كوريليا السرير ملأته بغضب غير متوقع، رغم أنه حاول إقناع نفسه أن لا شأن له بهذا الأمر.

«ولكن بكل تأكيد رجل بسن بوبيديوس لا يعقل إلا أن يكون متزوجاً؟»

«كان متزوجاً وتم إجباره على الطلاق».

«وما رأي بوبيديوس بمثل هذا الزواج المدبّر؟»

«يظن انه أمر خسيس بالطبع، أن يحصل زواج بينه وبين فتاة أقل مرتبة منه، كرأيك أنت على ما يبدو».

قال بسرعة: «على الإطلاق يا كوريليا». رأى دموعاً تتلألأ في عينيها: «بل على العكس. برأيي أنت تساوين مئة رجل من عائلة بوبيديوس. بل ألف رجل».

قالت: «أنا أكرهه». ولكنه لم يعرف إن كانت تقصد والدها أو بوبيديوس.

صدر من الممر وقع خطوات سريعة وصوت صراخ أمبلياتوس منادياً: «أيها الساقي!»

فدبت الرجفة في أركان كوريليا: «أرجو منك المغادرة، أتوسل إليك. كنت طيباً لمحاولتك مساعدتي البارحة، ولكن لا تدعه يوقعك في شركه كما أوقعنا».

فقال أتيليوس بعناد: «أنا مواطن روماني، وُلدت حراً، وأنا أرأس فريق العمل المكلّف من قِبل مجلس الأوصياء على الموارد المائية، وفي خدمة الإمبراطور، وأتيت إلى هنا في مهمة رسمية لتصليح قناة جر المياه الأميرية ولستُ عبداً كي يطعمه إلى سمك الأنقليس، أو امرأة مسنة تتعرض للضرب حتى تشارف على الموت».

twitter @baghdad_library

وهذه المرة كانت الصدمة من نصيبها. وضعت يديها على فمها وقالت: «آتيا؟»

«آتيا، أجل. هل هذا اسمها؟ وجدتها الليلة الفائتة ملقاة في الشارع فأخذتها إلى مقر إقامتي. كانت قد تعرضت إلى الجلد بطريقة بشعة وتُركت في العراء لتموت وكأنها كلبة هرمة».

«يا له من وحش!» تراجعت كوريليا إلى الوراء ويداها لا تزالان على وجهها ثم نزلت في المياه.

قال أمبلياتوس: «أنت تستغل طبيعتي الطيبة أيها الساقي!» كان يتقدم وسط وسط غرفة المكتب «طلبت منك انتظاري ليس إلا». ثم حدق في كوريليا وقال لها «يجدر بك أن تحسني التصرف بعدما قلته لك البارحة!» ثم صرخ من فوق الحوض: «سيلسيا!» فارتجفت المرأة الهادئة التي لحظ أتيليوس وجودها من قبل في كرسيها: «أَخرِجي ابنتنا من حوض السباحة! فمن غير اللائق أن تعرض صدرها أمام الناس». ثم التفت إلى أتيليوس: «انظر إليهن هناك إنهن أشبه بالدجاجات السمينات داخل القن!» وصفّق بيديه ناحيتهن مطلقاً صوتاً عالياً، فرفعت النسوة مراوحهن بحالة امتعاض. «ولكنهن يعجزن عن الطيران. آه لا. إن ما تعلمته حول الأرستقراطي الروماني أنه قد يذهب إلى أي مكان مقابل الحصول على وجبة مجانية، ونساؤه أسوأ منه حالاً». ثم نادى قائلاً: «سأعود بعد ساعة! لا تأكلن من دوني!» وبعد أن أومأ لأتيليوس بوجوب اللحاق به، توجّه السيد الجديد لمنزل آل بوبيديوس ناحية الباب، ولدى مرورهما بالقاعة الرئيسية، نظر أتيليوس خلفه وحدق بحوض السباحة حيث كانت كوريليا لا تزال تغطس فيه وكأنها تحسب أنه عبر تغطيس نفسها كلياً تحت الماء بوسعها أن تمحو ما كان يحصل.

أورا سيكستا

الساعة: ١٢:٠٠

لدى ارتفاع الصهارة البركانية من أعماق البركان تتعرض لانخفاض كبير في الضغط. على سبيل المثال، على عمق عشرة كيلومترات يوازي الضغط حوالي ثلاثمئة ميغاباسكال أو ما يُقدّر بثلاثة آلاف ضعف قيمة الضغط الجوي. وينتج عن مثل هذا التغير الكبير في الضغط نتائج عديدة على مستوى الخصائص المادية وعلى مستوى تدفق الحمم.

موسوعة البراكين

جهّز أمبلياتوس محفّة للنقل وثمانية عبيد في الخارج على الرصيف يرتدون البزة القرمزية نفسها التي كان يرتديها البواب والقهرمان. تأهبوا لدى ظهور سيدهم، ولكنه ما لبث أن مر عنهم متجاهلاً إياهم تماماً كما تجاهل حشد المتسولين الذين يجلسون القرفصاء في ظل الحائط على الجهة المقابلة من الشارع. رغم أنه يوم عيد، والذين أخذوا ينادون باسمه بطريقة يعوزها التناغم.

قال: «سوف نمشي» وصعد على المنحدر ناحية تقاطع الطرق، محافظاً على سرعة الخطوات نفسها التي يسير عليها في المنزل، فتبعه أتيليوس. كان الوقت ظهراً وكان الهواء حاراً جداً والطرقات هادئة، وقد عمد بعض المشاة الذين كانوا متواجدين في الأرجاء إلى القفز في الميزاب الموجود على جانب الطريق لدى مرور أمبلياتوس بالقرب منهم أو تراجعوا إلى الوراء إلى مداخل المتاجر. أخذ يتمتم في سرّه وهو يسير، وفي بعض الأحيان يهز برأسه تحية لبعض الأشخاص. وعندما نظر المهندس إلى الوراء، رأى أنهما كانا يجران وراءهما

twitter @baghdad_library

حاشية تليق بسيناتور ـ كان العبيد يقفون وراءهم مباشرة على مسافة معينة حاملين المحفة، ووراءهم الحشد الصغير للمتسولين وهم رجال ترتسم على وجوههم نظرة الإنهاك والنبذ التي نتجت عن محاولتهم للفت انتباه رجل عظيم منذ ما قبل بزوغ الفجر وهم يدركون أنه لا تنتظرهم سوى خيبة الأمل.

لدى وصولهم إلى منتصف التل حيث بوابة فيسوفيوس، عدّ المهندس ثلاثة مبان، وانعطف أمبلياتوس إلى جهة اليمين، وعبر الطريق، ثم فتح باباً خشبياً صغيراً مثبتاً على جدار. ألقى بيده على كتف أتيليوس مشيراً إليه بالدخول، فشعر أتيليوس بقشعريرة تسري في بدنه لدى لمس المليونير له.

«لا تدعه يوقعك في شركه كما أوقعنا نحن».

حرّر نفسه من أصابع أمبلياتوس التي كانت تمسك به، وأقفل أمبلياتوس الباب وراءهما، فوجد أتيليوس نفسه يقف في مكان شاسع مهجور وهو موقع بناء، ويشغل المساحة الأكبر من المكان برمته. يوجد إلى اليسار جدار من حجر القرميد، يعلوه سقف منحدر الشكل ومرصوف بالحجر الأحمر ـ وهو ظهر صف من المتاجر ـ مع بوابتين خشبيتين عاليتين في الوسط، وإلى اليمين، ثمة مجمّع من المباني الجديدة وقد تم إنهاء العمل فيها منذ آونة قريبة، وفيها نوافذ ضخمة حديثة الطراز وتطل على المساحة الواسعة التي تغطيها كسارة الحجارة والرمال. كان يتم حفر حفرة مستطيلة تحت النوافذ مباشرة.

وضع أمبلياتوس يديه على وركيه وأخذ يتفحص ردة فعل المهندس. «إذاً برأيك ما الذي أبنيه؟ سأسمح لك بأن تحزر مرة واحدة».

«حمامات».

«صحيح. ما رأيك؟»

قال أتيليوس: «إنه مبنى جميل»، وهذا كان رأيه الفعلي. على الأقل بجمال أي مبنى رآه قيد الإنشاء في روما في السنوات العشر الماضية. كان البناء الآجري وتشييد الأعمدة مشغولين بشكل جميل، ويسود المكان جو من

السكينة. جو من السلام والنور والرحابة. والنوافذ العالية تطل على الجهة الجنوبية الغربية وأشعة شمس العصر بدأت في التدفق إلى الداخل: «أنا أهنئك».

قال أمبلياتوس: «اضطررنا إلى تدمير معظم المباني في هذا المحيط من أجل الإفساح في المجال لبنائه. ولم يلاقِ هذا الأمر صدى حسناً عند الناس، ولكنه يستأهل كل هذا العمل. سوف يحوي هذا المكان أروع حمامات خارج روما وستكون أكثر حداثة من كل ما هو موجود هناك». وأخذ يجول بنظره في أرجاء المكان بفخر وأضاف: «كما تعلم عندما نعزم نحن القرويون على القيام بأمر ما، نريكم يا أبناء مدينة روما الكبار أموراً عظيمة». ثم وضع كفيه حول فمه ونادى: «جانواريوس!»

فصدرت صرخة ردت عليه من الجهة المقابلة من الباحة، ثم ظهر رجل طويل على أعلى السلالم. ميّز سيده ونزل مسرعاً على السلالم، ثم عَبَرَ الباحة وهو يمسح يديه بقميصه وأخذ يحني رأسه مراراً وتكراراً مع اقترابه.

«جانواريوس. هذا صديقي ساقي الأوغوستا. إنه يعمل لحساب الإمبراطور!»

فقال جانواريوس: «تشرفت» ثم حنى رأسه لأتيليوس.

«جانواريوس هو أحد كبار العمال لدي. أين الفتيان؟»

«في الثكنات يا سيدي». بدا عليه الرعب وكأنه تم الإمساك به وهو يتقاعس عن العمل: «إنه يوم عيد..».

«إنسَ أمر العيد! إننا بحاجة إليهم هنا في الحال. هل قلت إنك بحاجة إلى عشرة رجال أيها الساقي؟ من الأفضل أن نجعلهم اثني عشر رجلاً. جانواريوس إبعث وراء اثني عشر من أقوى رجالنا. عصابة بريبيكس. أطلب منهم أن يجلبوا طعاماً وماء يكفيهم ليوم واحد. ماذا تحتاج سوى ذلك؟»

أجاب أتيليوس: «كلس سريع، ورمل أحمر محلي..».

«حسناً، كل هذه الأغراض. أخشاب وأحجار ومشاعل. لا تنسَ

twitter @baghdad_library

المشاعل. فلتؤمنوا كل ما يحتاج إليه. وسوف تحتاج إلى وسيلة للنقل، أليس كذلك؟ أمِّنوا مجموعتيْ ثيران».

«لقد سبق واستأجرت الثيران».

«ولكنك ستحصل على ثيراني. أنا أصر على هذا الأمر».

«لا». كان كرم أمبلياتوس قد بدأ يُشعر أتيليوس بالضيق. فأولاً تأتي الهدية، ثم يتبين أن الهدية ليست سوى قرض، ثم يتبين أن القرض ليس إلا ديناً يستحيل رده. من دون أدنى شك هكذا انتهى ببوبيديوس الأمر وخسر منزله. إنها بلدة ماكرين. حدق في السماء. «إنه وقت الظهيرة. لا بد أن الثيران قد وصلت إلى المرفأ الآن. لدي عبد ينتظر هناك بجانب معداتنا».

«ممن استأجرت الثيران؟»

«من باكولوس».

«باكولوس! ذاك السارق السكير! سترى أن ثيراني أفضل. على الأقل دعني أتكلم معه. سوف أحصل لك على حسم كبير من المبلغ».

هز أتيليوس بكتفيه بلا مبالاة: «فلتفعل إن كنت تصر على ذلك».

«بالطبع أنا أصر. إجلب الرجال من الثكنات يا جانواريوس وأرسل فتى إلى المسفن لجلب عربات الساقي إلى هنا من أجل تحميلها. خلال انتظارنا لهم سأريك المكان أيها الساقي». ومن جديد ألقى أمبلياتوس بيده على كتف أتيليوس وقال: «تعال».

* * *

لم تكن الحمامات وسيلة ترف بل أساس الحضارة. كانت الحمامات الشيء الذي رفع حتى أقل روماني شأناً فوق مستوى أغنى بربري أشعر، لأنها ترسخ المبادئ الثلاثة: النظافة والعافية والروتين الصارم. ألم تُخترع قنوات جر المياه لتغذية الحمامات في المقام الأول؟ ألم تنشر الحمامات الروح الرومانية وعبقريتها على امتداد أوروبا وإفريقيا وآسيا تماماً كما نشرتها الفيالق بفعالية.

وبالتالي أينما تواجد المرء على أرض هذه الأمبراطورية الشاسعة، بوسعه على الأقل أن يكون على ثقة أنه سيجد مكاناً عزيزاً يذكّره بالديار.

كان هذا جوهر محاضرة أمبلياتوس وهو يسير بأتيليوس في أرجاء صدفة حلمه الفارغة. لم تكن الغرف مجهزة بالأثاث بعد وتفوح منها رائحة الدهان القوية والجص، وكان يصدر صدى لوقع خطواتهما وهما يعبران الحجرات وغرف التمارين ناحية الجزء الأساسي للمبنى. هنا كانت اللوحات الجصية موجودة في مكانها، مناظر للنيل الأخضر تسبح فيه التماسيح الشرسة، ويتدفق النيل في مناظر تصوّر حيوات الآلهة حيث يسبح تريتون إلى جانب أبطال الأرغونوت ويعود بهم إلى بر الأمان، ونبتون يحول ابنه إلى بجعة، وينقذ بيرسوس أندروميدا من وحش البحر الذي أُرسل لمهاجمة الإثيوبيين.

شُيّد الحوض في القاعة الرئيسية ليتسع لثمانية وعشرين زبوناً في آن معاً، ولدى استلقاء المستحمين على ظهورهم بوسعهم التمتع بمنظر السقف الأزرق الناصع الذي يضيئه خمسمئة قنديل، فيسبحون مع كل مخلوقات البحر ويحسبون أنفسهم يطوفون في كهف تحت البحر. وليحصل أمبلياتوس على مستوى الترف الذي يرجوه، سعى إلى استخدام أحدث التقنيات وأفضل المواد وأمهر العمال الحرفيين في إيطاليا. كان ثمة ألواح زجاجية نابولية في قبة غرفة التعرّق بسماكة إصبع الرجل. والسقوف والجدران والأرضيات مجوفة، والفرن الذي يسخّن الفجوات قوي جداً لدرجة أنه حتى لو انهمر الثلج على الأرض يظل الهواء في الداخل ساخناً جداً لدرجة تذيب لحم الإنسان. وقد شُيّد المبنى ليحتمل قوة الزلازل، وكل الإمدادات الرئيسية من أنابيب ومصافٍ وفتحات تهوئة وصنابير وسدّات ومصبّعات وصنابير استحمام، حتى المسكات المخصصة لدفق المياه في المراحيض، كلها مصنوعة من النحاس الأصفر. أما مقاعد المراحيض فهي مصنوعة من الرخام الفريجي مع مساند للأكواع منحوتة على شكل الدلافين وحيوانات الكِمِّيْر. وتتوفر مياه ساخنة وباردة طيلة الوقت. إنها الحضارة.

اضطر أتيليوس إلى إبداء إعجابه برؤية الرجل، وبدا أمبلياتوس في غاية الفخر وهو يريه كل شيء لدرجة أنه بدا وكأنه يستجدي استثماراً. وفي الحقيقة،

twitter @baghdad_library

لو كان المهندس يمتلك المال ـ لو أنه لم يرسل معظم راتبه إلى أمه وأخته في الديار ـ لكان أعطاه ماله كله حتى آخر فلس. إذ إنه لم يقابل في حياته تاجراً مقنِعاً لدرجة نوميريوس بوبيديوس أمبلياتوس.

«ومتى تفرغون من العمل؟»

«خلال شهر على ما أعتقد. أحتاج إلى جلب النجارين إلى العمل لأنني أريد بعض الرفوف وبضع خزانات. فكرت في صنع الأرضيات من الخشب في غرفة تبديل الملابس، وكنت أفكر في استخدام خشب الصنوبر».

فقال أتيليوس: «لا، بل استخدم خشب جار الماء».

«خشب جار الماء؟ لماذا؟».

«لن يلحق بهذا الخشب العفن لدى تماسّه مع الماء. لو كنتُ مكانك لاستخدمت خشب الصنوبر أو ربما خشب السرو لدرف النوافذ. ولكن يجب أن يُستورد من الأراضي المنخفضة حيث تشرق الشمس. إياك واستخدام خشب الصنوبر الآتي من الجبال. ليس في مبنى بهذه النوعية».

«هل من نصيحة أخرى؟»

«استخدِم دوماً الأخشاب المقطوعة في فصل الخريف وليس الربيع. فالأشجار تحمل في فصل الربيع ويصبح الخشب أوهن، وللتثبيت استخدم خشب الزيتون المسفوع، فإنه يدوم لقرن من الزمن. ولكنك على الأرجح تعلم كل هذه المعلومات».

«على الإطلاق. صحيح أنني بنيت كثيراً، ولكنني لم أفهم أبداً الكثير عن الأخشاب والحجارة. ما أفهمه هو المال. وأعظم ما في المال أنه لا يهم موعد حصاده. إنه محصول يُحصد على امتداد السنة». ضحك على النكتة التي ألقاها والتفت لينظر إلى المهندس. كان في حدة نظراته شيء ما يثير التوتر، فنظراته لم تكن مستقيمة وإنما متنقلة وكأنه لا ينفك يقدّر السيماء المختلفة للشخص الذي يخاطبه. أخذ أتيليوس يفكر، لا، ليس المال هو المجال الذي تفهم فيه بل

الرجال. نقاط قوتهم وضعفهم، ومتى تمدح الشخص ومتى تخيفه. قال أمبلياتوس بكل هدوء: «وأنت أيها الساقي؟ بماذا تفهم؟»

«بالمياه».

«حسناً إنه مجال مهم، فالمياه قيّمة بقدر المال».

«حقاً؟ إذاً لماذا لستُ رجلاً ثرياً؟»

«ربما بوسعك أن تصبح ثرياً». أطلق هذا التعليق بكل خفة وتركه يطفو في الجو لوهلة من الوقت تحت القبة الهائلة ثم واصل كلامه: «ألم يستوقفك أبداً التفكير في مدى دقة تنظيم العالم أيها الساقي؟ عندما يُفتتح هذا المكان سأجني ثروة أخرى، ثم سأستخدم هذه الثروة لأصنع منها ثروة أخرى ثم أخرى. ولكن من دون قناة جر المياه لا يسعني بناء حماماتي. إنها فكرة مهمة أليس كذلك؟ من دون أتيليوس ليس ثمة أمبلياتوس».

«ولكنها ليست قناتي. أنا لم أبنها بل الإمبراطور هو الذي بناها».

«هذا صحيح. وبناها بتكلفة مليونين للميل الواحد! الراحل أوغوستوس: هل مر رجل في التاريخ أشبه بالإله مثله؟ أنا أفضّل أوغوستوس العظيم على جوبيتير. أنا أتلو له الصلاة يومياً».

وتنشّق بعض الهواء وأضاف: «إن الطلاء الرطب يسبب لي ألماً في الرأس. دعني أريك ما أخطط له بالنسبة إلى الأرضيات».

سارا في الاتجاه الذي أتيا منه، وقد أخذت الشمس ترسل أشعتها بشكل قوي من النوافذ الضخمة المفتوحة، فبدت الآلهة على الجدران المقابلة تضج حياة بألوانها. ومع ذلك كان ثمة شيء مخيف في تلك الغرف الفارغة. ذاك السكون المنعِّس، وذرات الغبار التي تطفو في أشعة الضوء، وهديل الحمام في باحة البناة. لا بد أن طيراً ما قد حطّ في غرفة التعرّق وعلق فيها، فأجفلت رفرفة أجنحته المفاجئة مقابل القبة قلب المهندس. أما في الخارج، فقد بدا الهواء المضيء وكأنه تصلّب من شدة الحرارة، وكأنه زجاج ذائب، وبدا أن

twitter @baghdad_library

أمبلياتوس لم يشعر به. أخذ يصعد بكل سهولة على بئر السلم المفتوح وتوجه إلى حجرة الشمس المفتوحة الصغيرة، من هنا يحظى بإطلالة سيادية على مملكته الصغيرة. قال إنها ستكون باحة التمرين، وسوف يزرع حولها أشجار الدُّلب لتظليلها. لقد كان يختبر أسلوباً لتسخين مياه الحوض الخارجي. ربّت على الدرابزين الحجري وقال: «كان هذا موقع أول ملكية لي. لقد اشتريته منذ سبع عشرة سنة. سوف لن تصدقني إن أخبرتك عن الثمن الزهيد الذي دفعته مقابله. إعلم أنه لم يكن قد تبقّى الكثير منه بعد الزلزال، ولم يكن ثمة سقف وإنما مجرد جدران. كنت حينئذ في الثامنة والعشرين من عمري. ولم أشعر بهذا القدر من السعادة منذ شرائي لهذا المكان ولا قبل شرائي له. قمت بإصلاحه ثم تأجيره، وبعدئذ اشتريت مكاناً آخراً وقمت بتأجيره. لقد كانت بعض المنازل في زمن الجمهورية على قدر كبير من الضخامة. فعمدت إلى تقسيمها ووضعت في كل منها عشر عائلات. وواظبت على فعل ذلك منذ ذاك الحين. إليك نصيحة مني يا صديقي: الاستثمار الأكثر أمناً هو في بومبي».

ضرب بعوضة على مؤخر عنقه ثم راح يتفحص جسمها اللحيم بين أصابعه. ثم نقرها بإصبعيه. أخذ أتيليوس يتخيله عندما كان شاباً. قاسياً وعديم الرحمة ويضج بالحيوية ثم فاجأه: «حينها كان آل بوبيديوس قد أعتقوك؟»

رمقه أمبلياتوس بنظرة قوية، فوجد أتيليوس أنه مهما حاول أمبلياتوس أن يبدو دمث الأخلاق إلا أن عينيه دائماً تخونانه.

«إن كنت تقصد بكلامك هذا توجيه إهانة لي أيها الساقي فانسَ الأمر. الجميع يعرفون أن نوميروس بوبيديوس أمبلياتوس وُلد عبداً وهو لا يستعرّ من ذلك. أجل لقد كنت عبداً. وأعتقني سيدي عندما كنت في العشرين من عمري. وابنه لوشيوس الذي قابلتَه للتو وظفني كقهرمان في منزله. ثم عملت في جمع الديون لحساب مدين مسن يدعى جوكوندوس وقد علّمني الكثير، ولكنني ما كنت لأثرى لولا ذاك الزلزال». نظر بمحبة ناحية جبل فيسوفيوس واستحال صوته ناعماً: «في صباح يوم من أيام شهر شباط صدر من الجبل ما يشبه الرياح تحت سطح الأرض. أخذت أراقبها وهي تنزل على الجبل، حيث كانت

الأشجار تنحني لدى مرورها، وعند انتهائها كانت هذه البلدة قد تحولت إلى أنقاض. عندئذ لم يكن يهم من الذي وُلد عبداً ومن وُلد حراً. كان المكان فارغاً، حيث تسير في الشوارع لمدة ساعة ولا تجد في طريقك أحداً سوى القتلى».

«من الذي كان مسؤولاً عن إعادة بناء البلدة؟»

«لا أحد! وكان هذا عاراً. لقد هربت كل العائلات الثرية إلى عزباتها الريفية. كانوا كلهم مقتنعين بأن زلزالاً آخراً سيحدث».

«ومن ضمنهم بوبيديوس؟»

«تحديداً بوبيديوس!» فتل يديه وأخذ ينتحب: «آه يا أمبلياتوس لقد تخلت عنا الآلهة! آه يا أمبلياتوس إن الآلهة تعاقبنا!» الآلهة! غير معقول! وكأن الآلهة تعبأ من قريب أو بعيد بكيفية عيشنا أو بما نقوم به. وكأن الزلازل ليست جزءاً من الحياة في كامبانيا تماماً كالينابيع الساخنة وقحط فصول الصيف! ثم بالطبع عادوا يزحفون إلى هنا عندما رأوا ان المكان بات آمناً ولكن حينئذ كانت الأمور قد بدأت تتغير.

«يحيا الربح!» كان هذا شعار بومبي الجديدة. تراه في جميع أرجاء البلدة. الربح هو السعادة! ولكن انتبه إنه ليس المال، إذ يمكن لأي أخرق أن يرث المال، أما الربح فإنه يتطلب المهارة». بصق امبلياتوس من فوق الدرابزين الحجري على الطريق تحته ثم قال: «لوشيوس بوبيديوس! أية مهارة يمتلك؟ بوسعه أن يشرب المياه الباردة ويتبول أخرى ساخنة، وهذا كل حدود قدرته. أما أنت ـ ومن جديد شعر أتيليوس بأنه يتم الرفع من قدره ـ برأيي أنت رجل تتمتع بالقدرة. أنا أرى نفسي فيك حينما كنت في سنك. بوسعي الاستفادة من رجل مثلك».

«الاستفادة مني؟»

«هنا، بادئ ذي بدء. قد تستفيد هذه الحمامات من رجل يفقه في أمور

twitter @baghdad_library

المياه. بوسعي أن أدخلك شريكاً مقابل نصائحك. وتحصل على قسم من الأرباح».

هز أتيليوس برأسه وهو يبتسم: «لا أظن ذلك».

فرد عليه أمبلياتوس بالابتسام: «أنت مساوم صعب! يعجبني هذا في الرجل. حسناً سأعطيك حصة في الملكية أيضاً».

«لا شكراً أنت تطريني بكلامك، ولكن ما فتئتْ عائلتي تدير القناة الإمبراطورية منذ قرن من الزمن. وقد وُلدتُ لأكون مهندساً وأعمل على قنوات جر المياه وسوف أموت وأنا أمارس هذه المهنة».

«لِمَ لا تقوم بالعملين في آن معاً؟»

«ماذا؟»

«تدير القناة وتقدم لي النصح أيضاً. ولن يعلم أحد بالأمر».

نظر إليه أتيليوس نظرة فاحصة، تفحّص فيها وجهه الماكر والمتحمس. وراء المال يوجد العنف والشهوة إلى السلطة، إنه حقاً ليس أكثر من مجرد محتال وضيع من محتالي البلدة. فرد ببرودة: «لا هذا مستحيل».

لا بد وأن الإزدراء ظهر على محياه لأن أتيليوس تراجع على الفور وقال: «أنت محق» وهز برأسه فقال له امبلياتوس: «إنسَ أنني أتيت على ذكر الموضوع. أنا أتسم بالقسوة في بعض الأحيان، إذ تخطر على بالي أفكار فأطرحها دون التفكير فيها ملياً».

«مثل إعدام عبد قبل أن تعرف ما إذا كان يقول الحقيقة؟»

ابتسم أمبلياتوس ابتسامة عريضة وأشار بيده ناحية أتيليوس: «جيد جداً! هذا صحيح. ولكن كيف تتوقع أن يعرف رجل مثلي كيف عساه يتصرف؟ بوسعك الحصول على كل أموال الإمبراطورية ولكن هذا لا يجعل منك سيداً مهذباً. أليس كذلك؟ قد تظننّ أنك تقلد الرجال الأرستقراطيين وتُظهر بعض الرفعة

ولكن يتبين أنك لست سوى وحش. أليست هذه الصفة التي نعتتني بها كوريليا؟ وحش؟»

«ماذا عن إكزومنيوس؟» طرح أتيليوس هذا السؤال عليه بتسرع: «هل رتبت معه اتفاقاً من نوع ما لم يعرف به أحد؟»

لم تخفت ابتسامة أمبلياتوس. ثم صدر من الشارع دمدمة دواليب خشبية ثقيلة تسير على الأرض الحجرية: «إسمع. أعتقد أنني أسمع صوت العربات التي جُلبت لك. يستحسن بنا النزول وإدخالهما».

* * *

ربما ما كان الحديث ليُفتح أبداً. أخذ أمبلياتوس يتمتم بينه وبين نفسه وهو يسير في الباحة المغطاة بالركام. فتح البوابة الثقيلة، فأدخل بولايتس فريق الثيران الأول إلى المكان وقدم له انحناءة رسمية. وثمة رجل لم يعرفه أتيليوس يقود فريق الثيران الثاني، وهناك رجلان آخران يجلسان على ظهر عربة فارغة وأرجلهم تتدلى على الجانبين. قفزا على الفور عندما رأيا أمبلياتوس ووقفا ينظران باحترام إلى الأرض.

قال أمبلياتوس: «أحسنتم يا شباب. سأحرص على أن تحصلوا على مكافأة نتيجة عملكم في يوم عطلة. ولكنها حالة طارئة وعلينا جميعاً أن نسرع ونساعد في تصليح القناة من أجل المصلحة العامة. أليس هذا صحيحاً أيها الساقي؟» قرص خد الرجل الأقرب إليه وأضاف: «أنتم تحت إمرته الآن فاخدموه جيداً. أيها الساقي فلتأخذ قدر ما تشاء. كل شيء موجود في الباحة. المشاعل موجودة في الداخل في غرفة المخزن. هل ثمة شيء آخر يسعني فعله من أجلك؟» بدا جيداً أنه مستعجل للذهاب.

فقال أتيليوس بشكل رسمي: «سأحضّر جرداً بكل شيء سنستخدمه وسيتم التعويض عليك».

«لا داع لذلك. ولكن كما تشاء. لا أود أن أُتهم بمحاولة رشوتك!» ثم ضحك وأشار إليه بيده من جديد: «كنت سأبقى وأساعدك في التحميل بنفسي.

twitter @baghdad_library

لم يقل أحد أن نوميروس بوبيديوس أمبلياتوس يخشى تلويث يديه! ولكن تعلم واقع الحال. سوف نتناول طعام الغداء باكراً بسبب الاحتفال ولا يجدر بي إظهار دناءة منشأي عبر دفع كل أولئك السادة وسيداتهم إلى انتظاري». مد يده وأضاف: «إذاً أتمنى لك الحظ الطيّب ايها الساقي!»

صافحه أتيليوس، فأتت المصافحة جافة وقاسية حيث كانت أصابع أمبلياتوس وراحة يده غليظة كحال راحة يده وأصابعه هو، وقد استحالت على هذا الحال نتيجة العمل الشاق، وهز برأسه وقال: «شكراً لك».

تمتم أمبلياتوس بضع كلمات وسار في طريقه، وكانت محفّته بانتظاره في الخارج في الطريق الساكن، وهذه المرة تسلّقها مباشرة. وركض العبيد في الأرجاء ليأخذوا أماكنهم حيث وقف أربعة رجال على كلا الجانبين.

طقطق أمبلياتوس إصبعيه، فرفعوا القضبان ذات الأطراف البرونزية. رفعوها بداية إلى مستوى الخصر، ثم أنّوا جراء ثقل الوزن، ثم رفعوها إلى مستوى أكتافهم. وأرجع سيدهم ظهره على وسائده وهو يحدق إلى الأمام سارحاً في غمرة أفكاره، ثم مد يده إلى ما وراء كتفه وفك الستارة وتركها تسقط. وقف أتيليوس في المدخل قرب البوابة وشاهده وهو يذهب فرأى الكنبة القرمزية المرفوعة تترنح وهي تبتعد متجهة نزولاً على التل، والحشد الصغير من المتسولين المنهكين يجدّون السير وراءها.

ثم عاد ودخل إلى الباحة.

* * *

كان كل شيء موجوداً، كما وعد أمبلياتوس تماماً. وأفلح أتيليوس لفترة من الوقت أن ينسى نفسه في خضم المجهود الجسدي الذي كان يبذله. وجد الراحة في معاودة إمساكه بأدوات حرفته من جديد. الحجارة الثقيلة والحادة الأطراف والتي هي بحجم قبضة المرء، وارتاح لسماع صوت ارتطامها المألوف لدى تكديسها على ظهر العربة، وسلال الرمل الأحمر المحلي الناعم الذي يكون دوماً أثقل وأكثف مما يتوقعه المرء، وقد أخذ العمّال يزلّقونها على ألواح

العربة الخشنة، وملمس الخشب حيث أخذ يشعر بدفئه ونعومته لدى ملامسته لخده وهو ينقله عبر الباحة، وأخيراً الكلس السريع في أمفوراته الطينيه البصلية الشكل التي يصعب الإمساك بها ورفعها على العربة.

راح يعمل بشكل تواصل إلى جانب الرجال الآخرين، وأخيراً أحس أنه يحرز تقدماً. كان أمبلياتوس دون أدنى شك رجلاً قاسياً وعديم الرحمة، والآلهة وحدها تعلم الصفات الأخرى التي يمتلكها، ولكن كانت أدواته جيدة وستكون ذات منفعة حسنة بين الأيدي الصادقة. كان قد طلب ست أمفورات من الكلس، ولكنه ما لبث أن قرر أخذ دزينة منها، كما زاد كمية الرمل المحلي بما يتناسب مع كمية الكلس الزائدة إلى عشرين سلة. لم يشأ الرجوع إلى أمبلياتوس لطلب المزيد منه، إذ إنه سيقوم بإعادة الأدوات التي لن يستخدمها.

توجّه إلى مبنى الحمامات للبحث عن المشاعل، فوجدها في أكبر غرفة تخزين. حتى المشاعل كانت من النوع الممتاز حيث تتميز بخيوط كتان محبوكة بشكل كثيف وفيها مادة الراتينج الممزوجة بالقطران إضافة إلى مسكات خشبية متينة وجيدة مكبّلة بحبل. ووجد إلى جانب المشاعل صناديق مفتوحة تحوي القناديل الزيتية ومعظمها مصنوع من مادة التراكوتا، ولكن البعض منها مصنوع من النحاس الأصفر، وثمة كمية من الشموع تكفي لإضاءة معبد بكامله. وكما قال أمبلياتوس: النوعية مهمة جداً ولا يسعك أن تجد مثيلاً لها. من الواضح أن هذا المكان سيكون مكاناً مترفاً جداً.

«ستكون أفضل حمامات خارج روما...»

انتابه فجأة الفضول وأخذ يجول ببصره باحثاً عن غرف مخازن أخرى وهو يحمل بذراعيه المشاعل. وجد في إحدى غرف التخزين كومات من المناشف، وفي غرفة أخرى وجد جراراً من زيوت التدليك المعطّرة، وأوزاناً معدنية للتمارين الرياضية، وفي غرفة ثالثة وجد لفائف من الحبال وطابات جلدية. كل شيء جاهز وينتظر استخدامه، كل شيء موجود هنا ما عدا البشر المتعرِّقين الثرثارين الذي سيجلبون الحياة إلى هذا المكان. وهناك المياه بالطبع. نظر عبر

twitter @baghdad_library

الباب المفتوح إلى الغرف الموجودة وراء بعضها البعض وقال في نفسه: سوف يحتاج هذا المكان إلى الكثير من المياه. هناك أربعة أو خمسة أحواض، وغرف استحمام، ومراحيض، وغرف بخار... وحدها المنشآت العامة مثل النوافير موصولة إلى قناة جر المياه دون دفع أية تكاليف كهدية من الإمبراطور. ولكن الحمامات الخاصة مثل هذه ستكلف ثروة لا بأس بها جراء الضرائب المائية المفروضة عليها وإذا جنى أمبلياتوس ثروته عبر شراء الممتلكات الضخمة وتقسيمها وتأجيرها، إذاً فلا بد وأن استهلاكه الإجمالي للمياه كان ضخماً جداً. ثم تساءل: كم كان يدفع مقابل المياه التي يستخدمها؟ بوسعه أن يعلم لدى عودته إلى ميسينوم حيث سيحاول أن ينظم الفوضى التي خلّفها إكزومنيوس في سجلات الأوغوستا.

لعله لم يكن يدفع أي مال على الإطلاق.

وقف تحت أشعة الشمس في مبنى الحمامات يستمع إلى هديل الحمام ويقلّب الاحتمالات في رأسه. لطالما كانت قنوات جر المياه مفتوحة على مصراعيها أمام الفساد. حيث يمد المزارعون خطوطاً من الشبكة الرئيسية التي تمر في أراضيهم. ويمد المواطنون خطاً إضافياً أو خطين ويدفعون المال لمفتشي المياه كي يشيحوا النظر عن هذا الأمر. كانت تُمنح الأعمال العامة للمتعاقدين الخاصين وتُدفع الفواتير لقاء أعمال لم تكن تُنفذ، وكانت المواد تُفقد. شك أتيليوس بأن الفساد يأتي من الأعلى حتى أسيليوس أفيولا الوصي على الموارد المائية نفسه أُشيع عنه أنه يصر على أخذ نسبة من الجباية. أما المهندس فلم يكن له قط علاقة بهذا الأمر. ولكن يندر وجود الرجل الصادق في روما! فالرجل الصادق لم يكن سوى غبي.

سبّب وزن المشاعل الثقيل له الألم في ذراعيه، فتوجه إلى الخارج وكدسها على إحدى العربتين ثم سند نفسه على العربة وأخذ يفكر. وصل المزيد من رجال أمبلياتوس، وانتهى التحميل فوقفوا في الظل منتظرين صدور الأوامر. ووقفت الثيران بكل هدوء تهز بأذنابها ويحوم فوق رؤوسها غيوم من الذباب.

إذا كانت حسابات الأوغوستا في البيسينا ميرابيليس في حالة الفوضى هذه أيعقل أن السبب في ذلك يعود إلى أنه تم التلاعب فيها؟

رفع رأسه ونظر إلى السماء الخالية من الغيوم، وعندها كان قد مر وقت الظهيرة. لا بد وأن بيكو وكورفينوس قد وصلا إلى أبيلينوم الآن، ولا بد أن أبواب السدود قد أُغلقت وبدأت الأوغوستا تجف. شعر بوطأة ضيق الوقت من جديد، ورغم ذلك حسم رأيه وتوجه إلى بولايتس وأمره قائلاً: «إذهب إلى الحمامات واجلب دزينة أخرى من المشاعل ودزينة من القناديل وجرة من زيت الزيتون ولفافة من الحبال في طريقك. هذا كل شيء. إذهب. وعندما تفرغ من هنا خذ العربتين والرجال إلى القلعة المائية بالقرب من بوابة فيسوفيوس وانتظرني هناك. سيعود كوراكس في وقت قريب. وخلال ذلك احرص على شراء بعض الطعام لنا». أعطى العبد كيسه وأضاف: «ثمة مال في هذا الكيس أريد أن تنتبه له. لن أطيل الغياب».

ثم نفض غبار الحجارة والرمل المحلي عن مقدمة قميصه وخرج من البوابة المفتوحة.

twitter @baghdad_library

أورا سيبتا

الساعة: ١٤:١٠

إذا وصلت الصهارة إلى شَفَة خزّان بركاني عالي المستوى، يمكن حتى لأقل عامل ضغط في المحيط، ويكون عادة مرتبطاً بحركة زلزالية، أن يُحدث اضطراباً في استقرار البركان برمته متسبباً بثوران.

علم البراكين (الطبعة الثانية)

كانت مأدبة أمبلياتوس تدخل ساعتها الثانية، ومن بين الضيوف الإثني العشر الجالسين حول الطاولة أبدى واحد منهم فحسب علامات الاستمتاع الحقيقي، وهذا الشخص ليس إلا أمبلياتوس نفسه.

بادئ ذي بدء كان الطقس في غاية الحرارة، رغم أن هناك جداراً في غرفة الطعام مفتوحاً بالكامل أمام الهواء، وكان هناك ثلاثة عبيد بالزي القرمزي واقفين حول الطاولة ويحملون بأيديهم المراوح المصنوعة من ريش الطاووس ويهوّون بها. ويجلس بالقرب من حوض السباحة عازف قيثارة ويقوم بعزف أنغام حزينة.

كان يجلس على كل كنبة أربعة ضيوف! رأى لوشيوس بوبيديوس أنه عدد كبير، وكانت ترتسم ابتسامة عريضة على وجهه مع قدوم كل طبق جديد ووضعه على الطاولة أمامهم. إنه يتمسك بقاعدة فارو التي تقول إن عدد الضيوف المدعوين إلى حفلة عشاء يجب ألا يقل عن عدد إلّهات الحسن الثلاث وألا يزيد عن عدد الموزيّات التسع. وهذا يعني أن في هذا الحفل، يجلس المدعوون

twitter @baghdad_library

على مسافة قريبة من بعضهم البعض. فبوبيديوس، على سبيل المثال، يجلس بين زوجة أمبلياتوس المضجرة سيلسيا ووالدته تاديا الثانية، وعلى مسافة قريبة جداً بحيث أمكنه الشعور بحرارة جسديهما، وهذا مثير للقرف. وعندما يستند على كوعه الأيسر ويمد يده اليمنى ليأخذ بعضاً من الطعام عن الطاولة، يلمس مؤخر رأسه صدر سيلسيا الصغير، والأسوأ من ذلك أن خاتمه يعلق أحياناً في شعر والدته الأشقر المستعار المأخوذ من رأس عبدة صغيرة ألمانية وبات الآن يغطي شعر هذه المرأة المسنة الشائب.

والطعام! ألم يكن أمبلياتوس يدرك أن الطقس الحار يستدعي تحضير أطباق باردة وبسيطة، وأن كل تلك الصلصات وكل هذا الزخرف في الطبخ قد بات أمراً قديماً يعود إلى عهد كلوديوس؟ كان أول أطباق المقبلات لا بأس به، محار تم تربيته في برانديسيوم ثم شُحن على متن سفينة مسافة مئتي ميل على طول خط الساحل من أجل تسمينه في بحيرة لوكراين حتى يكتسب نكهتين في آن معاً. وهناك الزيتون والسردين والبيض المتبل بالثوم المعمّر المفروم، وكلها أطباق مقبولة. ولكن ما لبث أن نزلت على الطاولة أطباق السلطعون، وقنافذ البحر، وأخيراً الفئران المتبلة بالعسل وبذور الخشخاش. شعر بوبيديوس أنه مجبر على ابتلاع فأرة واحدة على الأقل لإرضاء مضيفه، ولدى تكسّر تلك العظام الصغيرة بين أسنانه انتابه شعور بالغثيان.

ووُضع أمام الضيوف ثدي خنزيرة محشو بالكلى وخنزير بري مشوي محشو بطيور السُّمْنَة الحية التي راحت ترفرف بأجنحتها دون حول أو قوة على الطاولة لدى فتح بطن الخنزير فوسّخت المكان في طريقها (عندئذ قام أمبلياتوس بالتصفيق وأطلق ضحكة عالية). ثم أتت الأطباق الشهية: ألسنة طيور اللقلاق والنّحام، وهو طبق لا بأس به، ولسان ببغاء ناطق لطالما بدا لبوبيديوس أشبه ما يكون باليرقة، وبالفعل كان طعمه يشبه إلى حد كبير طعم اليرقة التي تخيل مذاقها وهي مغمسة بالخل. ثم يخنة من أكباد طيور العندليب...

جال بنظره على وجوه ضيوفه المحمرّة. حتى بريتيوس السمين الذي تباهى في إحدى المرات قائلاً إنه تناول خرطوم فيل بأكمله والذي يحمل شعار سينيكا

«كُلْ حتى تتقيأ، وتقيأ حتى تأكل» كان لونه قد بدأ يستحيل أخضر. تلاقت عيناه بعينيّ بوبيديوس وتمتم له كلاماً معيناً. ولم يفهم بوبيديوس ما قال، فوضع بريتيوس يده حول أذنه وكرر له الكلام مخبّئاً فمه عن أمبلياتوس بمنديله ومركزاً على كل لفظة. «تري ـ مال ـ شيو!»

كاد بوبيديوس ينفجر من الضحك. تريمالشيو! جيد جداً! العبد المعتق ذو الثروة الهائلة يتعرض لسخرية تيتوس بيترونيوس، الذي عرّض ضيوفه لمثل هذه الوجبة بالضبط وعجز عن رؤية مدى السخافة والوقاحة التي يبدو عليها. ها ها! تريمالشيو! لبرهة من الوقت رجع بوبيديوس بالزمن عشرين سنة حينما كان أرستقراطياً يافعاً في منزل نيرون، وكان حينها بيترونيوس، حكيم التذوق، يعمد إلى تسلية الضيوف حول الطاولة لساعات ويهجو الأثرياء بطريقة ساخرة ومن دون أية رحمة.

شعر بوبيديوس فجأة بعاطفة جياشة. يا لبيترونيوس المسن المسكين! كان مضحكاً ومتميزاً جداً إلى درجة فاقت مصلحته الشخصية. ففي النهاية، شك نيرون بأنه يتعرض ـ بجلالة قدره ـ إلى السخرية، فنظر إليه للمرة الأخيرة بواسطة النظارة الأحادية الزجاجة الزمردية اللون وأمره بقتل نفسه. ولكن أفلح بيترونيوس في تحويل حتى هذه الواقعة إلى مزحة، ففتح شرايينه في بداية حفل عشاء في منزله في كيومي ثم أغلق الجرح ليأكل ويتبادل الأحاديث مع أصدقائه، ثم عاود فتحه من جديد ثم إغلاقه، وكرر فعلته هذه إلى أن فارق الحياة. وكان آخر فعل واعٍ قام به هو كسر مغرفة نبيذ مصنوعة من الحجر الفلوري يُقدّر ثمنها بثلاثة آلاف سسترس، وقد كان الإمبراطور يتوقع أن يرثها. كان هذا أسلوباً مميزاً. كان هذا الذوق بعينه.

أخذ بوبيديوس يفكر بمرارة: ماذا كان عساه ليجعل مني. إنني أنا ـ فرد من آل بوبيديوس عزفت وغنيت فيما مضى مع سيد العالم ـ قد وصلت إلى هذا الدرك، بعمر الخامسة والأربعين: سجين التريمالشيو!

نظر إلى عبده السابق الجالس على رأس الطاولة. إنه لا يزال غير واثق

twitter @baghdad_library

تماماً من كيفية حدوث الأمر. لقد حصل الزلزال بالطبع، ثم بعد بضع سنوات توفي نيرون. ثم حدثت الحرب الأهلية وتولى منصب الإمبراطور تاجر بغال وانقلب عالم بوبيديوس رأساً على عقب. وفجأة بات أمبلياتوس في كل مكان، يعيد بناء المدينة ويبني معبداً ويدفع بابنه اليافع إلى مجلس البلدية، ويتحكم بالإنتخابات، وحتى أنه يقوم بشراء المنزل المجاور. لم يكن بوبيديوس رجل حسابات البتة، لذا عندما أخبره أمبلياتوس أن بوسعه هو الآخر جني المال، قام بتوقيع العقود دون قراءتها حتى. وبطريقة ما ضاعت الأموال، ثم تبين أن منزل العائلة كان الضمانة، والزواج من إبنة أمبلياتوس هو ملاذه الوحيد من مهانة إخلاء المنزل. تخيلوا: عبده السابق سيصبح حماه! فخمّن أن عار هذا الأمر يمكن أن يتسبب بمقتل والدته. فبالكاد تكلمت منذ ذاك الحين، وقد أنهك وجهها القلق والأرق.

إنه لا يمانع بمشاطرة كوريليا السرير، فقد كان ينظر إليها بنهم. كانت جالسة وظهرها إلى كاسبيوس وتهمس لأخيها، وما كان ليمانع مضاجعة الفتى أيضاً. شعر بأن قضيبه بدأ ينتصب. ربما يقترح يوماً ما ممارسة الجنس بينهم هم الثلاثة؟ لا ما كانت أبداً لتقبل بذلك. فهي عاهرة باردة، ولكنه قريباً سيحمّيها. تلاقت نظراته مع نظرات بريتيوس من جديد. يا له من رجل مضحك. غمز بعينه وأشار إلى أمبلياتوس وتمتم موافقاً: «تريمالشيو!»

«ما الذي تقوله يا بوبيديوس؟»

صدر صوت أمبلياتوس عن طرف الطاولة وكأنه سوط، فشعر بوبيديوس بالإحراج.

رفع بريتيوس كأسه وقال: «كان يقول يا لها من وليمة! هذا ما كنا جميعاً نقوله يا أمبلياتوس. يا لها من وليمة هائلة!» فسرت من حول الطاولة همهمات تُجمع على هذا الكلام.

قال أمبلياتوس: «لم تروا الأفضل بعد»، ثم صفق بيديه فخرج أحد العبيد من غرفة الطعام متوجهاً ناحية المطبخ. أفلح بوبيديوس برسم ابتسامة على

وجهه: «أنا من جهتي تركتُ مجالاً للتحلية يا أمبلياتوس». ولكنه في واقع الحال كان يشعر برغبة في التقيؤ وما كان بحاجة إلى الكوب المعهود من الماء الدافئ الشديد الملوحة والخردل للقيام بذلك: «ماذا تخبئ لنا إذاً؟ سلة خوخ من جبل دمشق؟ أم أن ذاك الفرّان صنع فطيرة من العسل الأتيكي؟» كان طباخ أمبلياتوس هو غارجيليوس العظيم، وقد اشتراه مقابل ربع مليون، ومعه كتب الطهي وما إلى هنالك. هكذا كان واقع الحال على امتداد خليج نيابوليس تلك الأيام، كان يُحتفى بالطهاة أكثر من الأشخاص الذين يطعمونهم، وكانت تُرفع الأسعار إلى حد الجنون، فالمال بحوزة الأشخاص الخطأ.

«آه لم يحن بعد موعد التحلية يا عزيزي بوبيديوس، أو هل يسعني مناداتك بنيّ، إن لم يكن في ذلك قلة نضج مني؟» ابتسم أمبلياتوس وأشار بيده، وبقدرة تفوق قدرة البشر أفلح بوبيديوس في إخفاء امتعاضه، وأخذ يفكر: آه تريمالشيو. تريمالشيو...

صدر صوت جر أقدام، ثم ظهر العبيد الأربعة يحملون على أكتافهم مجسّماً لسفينة ثلاثية المجاذيف يبلغ طولها طول الرجل وهي مطلية بالفضة وتطفو فوق بحر من أحجار الصفير المنحوتة. أخذ الضيوف يصفقون بينما اقترب العبيد من الطاولة وجثموا على ركبهم، وبصعوبة أخذوا يزلّقون السفينة من مقدمتها أولاً على الطاولة. كان يملؤها بالكامل سمكة أنقليس هائلة الحجم اقتُلعت عيناها ووُضع مكانهما حجرا ياقوت، أما فكّاها فمفتوحان وقد مُلِئا عاجاً، وعلى زعنفة ظهرها تم غرز خاتم ذهبي عريض. صدر التعليق الأول من بوبيديوس: «برأيي يا أمبلياتوس هذه سمكة غاية في الضخامة».

قال أمبلياتوس بفخر: «إنها من مسمكتي الخاصة في ميسينوم. إنها سمكة موراي، وتبلغ الثلاثين من عمرها. لقد أمرت باصطيادها ليلة البارحة. هل ترى الخاتم؟ أعتقد يا بوبيديوس أن هذا هو المخلوق الذي كان صديقك نيرون يغني له». أمسك سكيناً فضياً كبيراً وقال: «والآن من الذي سيحصل على أول قطعة؟ أنت يا كوريليا. أعتقد أنه يجب أن تكوني أول من يتذوقها».

twitter @baghdad_library

وجدها بوبيديوس مبادرة لطيفة من قِبل أمبلياتوس، فحتى تلك اللحظة كان والدها يتجاهلها بشكل جلي، وقد بدأ يشك بوجود مشاعر ضغينة بينهما، ولكن ها قد حصلت إشارة تدل على الود. لذا أصابته الدهشة حينما رأى الفتاة ترمق والدها بنظرة كراهية، ثم ما لبثت أن رمت المنديل من يدها ونهضت عن كنبتها وأخذت تركض بعيداً عن الطاولة وهي تنتحب.

* * *

أقسم أول عابرَيْ سبيل مرّ بهما أتيليوس إنهما لم يسمعا قط بمحلة أفريكانوس. ولكن في حانة هرقل المزدحمة الموجودة على مسافة قريبة آخر الشارع رمقه الرجل الواقف وراء المنضدة بنظرة شك، ثم دله على المكان بصوت خافت: «توجّه نزولاً على التل وصولاً إلى المبنى التالي، ثم استدر يميناً، ثم يساراً، ثم اسأل من جديد. ولكن إحذر مع من تتكلم أيها المواطن».

أمكن لأتيليوس تخمين معنى هذا الكلام. من اللحظة التي غادر فيها الطريق الأساسي باتت الشوارع ضيقة وكثيرة الالتواءات، وأصبحت المنازل أكثر ازدحاماً ووضاعة. وجد على مدخل محاذٍ لكثير من المداخل القذرة منحوتة صخرية لقضيب وخصيتين، وأخذت أثواب العاهرات بألوانها الزاهية تلمع في الأفق كالأزهار الزرقاء والصفراء. إذاً هذا هو المكان الذي اختاره إكزومنيوس لقضاء وقته فيه! تباطأت خطوات أتيليوس متسائلاً إذا كان يجدر به التراجع، إذ من غير المسموح أن يحصل شيء يهدد الأولوية الأساسية لهذا النهار. ولكنه ما لبث أن عاود التفكير بأبيه الذي مات على فراشه في زاوية منزلهم الصغير ـ مجرد رجل صادق غبي آخر قام، بسبب استقامته العنيدة، بترك أرملته غارقة في الفقر ـ ثم عاود المشي وإنما بخطى أسرع وقد بات الغضب يعتريه.

في نهاية الشارع ظهرت فوق الرصيف شرفة في الطابق الأول، فجعلت الطريق أضيق من مجرد ممر. شق طريقه بشكل جانبي بين مجموعة من الرجال المتسكعين في المكان، وقد علت وجوههم الحمرة بفعل الحرارة العالية

والنبيذ، ثم دخل عبر أقرب باب مفتوح إلى مدخل قذر. كانت تفوح من المكان رائحة العرق والمني القوية الضارة. كانت مثل هذه الأماكن تُدعى المواخير (لوبانار) تيمناً بعويل (لوبا) الذئبة في أيام الحر، وكلمة لوبا كانت تُستخدم عامياً للدلالة على المومس. إن هذا النوع من الحياة يثير في أتيليوس القرف. سمع صوت عزف على الفلوت صادراً من الطابق العلوي، وأصوات ضربات على الألواح الأرضية، وضحكات رجال، كما صدر عن جانبيه من المهاجع المغطاة بستائر أصوات الليل ـ همهمات وهمسات ونشيج طفل.

وجد في المكان نصف المعتم امرأة ترتدي ثوباً أخضر قصيراً جالسة على كرسي وتباعد بين رجليها. حينما سمعت وقع خطواته وهو يدخل وقفت وتوجهت ناحيته بحشرية ومدّت يديها مرحبة به، وقد رسمت ابتسامة على شفتيها المطليتين باللون القرمزي. كانت قد استخدمت الأنتيمون لتضفي اللون الأسود على حاجبيها وقد مدت الخطين حتى تقاطعا على جسر أنفها، وهي حركة كان بعض الرجال يقدّرونها كصفة جمالية، ولكنها ذكّرت أتيليوس بأقنعة الموت الخاصة بآل بوبيديوس. ما كان بالإمكان تحديد سنها ـ سواء خمس عشرة سنة أو خمسين ـ وما كان بوسعه أن يحزر وسط الضوء الخافت.

سألها قائلاً: «أين أفريكانوس؟»

فقالت: «مَنْ؟» كانت تتمتع بلكنة ثقيلة، لعلها سيليسية، وأضافت بسرعة «ليس هنا؟»

«ماذا عن إكزومنيوس؟» لدى ذكره لهذا الإسم فتحت شفتيها المطليتين وشغرت فاها. حاولت أن تسد عليه الطريق ولكنه أبعدها عن طريقه برفق حيث وضع يديه على كتفيها العاريين، ثم فتح الستارة وراءها. كان ثمة رجل عار يجلس القرفصاء فوق مرحاض مفتوح ويبدو فخذاه وسط الظلام نحيلتين وبيضاوين مائلين إلى الزرقة. رفع الرجل رأسه ونظر إلي أتيليوس مندهشاً. سأله أتيليوس: «أفريكانوس؟» بدا على ملامح الرجل أنه لم يفهم الكلام: «أعذرني أيها المواطن». ترك أتيليوس الستارة تنسدل وتوجه ناحية أحد المهاجع على الجهة المقابلة من المدخل، ولكن العاهرة سبقته إليه ومدت ذراعها لتسد عليه الطريق.

twitter @baghdad_library

«لا   لا تتعب نفسك.   إنه ليس هنا».

«أين هو إذاً؟»

فترددت ثم قالت: «في الأعلى» مشيرة بذقنها ناحية السقف.

نظر أتيليوس في الأرجاء فلم يَرَ أية سلالم.

«كيف عساي أصعد إلى فوق. أرني الطريق».

لم تتحرك من مكانها، لذا توجه ناحية ستارة أخرى ولكنها من جديد سبقته إليها وقالت له: «أنا سأريك. تعال من هنا».

أشارت له ناحية باب ثان، ثم صدر من مهجع محاذ له صرخات رجل غارق في النشوة. خرج أتيليوس إلى الشارع. فتبعته، وتحت ضوء النهار تبين لأتيليوس أن شعرها المرفوع بترتيب إلى الأعلى يمازجه الشيب، وقد نحتت خطوط العرق المنهمر غضنات عميقة على خديها المجوفين والمطليين بالبودرة. ستكون في عداد المحظوظات إذا كانت ستكسب لقمة عيشها في هذا المكان فترة أطول. سوف يرميها مالكها، ثم ستعيش في المقبرة خارج بوابة فيسوفيوس عارضة جسدها على المتسولين خلف القبور. وضعت يدها على رقبتها الكثيرة التجاعيد وكأنها حزرت ما كان يدور في ذهنه وأشارت له ناحية السلالم الموجودة على بُعد خطى قليلة، ثم هرعت عائدة إلى الداخل. بمجرد أن بدأ يصعد على السلالم الحجرية سمعها تطلق صافرة خافتة، فأخذ يفكر بأنه أصبح مثل (تيسوس) ضائعاً في المتاهة ولكن من دون طابة الخيوط من (أريادن) لتعيده إلى بر الأمان. في حال ظهر أحد فوقه وقام بمهاجمته وقام آخر بسد الطريق وراءه ومنعه من الهرب فلن يحظى بفرصة للنجاة. عندما وصل إلى أعلى السلالم لم يكلف نفسه عناء طرق الباب وإنما فتحه مباشرة.

حاول من كان أتيليوس يبحث عنه الخروج من النافذة، بعد سماعه صافرة التحذير من العاهرة المسنة على ما يبدو. ولكن المهندس أسرع ودخل إلى الغرفة وأمسكه بحزامه قبل أن يتمكن من القفز إلى السقف تحته. كان خفيفاً

ونحيلاً جداً فسحبه أتيليوس بمنتهى السهولة كما يجر الإنسان كلبه من رسنه، ثم وضعه على السجادة.

كان قد نغّص عليه الاحتفال حيث يوجد رجلان يستلقيان على كنبتين وفتى زنجي يمسك بالفلوت مقابل صدره العاري، إضافة إلى فتاة سمراء لا يتعدى عمرها الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وهي عارية أيضاً وحلمتاها مطليتان باللون الفضي، تقف على الطاولة متجمدة في منتصف رقصتها. ولبرهة من الوقت لم يتحرك أحد. كانت أشعة قناديل الزيت تنعكس على رسوم فاحشة: امرأة جاثمة على رجل، ورجل فوق امرأة، ورجلان يتلمسان بعضهما. بدأ أحد الزبونين المستلقيين يدس يده ببطء تحت الكنبة يربّت على الأرض مفتشاً عن سكين موجود بجانب صحن من الفاكهة المقشرة. وضع أتيليوس قدمه بحزم وسط ظهر أفريكانوس، فأنّ أفريكانوس، فسحب الرجل يده بسرعة.

هز أتيليوس برأسه وقال: «جيد» ثم ابتسم. وانحنى وأمسك أفريكانوس بحزامه من جديد وجرّه إلى خارج الباب.

* * *

قال أمبلياتوس ووقع خطوات كوريليا تخفت تدريجياً: «يا للفتيات المراهقات! إنه مجرد توتر ما قبل الزفاف. بصراحة سأشعر بالسرور يا بوبيديوس حين تصبح أنت المسؤول عنها وليس أنا». وعندما رأى زوجته تنهض للحاق بها أمرها بأن تدعها وشأنها فجلست سيلسيا بخجل تبتسم للضيوف الآخرين كنوع من الاعتذار، فعبس أمبلياتوس في وجهها، إذ تمنى لو أنها لم تقدم على هذا الفعل. لمَ عساها تراعي مشاعر من يُدعَون أفضل منها من حيث المكانة؟ في حين أن بوسعه شرائهم وبيعهم جميعاً!

دسّ سكينه في جانب سمكة الأنقليس وفتلها، ثم أشار بانزعاج إلى أقرب عبد كي يتولى أمر التقطيع. كانت السمكة تحدق به إلى الأعلى بعينين حمراوتين خاليتين من التعبير. أخذ يفكر في أنها حيوان الإمبراطور الأليف: أميرة في حوضها الصغير الخاص بها. ولكنها لم تعد كذلك.

twitter @baghdad_library

غمس قطعة من الخبز في قدر من الخل وأخذ يمصها وهو يراقب يد العبد الماهرة التي تقوم بتزويد صحون الضيوف بكتل من اللحم الرمادي المليء بالحسك.

لم يرد أي من الضيوف أن يأكل من السمكة ومع ذلك لم يشأ أي منهم أن يكون أول الرافضين. وساد المكان جو ثقيل ومشحون بالخشية من الإصابة بسوء الهضم تماماً كحال الهواء الثقيل الذي لف أرجاء الطاولة فقد كان حاراً ومفعماً برائحة الطعام. أراد أمبلياتوس أن يتواصل الصمت. فلماذا يتركهم على راحتهم؟ وهو عندما كان عبداً على الطاولة كان يُمنع من الكلام في غرفة الطعام بحضور الضيوف.

قُدّم إليه أول طبق ولكنه انتظر إلى أن وُضعت الأطباق الذهبية أمامهم جميعاً، ثم مد يده وأخذ قطعة من السمكة، رفعها إلى فمه وتوقف وراح يجول بنظره حول الطاولة، إلى أن بدأوا واحداً تلو الآخر وبتردد يحذون حذوه، بدءاً ببوبيديوس.

ظل ينتظر هذه اللحظة طيلة النهار. كان فيديوس بوليو قد رمى عبيده إلى أسماك الأنقليس ليس لمجرد الاستمتاع برؤيتهم يتقطعون إرباً إرباً تحت الماء وليس ضمن حلبة حيث تقوم الحيوانات الضارية بتقطيعهم، وإنما يعود السبب أيضاً إلى كونه خبيراً في الأطعمة حيث وجد أن لحم الإنسان يمد أسماك الموراي بطعم أكثر حدة. أخذ أمبلياتوس يمضغ جيداً ولكنه رغم ذلك لم يستسغ الطعم. فاللحم قاس وتعوزه النكهة أي غير قابل للأكل، لذا شعر بخيبة الأمل نفسها التي اختبرها ذاك العصر قرب الشاطئ حيث أقدم من جديد على تجربة مبالغ فيها، ومن جديد لم يتوصل إلى شيء.

أخرج قطعة السمك من فمه بأصابعه ورماها على صحنه بقرف، ثم حاول أن يضفي جواً من المرح حيال هذا الموضوع: «إذاً يبدو أن أسماك الأنقليس شبيهة بالنساء حيث تكون أفضل طعماً حينما تكون صغيرة في السن!» ثم أخذ كأس النبيذ ليشرب منه ويغسل الطعم من فمه. ولكن ليس ثمة مجال للشك بأن

تلك الأمسية خلت كلياً من المتعة. أخذ ضيوفه يسعلون بأدب في مناديلهم أو يخرجون الحسك الصغير من بين أسنانهم، وقد أدرك أنهم جميعاً، وخصوصاً هولكونيوس وذاك اللوطي السمين بريتيوس، سيظلون يضحكون عليه لعدة أيام مقبلة بمجرد أن يفلحوا في الذهاب.

«يا صديقي العزيز هل سمعت آخر خبر عن أمبلياتوس؟ إنه يعتقد أن الأسماك مثل النبيذ يتحسّن طعمها مع مرور الزمن عليها!»

شرب المزيد من النبيذ وأخذ يقلّبه في فمه، وفيما كان يفكر في الوقوف وتقديم نخب إلى الأمبراطور وإلى الجيش لاحظ القهرمان يقترب من غرفة الطعام ويحمل صندوقاً صغيراً بين يديه. تردد سكوتاريوس حيث بدا جلياً أنه لا يود إزعاج سيده بأمور العمل خلال تناوله الطعام، وكان أمبلياتوس فعلاً سيطلب منه أن يغرب عن وجهه، ولكن كان ثمة شيء في تعابير وجه ذاك الرجل...

أزاح منديله عنه ونهض على رجليه وهز برأسه لضيوفه احتراماً لهم وأشار إلى سكوتاريوس كي يلحق به إلى غرفة المكتب، وبمجرد أن غابا عن الأنظار أخذ يلوي أصابعه وقال: «ما الأمر؟ أعطِنيه».

كان عبارة عن صندوق للوثائق مصنوع من خشب الزان من النوع الرخيص ومغطى بجلد غير مدبوغ، وهو ذاك النوع من الصناديق التي يستخدمها تلامذة المدارس لوضع كتبهم فيها، وكان القفل مكسوراً. فتح أمبلياتوس الغطاء ووجد في داخله دزينة من لفائف ورق البردي، سحب لفافة منها عشوائياً فوجدها مليئة بأعمدة من الأرقام. حدق فيها لوهلة ثم شعر بالارتباك، ولكن ما لبثت الأرقام أن بدأت تأخذ شكلاً محدداً في رأسه ـ إذ لطالما كان رأسه يستوعب الأرقام ـ ثم فهم وسأل: «أين الرجل الذي جلب هذا الصندوق؟»

«إنه ينتظر في الردهة يا سيدي».

«خذه إلى الحديقة القديمة، وأطلب من المطبخ تقديم التحلية للضيوف وأخبرهم أنني سأعود سريعاً».

twitter @baghdad_library

سلك أمبلياتوس الطريق الخلفي الواقع وراء غرفة الطعام ثم صعد على السلالم العريضة وصولاً إلى باحة منزله القديم. هذا هو المكان الذي اشتراه قبل عشر سنوات متعمداً السكن قرب منزل آل بوبيديوس العريق. كم وجد متعة في العيش على قدم المساواة مع أسياده السابقين، وانتظار الفرصة المناسبة، مدركاً منذ ذلك الحين أنه يوماً ما، وبطريقة من الطرق، سيحفر حفرة في جدار الحديقة السميك ويعبر من خلالها إلى الجانب الآخر نظير جيش يسعى إلى الانتقام عبر وضعه اليد على مدينة العدو.

جلس على المقعد الصخري المدوّر الموجود في وسط الحديقة تحت ظلال تعريشة مغطاة بالورود. كان يحب إتمام أعماله السرية جداً في هذا المكان بالتحديد، إذ أن بوسعه التكلم هناك دون أي إزعاج من أحد، ولا يمكن لأي شخص الاقتراب منه دون أن يقع نظره عليه. فتح الصندوق من جديد وأخرج كل اللفائف، ثم رفع رأسه وحدّق في السماء الواسعة الصافية. كان يسمع زقزقة عصافير الحسون الخاصة بكوريليا والموجودة في المطير، وسمع فوق هذا الصوت أصوات الضجيج الآتية من صوب المدينة التي أخذت تستعيد نشاطها بعد فترة القيلولة الطويلة. لا بد وأن الخانات والمطاعم تساهم في زيادة الضجيج إذ أن الناس يتدفقون إلى الشوراع ليتحضروا لتقديم الأضاحي لفولكان.

يحيا الربح!

الربح رائع!

لم يرفع رأسه لدى شعوره بالضيف يقترب منه وقال: «إذاً يبدو أن لدينا مشكلة».

* * *

كانت كوريليا قد حصلت على عصافير الحسون في عيد مولدها العاشر قُبيل انتقال العائلة إلى المنزل، وكانت تعمد إلى إطعامها باهتمام فائق وقد اعتنت بها خلال مرضها وراقبتها خلال تفقيس بيوضها وتزاوجها ونموها ورحيلها، والآن كلما أرادت الانفراد بنفسها تأتي إلى المطير الذي يحتل نصف

مسافة شرفة غرفتها الواقعة فوق الحديقة حيث الرواق المعمّد المسقوف. كان أعلى القفص مغطى لحمايته من أشعة الشمس، وكانت تجلس محشورة في الزاوية المظللة، وتلف يديها حول رجليها وتسند ذقنها على ركبتيها حينما سمعت أحدهم يدخل إلى الباحة. مدت رأسها إلى الأمام بعض الشيء ونظرت من فوق الدرابزين المنخفض الارتفاع. فوجدت والدها جالساً على المقعد الصخري المدور وإلى جانبه صندوق وكان يقرأ بعض الأوراق. وضع لفافة الورق الأخيرة جانباً وحدّق في السماء مستديراً إلى ناحيتها، فعادت وأنزلت رأسها بسرعة. كان الناس يقولون إنها تشبهه: «آه. إنها صورة عن والدها!» ولأن والدها رجل وسيم كان هذا الكلام يشعرها بالفخر.

سمعته يقول: «إذاً يبدو أن لدينا مشكلة».

كانت قد اكتشفت خلال طفولتها أن الرواق المعمّد المسقوف يقوم بخدعة مميزة، حيث بدا أن الجدران والعمدان تلتقط الأصوات وتوجهها إلى الأعلى لدرجة أنه حتى الهمسات التي لا تكاد تُسمع على الأرض تصل إلى هذا المكان العالي وكأنها خطب تُلقى على المنبر يوم الانتخابات، وبطبيعة الحال لم يزد هذا الأمر إلا سحراً على مكانها السري. لم يكن معظم ما سمعته خلال فترة نشأتها ذا أهمية بالنسبة إليها ـ عقود وحدود ومعدلات فوائد ـ لذا كانت المتعة تنحصر بكونها تمتلك نافذة خاصة تطل على عالم البالغين. حتى أنها لم تخبر أخاها بما كانت تكتشفه، وذلك لأنها لم تبدأ إلا منذ بضعة أشهر بفك مغالق اللغة الغامضة لشؤون والدها. وفي هذا المكان بالتحديد، منذ شهر مضى، سمعت والدها يساوم بوبيديوس على مستقبلها: سيُحسم الكثير لدى إعلان الخطوبة. والدين بأكمله سيُلغى بمجرد عقد الزواج. تعود الملكية إلى المالك في حال عدم إنجاب ذرية لترث كامل الأملاك مع التقدم في السن...

كان يعتاد على نعتها بـ: «يا إلّهتي الصغيرة فينوس، يا صغيرتي ديانا الشجاعة».

مكافأة مادية تُدفع في حال ثبوت العذرية حيث يقوم الجراح بامبونيوس

twitter @baghdad_library

ماغونيانوس بإثبات هذه العذرية. يُرجأ الدفع لدى توقيع العقود طيلة الفترة المتفق عليها...

همس والدها قائلاً: «أنا دائماً أقول، والكلام هنا من رجل إلى رجل يا بوبيديوس، ودون أن نجعل الأمر قانونياً جداً، لا يسعك أن تضع سعراً للمضاجعة الجيدة».

«يا إلَهتي الصغيرة فينوس...»

«يبدو أن لدينا مشكلة...»

أجاب رجل وجدت صوته أجشاً ولم تتعرّف عليه: «أجل بالفعل لدينا مشكلة».

ثم ردّ عليه أمبلياتوس: «وهو يُدعى ماركوس أتيليوس...»

مالت إلى الأمام من جديد حتى لا تفوّت عليها كلمة واحدة.

* * *

لم يرد أفريكانوس أية متاعب فقد كان رجلاً بسيطاً. جرّه أتيليوس وراءه وأنزله على السلالم محاولاً عدم الاصغاء إلى احتجاجاته، وبين وقت وآخر يدير أتيليوس رأسه وينظر من فوق كتفي أفريكانوس ليتأكد من أن أحداً لا يلحق بهما: «أنا موظف رسمي هنا في مهمة خاصة بالأمبراطور أريد أن أرى أين كان يسكن إكزومنيوس وبسرعة». لدى ذكر الإمبراطور أخذ أفريكانوس يغدق المديح على اسم الإمبراطور، فهزّه أتيليوس: «ليس لدي الوقت لسماع هذا الكلام. خذني إلى غرفته».

«إن بابها موصد».

«أين المفتاح؟»

«في الطابق السفلي».

«أحضره».

عندما وصلا إلى الشارع دفع بحارس الماخور مرجعاً إياه إلى الممر المعتم ووقف يجوب المكان بنظره وهو يجلب صندوق أماناته من مخبئه. كانت العاهرة ذات الفستان الأخضر القصير قد عادت وجلست على كرسيها فناداها أفريكانوس: «أي المفاتيح هو لغرفة إكزومنيوس يا زميرينا؟». كانت يداه ترتجفان بشدة لدرجة أنه حينما أفلح أخيراً في فتح الصندوق وإخراج المفاتيح أوقعها من يده مما اضطرها إلى الانحناء لالتقاطها، وانتقت من كومة المفاتيح مفتاحاً ورفعته إلى الأعلى.

سأله أتيليوس: «مِمَّ أنت خائف إلى هذه الدرجة؟ لِمَ حاولت الهرب لدى ذكر اسم؟»

كرّر له أفريكانوس: «لا أريد أية متاعب»، ثم أخذ المفتاح ومشى أمام أتيليوس إلى الحانة المجاورة. كان مكاناً رخيصاً، ليس أكثر من منضد حجري خشن يحوي حفراً من أجل جرار النبيذ، ولم يكن هناك مكان للجلوس. كان معظم الشاربين موجودين في الخارج على الرصيف، يستندون على الحائط. افترض أتيليوس أن هذا هو المكان الذي ينتظر فيه زبائن الماخور دورهم للحصول على فتاة، ثم يأتون بعد ذلك لينعشوا أنفسهم ويتبجّحون بشأن براعتهم الجنسية الفائقة. كانت تفوح من المكان الرائحة الكريهة نفسها التي لحظها في الماخور، فأخذ أتيليوس يفكر أنه لا بد وأن إكزومنيوس قد سقط منذ أمد بعيد. لا بد أن الفساد قد تسلّل فعلاً إلى روحه لينتهي به الأمر في مثل هذا المكان.

كان أفريكانوس صغير البنية ونحيلاً ويملأ الشعر ذراعيه ورجليه وكأنه أشبه بالقرد. لعله استوحى اسمه من القرود الإفريقية في الساحة العامة المكبلة بسلاسل وتؤدي الخدع لتُكسب أصحابها بعض النقود. مرّ عبر المشرب وأخذ يصعد على السلالم الخشبية المتداعية حتى وصل إلى منبسط الدرج، ثم توقف والمفتاح بيده والتفت إلى جهة أتيليوس وسأله قائلاً: «من أنت؟»

twitter @baghdad_library

«افتح الباب».

«لم يتم لمس أي شيء. صدقني».

«هذا جيد. والآن افتح الباب».

استدار القوّاد ناحية الباب وهو يمد يده حاملاً المفتاح ثم أطلق صرخة وأشار إلى القفل، وعندما صعد أتيليوس ووقف إلى جانبه وجد أن القفل مكسور. كانت الغرفة من الداخل معتمة وكان الهواء مشبعاً بروائح كريهة تنبعث من الفراش والجلد والطعام المعفن. أظهرت أشعة ضوء رفيعة على الجدار المقابل مكان مصراعيْ النافذة المقفلين. دخل أفريكانوس أولاً وتعثر بشيء ما وسط حلكة الظلام، ثم فتح الشباك فدخل ضوء العصر وانسكب على الثياب المتناثرة والأثاث المقلوب. جال أفريكانوس بنظره من حوله بفزع وقال: «أقسم لك إنه لا علاقة لي بهذا الأمر».

تحقّق أتيليوس من كل شيء بنظرة واحدة إذ لم يكن في الغرفة الكثير. كان هناك سرير وفراش رفيع ووسادة وبطانية بنية خشنة وإبريق للغُسل وقدر للبول وصندوق كبير وكرسي، ولكن تم العبث بكل شيء. حتى الفراش تم شقه، فبرزت حشوته المؤلفة من شعر الحصان إلى الخارج.

كرّر أفريكانوس قائلاً: «أقسم لك».

قال أتيليوس: «حسناً. أنا أصدقك» وبالفعل كان يصدقه، فمن المستبعد أن يكون أفريكانوس قد كسر القفل الذي يمتلك مفتاحه أو أن يترك الغرفة بهذه الفوضى. كان يوجد على طاولة صغيرة لها ثلاث أرجل كتلة من رخام لونه أبيض مائل إلى الاخضرار، وبعد تفحصها عن كثب تبيّن أنها نصف رغيف خبز، وإلى جانبه هناك سكين وتفاحة عفنة، وعلى غبار الطاولة ثمة مسحة من البصمات القريبة العهد. لمس أتيليوس سطح الطاولة وتفحص طرف إصبعه الذي استحال أسود، فوجد أن هذا الخراب قد تم إحداثه منذ فترة قريبة، بيد أنه لم يتسنّ للغبار الوقت الكافي ليعاود تغطية البصمات. لعل هذا الأمر يفسّر علة إصرار أمبلياتوس على أن يريه كل تفاصيل حماماته الجديدة. هل كان يشغله في

الوقت الذي يتم فيه تفتيش الغرفة؟ كم كان غبياً وهو يخوض في أمور خشب الصنوبر الآتي من الأراضي المنخفضة وخشب الزيتون المسفوع!

توجّه أتيليوس إلى أفريكانوس بالسؤال: «كم طال استئجار إكزومنيوس لهذا المكان؟»

«ثلاث سنوات وربما أربع».

«ولكنه لم يكن يتواجد هنا معظم الوقت؟»

«كان يأتي ويذهب».

أدرك أتيليوس أنه لم يكن يعرف حتى شكل إكزومنيوس. وبالتالي فهو يطارد شبحاً: «ألم يكن له عبد؟»

«لا».

«متى رأيته آخر مرة؟»

«إكزومنيوس؟» نشر أفريكانوس يديه إذ كيف عساه يتذكر؟ فهناك الكثير من الزبائن والكثير من الوجوه.

«متى دفع الإيجار؟»

«إنه يدفعه مسبقاً في أول كل شهر».

«إذاً دفع لك الإيجار في بداية شهر آب؟» فهز أفريكانوس برأسه. إذاً تم تحديد شيء ما على الأقل. ومهما يمكن أن يكون قد حصل لإكزومنيوس فمن المستبعد أن يكون قد خطّط للاختفاء. ومن الواضح أن الرجل كان بخيلاً، وما كان أبداً ليدفع إيجار غرفة لا ينوي المكوث فيها: «أتركني، أنا سأعمد إلى ترتيب المكان».

بدا أن أفريكانوس على وشك الدخول في جدال، ولكن أتيليوس تقدم خطوة باتجاهه فما كان منه إلا أن رفع يديه مستسلماً وانسحب إلى منبسط الدرج. فأغلق المهندس الباب المهشّم القفل وأخذ يسمع خطوات أفريكانوس وهو ينزل إلى الحانة.

twitter @baghdad_library

أخذ أتيليوس يجول في أرجاء الغرفة معيداً تجميعها حتى يأخذ فكرة عمّا كانت تبدو عليه في السابق، وكأنه من خلال قيامه بذلك يحصل على دليل يشير إلى الأغراض الأخرى التي كانت موجودة فيها. أعاد إلقاء الفراش المشقوق على السرير ووضع الوسادة ـ المشقوقة هي الأخرى ـ على رأس السرير، وطوى البطانية الرفيعة ثم استلقى. وعندما أدار رأسه لاحظ وجود علامات سوداء صغيرة على الحائط، ووجد أنها عبارة عن حشرات مسحوقة. أخذ يتخيّل إكزومنيوس مستلقياً هنا وسط الحر ويقوم بقتل البعوض فتساءل عن سبب اختياره للعيش بهذا الفقر المدقع إن كان يقبض الرشاوى من أمبلياتوس. لعله أنفق كل ماله على العاهرات؟ ولكن بدا له هذا الاحتمال مستبعداً، إذ أن الحصول على واحدة من فتيات أفريكانوس لا تكلف أكثر من بضعة نقود نحاسية.

أخذت لوحات الأرضية تطلق صريراً، فجلس بتمهل شديد، والتفت إلى الباب فظهرت بكل وضوح من تحت الباب المصنوع من خشب رخيص ظلال لقدمين متحركتين. ولبرهة بدا واثقاً أنه إكزومنيوس، وقد أتى ليطالب بتفسير من هذا الرجل الغريب الذي احتل منصبه وخرق ملكيته وهو الآن يستلقي على سريره في غرفته التي تم قلبها رأساً على عقب. نادى قائلاً: «مَنْ هناك؟» وعندما فُتح الباب بتمهل، ووجد أنها لم تكن سوى زميرينا شعر بخيبة الأمل: قال: «نعم؟ ماذا تريدين؟ لقد طلبتُ من معلمك أن يتركني وحدي؟»

وقفتْ على عتبة الباب، وكان ثوبها مشقوقاً ليظهر ساقيها الطويلتين، وكان على فخذها ندبة أرجوانية قديمة بحجم قبضة اليد. حدّقت في أرجاء الغرفة ووضعت يدها على فمها وهي في حالة من الرعب: «من الذي فعل هذا؟»

«أنت أخبريني».

«قال إنه سيعتني بي».

«ماذا؟»

تقدمت بضع خطوات إلى داخل الغرفة: «لقد قال إنه حينما يعود سيعتني بي».

«من؟»

«أليانوس: هو قال هذا».

استغرق وقتاً حتى عرف عمن تتكلم. إنه إكزومنيوس. إكزومنيوس أليانوس.

لم يلتق من قبلها بشخص يستخدم اسم الساقي الأول وليس شهرته، وهذا الأمر يلخص شخصيته. إن الإنسانة الحميمة الوحيدة في حياته ليست إلا عاهرة. قال بقسوة: «حسناً سوف لن يعود ليعتني بك، أو بأي أحد آخر».

مرّرتْ ظاهر كفها تحت أنفها عدة مرات، فأدرك أنها كانت تبكي. «هل مات؟»

«أنتِ أخبريني» جعل أتيليوس نبرة صوته أكثر لطافة: «في الحقيقة لا أحد يعلم».

«كان سيشتريني من أفريكانوس. هو قال هذا. إنه لا يريد كل العاهرات بل أنا وحدي. أفهمت؟» لمست صدرها وأومأت إلى أتيليوس ثم لمست نفسها من جديد.

«نعم فهمت».

أخذ ينظر إلى زميرينا من زاوية اهتمام جديدة، وقد أدرك أنه لم يكن بالأمر المستغرب خصوصاً في هذا الجزء من إيطاليا، حيث أن البحارة الأجانب لدى تسريحهم من البحرية بعد خدمة خمس وعشرين سنة وحصولهم على الجنسية الرومانية فإن أول ما يفعله معظمهم بالمال الذي يحصلون عليه هو التوجه إلى أقرب سوق عبيد وشراء زوجة لهم. كانت العاهرة راكعة أمامه تلتقط الثياب المبعثرة وتطويها، وتضعها في الصندوق. فوجد أتيليوس أنها ربما تكون نقطة في صالح إكزومنيوس، حيث أنه قرر اختيارها هي وليس سواها ممن هن أجمل

twitter @baghdad_library

شكلاً وأصغر سناً، أو لعله كان يكذب فحسب ولم ينوِ أبداً العودة من أجلها. وفي كلتا الحالتين، اختفى مستقبلها مع اختفاء أهم زبون لديها.

«لقد كان يملك المال أليس كذلك؟ كان يملك ما يكفيه من المال لشرائك؟ ولكن ما كان ليخطر على بال المرء أنه يمتلك المال بالنظر إلى هذا المكان».

«إنه ليس هنا».

عاودت الجلوس ولكن على كعبي قدميها ورفعت رأسها ونظرت إليه باحتقار: «المال ليس بمأمن هنا، لقد خبأه. لديه الكثير من المال. خبأه في مكان لا يعرفه أحد، ولن يجده أحد. هذا ما قاله، لن يجده أحد».

«لقد حاول أحد. . .».

«المال ليس هنا».

كانت تركز على وجهة نظرها. مما لا شك فيه أنها عمدت إلى التفتيش عن المال عدة مرات في غيابه. «هل أخبركِ عن المكان الذي يخبئ فيه المال؟»

حدقت فيه وفمها المطلي بالأحمر شاغر، ثم فجأة حنت رأسها، وبدأ كتفاها يهتزان. حسبها في البداية قد عاودت البكاء، ولكن عندما استدارت وجد أن اللمعان الذي أضاء عينيها ناتج عن الدموع التي تجمعت فيهما نتيجة الضحك. «لا!» بدأت تهز نفسها رواحاً وجيئة من جديد، فبدت أشبه بفتاة صغيرة وسط هذا الفرح الغامر، ثم أخذت تصفق بيديها. فقد كانت هذه الجملة الأكثر إضحاكاً التي سمعتها في حياتها. وقد اضطر إلى موافقتها الرأي، إذ إن فكرة أن يودِع إكزومنيوس سره لدى عاهرة لأفريكانوس وإخبارها عن المكان الذي خبأ فيه المال هي فكرة مضحكة حقاً. بدأ هو الآخر بالضحك، ثم أنزل رجليه على الأرض.

ليس ثمة جدوى من إهدار المزيد من الوقت في هذا المكان. لدى وقوفه عاود التحديق بها ووجدها لا تزال جاثمة على وركيها بثوبها المشقوق وقد غطت وجهها بأحد قمصان إكزومنيوس.

* * *

عاد أتيليوس أدراجه مسرعاً وسلك الطريق الجانبي المعتم، وأخذ يفكر أنه لا بد أن هذا الطريق هو طريق إكزومنيوس الذي كان يقوده من الماخور إلى القلعة المائية. هذا ما كان يقع عليه نظره لدى مجيئه إلى هنا، مناظر العاهرات والسكارى، وبُريكات البول ورقع القيء الذي سفعته الحرارة الشديدة وبات فتاتاً في المزاريب، والكتابات على الجدران، وتماثيل بريابوس الصغيرة قرب المداخل بقضيبه الهائل الحجم الذي يتدلى منه أجراس لدرء الشر. إذاً ماذا كان يدور في ذهنه عندما كان يسلك هذه الطريق لآخر مرة؟ زميرينا؟ أمبلياتوس؟ سلامة ماله المخبأ؟

نظر إلى الوراء من فوق كتفيه ولكن لم يكن أحد يعيره أي انتباه. ومع ذلك شعر بالسرور لوصوله إلى الطريق العام العريض.

ظلت المدينة أكثر هدوءاً مما كانت عليه في الصباح، حيث أبعدت حرارة الشمس القوية معظم الناس عن الشارع، فأخذ يجد السير صعوداً على التل ناحية بوابة فيسوفيوس. وبمجرد أن اقترب من الميدان الصغير أمام القلعة المائية وقع نظره على الثيران والعربتين اللتين باتتا محملتين بالمعدات والمواد. كان ثمة مجموعة صغيرة من الرجال ينتشرون على الوحول خارج حانة، ويتضاحكون حول شيء ما. كان الحصان الذي استأجره مقيداً إلى عمود. وها هو بولايتس، الوفي بولايتس، يتقدم لملاقاته.

«لقد غبت لفترة طويلة أيها الساقي».

تجاهل أتيليوس نبرة اللوم في كلامه: «لقد بت هنا الآن. أين موسى؟»

«لم يأتِ بعد».

«ماذا؟» ثم أخذ يشتم ويلعن ووضع يده فوق عينيه ليتحقق من موقع الشمس. لا بد أنه مرت أربع ساعات لا بل خمس ساعات على انطلاق الآخرين. كان قد توقع الحصول على رد ما بحلول هذا الوقت: «كم رجلاً لدينا؟»

«اثنا عشر رجلاً» وفرك بولايتس يديه ببعضهما البعض بتوتر.

twitter @baghdad_library

«ما بالك؟»

«إنهم مجموعة تبدو على هيئتها القساوة أيها الساقي».

«حقاً؟ إن أخلاقهم لا تعنيني طالما أن بوسعهم العمل».

«لقد مضى عليهم ساعة وهم يشربون».

«إذاً حري بهم أن يكفوا عن ذلك».

عبر أتيليوس الميدان باتجاه الحانة. كان أمبلياتوس قد وعد بإعطائه اثني عشر رجلاً من أقوى عبيده، ومرة جديدة وفى بوعده. بدا الأمر وكأنه جهّز مجموعة من المجالدين. وفي الحانة كان يتم تناقل إبريق كبير من النبيذ من يدين موسومتين بالوشم إلى أخرى، وبهدف تضييع الوقت كانوا قد جلبوا تيرو من القلعة وأخذوا يلعبون معه لعبة. كان أحدهم قد سلب عبد المياه قبعته وكلما استدار بضعف حيلة إلى جهة الشخص الذي يعتقد أنه يحملها يرمونها إلى شخص آخر.

قال المهندس: «كفوا عن هذا. دعوا الفتى وشأنه». فما كان منهم إلا أن تجاهلوه فرفع صوته أكثر. «أنا ماركوس أتيليوس، ساقي قناة الأوغوستا المائية، أنتم تحت قيادتي الآن». انتزع قبعة تيرو ووضعها في يده: «عد إلى القلعة يا تيرو». ثم توجه إلى مجموعة العبيد بالقول: «يكفيكم شرباً، سوف ننطلق الآن».

نظر الرجل الذي حان دوره لاحتساء النبيذ إلى أتيليوس بلا مبالاة، ثم رفع الإبريق الفخاري إلى فمه وأرجع رأسه إلى الوراء وأخذ يشرب. سال النبيذ على ذقنه ثم على صدره، فهلّل له الآخرون تقديراً على ما فعل، وعندها شعر أتيليوس بالغضب يعتمل في صدره. إن التدرّب بشكل شاق والبناء والعمل وسكب هذا القدر الكبير من المهارة والعبقرية في قنوات جر المياه. هذا كله لمجرد جر المياه لمثل هؤلاء البهائم ولأفريكانوس. حري بهم أن يعيشوا بالقرب من مستنقع مليء بالبعوض: «من الشخص الأرشد بينكم؟»

أنزل الشارب الإبريق وأخذ يسخر قائلاً: «الأرشد؟ ما هذا؟ أنحن في الجيش اللعين؟»

قال أتيليوس بكل روية: «أنت سكران أما أنا فصاحٍ وفي عجلة من أمري. والآن تحركوا». ركل أتيليوس الإبريق برجله فوقع بعيداً دون أن ينكسر حيث حط على جنبه وأخذ ينسكب على الحصى. لبرهة من الوقت ووسط الصمت المطبق لم يُسمع سوى أصوات ابتلاع النبيذ، ثم دبت الحركة في المكان حيث أخذ الرجال ينهضون من أماكنهم ويتصارخون وأخذ السكير يندفع إلى الأمام بنيّة واضحة ألا وهي غرس أسنانه في رجل أتيليوس. وسط كل هذه الجلبة سُمع صوت عال فاق أصوات البقية ـ «توقفوا!» ثم ظهر رجل ضخم البنية يبلغ طوله ما يفوق الستة أقدام، وراح يركض عبر الميدان وتوقف عند أتيليوس والآخرين. فتح ذراعيه ليبقيهم بعيداً.

قال: «أنا بريبكس. رجل مُعتق». كان يتمتع بلحية خشنة حمراء مشذبة جاروفية الشكل: «إن كان ثمة كبير بينهم فهو أنا».

هز أتيليوس برأسه وقال: «بريبكس». لم يكن هذا الإسم غريباً عليه. إن هذا الرجل الذي يراه أمامه لهو فعلاً مُجالد أو مُجالد سابق، كان يحمل شعار فرقته على ذراعه، أفعى راجعة إلى الوراء بقصد الهجوم: «وجب أن تكون هنا منذ ساعة. قل لهؤلاء الرجال إنه في حال كان لديهم أية شكاوى فلينقلوها إلى أمبلياتوس. قل لهم إن أحداً منهم ليس مجبراً على مرافقتي ولكن من يتخلّف عن ذلك سيضطر إلى تبرير ذلك أمام سيده. والآن أخرِج هاتين العربتين من البوابة. سأوافيك إلى الجهة الأخرى من جدار المدينة».

استدار وتنحى له حشد من السكارى الذين حضروا إلى الميدان من الحانات الأخرى على أمل مشاهدة شجار. كان يرتجف مما اضطره إلى إطباق قبضته في راحة يده ليمنع هذه الرجفة من الظهور. نادى قائلاً: «بولايتس!»

«أجل؟» شق العبد طريقه بين الحشد.

«إجلب لي حصاني. لقد أضعنا ما يكفي من الوقت هنا».

twitter @baghdad_library

نظر بولايتس بحشرية ناحية بريبكس الذي أخذ يقود فريق العمل المتردد إلى العربتين: «إنني لا أثق بهؤلاء الرجال أيها الساقي».

«ولا أنا ولكن ما عسانا نفعل؟ هيا إجلب حصاني. سنلتقي بموسى على الطريق».

ذهب بولايتس مسرعاً، فأخذ أتيليوس يحدق إلى أسفل التل. كانت بومبي لا تشبه المنتجع البحري بقدر ما تشبه الموقع العسكري: مدينة ازدهار. كان أمبلياتوس يعيد بناءها وفق تصوراته الخاصة. سوف لن يشعر بالأسف إن لم يرها من جديد ما عدا كوريليا، فراح يتساءل عما تفعله. ولكن رغم أن صورتها وهي تقترب منه إثر خروجها من حوض السباحة المتلألئ قد بدأت تنطبع في ذهنه إلا أنه أجبر نفسه على إبعادها. وتوجّه إلى نفسه بوجوب مغادرة هذا المكان، والذهاب إلى الأوغوستا، وإعادة تدفق المياه، ثم العودة إلى ميسينوم وتفقد سجلات القناة بحثاً عن دليل عما كان إكزومينوس ينوي فعله. كانت هذه أولوياته، والتفكير بأي شيء مغاير هو ضرب من الغباء.

كان تيرو يجلس القرفصاء في ظلال القلعة المائية وعندما أوشك أتيليوس على رفع يده لتوديعه وقع نظره على هاتين العينين الوامضتين الفاقدتين للبصر.

* * *

أشارت الساعة الشمسية العامة إلى حلول الساعة التاسعة في الوقت الذي مر فيه أتيليوس على ظهر جواده تحت قنطرة بوابة فيسوفيوس الطويلة. سُمعت أصوات اصطكاك الحوافر بالصخر وكأنها كتيبة صغيرة من الخيالة، وأطل موظف الجمارك برأسه من كشكه ليرى ما الذي يحدث ثم تثاءب وأشاح بنظره. لم يكن المهندس يتمتع بمهارة خارقة في ركوب الخيل. ولكن للمرة الأولى شعر بالسرور لامتطائه الخيل إذ مدّه ذلك بالطول وقد كان يحتاج إلى كل ما يمكن الحصول عليه من فوائد. عندما اقترب من بريبكس والرجال اضطروا إلى رفع رؤوسهم والنظر إليه بعينين نصف مغمضتين بسبب حرارة الشمس القوية.

قال: «سوف نتبع خط القناة ناحية فيسوفيوس». دار الحصان في مكانه مما

اضطره إلى الصراخ من فوق كتفه: «لا أريدكم أن تضيعوا الوقت، أريد أن نصل إلى مواقعنا قبل حلول الظلام».

سأله بريبكس: «في مواقعنا أين؟»

«لا أعرف بعد، ولكن سيتضح لنا الأمر عندما نراه بأم أعيننا».

أحدث غموضه جلبة ضيق في صفوف الرجال. ومن عساه يلومهم؟ وتمنى لو كان هو نفسه يعرف إلى أين سيذهب. تباً لموسى!

فرض سيطرته على جواده وأداره ناحية المكان المفتوح، ونهض بنفسه عن السرج حتى يتمكن من رؤية مسار الطريق بعد المقبرة. فإذا به يمتد بشكل مستقيم باتجاه الجبل عبر حقول مستطيلة ونظيفة تنمو فيها أشجار الزيتون والذرة ويفصل بينها جدران صخرية منخفضة وقنوات للري. إنها أراض قديمة مُنحت كمكافأة للفيلقيين المسرَّحين منذ عقود من الزمن. لم يكن ثمة الكثير من الازدحام على الطريق العام المرصوف. عربة أو اثنتان إضافة إلى بعض المشاة. لم تظهر أية إشارة إلى وجود غبار ناجم عن عدو حصان ما. اللعنة عليه، اللعنة عليه...

قال بريبكس: «إن بعض الشبان لا يحبذون التواجد بالقرب من فيسوفيوس بعد هبوط الليل».

«لِمَ لا؟»

نادى رجل قائلاً: «بسبب العمالقة!»

قال بريبكس بشكل شبه اعتذاري: «ثمة من رأى العمالقة أيها الساقي، إنها أكبر من البشر، وتجول في الأرض ليلاً ونهاراً. أحياناً تجوب في الهواء، وتبدو أصواتها مثل قصف الرعد».

قال أتيليوس: «لعلها فعلاً قصف رعد. هل خطر لكم هذا الاحتمال؟ يمكن للرعد أن يحدث دون هطول المطر».

twitter @baghdad_library

«أجل ولكن هذا الرعد لا يحدث في الهواء بتاتاً بل في الأرض أو حتى في جوف الأرض».

«إذاً لهذا السبب تعاقرون الخمر؟» أجبر أتيليوس نفسه على الضحك: «لأنكم تخشون التواجد وراء جدران المدينة بعد حلول الظلام؟ وأنت كنت مجالداً يا بريبكس. يسرني أنني لم أنفق أي مال في حياتي للرهان عليك. هل كانت فرقتك لا تقاتل سوى الفتيان العمي؟» بدا بريبكس يقسم ولكن طلب منه المهندس من فوق رأسه أن يأخذ الفرقة إلى العمل: «لقد طلبتُ من سيدك أن يقرضني بعض الرجال وليس النساء! لقد تجادلنا بما فيه الكفاية. علينا أن نقطع مسافة خمسة أميال قبل حلول الظلام وربما عشرة أميال. والآن قُد هذه الثيران إلى الأمام واتبعني».

ضرب بكعبيه على جانبي جواده وانطلق في مشية بطيئة، وسار على الطريق بين القبور. كان قد تُرك على بعض هذه القبور الورود وأضاحٍ صغيرة من الطعام احتفاء بعيد فولكان. وكان بعض الأشخاص يتنزهون تحت ظِلال أشجار السرو، وتنتشر على القبور سحليات سوداء صغيرة وكأنها تصدّعات. لم ينظر إلى الوراء إذ إنه كان واثقاً أن الرجال يتبعونه، فقد أجبرهم على ذلك وهم يخشون أمبلياتوس.

عندما وصل إلى آخر المقبرة وضع لجام الجواد من يديه وانتظر إلى أن سمع أصوات صرير العربتين وهما تسيران فوق الحجارة. كانتا مجرد عربتيْ مزارع حيث يدور المحور مع الدواليب التي لم تكن أكثر من مجرد قطع بسيطة من جذوع الأشجار التي يبلغ عرضها قدماً واحداً. ويمكن سماع أصوات صريرها على بُعد ميل. مرت من أمامه الثيران ورؤوسها متجهة إلى الأسفل، ويقود كل مجموعة رجل يحمل عصا، ثم مرت العربتان المقرقعتان، وأخيراً مر باقي فريق العمل، فقام بعدِّهم، ووجد أن الجميع موجودون ومن ضمنهم بريبكس.

على جانب الطريق أخذت الحجارة الموسومة بعلامات والخاصة بالقناة

والتي تم وضعها بين كل مئة خطوة تتضاءل حجماً مع المسافة. ويوجد فيما بينها وبشكل مرتب أغطية المعاينة الحجرية المدورة التي توفر إمكانية ولوج إلى النفق. أدخلت الإحساس بالثقة إلى نفس المهندس برتابتها ودقتها، إذ إنه كان يعرف كيفية عمل هذا النظام برمته.

ركل جواده. وبعد ساعة ومع نزول شمس العصر في الخليج كانوا قد وصلوا إلى منتصف طريق السهل حيث انتشرت من حولهم الحقول الضيقة والمقسّمة إلى رقع وقنوات الري الجافة. وراحت الجدران المطلية بلون المغرة الصفراء وأبراج المراقبة في بومبي تختفي وسط الغبار وراءهم. وظل خط القناة يقودهم إلى الأمام دون رحمة باتجاه جبل فيسوفيوس الرمادي الأزرق والذي أخذ يبدو أكبر حجماً كلما اقتربوا منه أكثر.

twitter @baghdad_library

أورا ديوديسيما

الساعة: ١٨:٤٧

تعتبر الصخور قوية جداً من ناحية الانضغاط لكنها ضعيفة من ناحية قوة الشد (تُقدّر القوة ب ١,٥×١٠^{٧} بار). وبالتالي فإن قوة الصخور التي تغطي جسم صهاري مبرّد ومبثّر يتم تخطيها بسهولة قبل فترة طويلة من تصلّب الصهارة. وبمجرد حدوث ذلك يحدث ثوران متفجّر.

البراكين: منظور أرضي

أخذ بليني يراقب تواتر حدوث الارتجاجات طوال النهار، أو توخياً لمزيد من الدقة، كان سكرتيره أليكسيون يقوم له بهذا العمل حيث جلس مقابل الطاولة في مكتبة الأميرال واضعاً الساعة المائية على جهة وعلى الجهة الأخرى قدح النبيذ.

لم يشكّل نهار العيد والعطلة أي تغير في نظام الأميرال، فهو لا يتوانى عن العمل أياً كانت المناسبة. لقد انقطع عن القراءة والإملاء مرة واحدة فحسب، وذلك خلال منتصف الصباح بغرض توديع ضيوفه، وأصر على مرافقتهم إلى المرفأ ليراهم يصعدون على متن قواربهم. كان لوشيوس بومبونيانوس وليفيا متوجهين إلى ستابيي الواقعة في آخر طرف الخليج، وقد تم الترتيب لأن يصحبا ركتينا معهما في قاربهما المتواضع ليوصلاها إلى فيللا كالبورنيا في هيركيولانيوم. أما بيديوس كاسكوس فسوف يستقل من دون زوجته سفينته الحربية المزودة بطاقم العمل إلى روما لحضور اجتماع للمجلس مع الإمبراطور. يا لهؤلاء الأصدقاء القدامى العزيزين! عمد إلى احتضانهم بكل حرارة. بوسع

twitter @baghdad_library

بومبونيانوس لعب دور الأخرق، هذا صحيح، ولكن والده بومبونيانوس الثاني العظيم كان راعي بليني، لذا شعر بأنه مدين لهذه العائلة. أما بالنسبة إلى بيديوس وركتينا فلم يكن لكرمهما معه أي حدود. ولولا استخدام مكتبتهما لكان وجد صعوبة جمة في إتمام كتاب التاريخ الطبيعي لأنه يعيش خارج روما.

قبل أن يصعد بيديوس على متن سفينته جذب بليني من ذراعه وقال له: «لم أشأ أن آتي على ذكر هذا الأمر من قبل يا بليني، ولكني أود أن أسألك الآن هل أنت واثق أنك على ما يرام؟»

أحدث بليني صفيراً لدى تنفسه وقال: «أعاني من السمنة الزائدة، هذا جل ما في الأمر».

«ماذا يقول أطباؤك؟»

«الأطباء؟ أنا لا أسمح لهؤلاء المحتالين الإغريق بالاقتراب مني. وحدهم الأطباء يقدمون على قتل الإنسان دون أي خوف من العواقب».

«ولكن أنظر إلى حالك يا رجل. إن قلبك..».

«في حالات الأمراض القلبية الأمل الوحيد للراحة يكمن دون أي شك في النبيذ. يجدر بك قراءة كتابي. وهذا بحد ذاته، يا عزيزي بيديوس، هو دواء أستطيع أن أصفه لنفسي».

نظر السيناتور إليه ثم قال بحزن: «إن الإمبراطور قلق بشأنك». أحدث وقع هذا الكلام ألماً في قلب بليني. لقد كان هو نفسه عضواً في المجلس الإمبراطوري. لذا لِمَ لم تتم دعوته إلى هذا الإجتماع الذي كان بيديوس يهرع لحضوره؟ «إلى ماذا تلمّح؟ أتلمح إلى أنه يعتقد أنه فات عليّ الفوت؟»

لم ينطق بيديوس بكلمة وظل صامتاً، فكان هذا الصمت أبلغ من الكلام. فجأة فتح السيناتور ذراعيه، فانحنى بليني إلى الأمام وعانقه وربّت على ظهره الصلب بيده القصيرة والسمينة: «إعتنِ بنفسك يا صديقي القديم».

«وأنت أيضاً».

عندما فك بليني الاحتضان وتراجع إلى الوراء كان قد أصبح خده رطباً مما أشعره بالخجل. وظل على جانب الرصيف يراقب القوارب إلى أن غابت عن النظر. بدا أن هذا جل ما يفعله هذه الأيام: يشاهد أناساً آخرين يغادرون.

ظل حديثه مع بيديوس يلازم تفكيره طيلة النهار، في الوقت الذي كان يتنقل فيه رواحاً وجيئة على التراس، ثم يدخل بين الفينة والأخرى إلى المكتبة ليتفقد أليكسيون ويدقق في ترتيبه لأعمدة الأرقام. «الإمبراطور قلق بشأنك». إن هذا الكلام مثل الألم الذي يشعر به في جانبه والذي لا يزول.

كان يجد ملاذاً كحاله دوماً في ملاحظاته. فقد ازداد بشكل مطرد عدد الحوادث المتواترة، كما اصطُلِح على تسمية تلك الاهتزازات. في الساعة الأولى تكررت خمس مرات، وسبع مرات في الساعة الثانية، وثماني مرات في الساعة الثالثة، وهلم جراً. وما يثير الدهشة أكثر هو مدتها الزمنية الآخذة في التزايد. حيث كانت في بداية النهار أقصر من أن تُقاس، ومع حلول العصر أفلح أليكسيون في قياسها باستخدام الساعة المائية التي تتسم بالدقة. بداية سجل حدوثها في العُشر الأول من الساعة، ثم في الخُمس الأول، إلى أن وصل أخيراً إلى الساعة الحادية عشرة حيث لم يسجل طوال هذه الساعة سوى اهتزاز واحد. لم ينفك النبيذ يهتز طوال هذه الساعة.

تمتم بليني قائلاً وهو يتكئ على كتفه: «يجدر بنا تغيير التسمية. إن تسمية هذه الارتجاجات بالحوادث لم يعد كافياً».

وبالإضافة إلى تحرك الأرض، وكأنه يربط بين الإنسان والأرض صلة غير مرئية، وصلت أنباء عن اندلاع حوادث شغب في وسط البلدة، حيث حصل شجار عند النوافير العامة بعد أن انتهت الساعة الأولى من تقنين المياه دون أن يتمكن الجميع من ملء قدورهم، كما حصل شغب خارج الحمامات العامة عندما لم تُفتَح أبوابها في الساعة السابعة، وقُتلت امرأة طعناً بالسكين لأجل جرتين من الماء ـ إنها المياه! ـ وقد طعنها سكير خارج معبد أغسطس. والآن يُقال إن ثمة عصابات مسلحة تتسكّع حول النوافير منتظرة افتعال شجارات.

twitter @baghdad_library

لم يواجه بليني قط صعوبة في إصدار الأوامر. وهذا يُعتبر جوهر القدرة على القيادة. لذا قرر وجوب إلغاء مراسيم تقديم الأضاحي لفولكان عند المساء، ووجوب تفكيك المشعلة التي تم تشييدها في الساحة العامة على الفور. فإن أي تجمع لحشود غفيرة من الناس يمكن أن يتسبّب بحدوث متاعب جمة. بأي حال من الأحوال، ليس من الآمن إشعال نيران بهذا الحجم في وسط البلدة في الوقت الذي جفت فيه الأنابيب والنوافير من مياهها واقتحم الجفاف المنازل وجعلها قابلة للاشتعال.

قال أنتيوس: «هذا القرار لن يُعجب الكهنة».

كان قبطان بارجة الأميرال قد انضم إلى بليني في مكتبته. وكانت أخت الأميرال الأرملة جوليا، التي تُعنى بتدبير منزله، معه في الغرفة أيضاً حاملة صينية عليها وجبة عشاء تتألف من المحار وقدح من النبيذ.

«قُلْ للكهنة أنه ليس أمامنا أي خيار آخر. أنا واثق أن فولكان في كيره الجبلي سيسامحنا هذه المرة فقط». أخذ بليني يدلك ذراعه بانزعاج إذ شعر أنها خدِرة. «فليُحتجز جميع الرجال، ما عدا خفر الحراسة، في ثكناتهم من بداية فترة الغسق. أود فرض منع تجوال في جميع أرجاء ميسينوم من فترة المساء حتى الفجر. وكل من يتواجد في الشارع فليُزجّ في السجن ويغرّم. مفهوم؟»

«حاضر أيها الأميرال».

«هل فتحنا السدود في الخزان أم لا؟»

«يفترض حدوث ذلك في هذه الأثناء أيها الأميرال».

أخذ بليني يفكر. لا يسعهم السماح بتكرار حدوث مثل هذا اليوم. كل شيء يعتمد على المدة التي ستدوم فيها المياه. ثم حسم أمره. «سأذهب لألقي نظرة».

اقتربت جوليا منه حاملة الصينية والقلق يعتمل في صدرها: «هل هذه خطوة حكيمة يا أخي؟ يجدر بك أن تأكل وترتاح..».

«كفي عن الثرثرة يا امرأة!» تغضن وجهها في الحال، فندم على النبرة التي كلمها بها. إن الحياة أذاقتها ما يكفي من الألم، حيث أذلها زوجها المتبطّل وعشيقته، ثم ترملت حاملة على عاتقها ابناً لتربيه وحدها حمل إليه هذا الأمر فكرة فقال بصوت أكثر لطفاً: «غايوس. أعذريني يا جوليا، فقد تكلمت معك بحدة. سوف أصطحب غايوس معي إذا كان هذا سيسرك».

في طريق خروجه نادى سكرتيره الآخر آلكمان: «ألم تصلنا إشارة من روما بعد؟»

«لا أيها الأميرال».

«الإمبراطور قلق بشأنك...»

لم يعجبه هذا الصمت.

* * *

كان بليني قد بلغ من السمنة حداً جعل المحفّة عاجزة عن تحمله، فآثر التنقل بواسطة العربة التي تتسع لمقعدين. لذا جلس غايوس إلى جانبه، وقد بدا إلى جانب خاله، الأحمر الوجه والسمين، في غاية الوهن والشحوب وكأنه الطيف النذير. ضغط الأميرال على ركبة غايوس بكل محبة، فقد جعله وريثه الشرعي وحباه بأفضل المدرّسين في روما ـ كوينتيليان لتدريس الأدب والتاريخ، والسميرنيّ نيسيتيس ساكيردوس لتدريس علم الخطابة. وكان ذلك يكلفه ثروة ولكن أخبره المدرسان إن الفتى يتمتع بالذكاء، ولكن لن تناسبه حياة الجندية بل ستناسبه حياة المحامين.

سار على جانبي العربة مواكبة مؤلفة من رماة بحريين يعتمرون الخوذات، وراحوا يفسحون المجال للعربة للمرور في الشوارع الضيقة بينما راح بضعة أشخاص يطلقون السخرية، وبصق أحدهم وسأل:

«إذاً ماذا عن مياهنا؟»

«انظر إلى ذاك السمين الحقير! أراهنك أنه لا يشعر بالعطش!»

twitter @baghdad_library

قال غايوس: «هل أُقفلُ الستائر يا خالي؟»

«لا يا فتى. إياك أن تدعهم يلمحون الخوف في عينيك».

كان يدرك أنه سيكون هناك كثير من الأشخاص الغاضبين في الطرقات تلك الليلة، ليس هنا فحسب بل في نيابوليس ونولا وجميع المدن الأخرى وخصوصاً في يوم احتفال عام، فراح يفكر: لعل الطبيعة الأم تعاقبنا بسبب طمعنا وأنانيتنا. إننا نعذبها طيلة الوقت بالحديد والخشب والنار والحجر، ونحفر أرضها ونرميها في البحر. إننا نحفر فيها ممرات للمناجم ونُخرج أحشاءها، وكل هذا من أجل جوهرة نضعها في أصابعنا ونتزين بها. من عساه يلومها إن كانت ترتجف أحياناً نتيجة الغضب؟

مرت العربة من أمام مدخل المرفأ، وكان الناس يقفون هناك مشكلين خطاً طويلاً جداً بانتظار نافورة الشرب. لقد سُمح لكل منهم بجلب إناء واحد فحسب، وقد بدا جلياً لبليني أن ساعة واحدة لن تكفيهم جميعاً للحصول على حصتهم من الماء. كان الذين يقفون في مقدمة الخط قد حصلوا على حصتهم ويهمون بالمغادرة، محتضنين أوانيهم وأوعيتهم وكأنهم يحملون ذهباً. قال بليني: «علينا أن نمدد الليلة مدة التزويد بالماء، ويجدر بنا الوثوق بأن ذاك الساقي الشاب سيتمم التصليحات كما وعد».

«وماذا لو لم يفعل يا خالي؟»

«عند ذلك ستثور ثائرة نصف سكان هذه البلدة غداً».

بمجرد أن مرت العربة عبر الحشود وأصبحت على الطريق المعبّد زادت من سرعتها. قعقعت على الجسر الخشبي، ثم ما لبثت أن عادت لتبطئ من سيرها من جديد لدى صعود التل ناحية البيسينا ميرابيليس. أخذ بليني يرتجّ في العربة من الخلف فشعر وكأنه سيغمى عليه ولعله أُغمي عليه فعلاً غفا لبعض الوقت ثم استفاق على نفسه وهما يدخلان إلى باحة الخزان ويمران على وجوه البحارة الستة المحمرّة. رد على تحيتهم بمثلها ونزل مترنحاً متكئاً على ذراع غايوس، وراح يفكر: في حال نزع الإمبراطور مقاليد السلطة مني سأموت، وكأن

الإمبراطور يأمر أحد حراسه الإمبراطوريين بقطع رأسي. سوف لن أتمكن من تأليف كتاب جديد، وستكون قد نفذت مني قوة الحياة وانتهيت.

«هل أنت على ما يُرام يا خالي؟»

«أنا على خير ما يُرام يا غايوس. شكراً لك».

ثم راح يؤنب نفسه قائلاً: يا لي من رجل غبي! أنا مجرد رجل مسن أخرق سمين لا تبارحه الرجفة! جملة واحدة من بيديوس كاسكوس. اجتماع روتيني واحد للمجلس الإمبراطوري لم أُدعَ إليه وإذ بي أنهار كلياً. أصرَّ على نزول السلالم والتوجّه إلى الخزان دون أية مساعدة. كان الضوء خافتاً فمشى أمامه عبد وهو يحمل مشعلاً لقد مضى سنوات على آخر مرة نزل فيها إلى هذا المكان. حينذاك كانت الأعمدة مغمسة بالمياه بالكامل تقريباً، ولا تسمح قوة تدفق الأوغوستا بتبادل أي حديث. والآن ها هي تُرجع الصدى وكأنها قبر، وبدا حجمها مذهلاً. لقد انخفض منسوب المياه فيها إلى ما دون مستوى قدميه بكثير، لدرجة أنه لم يقدر على تحديدها إلى أن وجّه العبد المشعل فوق سطح المياه وعندها رأى وجهه وهو يحدق بنفسه فوجده متبرماً ومتكسّراً، ولاحظ أن الخزان أيضاً يهتز ببطء كحال النبيذ.

«كم يبلغ عمقه؟»

أجابه العبد: «خمسة عشر قدماً أيها الأميرال».

راح بليني يتأمل في انعكاس صورة وجهه ويتمتم قائلاً: «ليس هناك أروع من هذا الشيء في العالم أجمع».

«ما هو هذا الشيء يا خالي؟»

«عندما نفكر في كمية المياه الوفيرة في المباني العامة والحمامات وأحواض السباحة والقنوات المفتوحة والمنازل الخاصة والحدائق والعزبات الريفية، وعندما نفكر في المسافات التي تقطعها المياه قبل وصولها، وارتفاع الأقواس، والأنفاق الممتدة في الجبال، وبناء القنوات المسطحة عبر الوديان الغائرة،

twitter @baghdad_library

عندها لن نجد بداً من الاعتراف بأنه ليس ثمة شيء أروع من قنوات جر المياه في العالم أجمع. أخشى أنني أقتبس عن نفسي كالعادة». أرجع رأسه إلى الوراء وأضاف: «اسمحوا بتوزيع نصف كمية المياه الليلة، وسنسمح بتوزيع بقية المياه في الصباح».

«وماذا عسانا نفعل بعد ذلك؟»

«ماذا عسانا نفعل يا عزيزي غايوس؟ بعد ذلك ليس بيدنا سوى التأمل بحلول يوم أفضل في الغد».

* * *

في بومبي يفترض إشعال النيران كُرمى لفولكان بمجرد حلول الظلام. وقبل ذلك يفترض إقامة مراسيم الترفيه المعتادة في الساحة العامة، والمفروض أن بوبيديوس هو الذي يدفع تكاليفها، ولكن في الواقع الذي يدفعها هو امبلياتوس. شجار بين الثيران. ثلاثة أزواج من المجالدين المتعاركين وبعض الملاكمين يتقاتلون بأسلوب إغريقي. هي ليست مراسم مبالغ فيها وإنما مجرد ساعة أو ما شابه للترويح عن الناخبين خلال انتظارهم حلول المساء. إنه نوع من الحدث الذي يُتوَقَّع من المحتسب أن يقيمه مقابل الحصول على امتياز نيل الحكم.

قامت كوريليا بادعاء المرض، فاستلقت على سريرها ناظرة إلى خطوط النور التي تشع من بين مصاريع النافذة المغلقة وتزحف ببطء على الحائط خلال مغيب الشمس. راحت تفكر في الحديث الذي سمعته عرضاً، وفي المهندس أتيليوس. كانت قد لاحظت طريقة نظره إليها في ميسينوم البارحة وهذا الصباح أيضاً عندما كانت تسبح. حبيب، منتقم، منقذ، ضحية مأساوية!. تصورته في مخيلتها يلعب هذه الأدوار جميعاً، ولكن ما يلبث الخيال أن يتبدى ويتحول إلى الحقيقة القاسية: حقيقة أنها جلبته إلى مدار والدها والآن بات والدها يخطط لقتله. وستقع مسؤولية موته على عاتقها.

أخذت تستمع إلى أصوات الضيوف وهم يحَضّرون للمغادرة، وسمعت

والدتها تناديها، ثم سمعت وقع خطواتها على الدرج، فعمدت سريعاً إلى البحث عن ريشتها التي خبأتها تحت الوسادة. فتحت فمها ودغدغت بها حلقها من الداخل، فأخذت تتقيأ مُصدِرة صوتاً عالياً، وحينما وصلت سيلسيا راحت تمسح شفتيها ثم أشارت بوهن إلى محتويات القدر.

جلست والدتها على حافة الفراش ووضعت يدها على جبين كوريليا، «آه يا ابنتي المسكينة، حرارتك مرتفعة. علي أن أرسل وراء الطبيب».

«لا، لا تزعجيه». إذ أن زيارة من بامبونيوس ماغونيانوس حاملاً عقاقيره وأدويته توقع أي شخص في المرض: «إن ما أحتاج إليه هو النوم فحسب. فتلك الوجبة الهائلة هي السبب. لقد أفرطتُ في الأكل».

«ولكنك يا عزيزتي لم تأكلي كثيراً».

«هذا غير صحيح. .».

«ششش!» وضعت أمها إصبعاً على فمها محذرة، فقد كان ثمة من يصعد على الدرج، ووقع خطواته ثقيلة، فجهّزت كوريليا نفسها لمواجهةٍ مع والدها. سوف لن يكون خداعه بمثل هذه السهولة. ولكن تبين إن الشخص ليس سوى أخيها مرتدياً ثوبه الأبيض الطويل كونه كاهناً لإيزيس. اشتمت عبق البخور المنبعث منه.

«أسرعي يا كوريليا، إنه ينادينا».

لم يكن هناك داعٍ لأن يذكر اسم الشخص الذي ينادي.

«إنها مريضة».

«حقاً؟ مع ذلك عليها أن تأتي. سوف لن يكون مسروراً».

أخذ أمبلياتوس يجأر من الطابق السفلي، فقفز كل منهما على الفور، وراحا يحدقان ناحية الباب.

twitter @baghdad_library

قالت والدتها: «ألا يسعك أن تبذلي مجهوداً للمجيء معنا يا كوريليا، إكراماً له؟»

فيما مضى كان الثلاثة يشكلون اتحاداً: كانوا يتضاحكون عليه من وراء ظهره. يتضاحكون على حالاته المزاجية وفورات غضبه وهوسه. ولكن في الآونة الأخيرة توقّف هذا الأمر، وانكسر هذا الاتحاد تحت وطأة غضبه الشديد، وتم تبني استراتيجيات فردية للحفاظ على الحياة. راحت كوريليا تراقب والدتها وهي تتحول إلى الزوجة الرومانية المثلى، وقد وضعت مقاماً لليفيا في غرفتها الخاصة لتبديل الملابس، في حين أخذ أخوها يُغرق نفسه في العبادات المصرية. وهي؟ ما الذي عساها تفعله؟ أيفترض بها أن تتزوّج من بوبيديوس وتتخذ سيداً ثانياً؟ أن تصبح عبدة في المنزل أكثر مما كان عليه أمبلياتوس؟

كانت ابنة أبيها، لذا آثرت المقاومة.

قالت كوريليا بمرارة: «أسرعا كلاكما، وخذا قدر القيء وأرياه إياه إن شئتما. ولكني لن أذهب إلى ذاك الحدث السخيف». ثم استدارت على جنبها وباتت مواجهة للجدار. صدرت صرخة أخرى من الطابق السفلي.

تنهدت والدتها تنهيدة الشهيدة التي تشتهر بها «حسناً، سوف أخبره».

* * *

وجد المهندس ما توقّعه بالضبط. فبعد أن قادهم شمالاً باتجاه القمة ولمسافة بضعة أميال، ها هي إمدادات القناة تنحرف فجأة باتجاه الشرق بمجرد أن باتوا على سفح جبل فيسوفيوس وانحرف الطريق معها. وللمرة الأولى باتت ظهورهم مواجهة للبحر ووجوههم ناحية الأرض الداخلية، نحو التل السفحي لأبينينوس.

بات خط إمدادات بومبي يتجه بعيداً عن الطريق ويعانق خط التضاريس ويتخذ طريقاً متعرِّجاً. أحب أتيليوس الدقة التي تتسم بها قنوات جر المياه، فقد كانت الطرقات الرومانية العظيمة مشقوقة وسط الطبيعة بخط مستقيم من دون

أدنى معارضة. أما القنوات التي تنخفض بمقدار عرض إصبع كل مئة ياردة ـ وإن ازداد الانخفاض عن هذا الحد من شأن دفق المياه أن يحطم الجدران، وإن قل عن هذا الحد تركد المياه ـ فإنها مجبرة على التماشي مع تضاريس الأرض. إن أعظم أمجادهم، مثل الجسر المؤلف من ثلاث طبقات في جنوب بلاد الغال وهو الأعلى في العالم ويحمل قناة نيموسوس، توجد في أغلب الأحيان بعيداً عن مرأى الناس. وحدها النسور التي تحلق في الهواء الحار فوق الجبال النائية هي التي تقدّر العظمة الحقيقية لإنجازات الإنسان.

مروا عبر الحقول التابعة للرومان وراحوا يدخلون إلى الريف المزروع بالكرمة والذي يملكه أشخاص أثرياء. إن أكواخ الفقراء المتداعية والموجودة على السهل مع عنزاتهم المقيدة والدجاجات الشعثاء التي تنقر في التربة قد أبرزت بيوت المزارع الجميلة ذات السقوف المرصوفة بالقرميد التي تقع بعدها وتزين منحدرات الجبل السفلى.

أخذ أتيليوس يراقب حقول العنب عن صهوة جواده فشعر بالدهشة لرؤية هذا الكم الكبير من المحصول وهذه الخصوبة المذهلة النامية وسط القحط والجفاف. إنه يعمل في المجال الخطأ. يجدر به التخلي عن المياه والعمل في مجال النبيذ. لقد هربت عرائش الكرمة من الرياعة العادية التي خُصِّصت لها وأخذت تحكم الرباط على كل ما يتوفر لها من جدار أو شجرة وتمتد لتصل إلى أعالي الأغصان الشاهقة، فتلفها بشلالات رائعة من اللون الأخضر والأرجواني. ثمة وجوه بيضاء صغيرة لباخوس مصنوعة من الرخام وُضعت هناك لدرء الشر، ولها أعين وأفواه مخرّمة، وتتدلى دون أي حراك وسط الهواء الساكن وتحدق من بين الأوراق وكأنها مهاجم كامن في مكانه ومستعد للانقضاض. إنه وقت الحصاد لذا فالحقول تضج بالعبيد. عبيد على السلالم الخشبية، وعبيد منحنون إلى الأرض بفعل ثقل سلال العنب التي يحملونها على ظهورهم. فراح يتساءل كيف عساهم يفلحون في قطف كل هذه الكمية من العنب قبل أن يصيبه العفن؟

twitter @baghdad_library

وصلوا إلى فيللا ضخمة تطل من السهل على الخليج فسأله بريبكس إن كان بوسعهم التوقف لأخذ قسط من الراحة.

«حسناً، ولكننا لن نطيل البقاء».

نزل أتيليوس عن ظهر جواده ومدّد رجليه. وعندما مسح جبهته وجد ظاهر كفه قد استحال رمادي اللون نتيجة الغبار، وعندما حاول الشرب وجد شفتيه قد تقرّحتا نتيجة الحر. كان بولايتس قد اشترى بضعة أرغفة من الخبز وبعض النقانق المشبعة بالدهون، فأكل منها بنهم. كم هو مذهل تأثير الطعام القليل الذي ينزل على معدة خاوية! شعر بأنه مع كل لقمة ترتفع معنوياته أكثر. لطالما فضّل أن يكون في مثل هذا المكان. ألا يكون في مدينة قذرة وإنما في الريف حيث تقبع شرايين الحضارة المخفية تحت السماء الصافية. لاحظ أن بريبكس يجلس وحيداً فاقترب منه وكسر له نصف رغيف من الخبز ومد يده وأعطاه إياه إلى جانب بضعة حبات من النقانق. إنه عرض لتوطيد أواصر السلام.

تردد بريبكس ثم هز رأسه، وأخذها منه. كان عارياً حتى منطقة الخصر وتغطي الندوب جسمه المتعرِّق.

«إلى أي فئة من المقاتلين كنت تنتمي؟»

«إحزر».

لقد مضى وقت طويل على آخر مرة ذهب فيها أتيليوس لحضور الألعاب. قال أخيراً: «لست مجالِداً بشبكة، فأنا لا أتخيلك ترقص في الأرجاء حاملاً شبكة ورمحاً ذا ثلاث شعب».

«أنت محق بهذا الشأن».

«إذاً كنت مقاتلاً تراقياً يحمل ترساً صغيراً وسيفاً قصيراً ومتقوّساً. أو مقاتلاً مسلحاً (مرميلو) على غرار فرد من كتيبة المشاة، حاملاً سيفاً وترساً مستطيلاً كبيراً». لقد بدت عضلات ذراع بريبكس اليسرى، أي الذراع التي كان يحمل

فيها الترس على الأرجح، منتفخة تماماً كحال عضلات ذراعه اليمنى: «أنا أرى أنك كنت مقاتل (مرميلو)». فهز بريبكس برأسه موافقاً. «في كم قتال شاركت؟»

«ثلاثون».

أثار جوابه انطباع أتيليوس، فقلة هم الرجال الذي ينجون من ثلاثين قتالاً وقد حصل ذلك على امتداد ثماني أو عشر سنوات من الظهور على أرض المجتلد. «في أي فريق كنت تشارك؟»

«في فريق أليوس نيغيديوس. لقد قاتلت في جميع المدن الممتدة على الخليج. وفي أغلب الأحيان في بومبي ونوسيريا ونولا. وبعد أن كسبت حريتي توجهت إلى أمبلياتوس».

«لماذا لم تتحول إلى مدرب؟»

قال بريبكس بصوت خافت: «لقد رأيت ما يكفي من القتل أيها الساقي. أشكرك على الخبز». نهض على رجليه برشاقة وتوجه للانضمام إلى الآخرين. لِمَ ليس من الصعب بتاتاً تخيله على غبرة المدرج. أمكن لأتيليوس تخمين الخطأ الذي وقع فيه أخصامه. لعلهم حسبوه بطيئاً وثقيل الهمة وأخرق، ولكنه على العكس كان سريع الهمة بقدر الهرة.

شرب المهندس مرة أخرى. كان يرسل بنظره عبر الخليج إلى الجزر الصخرية المحاذية لميسينوم ـ بروكيدا الصغيرة وجبل أناريا العالي ـ وللمرة الأولى لاحظ أن ثمة موجة في المياه. ظهرت رقطات من الزبد الأبيض بين السفن الصغيرة التي كانت منتشرة مثل البرادة وسط البحر الساطع المتلألأ. ولكن لم تكن أي من السفن ترفع شراعاً. ورأى غرابة في هذا الأمر ولكنه كان أمراً واقعاً: لم يكن ثمة رياح. ثمة أمواج ولكن من دون رياح.

إنها خدعة جديدة من خدع الطبيعة يتحتّم على الأميرال التفكُّر فيها.

كانت الشمس قد بدأت لتوها تغيب وراء جبل فيسوفيوس. وكان هناك نسر أسود صغير وقوي، يُعرف عنه عدم إصدار أي صوت، يحلّق ويدور في أجواء

twitter @baghdad_library

الغابة الكثيفة بصمت. قريباً ستغيب الشمس وقد وجد في هذا الأمر نقطة حسنة وسيئة في آن: حسنة لأن الطقس سيصبح أكثر برودة، وسيئة لأن هذا يعني إنه لم يعد هناك الكثير من الوقت الذي يفصلهم عن المساء.

أنهى شرب الماء ونادى الرجال كي يتابعوا المسير.

* * *

كان الصمت يلف أيضاً المنزل الكبير.

لطالما كانت كوريليا توقن أنّ والدها قد غادر المنزل، حيث يبدو لها وكأن المنزل برمته يتنفس الصعداء. ألقت عباءتها فوق كتفيها وقرّبت أذنها من المصاريع قبل أن تفتحها لتنصت إن كان ثمة أي تحرك كانت غرفتها تقع مقابل الجهة الغربية، وعلى الجهة الأخرى من الباحة وجدتْ السماء حمراء بقدر سقف التراكوتا، وكانت الظلال تخيّم على الحديقة الواقعة تحت شرفتها. ثمة بطانية كانت لا تزال ملقية فوق المطير، فأزاحتها عنها لتمد العصافير ببعض الهواء، ثم فجأة وكأنه لم يخطر هذا الأمر على بالها قبل هذه اللحظة قامت بفتح قفل القفص وفتحت الباب الموجود على جانبه، ثم عادت إلى غرفتها.

يصعب كسر عادات الأسر. أخذ عصافير الحسون بعض الوقت حتى استوعبت الفرصة المتاحة أمامها للهرب. وأخيراً نزل عصفور منها، وهو الأشجع بينها، عن مجثمه وقفز ووقف عند أسفل إطار الباب. التفت برأسه المغطى باللون الأحمر والأسود ناحيتها ثم غمز بعين واحدة صغيرة وفاتحة اللون ثم طار في الهواء، وأخذ يرفرف بجناحيه. كان ثمة وميض ذهبي في الظلام. طار العصفور في الحديقة وحط على آجر السقف في الجهة المقابلة. وتوجه عصفور آخر ناحية الباب وطار، ثم طار آخر. كانت تود البقاء ومراقبة جميع العصافير وهي تهرب ولكنها عوضاً عن ذلك عمدت إلى إغلاق المصاريع.

كانت قد طلبت من خادمتها مرافقة بقية الخدم إلى الساحة العامة، فبات الممر خارج غرفتها مهجوراً، كحال السلالم، وكحال الحديقة التي أجرى فيها

والدها الحديث الذي حسبه سرياً. عبرت الحديقة بسرعة مؤثرة البقاء قريبة من الأعمدة في حال وقع في طريقها أحد ما. عبرتها ووصلت إلى الصالة الرئيسية في منزلهم القديم واتجهت ناحية غرفة المكتب حيث لا يزال والدها يتمم أعماله، إذ ينهض ليحيي زبائنه فجراً، ويلتقي بهم بشكل فردي أو جماعي إلى أن تفتح المحاكم أبوابها، وحينذاك يتوجه إلى الطريق ويتبعه حشد المتسولين المعتاد. إن ما يعتبر رمزاً لسلطة أمبلياتوس هو احتواء الغرفة على ثلاثة صناديق متينة، ولا صندوقاً واحداً كما هو معتاد، وجميعها مصنوعة من الخشب الثقيل المزخرف بالنحاس ومثبتة بالأرض بواسطة قضبان حديدية.

كانت كوريليا على علم بمكان المفتاح لأنه في الأيام السابقة الأكثر سعادة ـ أو لأنها كانت مجرد طريقة لإقناع شركائه بمدى الروعة التي كان عليها ـ كان يُسمح لها بالزحف عند قدميه والجلوس هناك وهو يعمل. فتحت جارور المكتب الصغير وهناك وجدت المفتاح.

كانت الوثائق موجودة في الصندوق الصلب الثاني. لم تكلِّف كوريليا نفسها عناء فك لفافات البردي الصغيرة وإنما اكتفت بأن بدستها بكل بساطة داخل جيوب عباءتها ثم أقفلت الصندوق وأعادت المفتاح إلى مكانه. وبذلك يكون قد انتهى الجزء الأخطر في هذه العملية، فسمحت لنفسها بأن ترتاح قليلاً. كانت قد جهزت قصة ترويها في حال تم الإمساك بها ـ أنها باتت أفضل حالاً الآن وقررت الانضمام إلى الآخرين في الساحة العامة ـ ولكن لم يكن ثمة أحد في الأرجاء. عبرت الباحة ثم نزلت على السلالم ومرت بمحاذاة حوض السباحة ذي النافورة التي تتدفق مياهها ببطء ثم وصلت إلى غرفة الطعام حيث تحملت مشقات تلك الوجبة الفظيعة ثم انعطفت بسرعة حول الأعمدة واتجهت ناحية غرفة الرسم المطلية باللون الأحمر والتي تعود إلى آل بوبيديوس. قريباً ستصبح سيدة هذا المنزل برمته: يا لها من فكرة مخيفة.

كان ثمة عبد يشعل شمعداناً نحاسياً ولكنه تراجع ناحية الحائط بكل احترام سامحاً لها بالمرور. مرت عبر ستارة ثم نزلت على بئر سلم آخر ولكنه أضيق. وفجأة باتت في عالم آخر، سقوف منخفضة وجدران خشنة ورائحة عرق: إنها

twitter @baghdad_library

مقرات إقامة العبيد. كانت تسمع بضعة رجال يتحدثون في مكان ما إضافة إلى رنين أوان حديدية ثم سمعت صهيل حصان فارتاحت جداً.

تقع الاصطبلات في آخر الرواق وقد وجدت ما توقعته بالضبط: كان والدها قد نقل ضيوفه بواسطة المحفة إلى الساحة العامة تاركاً وراءه جميع الأحصنة. مسّدت أنف الفرس المفضّلة لديها، فرس كُميت، وهمست لها. إن تثبيت السرج على الفرس هي مهمة العبيد ولكنها راقبتهم مدة كافية جعلتها تتقن كيفية القيام بذلك. وحينما شدت على بطن الفرس عدّتها، تحركت من مكانها بعض الشيء وارتطمت بالمربط الخشبي. حبست كوريليا أنفساها ولكن لم يأتِ أحد على وقع الصوت.

همست من جديد: «على رسلك يا فتاة. هذه أنا فحسب. لا بأس».

يطل باب الاصطبل على الطريق الجانبي مباشرة. بدا لها كل صوت تسمعه عالياً، قرع اللوح الحديدي حينما رفعته، صرير المفاصل، قعقعة حوافر الفرس وهي تخرجها إلى الطريق. كان ثمة رجل يمشي بسرعة على الرصيف المقابل، التفت ونظر إليها ولكنه لم يتوقف، كان متأخراً على ما يبدو وهو في طريقه إلى الاحتفال. صدرت من اتجاه الساحة العامة أصوات موسيقى ثم زئير خافت أشبه بتكسّر موجة.

رفعت نفسها على ظهر الفرس. لن تجلس هذه الليلة بطريقة أنثوية مرتبة، بل فتحت رجليها وجلست منفرجة الساقين نظير الرجل، فغمرها الإحساس بالحرية اللامتناهية. هذا الشارع ـ هذا الشارع العادي جداً بمتاجر الإسكافيين ومصففي الشعر والذي مشت عليه عدة مرات ـ بات طرف العالم بالنسبة إليها. لقد أدركت أنها في حال ترددت مدة أطول سيتغلب عليها الشعور بالذعر، فثبّتت ركبتيها على جانبي الفرس وشدت لجام الفرس يساراً متوجهة بعيداً عن الساحة العامة، ثم عادت وانعطفت يميناً عند أول تقاطع طرق. ظلت تسير في الطرقات الخلفية الفارغة وعندما وجدت نفسها قد باتت على مسافة بعيدة عن المنزل

بحيث ليس بالإمكان اللقاء بأي شخص تعرفه توجهت إلى الطريق العام. صدرت موجة تصفيق أخرى من الساحة العامة.

توجّهت صعوداً على التل، ومرت بمحاذاة الحمامات المهجورة التي كان والدها يبنيها، ثم عبرت القلعة المائية ومرت من تحت قوس بوابة المدينة. خفّضت رأسها حينما مرت بمحاذاة مركز الجمارك وجذبت قلنسوة عباءتها نزولاً، ثم باتت خارج بومبي وعلى الطريق المؤدي إلى فيسوفيوس.

twitter @baghdad_library

فيسبيرا

الساعة: ٢٠:٠٠

إن وصول الصّهارة إلى مشارف السطح يضخم الخزان وينفخ السطح...

موسوعة البراكين

وصل أتيليوس وفريقه إلى شبكة أنابيب قناة الأوغوستا مع أفول النهار. في البداية كان المهندس يراقب الشمس وهي تختفي وراء الجبل الكبير مظلِّلة إياه مقابل السماء الحمراء فبدت الأشجار وكأنها تشتعل، ثم ما لبثت الشمس أن اختفت. راح ينظر إلى الأمام فرأى شيئاً منتشراً على السهل الذي أخذت تسوِّده الظلمة وبدا له أشبه بأكوام من الرمل الأبيض الوامض. نظر إليها شزراً ثم نخس حصانه وهرع إلى الأمام متقدماً العربتين.

كان ثمة أربعة أهرامات من الحصى مجمّعة حول جدار من الآجر مدور ولا سقف له يصل ارتفاعه إلى حدود خصر المرء. إنها بركة ترسيب. أدرك أنه سيجد على الأقل اثنتي عشرة بركة منها على امتداد خط الأوغوستا، حيث أوصى فيتروفيوس بحفر واحدة كل ثلاثة أو أربعة أميال. إنها أماكن يتم فيها عن عمد تبطيء جريان المياه من أجل تجميع ملوثات المياه عبر ترسيبها في القعر.

وجب كل بضعة أسابيع استخراج كميات من الحصى الصغيرة، التي باتت مدورة وناعمة نتيجة انجرافها داخل أنابيب جر المياه، وتكويمها بجانب القناة ثم نقلها بالعربات ورميها للتخلص منها أو استخدامها لرصف الطرقات.

لطالما كانت بركة الترسيب المكان المفضل لمد خط فرعي منها. نزل

twitter @baghdad_library

أتيليوس عن ظهر جواده وتوجه مباشرة ناحية البركة، فوجد أنه فعلاً تم مد خط منها. كانت الأرض تحت قدميه إسفنجية، والنباتات أكثر اخضراراً ولمعاناً، والتربة مشبعة بالمياه. وكانت المياه تفور من كل نقطة من الغطاء الخارجي للبركة غاسلة الآجر بطبقة مياه شفافة وامضة. توجد فتحة الدخول الأخيرة إلى قناة بومبي أمام الجدار مباشرة.

أسند يديه إلى شفة الفتحة وأخذ ينظر إلى جانبها، وقدّر أن عرض البركة يبلغ عشرين قدماً ويصل عمقها إلى خمس عشرة قدماً على أقل تقدير. ومع غياب الشمس بدا صعباً التمكن من رؤية الأرض المفروشة بالحصى ولكنه أدرك أنه لا بد أن هناك ثلاث فتحات للنفق في الأسفل ـ واحدة تتدفق منها الأوغوستا، وواحدة تخرج منها مياه الأوغوستا، والثالثة تربط بومبي بشبكة الإمدادات. أخذت المياه تسيل بين أصابعه، ثم راح يتساءل عن الوقت الذي أقفل فيه كورفينوس وبيكو السدود في أبيلينوم. فمع بعض الحظ يجب أن يخف تدفق المياه في القريب العاجل

سمع وراءه وقع أقدام تخوض في الوحل. كان بريبكس وبضعة رجال آخرين يتقدمون ناحيته من عند العربتين.

«إذاً هذا هو المكان المنشود أيها الساقي؟»

«لا يا بريبكس، لم نصل إليه بعد. ولكنه لم يعد بعيداً. هل ترى هذا؟ الطريقة التي تفور فيها المياه من الأسفل؟ يعود السبب في ذلك إلى ان الخط الأساسي مسدود في مكان ما». مسح يديه بقميصه وأضاف: «يجدر بنا متابعة السير من جديد».

لم يلقَ قراره هذا ترحيباً وقد ازداد امتعاضهم عندما اكتشفوا أن العربتين قد غرقتا في الوحل حتى حدود محور العجلات، فاندلعت بينهم موجة من السباب، وقد استلزمهم الأمر بذل كامل طاقتهم للتمكن من رفع العربتين إلى أرض أكثر صلابة حيث دفعوا بأكتافهم وظهورهم العربة الأولى ثم الثانية. قام ستة من الرجال بالتمدّد على الأرض رافضين التزحزح مما اضطر أتيليوس إلى

التوجّه إليهم ومد اليد لهم حتى نهضوا على أقدامهم. كانوا متعبين وجائعين ومتخوفين لإيمانهم بالخرافات، فبدا الحال أسوأ من قيادة فريق من البغال الثائرة.

عقد لجام حصانه خلف إحدى العربتين وعندما سأله بريبكس عما يفعله قال له: «سوف أسير معكم». حمل رسن أقرب ثور وأخذ يجره إلى الأمام، فتكررت القصة نفسها التي حدثت لدى مغادرتهم بومبي. إذ في البداية رفضوا التحرك ولكنهم ما لبثوا أن تبعوه بامتعاض، فراح يدور في خلده أن التبعية من طبيعة الرجال، وأيّاً كان الذي يمتلك الحس الأقوى بالقيادة يسيطر دوماً على البقية. وقد كان أمبلياتوس يفقه هذا الأمر أكثر من أي شخص يعرفه أتيليوس.

راحوا يقطعون سهلاً ضيقاً بين أراض مرتفعة حيث يقع فيسوفيوس على يسارهم وجروف أبينينوس الشاهقة على يمينهم. ومن جديد افترق الطريق عن خط القناة وباتوا يتبعون مساراً حيث يسيرون بتثاقل بمحاذاة الأوغوستا ـ حجر موسوم بعلامة، فتحة دخول، حجر موسوم بعلامة، فتحة دخول، وهلم جرّا ـ ثم عبروا بساتين قديمة مزروعة بالزيتون والليمون في الوقت الذي تجمعت فيه برك من العتمة تحت الأشجار. لم يكن يُسمع الكثير بسبب قعقعة العجلات العالية ما عدا أصوات أجراس الماعز التي تنبعث بين الفينة والأخرى من وسط الظلام.

ظل أتيليوس يشخص ببصره إلى الأمام نحو خط القناة. كانت المياه تفور من أطراف بعض فتحات الدخول وهذا لا ينذر إلا بالسوء. إذ يبلغ ارتفاع نفق القناة ستة أقدام، وإذا كانت المياه تتمتع بقوة كافية لإزاحة أغطية التفحص فلا بد أن الضغط هائل، والذي بدوره يشير إلى أن الانسداد في خط القناة لا بد أن يكون هائلاً بالقدر نفسه وإلا انجرف. أين هما كوراكس وموسى؟

صدر من ناحية فيسوفيوس صوت تحطم قوي أشبه بقصف الرعد. هدر الصوت من ناحيتهم ثم هدر صداه على الواجهة الصخرية لأبينينوس مخلفاً دوياً كبيراً. أخذت الأرض تهتز فجفلت الثيران مبتعدة بشكل فطري عن جهة صدور

twitter @baghdad_library

الصوت فجرّته معها. غرس عقب قدميه في الأرض مثبتاً وقفته وحينما كان على وشك إيقاف الثيران زعق أحد الرجال وأشار بيده: «العمالقة!» بدا وكأن مخلوقات بيضاء ضخمة تنبعث كالشبح من تحت الأرض أمامهم وسط الغروب وكأن سقف حادس(مثوى الأموات) قد انفلق وأخذت أرواح الأموات تتطاير نحو السماء. حتى أتيليوس أحس بأن الشعر على مؤخر عنقه قد انتصب، ثم ما لبث في النهاية أن ضحك بريبكس الواقف خلف الجميع وقال: «إنها مجرد طيور أيها الأغبياء! أنظروا!»

حلّقت طيور النحام الضخمة بأعداد كبيرة تصل إلى المئات وكأنها شرشف أبيض كبير ثم غطت وغابت عن النظر من جديد. أخذ أتيليوس يفكر: إنها طيور النحام. طيور مائية.

ثم رأى على مسافة بعيدة رجلين يلوحان بأيديهما.

* * *

لو أن نيرون نفسه أمضى سنة في العمل ما كان ليصل إلى حد تمني الحصول على بحيرة اصطناعية أفضل من تلك التي شكّلتها الأوغوستا خلال يوم ونصف فقط. لقد امتلأ تجويف ضحل إلى جهة الشمال من القناة بالمياه لعمق ثلاثة أو أربعة أقدام. كان السطح مضيئاً بعض الشيء وسط الغسق وقد تكسّر في بضعة أمكنة بفعل الجزر المتكتلة التي تشكلت من أوراق أشجار الزيتون الداكنة وأخذت الطيور السابحة تتنقل فيما بينها، فيما شكلت طيور النحام صفاً على الحافة البعيدة.

لم ينتظر الرجال في فريق عمل أتيليوس لأخذ الإذن منه، إذ خلعوا قمصانهم وركضوا عراة باتجاه البحيرة، فبدوا بأجسامهم المسفوعة بفعل حرارة الشمس، وأردافهم البيضاء، وطريقة رقصهم، أشبه بقطيع من الظباء التي تتوجه لشرب الماء والاستحمام عند المساء. أخذت قطرات الماء التي ترششت من البحيرة تتناثر فوصلت على حيث يقف أتيليوس مع موسى وكورفينوس. لم يعمد إلى محاولة إيقافهم، فتركهم يستمتعون باللعب بالماء طالما تسنّى لهم ذلك.

وعدا عن ذلك كان أمامه لغز اكتشفه لتوه ويجدر به الانشغال به. كان كوراكس مفقوداً.

وفقاً لموسى، اكتشف هو والمراقب مكان البحيرة بعد أقل من ساعتين من مغادرتهما بومبي ـ لا بد أن هذا حصل عند وقت الظهيرة ـ وحصل الأمر تماماً كما توقع له أتيليوس: كيف يمكن لأي شخص ألا يرى دفقاً من المياه بهذا الحجم؟ بعد تفحص وجيز للأضرار عاد كوراكس وركب على ظهر جواده ورجع إلى بومبي لنقل تقرير حول حجم المشكلة كما تم الاتفاق معه.

حرك أتيليوس فكه إشارة إلى غضبه. «ولكن لا بد أن هذا حصل منذ سبع أو ثماني ساعات». «هيا يا موسى. ما الذي حدث فعلاً؟»

«أنا أخبرك الحقيقة أيها الساقي. أقسم لك!» كانت عينا موسى مفتوحتين بشكل واسع مما يشير إلى أنه صادق: «حسبته سيعود معك. لا بد أن شيئاً ما قد حصل له».

أشعل موسى وكورفينوس ناراً بالقرب من فتحة الدخول ليس لتدفئة نفسيهما، فالهواء لا يزال حاراً، ولكن لدرء الشر. كان الخشب الذي وجداه جافاً فهبت فيه النار بشكل قوي مضيئة المكان وسط الظلمة وناثرة نوافير من الشرارات الحمراء التي أخذت تتصاعد مع الدخان، وامتزجت حشرات عث كبيرة مع رقائق الرماد.

«لعلنا أضعناه على الطريق في مكان ما».

التفت أتيليوس إلى خلفه وحدّق في الظلمة التي راحت تزداد تدريجياً في المكان. ولكن بالرغم من قوله هذا الكلام إلا أنه أدرك أنه لا يمكن أن يكون صحيحاً. وبأية حال من الأحوال، لا بد لرجل يمتطي جواده، حتى لو سلك طريقاً آخر، أن يكون قد تسنى له الوقت للوصول إلى بومبي واكتشاف أنهم غادروا واللحاق بهم: «هذا الكلام غير مقبول. وقد أوضحت جيداً أنه يتحتم عليك أنتَ نقل الرسالة لنا وليس كوراكس».

«صحيح».

twitter @baghdad_library

«إذاً؟»

«لقد أصر على الذهاب وإيجادك».

خطر لأتيليوس أن كوراكس قد هرب. لا بد أن هذا هو التفسير الأكثر احتمالاً. لقد هرب هو وصديقه إكزومنيوس سوياً.

قال موسى وهو يتلفّت في الأرجاء: «دعني أصارحك القول، إن هذا المكان يا ماركوس أتيليوس يخيفني. هل سمعت ذاك الصوت الذي صدر منذ قليل؟»

«بالطبع سمعناه. لا بد أن هذا الصوت وصل إلى نيابوليس».

«وانتظر حتى ترى ما الذي حصل لقناة جر المياه».

توجه أتيليوس صوب إحدى العربتين وأخذ منها مشعلاً ودسه وسط اللهب فاشتعل على الفور. اجتمع الثلاثة حول الفتحة الموجودة في الأرض ومن جديد اشتم رائحة الكبريت التي تنبعث وسط الظلمة. قال لموسى: «إجلب لي حبلاً إنه موجود مع المعدات». حدّق في كورفينوس: «وكيف سارت الأمور معك؟ هل أقفلت السدود؟»

«نعم أيها الساقي. اضطررنا إلى الدخول في جدال مع الكاهن ولكن أفلح بيكو في إقناعه».

«متى أقفلتها؟»

«الساعة السابعة».

دلّك أتيليوس صدغيه محاولاً استيعاب الأمر. سيبدأ مستوى المياه الفائضة في النفق بالانحسار بعد بضع ساعات. ولكن ما لم يرسل كورفينوس ليعود إلى أبيلينوم في الحال، سيتّبع بيكو تعليماته وينتظر اثنتي عشرة ساعة ثم يعيد فتح السدود خلال الجزء السادس من الليل. الوقت ضيق جداً لن يفلحوا بذلك.

عندما عاد موسى أعطاه أتيليوس المشعل، وربط أحد طرفي الحبل على خصره وجلس على حافة فتحة الدخول. وتمتم قائلاً: «ثيسيوس في المتاهة».

«ماذا؟»

«لا عليك. تكرّم علي فحسب بعدم إفلات الطرف الثاني من الحبل».

أخذ أتيليوس يفكر بأن عليه قطع ثلاثة أقدام من الطبقة الترابية ثم قدمين من البناء ثم ستة أقدام من الفراغ من أعلى سقف النفق حتى أرضه. ويبلغ الإرتفاع الإجمالي أحد عشر قدماً إذاً يستحسن بي أن أحط جيداً. استدار وأنزل نفسه داخل الفتحة العمودية الضيقة وهو يقبض بأصابعه بإحكام على شفة الفتحة وظل معلقاً هناك للحظات. كم مرة سبق له أن قام بهذا الأمر؟ مع ذلك لطالما أحس بالوجل طيلة أكثر من عقد من الزمن لدى النزول إلى ما تحت الأرض. كان هذا مصدر خوفه السري ولم يعترف به إلى أحد حتى والده. أغمض عينيه وترك نفسه ينزل ثم طوى ركبتيه حينما حط على الأرض ليمتص الصدمة. جلس القرفصاء هناك لفترة مستعيداً توازنه وقد امتلأ أنفه برائحة الكبريت القذرة، ثم أخذ يتلمس المكان بيديه. يبلغ عرض النفق ثلاثة أقدام فحسب. تلمّس بأصابعه إسمنتاً جافاً، وعندما فتح عينيه وجد الظلمة تلف المكان وكأنه لا يزال مغمض العينين. وقف ورجع إلى الوراء خطوة واحدة ثم رفع رأسه ونادى موسى: «إرمِ لي المشعل».

حينما سقط المشعل أخذت ناره تنطفئ ولبرهة خشي من أن تكون انطفأت كلياً ولكن عندما انحنى ليحمل المقبض عادت واشتعلت من جديد منيرة الجدران. كان الجزء السفلي من الجدران مغطى بقشرة من الكلس الذي ترسب من المياه على مر السنين، وبدا سطح الجدران الخشنة والمنتفخة أشبه بجدران كهف أكثر من أن يكون بناءً من صنيعة إنسان، فأخذ يفكر: كيف استعادت الطبيعة بسرعة ما تخلت عنه، حيث تحطم الآجر نتيجة المطر والجليد، ودُفنت الطرقات تحت أكوام من الحشائش الخضراء، وسُدَّت قنوات جر المياه بفعل المياه نفسها التي بُنيت لجرها. إن الحضارة ليست إلا حرباً شعواء مقدّر للإنسان

twitter @baghdad_library

أن يخسرها في النهاية. نقر على الكلس بظفر إبهامه فوجده نموذجاً آخر لتكاسل إكزومنيوس. كان الكلس بقدر سماكة إبهامه تقريباً، ويفترض أن يتم كشحه كل بضع سنوات. ولكن لم تجر أية أعمال صيانة في هذا المكان لمدة عقد من الزمن على الأقل.

تلفّت باستغراب في أرجاء المكان المغلق حاملاً المشعل أمامه، ثم أمعن النظر وسط الظلمة إلى أقصى الدرجات، ولكنه عجز عن رؤية أي شيء، فبدأ يمشي ويعد الخطوات وعندما وصل إلى ثماني عشرة خطوة أطلق تمتمة مشيراً فيها إلى تفاجئه. لم يكن النفق مسدوداً بالكامل فحسب كما توقّع، بل بدا وكأن الأرض قد ارتفعت إلى الأعلى حيث دفعتها من الأسفل قوة ما لا تُقاوم. فالقاعدة الإسمنتية السميكة التي يقبع عليها الأنبوب قُصِمت وانحرف جزء منها ناحية السقف. سمع موسى ينادي بصوت مكتوم من خلفه: «هل رأيته؟».

«نعم رأيته».

لقد ضاق النفق إلى حد كبير مما اضطره إلى النزول على ركبتيه والزحف إلى الأمام، وبعج الكسر الذي حلّ بالقاعدة الجدران وهدم السقف. وراحت المياه تسيل من كومة مضغوطة من الآجر والتراب وكتل من الإسمنت. حفها بيده الأخرى ولكن رائحة الكبريت كانت الأقوى في هذه البقعة بالتحديد وبدأت نيران مشعله تخفت، فتراجع بسرعة عائداً إلى عمود الفتحة. وعندما نظر إلى الأعلى رأى وجهيْ موسى وكورفينوس تؤطرهما سماء المساء، فأسند مشعله على جدار النفق.

«أمسك الحبل بسرعة. سوف أصعد» ثم فكّه عن خصره وجذبه بقوة. وعند ذلك اختفى وجها الرجلين. «هل أنت جاهز؟»

«أجل».

حاول ألا يفكر فيما يمكن أن يحدث إذا تركاه يسقط. تشبّث بالحبل بيده اليمنى ورفع نفسه ثم أمسكه بيده اليسرى ورفع نفسه من جديد، فأخذ الحبل يتأرجح بقوة. أوصل رأسه وكتفيه إلى فتحة عمود الفحص ولبرهة ظنّ أن قوته

ستخذله، ولكن بعد رفعة أخرى من يديه أوصل ركبتيه إلى الفتحة وأفلح في حشر ظهره مقابل جنبها. قرر أنه من الأسهل ترك الحبل ورفع نفسه بنفسه دافعاً جسمه إلى الأعلى بواسطة ركبتيه ثم بواسطة ظهره إلى أن باتت ذراعاه فوق جانب الفتحة، وتمكن من قذف نفسه في هواء الليل المنعش.

استلقى على الأرض مستعيداً القدرة على التنفس، وراح كورفينوس وموسى يراقبانه بينما كان البدر يزين السماء. قال موسى: «إذاً؟ ماذا وجدت؟»

هز المهندس برأسه وقال: «لم أصادف في حياتي مثل هذه الحالة. لقد رأيت سقوفاً تنهار وأراضي تنجرف على جوانب الجبال. ولكن هذا!. إنه يبدو وكأن قسماً كاملاً من الأرض تحرك إلى الأعلىَ، وهذا أمر لم أعهده من قبل».

«لقد قال كوراكس الأمر عينه».

نهض أتيليوس على رجليه وأخذ يحدق نزولاً إلى الفتحة حيث كان مشعله لا يزال مشتعلاً على أرض النفق. قال بمرارة: «هذه الأرض تبدو صلبة جداً ولكن لم تعد أقوى من المياه». ثم راح يمشي ويعد خطواته بمحاذاة خط الأوغوستا. عدّ ثماني عشرة خطوة ثم توقف. والآن بعد أن تفحص الأرض عن كثب، وجد أنها منتفخة بعض الشيء، فحفر علامة بطرف قدمه وأخذ يمشي من جديد ويواصل العد. لم يبدُ القسم المنتفخ عريضاً جداً، ربما يبلغ عرضه ستة أو ثمانية ياردات، إذ يصعب التحديد بدقة فحفر علامة أخرى. على يساره كان رجال أمبلياتوس لا يزالون يلعبون في البحيرة.

اختبر طفرة تفاؤل مفاجئة. في الواقع لم يكن ذلك الانسداد كبيراً جداً، وكلما أمعن في التفكير فيه بدا له أن الاحتمال أقل بأن يكون قد حصل نتيجة زلزال ما، علماً بأن الزلزال بوسعه بكل سهولة تهديم السقف فوق قسم بأكمله ـ وعندها ستكون كارثة فعلية ـ ولكن الحالة هنا محدودة أكثر: وكأن الأرض ولسبب غريب ارتفعت ياردًا أو ياردين على امتداد خط ضيق.

استدار حول نفسه. أجل بات بوسعه رؤيتها الآن. لقد ارتفعت الأرض. لقد تم سد خط القناة. وفي الوقت عينه عمد الضغط الناتج عن

twitter @baghdad_library

الحركة إلى فتح صدع في جدار القناة فنفذت المياه إلى التجويف وشكلت بحيرة. ولكن إن أمكنهم فتح الانسداد وترك الأوغوستا تجف...

قرر في تلك اللحظة أنه لن يطلب من كورفينوس العودة إلى أبيلينوم فسوف يحاول تصليح الأوغوستا خلال الليل. سيعمد إلى مواجهة المستحيل: إنها الطريقة الرومانية! وضع يديه حول فمه ونادى الرجال: «حسناً يا سادة لقد أقفلت الحمامات أبوابها! هيا بنا إلى العمل!»

* * *

لم يكن مألوفاً أن تسافر النساء بمفردهن على الطرقات العامة في كامبانيا. وحينما مرت كوريليا أمام الفلاحين الذين كانوا يعملون في الحقول الضيقة والجافة أخذوا يلتفتون ويحدقون بها. حتى زوجة مزارع تتمتع ببنية قوية وعريضة المنكبين ومسلّحة بمجرفة متينة كانت ستتردّد في المغامرة والخروج وقت مغيب الشمس. فما بالك بشابة يبدو عليها الثراء وتمتطي فرساً جميلة؟ أَوَليست بصيد ثمين؟ خرج بعض الرجال مرتين إلى الطريق وحاولوا سد الطريق عليها أو الإمساك بلجام الفرس، ولكنها في كل مرة كانت تدفع بالفرس إلى الإسراع وبعد بضع مئات من الأميال يكفون عن محاولة اللحاق بها.

كانت تعرف الطريق الذي اتبعه الساقي من خلال استراقها السمع عصر ذاك اليوم. ولكن ما بدا لها مجرد رحلة بسيطة في الحديقة التي تضيئها الشمس ـ أي اتباع مجرى قناة بومبي إلى النقطة التي يلتقي فيها مع الأوغوستا ـ تبين أنها مهمة شاقة لدى محاولة تنفيذها وقت الغروب. وحينما وصلت إلى حقول العنب على التلالِ السفحية لفيسوفيوس تمنت لو أنها لم تأتِ. لقد صح ما قاله والدها عنها من أنها عنيدة وغير مطيعة وغبية وأنها تتصرف أولاً ثم تفكّر. كانت هذه التهم المألوفة التي وجهها إليها في الليلة الفائتة في ميسينوم بعدما قضى العبد نحبه في الوقت الذي كانوا يتجهّزون فيها للعودة إلى بومبي. ولكن قد فات الأوان للعودة الآن.

في ذلك الوقت انتهى العمل في الحقول، فرأت طوابير العبيد الصامتين

والمنهكين والمكبّلين سوياً من كواحلهم يسيرون بتثاقل بجانب الطريق عند الغروب. لم يكن يُسمع سوى رنين سلاسلهم جراء ارتطامها بالصخر وصوت ضربات سوط المراقب التي ينزلها على ظهورهم. كانت قد سمعت عن هؤلاء المساكين الذين يتم حشرهم في غرف السجون التابعة لمزارع كبيرة ودفعهم إلى العمل حتى الموت طيلة سنة أو اثنتين، ولكنها لم ترهم بأم العين قط. في بعض الأحيان يفلح عبد من بينهم بإيجاد القوة اللازمة لرفع عينيه عن التراب والنظر في عينيها. لقد بدا الأمر أشبه بالتحديق في جهنم عبر فتحة.

ومع ذلك رفضت الاستسلام حتى برغم خلو الشارع من الناس نتيجة هبوط الليل وبعدما ازدادت صعوبة اتباع خط القناة. واضمحل تدريجياً منظر الفيللات المترامية على منحدرات الجبل السفلى والتي كانت تبعث فيها على الإطمئنان، وحل محله نقاط متفرقة من أنوار المشاعل والقناديل التي أخذت تومض وسط الظلمة. خفّفت فرسها من سرعتها وباتت تسير ببطء، وأخذت كوريليا تتأرجح على السرج مع تهادي الفرس في مشيتها.

كان الطقس حاراً والعطش أخذ منها مأخذه. فقد نسيت أن تجلب معها مياهاً، إذ إنها معتادة على أن يقوم العبيد بحمل المياه لها. شعرت ببعض الألم نتيجة احتكاك ملابسها بجمسها المتعرّق. ولم يدفعها إلى المضي قُدُماً سوى تفكيرها بالساقي وبالخطر الذي يحدق به. هل ستصل متأخرة؟ أعساه تعرض للقتل؟ كانت قد بدأت تتساءل إن كان سيتسنى لها اللقاء به حينما بدا أن الهواء المثقل يستحيل صلباً وأخذ يلفح من حولها. وبعد قليل صدر من جوف الجبل على يسارها دوي تصدع عال، فصهلت فرسها ودفعت بها إلى الوراء فكادت تقع إذ أخذ اللجام ينزلق من بين أصابعها المتعرقة وفشلت ساقاها في التشبث بجانبي الفرس المتأرجحتين. وعندما عاودت الفرس العدو إلى الأمام، أنقذت كوريليا نفسها عبر لف أصابعها بإحكام على عرف الفرس الغزير والتمسك به إنقاذاً لحياتها.

لا بد وأن الفرس قطعت مسافة ميل أو أكثر، إذ إنها حينما بدأت أخيراً تبطئ من سيرها أفلحت كوريليا في رفع رأسها فوجدت أنهما انحرفتا عن

twitter @baghdad_library

الطريق وأصبحتا في منطقة مفتوحة. كانت تسمع صوت مياه في مكان قريب ولا بد وأن الفرس سمعته هي الأخرى أو شمت رائحة المياه لأنها استدارت وراحت تسير باتجاه الصوت. كانت قد ضغطت بخدها على عنق الفرس وأغمضت عينيها بإحكام ولكن الآن بعد أن رفعت رأسها راحت ترى أكواماً بيضاء من الحصى وجداراً آجرياً منخفضاً بدا أنه يحوي بئراً كبيرة. انحنت الفرس لتشرب. همست لها ونزلت عن ظهرها برفق حتى لا تجفلها فوجدت نفسها ترتجف نتيجة الصدمة.

غرقت رجلاها في الوحل. ورأت على مسافة بعيدة نيران مخيّم.

* * *

انحصر هدف أتيليوس الأول في إزالة الركام من تحت الأرض وهي مهمة ليست سهلة. فالنفق لا يتسع إلا لرجل واحد يقف بمواجهة الانسداد مستخدماً معولاً ورفشاً، وعندما يتم ملء سلة يتم نقلها من يد إلى أخرى داخل الإمدادات إلى أن تصل إلى أسفل فتحة التفحص، ثم تُربط بحبل وتُرفع إلى السطح ويصار إلى تفريغها وتُرسل من جديد. وخلال ذلك يتم ملء سلة أخرى وتكون في طريقها إلى السطح.

أخذ أتيليوس، وبطريقته المعتادة، الدور الأول في حمل المعول، ونزع قطعة من قميصه ولفها حول فمه وأنفه في محاولة منه للتخفيف من حدة رائحة الكبريت. إن ضرب التربة والآجر بالمعول ثم نقل الركام بواسطة الرفش ووضعه في السلة مهمة صعبة بما فيه الكفاية. أما محاولة استخدام المعول في حيِّز ضيق وإيجاد القوة لضرب الإسمنت وتحويله إلى كتل يمكن نقلها هي مهمة تحتاج إلى هرقل نفسه. كانت بعض القطع تحتاج إلى رجلين كي يتمكنا من حملها، ولم يمضِ وقت طويل حتى حف كوعيه بجدران النفق فتقرّحا أما الحرارة المرتفعة في تلك الليلة فقد زادت من حدتها الرطوبة والأجسام المتعرِّقة والمشاعل المحترقة، فاستحال الوضع أسوأ مما تصور أن يكون عليه في مناجم الذهب في إسبانيا. ولكن برغم ذلك كان أتيليوس يحرز تقدماً وقد مده ذلك

بقوة إضافية. كان قد وجد البقعة التي حصل فيها انسداد الأوغوستا، وسوف يتغلّب على مشاكله كلها إن استطاع تنظيف هذه الياردات القليلة الضيقة.

بعد فترة من الوقت نقر بريبكس على كتفه وعرض عليه أن يحل محله. سلمه أتيليوس المعول بامتنان وأخذ يراقب بإعجاب الرجل الضخم وهو يضرب بمعوله بسهولة تامة وكأنه مجرد دمية على الرغم من أنه ملأ أرجاء النفق بضخامة جسده. حشر المهندس نفسه داخل خط الإمداد عائداً إلى السطح، فابتعد الآخرون مفسحين له المجال. باتوا يعملون بروحية الفريق الآن وكأنهم جسم واحد. وها هي الطريقة الرومانية تعاود الظهور من جديد. بدا أن مزاج الرجال قد تغير سواء أكان السبب في ذلك يعود إلى الحمام المنشط أو إلى الشعور بالراحة لكونهم يمتلكون مهمة محدّدة يشغلون تفكيرهم فيها، فراح يفكر أن هؤلاء الرجال قد لا يكونون أشخاصاً سيئين. بوسع المرء أن يقول ما يشاء عن أمبلياتوس ولكن هذا الرجل يدرك على الأقل كيف يدرب فريقاً من العبيد. أخذ السلة الثقيلة من الرجل المحاذي له، ولاحظ أنه الرجل نفسه الذي ركل له إبريق النبيذ، ثم استدار وأعطاه إلى الرجل التالي في الطابور.

تدريجياً فقد الإحساس بالوقت وقد انحصر عالمه ببضع أقدام ضيقة من النفق، ولم يشعر إلا بالألم في ذراعيه وظهره والناتج عن الجروح التي مُني بها في كفيه بسبب الركام ذي الأطراف الحادة، وعن كوعيه المتقرِّحين. كان في غاية الانشغال إلى درجة أنه لم يسمع في البداية بريبكس حينما ناداه:

«أيها الساقي! أيها الساقي!»

«نعم؟» وضع ظهره مقابل الجدار وأخذ يمر بمحاذاة الرجال وقد انتبه للمرة الأولى أن المياه في النفق قد وصلت حتى حدود كاحليه. «ما الأمر؟»

«أنظر بنفسك».

أخذ أتيليوس مشعلاً من الرجل الواقف خلفه ورفعه فوق كومة الركام. في البداية بدت كتلة جامدة ثم رأى أنها تنز المياه من كل مكان. كان ثمة جداول صغيرة تسيل عبر هذا الجسم المتحلّب وكأنه استحال سائلاً. «أترى ما أقصده؟»

twitter @baghdad_library

أخذ بريبكس ينقر عليه بواسطة المعول. «إذا تخلصنا من هذه الكتلة سنغرق هنا مثل فئران في مجرور».

انتبه أتيليوس إلى الصمت الذي ساد المكان خلفه. كان العبيد قد كفوا جميعاً عن العمل وأخذوا ينصتون، ونظر إلى الوراء فوجد أنهم أزالوا أربعة أو خمسة ياردات من الركام. إذاً ما الذي تبقّى ليعيق تدفق الأوغوستا؟ بضعة أقدام. لم يشأ التوقف، ولكنه في الوقت نفسه لم يشأ قتلهم جميعاً.

قال بتردّد: «حسناً، اخرجوا من النفق». لم يحتاجوا إلى أن يضيف كلمة أخرى فأسندوا المشاعل على الجدار وتركوا المعدات والسلال من أيديهم واصطفوا منتظرين دورهم عند الحبل. وبمجرد أن يتسلق أحدهم هذا الحبل وتصل قدماه إلى فتحة التفحص ما يلبث أن يمسكه رجل آخر بيديه ويرفع نفسه إلى بر الأمان. لحق أتيليوس ببريبكس إلى النفق وحينما وصلا إلى الفتحة كانا الشخصين الوحيدين اللذين ظلا تحت الأرض.

عرض عليه بريبكس الإمساك بالحبل أولاً. «لا أنت أولاً وأنا سأبقى هنا وأرى ما عسانا نفعله» فلاحظ أن بريبكس ينظر إليه وكأنه يعتبره مجنوناً: «سأربط الحبل حول خصري توخياً للسلامة، وعندما تصل إلى القمة فك الحبل من العربة، ثم أنزل لي ما يكفي من الحبل كي أصل إلى نهاية النفق. وثبّته جيداً». هز بريبكس بكتفيه: «الخيار عائد إليك».

عندما استدار بريبكس ليتسلق الحبل أمسك أتيليوس بذراعه. «أأنت قوي بما فيه الكفاية لتحملني يا بريبكس؟»

ابتسم المجالد ابتسامة مقتضبة. «أستطيع حملك أنت وأمك اللعينة!»

تسلق بريبكس على الحبل بكل سرعة كالقرد على الرغم من ثقل وزنه، فأصبح أتيليوس وحده. وعندما أخذ يربط الحبل حول خصره للمرة الثانية أخذ يفكر أنه ربما يكون فعلاً مجنوناً ولكن بدا أنه ليس ثمة بديل لأنهم لن يتمكنوا من تصليح النفق إلى أن يجف، وهو لا يمتلك الوقت للانتظار حتى تنز المياه كلها من الانسداد.

شد الحبل بقوة وقال: «حسناً يا بريبكس؟»

«جاهز!»

التقط مشعله وأخذ يمشي عائداً إلى داخل النفق، وقد وصلت المياه إلى ما فوق كاحليه وأخذت تترشش على قصبتيه وهو يدوس فوق المعدات والسلال المهجورة. راح يتحرك ببطء، حتى يمدد له بريبكس الحبل وحينما وصل إلى مكان الركام كان العرق يتصبب منه بسبب التوتر وارتفاع الحرارة.

كان يشعر بثقل تدفق الأوغوستا وراء الركام. نقل المشعل إلى يده اليسرى، وباليد اليمنى بدأ يجذب الطرف الظاهر لقطعة الآجر التي كانت على مستوى وجهه وأخذ يزحزحها صعوداً ونزولاً ومن جانب إلى آخر. كان بحاجة إلى فجوة صغيرة: تحرير مُحكم لضغط المياه في مكان ما قرب القمة. في البداية لم تتزحزح قطعة الآجر. ثم ما لبثت المياه أن بدأت تفور من حولها إلى أن انقذفت أخيراً من بين أصابعه وقُذفت بقوة فمرت بمحاذاة رأسه على مسافة قريبة جداً لدرجة أنها مست أذنه.

صرخ وتراجع إلى الوراء في الوقت الذي انتفخت فيه المنطقة المحيطة بالتسرب ثم انفلقت وانقذفت إلى الأمام ثم نزولاً على شكل (٧)، وقد حصل كل هذا خلال ثوان ولكن رغم ذلك أفلح في التنبه لكل مرحلة من مراحل الانهيار. بعد قليل انهار سيل من المياه فوقه دافعاً إياه إلى الوراء فأوقع المشعل من يده وغرق في الظلام. تم قذفه تحت المياه بسرعة شديدة على ظهره ورأسه في المقدمة، فانجرف على امتداد النفق وأخذ يخدش بيديه في محاولة منه للتمسك بشيء ما على طبقة الإسمنت الملساء ولكنه لم يجد ما يتمسك به، فقد دحرجه دفق المياه الجارف وقَلبه على بطنه، فشعر بموجة ألم تجتاحه حينما شد الحبل تحت صدره فثناه ورفعه صعوداً إلى ان حف ظهره بالسقف. لبرهة حسب أنه سينجو ولكن عاد الحبل وارتخى فوقع إلى أسفل النفق فجرفه دفق المياه وكأنه ورقة شجر في ميزاب، وجره إلى حيث الظلمة.

twitter @baghdad_library

نوكتي كونكوبيا

الساعة: ٢٢:٠٧

أشار كثير من المراقبين إلى أن ثوران البركان يحدث أو يصبح أقوى حين يكون القمر بدراً وحين تكون الضغوطات المتقلّبة في القشرة في أوجها.

علم البراكين (الطبعة الثانية)

لم يكن أمبلياتوس يعبأ كثيراً بعيد فولكان، فالاحتفال بنظره يشير إلى مرحلة في الروزنامة يحل فيها الظلام في وقت أبكر بكثير ويبدأ الصباح على ضوء الشموع: نهاية روعة الصيف وبدء الدخول في فصل الشتاء الطويل الحزين، أما الاحتفال نفسه فهو مقيت. كان فولكان يعيش في كهف تحت جبل ويبعث نيراناً مبيدة إلى الأرض، وتخشاه جميع المخلوقات ما عدا الأسماك. لذلك، واستناداً إلى مبدأ أن الآلهة مثل البشر ترغب كثيراً بالأشياء التي يصعب الحصول عليها، وجب إرضاؤه بتقديم أضحية من الأسماك تُرمى وهي حية على محرقة مشتعلة.

لا يفتقر أمبلياتوس كلياً إلى المشاعر الدينية. فهو لطالما أحب رؤية حيوان حسن الشكل وهو يُذبح، مثل منظر الثور الهادئ الذي يُساق إلى المذبح والطريقة التي يحدق فيها بالكاهن بذهول تام، ثم الضربة المفاجئة غير المتوقّعة من مطرقة المساعد، ولمعان السكين وهي تقص رقبته، وطريقة سقوطه متصلباً وكأنه طاولة فتبرز قوائمه إلى الخارج، وتتخثّر لطخات الدم القرمزية على التربة، ويخرج كيس أحشائه الأصفر من بطنه المشقوق لكي يدقّق فيه العرافون. هذا ما

twitter @baghdad_library

يسمى بالتديُّن. أما رؤية مئات من الأسماك الصغيرة تُرمى فوق اللهب من قِبَل المواطنين المؤمنين بالخرافات الذين يمرون بمحاذاة النيران المقدسة لمشاهدة الأجسام الفضية وهي تتلوى وتئز بفعل الحرارة الشديدة: ففي رأيه ليس ثمة أي نبل في هذا الأمر البتة.

وهذه السنة يعتبر الاحتفال مضجراً أكثر نظراً إلى تزايد أعداد الناس الذين يرغبون بتقديم الأضاحي. بَيْدَ أن طول مدة القحط وجفاف الينابيع والآبار وارتجاجات الأرض وكل الظهورات التي تمت رؤيتها وسماعها على الجبل، اعتُبر كله من صنيعة يد فولكان، وقد انتشر في البلدة خوف من حدوث شر مرتقب. كان أمبلياتوس يرى ذلك في وجوه الحشود المحمّرة والمتعرّقة وهم يسيرون حول أطراف الساحة يحدقون في النيران. لقد بدا الخوف المنتشر في الهواء واضحاً جداً.

لم يكن أمبلياتوس يجلس في موقع جيد جداً، إذ إن حكام المدينة، وكما اقتضت التقاليد، مجتمعون على أدراج معبد جوبيتير، حيث يجلس أعضاء المجلس الحاكم والكهنة في المقدمة، ويجلس أعضاء مجلس تقويم الطقوس والأعياد ومن ضمنهم ابنه مجتمعين خلفهم، في حين أن أمبلياتوس ـ كونه عبداً معتقاً ولا يحتل أي منصب رسمي ـ نفاه البروتوكول وجعله يجلس في الخلف. ولم يكن لديه مانع في ذلك لأنه كان يعتنق فكرة أن السلطة ـ السلطة الحقيقية ـ يجب أن تبقى متوارية: قوة مخفية تسمح للناس بهذه الاحتفالات المدنية في حين أنها لا تنفك طيلة الوقت تتلاعب بالمشاركين وكأنهم دمى متحركة. كما أن معظم الناس كانوا يدركون أنه هو ـ أي ثالث شخص جالس في الصف العاشر في الخلف ـ الذي يدير فعلياً المدينة، وقد كان هذا الشيء هو المميز حقاً. كان بوبيديوس وكوسبيوس وهولكونيوس وبريتيوس يدركون هذا الأمر، وشعر أنهم يخجلون من ذلك حتى وهم يتلقون احترام الحشود. كما أن الحشود كانت تدرك هذا الأمر أيضاً وبالتالي كانوا جميعاً يكنون احتراماً أكبر له، فيراهم يبحثون عنه بين الوجوه ويهزون برؤوسهم ويشيرون بأيديهم.

كما كان يتخيلهم يقولون: «ها هو أمبلياتوس الذي أعاد بناء المدينة في

الوقت الذي لاذ فيه الآخرون بالفرار! يحيا أمبلياتوس! يحيا أمبلياتوس! يحيا أمبلياتوس!»

وانسحب قبل نهاية الإحتفال.

قرر المشي بدل الركوب في محفته، فمرّ على سلالم المعبد من بين صفوف المشاهدين ـ فتراه يهز برأسه هنا ويبعد أحدهم بكوعه هناك ـ ثم سار على طرف المبنى المظلّل، ثم مر تحت قوس النصر (تيبيريوس) وبات في الطريق الخالي من المارة. وكان عبيده يحملون محفّته ويسيرون وراءه ويتصرفون وكأنهم حراسه الشخصيون. لم يكن يخشى بومبي بعد حلول الظلام لأنه كان يعرف كل زاوية من زوايا المدينة، وكل مرتفع ومنخفض في الطريق، وكل واجهة محل وكل مصرَف للمياه. قام البدر وقناديل الطرقات الموزعة في الطرقات ـ وهي إبداع آخر من إبداعاته ـ بإرشاده إلى طريق منزله بشكل واضح. ولكنه لم يكن يعرف مباني بومبي فحسب بل سكانها أيضاً ويدرك جيداً غموض تقسيماتها خصوصاً عند الانتخابات: خمس دوائر ـ فورينسس، كامبانيانسس، سالينيانسس، أوربولانينسيس، باغاني ـ ولديه وكيل في كل منها. كما يعرف كل جماعات العمال ـ الصبّاغون، الخبّازون، الصيّادون، صانعو العطور، الحدّادون، إلخ. وهم أيضاً تحت سيطرته. حتى أن بوسعه اعتبار نصف عبدة إيزيس، معبده، ناخبين له. ومقابل تسهيل وصول أي أخرق ينتقيه ليتسلم مقاليد السلطة، يحصل على الرخص والإجازات، وأذون التخطيط، والأحكام التي تصب لمصلحته في الباسيليقا، وكل هذا يُعتبر الأساس غير المرئي للسلطة.

وصل إلى أسفل التل وانعطف باتجاه منزله ـ بل يجدر القول (منازله) ـ وتوقف بعض الوقت للتمتع بهواء الليل. كان يحب مدينته، في الصباح الباكر يكون الحر مزعجاً ولكن يظهر عادة من ناحية كابري خط من الأمواج الزرقاء الغامقة المترقرقة، وبحلول الساعة الرابعة يهب على المدينة نسيم بحري يجعل أوراق الشجر تصدر حفيفاً، ويصبح الجو في بومبي ممتعاً لبقية النهار وكأنه الربيع. ولكن صحيح أنه حينما يكون الجو حاراً وفاتراً كالحال هذه الليلة، لا ينفك السواد الأعظم من الناس يتذمرون لكون رائحة المدينة مقرفة. ولكنه كان

twitter @baghdad_library

يفضل المدينة حينما يكون الهواء أكثر ثقلاً، حينما يكون روث الأحصنة في الشوارع، والبول في المصابغ، ومصانع صلصات السمك في المرفأ، ورائحة عرق عشرين ألف إنسان محشورين داخل جدران المدينة. فبالنسبة إلى أمبلياتوس: هذه الرائحة هي عبق الحياة. عبق النشاط والمال والربح.

عاود المشي وحينما وصل إلى باب منزله وقف تحت المشكاة ودق بقوة. كان لا يزال يجد متعة في دخول المنزل من مدخله الذي مُنع من الدخول منه حينما كان عبداً، فمنّ على العبد بابتسامة. كان في مزاج ممتاز إلى درجة أنه حينما وصل إلى منتصف الردهة قال: «هل تعرف سر الحياة السعيدة يا ماسافو؟»

فهز البواب برأسه الضخم نافياً معرفته.

«الموت». لكمه أمبلياتوس على معدته ممازحاً إياه، ثم جفل إذ شعر وكأنه يلكم الخشب: «أن تموت ثم تعود إلى الحياة وتتمتع بكل يوم وكأنه انتصار على الآلهة».

لم يكن أمبلياتوس يخشى أي شيء ولا أي مخلوق، والمضحك أنه لم يكن ثرياً بقدر ما يتخيله الجميع. فالفيللا في ميسينوم ـ التي دفع عشرة ملايين سسترس ثمناً لها وهو ثمن باهظ جداً ولكنه اضطر إلى شرائها ـ قد عمد إلى دفع ثمنها عبر اقتراض المال بضمانة هذا المنزل الضخم الذي دفع ثمنه إثر رهن الحمامات التي لم ينتهِ العمل فيها بعد. مع ذلك أبقى أمبلياتوس كل شيء يسير بشكل جيد عبر قوة إرادته وحذاقته وثقة الناس به، وإن كان ذاك الغبي لوشيوس بوبيديوس يحسب أنه سيستعيد منزل عائلته القديم إثر زواجه من كوريليا. تُعساً له. كان حرياً به الحصول على محام جيد قبل توقيع اتفاقية التسوية. عندما مر بمحاذاة حوض السباحة الذي تنيره المشاعل توقف ليمعن النظر في النافورة، حيث يمتزج رذاذ المياه بعبقِ الورود. ولكن حتى وهو يراقب هذه النافورة بدت له أن قوة تدفقها تخفت، ففكر في الساقي الشاب الموجود في مكان ما وسط الظلام ويقوم بتصليح القناة. سوف لن يعود. يا للأسف.

كان يمكن لهما أن ينفذا بعض الأعمال سوياً. ولكنه كان صادقاً وشعار أمبلياتوس يقول دوماً: «فلتحمِنا الآلهة من الرجال الصادقين». حتى أنه قد يكون ميتاً في هذه اللحظات.

بدأ ضعف تدفق المياه في النافورة يثير قلقه، فراح يفكر في الأسماك الفضية التي تتلوى وتئز فوق النار، وحاول تخيل ردة فعل سكان المدينة عندما يكتشفون أن القناة لا تجر المياه، فأدرك أنهم بالطبع سيلقون اللوم كاملاً على فولكان. يا لهم من خرقى مؤمنين بالخرافات! لم يسبق له أن فكر بهذا الأمر. في كل الأحوال سيكون الغد يوماً مناسباً للقيام بالإفصاح عن نبوءة بيريا أونوماستيا، عرّافة بومبي، حيث أخذ احتياطاته واستشارها في وقت سابق من الصيف. كانت تسكن في منزل قريب من المدرج، وخلال الليل ووسط موجات الدخان اجتمعت مع الإله القديم سابازيوس الذي تقدم له الأفاعي كأضحيات ـ وهو عمل مقرف ـ على مذبح يحمل يدين برونزيتين صغيرتين. أثار الاحتفال برمته فيه القشعريرة، ولكن العرّافة توقعت مستقبلاً زاهراً لبومبي، وسيكون من المفيد نشر كلامها هذا. قرّر جمع أعضاء المجلس الحاكم عند الصباح، أما الآن حيث لا يزال الآخرون في الساحة فإن لديه مشاغل طارئة أكثر ليقوم بها.

بدأ يحصل لديه انتصاب وهو يصعد على السلالم المؤدية إلى الغرف الخاصة بآل بوبيدبيوس، وهو طريق سلكه عدة مرات منذ أمد طويل حينما كان سيده القديم يستخدمه ككلب. كم من جماع سري مسعور شهدته هذه الجدران على مر السنوات، وكم من تربيتات تحببية وكلام عاطفي سمعته الجدران حينما كان أمبلياتوس يقدم نفسه لرب هذا المنزل ولأنامله التي كانت تصول وتجول على جسده. كان أصغر سناً بكثير من سيلسينوس، حتى أنه كان أصغر سناً من كوريليا. من هي لتتذمر بشأن زواجٍ خالٍ من الحب؟ فعذراً منها، لطالما كان السيد يهمس في أذنه أنه يحبه ولعله كان يحبه ـ ففي النهاية أعطاه حريته بكامل إرادته ـ إن كل ما تحول إليه أمبلياتوس في هذه السن تعود جذوره إلى البذرة الساخنة التي زُرعت هنا. وهو لم ينسها أبداً.

كان باب غرفة النوم غير موصد، فدخلها دون أن يقرع الباب. كان ثمة

twitter @baghdad_library

قنديل زيتي على الطاولة المحاذية للسرير يصدر ناراً خفيفة، بينما كان ضوء القمر ينسكب عبر المصاريع المفتوحة، ووسط نوره الخفيف رأى تاديا الثانية مستلقية على سريرها وهي عارية وكأنها جثة في تابوت. كانت تبلغ الستين من عمرها، وكان شعرها المستعار موضوعاً على رأس دمية بقرب القنديل، هذه الدمية التي ستكون شاهدة عمياء على ما سيحدث في الأيام الغابرة كانت هي التي تصدر الأوامر ـ هنا وهناك وهنالك ـ أما الآن فقد قُلبت الأدوار وشعر أمبلياتوس إنها تستمتع بالوضع أكثر، على الرغم من أنها لم تنبس ببنت شفة قط. استدارت بصمت ورفعت نفسها على يديها وركبتيها وقدمت له نفسها، وقد أخذ جسمها يلمع تحت ضوء القمر. راحت تنتظر دون أي حراك إلى أن عمد عبدها السابق وسيدها الحالي إلى الصعود على سريرها.

* * *

بعد أن فلت الحبل مرتين أفلح أتيليوس في حشر ركبتيه وكوعيه مقابل جدران الإمدادات الضيقة في محاولة منه لتثبيت نفسه بسرعة، وفي المرتين قذفه ضغط المياه ودُفع أكثر في النفق. أخذت أطرافه تضعف وأحس بضيق في التنفس وأدرك أن لديه فرصة واحدة أخيرة فكرر المحاولة من جديد، وهذه المرة أفلح في حشر نفسه ونشر جسمه على مداه كقنديل البحر. طفا رأسه فوق سطح المياه وإثر شعوره بالاختناق راح يغمغم لاهثاً لأخذ النفس.

ولأنه وسط الظلام لم يكن يمتلك أدنى فكرة عن مكانه أو المسافة التي جرفته المياه إليها، ولم يكن بوسعه سماع أو رؤية أي شيء، ولم يكن يشعر بشيء عدا الإسمنت الملامس ليديه وركبتيه وضغط المياه التي وصلت إلى حدود رقبته والتي تتخبط بجسده. لم يكن يعرف كم مضى على وجوده في هذا المكان معلّقاً ولكن بدأ يلاحظ تدريجياً أن الضغط يتضاءل وأن مستوى المياه إلى انخفاض. عندما شعر بالهواء يلفح كتفيه أدرك أن الجزء الأسوأ من هذه الحال قد انقضى. وبعد فترة وجيزة انكشفت المياه عن صدره. وبحذر تام أفلت الجدران ووقف. أخذ يترنح إلى الوراء وسط التيار الذي يتحرك ببطء ثم انتصب واقفاً نظير شجرة نجت من طوفان جارف.

بدأ عقله يعمل من جديد. وبدأت المياه الخلفية تزول، ولأن السدود قد تم إقفالها في أبيلينوم منذ اثنتي عشرة ساعة لم يكن ثمة مياه لتتدفق من جديد، وما تبقّى من المياه يتم احتجازه وتقليصه بفعل انحدار القناة الطفيف. شعر بأن ثمة ما يشد خصره، وكان يتم شد الحبل من ورائه. أخذ يتحسسه وسط الظلام فجذبه ولفه على ذراعه، وعندما وصل إلى النهاية تلمسه بأصابعه فوجده ناعماً، ليس منسل الخيوط ولا مقطّعاً. لا بد وأن بريبكس عمد ببساطة إلى تركه من يديه. ولكن لماذا؟ فجأة دب الذعر في نفسه وبات متلهفاً جداً للفرار. انحنى إلى الأمام وبدأ يتقدم بصعوبة ولكن كان الأمر أشبه بالكابوس، حيث مد يديه أمامه وعجز تماماً عن رؤيتهما فأخذ يتحسس مكان الجدران ماشياً في الظلام اللامتناهي ورجلاه غير قادرتين على التحرك بوتيرة أسرع مما يمكن لرجل مسن السير بهما. شعر بأنه مسجون مرتين، حيث تضغط عليه الأرض من جميع الجهات، ويضغط عليه ثقل المياه الموجودة أمامه. شعر بألم في صدره، وأحس وكأن كتفيه وُسِمتا بالنار.

سمع صوت ترشيش مياه ثم نزل على مسافة بعيدة ضوء أصفر خافت وكأنه نجمة هابطة. توقف عن المشي وأخذ ينصت ويتنفس بصعوبة، فسمع أصوات صرخات ثم تبعها صوت ترشيش آخر ثم ظهر مشعل آخر. كانوا يبحثون عنه. سمعت مناداة خافتة: «أيها الساقي!» حاول أن يقرر ما إذا وجب عليه الإجابة. كان يخيف نفسه ببعض الأفكار. لقد انهار جدار الركام بسرعة هائلة وبقوة كبيرة لا يمتلك معها أي إنسان عادي القدرة على مواصلة حمل الحبل. ولكن لم يكن بريبكس رجلاً ذا قوة عادية والذي حدث لم يكن مفاجئاً: يجدر بالمُجالد أن يكون مستعداً لحدوث مثل هذه الأمور.

«أيها الساقي!»

تردّد في الإجابة، والمؤكد أنه لم يكن ثمة طريق آخر للخروج من النفق. يجدر به الذهاب ومواجهتهم، ولكن أملى عليه حدسه بأن يحتفظ بشكوكه لنفسه. فرد منادياً: «أنا هنا!» وأخذ يسير ناحية النور مرشّشاً المياه الآخذة في التضاؤل.

* * *

twitter @baghdad_library

قابلوه بمزيج من التعجّب والإحترام ـ حيث تجمّع كل من بريبكس وبولايتس وموسى في الأمام للقاء به ـ وقالوا إنه بدا لهم من المستحيل أن ينجو أحد من مثل ذاك الطوفان. أصر بريبكس على أن الحبل انقذف من بين يديه وكأنه أفعى وكإثبات على صحة كلامه عمد إلى بسط كفيه ليريهما له، فبدا كل من كفيه تحت نور المشعل وكأنه موسوم بحرق قوي. لعله كان يقول الحقيقة، إذ بدا منسحق الفؤاد بما فيه الكفاية. ولكن رغم ذلك سيبدو على أي قاتل الشعور بالإثم حينما يكتشف أن ضحيته عاد إلى الحياة. «كما أذكر يا بريبكس لقد قلتَ إن بوسعك أن تحملني أنا وأمي».

«حسناً. تبيّن أن أمك أثقل مما ظننت».

قال موسى: «إن الآلهة تحبك أيها الساقي. إنهم يجهزون لك قدراً مميزاً».

«قال أتيليوس: «إن قدري هو تصليح هذه القناة اللعينة والعودة إلى ميسينوم». فك الحبل من حول خصره ثم أخذ مشعل بولايتس ومر بمحاذاة الرجال مضيئاً طريقه بواسطة المشعل. كم كانت المياه تنحسر بسرعة! لقد باتت تحت مستوى ركبتيه. تخيل التيار المائي يسيل خلفه في طريقه إلى نولا والمدن الأخرى، وفي النهاية سيقطع الطريق حول الخليج بأكمله وسيمر في الرواق المقنطر شمال نيابوليس وفوق القوس الكبير في كيومي ونزولاً على محور شبه الجزيرة توجهاً إلى ميسينوم. قريباً سيجف هذا القسم بالكامل، ولن يبقى على الأرض سوى بعض الحصى. مهما حصل سيكون قد وفى بوعده للأميرال، فقد نظف خط القناة.

إن النقطة التي حصل فيها انسداد النفق ما تزال في حالة فوضى ولكن قام الطوفان بمعظم العمل الذي كان يتحتم عليهم فعله، ولم يتبق أمامهم سوى إزالة التربة والحصى وتمليس الأرض والجدران ووضع طبقة من الإسمنت وصف جديد من الآجر ثم طبقة أخرى من الإسمنت، إنه ليس بالعمل الصعب: مجرد تصليحات مؤقتة إلى أن يتمكنوا من العودة إلى هنا والقيام بأعمال صيانة

أفضل في الخريف المقبل. لا يزال أمامهم الكثير من العمل ليتمموه خلال ليلة واحدة، وقبل أن تصل أولى قطرات المياه إليهم من أبيلينوم بعد أن يكون بيكو قد فتح السدود. أخبرهم بما يريد فعله وطفق موسى يضيف اقتراحاته الخاصة، فقال إنه في حال أنزلوا قطع الآجر إلى الأسفل بوسعهم تكديسها على الجدار وتجهيزها للاستخدام بعد أن تنفذ المياه، وبوسعهم البدء بمزج الإسمنت فوق الأرض في الحال. كانت المرة الأولى التي يُظهر فيها رغبة بالتعاون مذ تسلم أتيليوس أمر القناة، وبدا وكأن نجاة المهندس روّعته. فأخذ المهندس يفكر أنه يجدر الإكثار من العودة من الموت.

قال بريبكس: «وأخيراً اختفت تلك الرائحة القذرة».

لم يسبق لأتيليوس أن لاحظ هذا الأمر من قبل، فاشتم الهواء ووجد كلامه صحيحاً. بدا أن رائحة الكبريت القذرة قد أزالتها المياه، فراح يتساءل عن هذا الأمر ـ من أين أتت الرائحة وما هو سبب تبخرها ـ ولكن لم يكن لديه متّسع من الوقت ليفكر في الأمر. سمع أحداً ما ينادي باسمه فأخذ يركل بقدميه ويسير باتجاه فتحة التفحص. كان صوت كورفينوس: «أيها الساقي!»

«نعم؟» كان وجه العبد محاطاً بوهج أحمر. «ما الأمر؟»

«أظن نه يجدر بك المجيء لترى بنفسك». ثم فجأة اختفى رأسه.

ما الذي حدث الآن؟ أمسك أتيليوس بالحبل واختبره بحذر ثم بدأ يتسلقه. باتت مهمة التسلق أصعب مما كانت عليه بسبب حالته هذه حيث أُصيب بالجروح وأنهكه التعب. أخذ يصعد ببطء، اليد اليمنى ثم اليسرى ثم اليمنى رافعاً نفسه إلى فتحة الخروج الضيقة إلى أن وصل إلى فوهة الفتحة فوضع يديه عليها ورفع نفسه وبات وسط هواء الليل الدافئ. في الوقت الذي قضاه تحت الأرض كان القمر قد بزغ وبان بدراً. بدا أشبه بالنجوم في هذه البقعة من العالم ـ بل في الواقع أشبه بكل شيء ـ غير طبيعي ومفرط التفتّح. وأخذت عجلة العمل تدور رحاها على سطح الأرض الآن: حيث يتم استخراج كومات الركام من النفق، وثمة مشعلان كبيران ينفثان الشرارات تحت قمر الحصاد، وزُرعت

twitter @baghdad_library

مشاعل في الأرض لتوفير مزيد من الإنارة، وتم تقريب العربتين وإفراغ محتوياتهما بالكامل تقريباً. ميّز تحت ضوء القمر طرفاً سميكاً من الوحل حول البحيرة الضحلة التي جفت تقريباً. كان العبيد في فرقة عمل أمبلياتوس يتكئون على العربتين بانتظار الأوامر، وأخذوا يراقبونه بحشرية وهو يرفع نفسه على رجليه، فأدرك أن منظره لافت لأنه وسخ ويتقطر ماء. نادى موسى في النفق كي يصعد ويعيدهم إلى العمل ثم جال بنظره من حوله باحثاً عن كورفينوس فوجده على بُعد ثلاثين خطوة تقريباً بالقرب من الثيران ويدير ظهره للفتحة. فأخذ يناديه بنفاذ صبر.

«حسناً؟»

التفت كورفينوس وتنحى جانباً كطريقة لتفسير موقفه كاشفاً وراءه شخصاً في عباءة ذات قلنسوة. توجه أتيليوس إليهما، ولم يتعرف على الشخص الغريب إلا حينما اقترب منهما ونزع هذا الغريب القلنسوة عن رأسه. ما كان ليُصاب بدهشة أكبر لو أن إيجيريا، إلّهة الينابيع، تجسدت أمامه فجأة تحت ضوء القمر. أول فكرة خطرت على باله أنها أتت برفقة والدها، فأخذ ينظر من حوله باحثاً عن خيالة آخرين وخيول أخرى. ولكن لم يكن هناك سوى فرس واحدة تأكل بهدوء من العشب الرفيع. كانت وحدها، وعندما وصل إليها رفع يديه دليلاً على دهشته:

«كوريليا. ما هذا؟»

قاطعه كورفينوس قائلاً: «لقد أبت إخباري بما تريد. قالت إنها لن تتكلم إلا إليك».

«كوريليا؟»

هزت برأسها ناحية كورفينوس مشكّكة به ووضعت إصبعها على فمها ثم هزت برأسها.

«أترى قصدي؟ لقد أدركت في اللحظة التي ظهرت فيها البارحة أنها ستجلب المتاعب. .».

«لا بأس يا كورفينوس. هذا يكفي. عد إلى العمل».

«ولكن. . ».

«إلى العمل!».

مع ابتعاد العبد راح أتيليوس يتفحصها بدقة: خدّاها ملطخان، وشعرها منكوش، وعباءتها وثوبها ملطّخان بالوحل. ولكن ما وجده مزعجاً أكثر هما عيناها الواسعتان بلونهما الأزرق الفاتح إلى حد غير طبيعي. أمسك بيدها وقال بلطف: «هذا المكان ليس مناسباً لك. ما الذي تفعلينه هنا؟»

همست قائلة: «أردت أن أجلب لك هذه» وبدأت تخرج من ثنيّات عباءتها لفافات صغيرة من ورق البردي.

* * *

كانت الوثائق تعود إلى أوقات وظروف مختلفة، وعددها ست، وهي صغيرة الحجم لدرجة أنه يتسع حملها بيد واحدة. حمل أتيليوس مشعلاً ومشت كوريليا إلى جانبه وانتقلا بعيداً عن النشاط الدائر حول القناة إلى مكان ناء خلف إحدى العربتين ويطل على الأرض التي غمرتها المياه. انسدل شعاع من ضوء القمر فوق ما تبقى من البحيرة وبدا عريضاً ومستقيماً وكأنه طريق روماني. ومن الجانب البعيد صدرت رفرفة أجنحة وصرخات طيور الماء.

أزاح عباءتها عن كتفيها ونشرها على الأرض كي تجلس عليها، ثم شكّ مسكة المشعل في الأرض وجلس القرفصاء وفتح الوثيقة الأقدم. كانت عبارة عن رسم تخطيطي لقسم من الأوغوستا ـ هذا القسم بالتحديد: حيث تمت الإشارة إلى بومبي ونولا وفيسوفيوس بالحبر الذي بهت لونه فاستحال من الأسود إلى الرمادي الفاتح. كان الرسم ممهوراً بالختم الإمبراطوري الخاص بأغسطس العظيم وكأنه تم تفحصها والموافقة عليها رسمياً. إنه تخطيط مسحي، وهو النسخة الأصلية، وتم تنفيذه منذ أكثر من قرن. لعل ماركوس أغريبا العظيم نفسه قد حملها بين يديه في يوم ما؟ ثم قلب اللفافة. إن مثل هذه الوثيقة لا يمكن أن تأتي إلا من مصدرين اثنين: إما من أرشيف دائرة الوصاية على

twitter @baghdad_library

الموارد المائية في روما أو من البيسينا ميرابيليس في ميسينوم، ثم راح يلفها بحذر.

أما اللفافات الورقية الثلاث التالية فإنها تحوي في أغلبها على أعمدة من الأرقام، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى فهم معناها. كانت إحداها معنونة ب(كولونيا فينيريا بومبيانوروم) ومقسمة إلى السنوات التالية: DCCCXIV, DCCCXV إلخ. وتعود إلى ما قبل عقدين من الزمن حيث تحوي مزيداً من التقسيمات الفرعية لملاحظات وأرقام ومجاميع. بدأت الكميات تتزايد سنوياً إلى أن تضاعفت في السنة التي انتهت في شهر كانون الأول الماضي، أي سنة ٨٣٣ لروما. بدت الوثيقة الثانية من الوهلة الأولى مطابقة للتي سبقتها إلى أن أمعن النظر فيها أكثر فوجد أن الأرقام الموجودة فيها تبلغ نصف مقدار الأرقام الموجودة في الوثيقة السابقة. على سبيل المثال، بالنسبة إلى السنة الماضية، فإن المجموع الإجمالي الذي يبلغ ٣٥٢٠٠٠ المسجل في الوثيقة الأولى قد تم تقليصه في الورقة الثانية إلى ١٧٨٠٠٠.

أما الوثيقة الثالثة فإنها أقل رسمية حيث بدت أشبه بالتقييم الشهري لمدخول شخص ما. وتحوي أيضاً أرقاماً تعود إلى عقدين من الزمن. ومن جديد أخذت المبالغ الإجمالية تزيد تدريجياً إلى أن وصلت إلى الضعفين تقريباً. وقد كان مدخولاً جيداً ـ وصل ربما إلى ٥٠٠٠٠ سسترس في السنة الماضية وحدها، وربما يصل المبلغ الإجمالي إلى ثلث مليون.

كانت كوريليا جاثمة تراقبه رافعة ركبتيها. «إذاً؟ ما الذي تعنيه هذه اللفافات؟»

استغرق وقتاً طويلاً حتى أجابها. شعر بوصمة عار. عار شخص واحد. عارهم جميعاً. ومن عساه يعرف إلى أي مدى وصل الفساد؟ ولكنه عاد وفكر قائلاً: لا، لا يمكن أن يكون قد وصل إلى أعلى المراتب في روما لأنه في حال كانت روما مشاركة في هذا الأمر ما كان أفيولا ليرسله جنوباً إلى ميسينوم. «يبدو أن هذه الأوراق عبارة عن التقارير الأصلية لكمية المياه المستهلكة في

بومبي». أراها اللفافة الأولى. «٣٥٠٠٠٠ خماسية استُهلكت في السنة الماضية، وهذه كمية مناسبة لمدينة بحجم بومبي. وأفترض أن هذه المجموعة الثانية من التقارير هي التي أرسلها سلفي إكزومينوس إلى روما بشكل رسمي. ما كانوا ليعرفوا الفرق وخصوصاً بعد الزلزال إلا في حال ارسلوا مدققاً إلى هنا ليفحص الأمر بنفسه. وهذه ـ لم يحاول إخفاء ازدرائه وهو يكشف عن الوثيقة الثالثة- هو المبلغ الذي دفعه له والدك ليشتري بها صمته». نظرت إليه وقد أصابها الارتباك فقال لها مفسراً: «إن المياه مكلفة وخصوصاً إذا كان المرء يعيد بناء نصف مدينة، (على الأقل قيّمة بقدر المال) ـ هذا ما قاله لي والدك». لا شك أنها كانت النقطة المفصلية بين الربح والخسارة. يحيا الربح!

لف اللفافات الورقية. وفكّر أنها ربما سُرقت من تلك الغرفة القذرة فوق الحانة. وأخذ يتساءل عن السبب الذي دعا بإكزومينوس إلى المخاطرة في الإبقاء على مثل هذه الوثائق الجرميّة بمتناول الأيدي. ولكن عاد وافترض أن الجرم هو تماماً ما كان إكزومينوس يخطط له في رأسه. إنها تعطيه اليد الطولى على أمبلياتوس: «إياك والتفكير بالإتيان بأية حركة ضدي ـ إسكاتي أو إخراجي من الصفقة أو التهديد بفضح أمري ـ لأنه في حال لحق بي الضرر فأنت ستتضرر معي».

قالت كوريليا: «ماذا عن هاتين اللفافتين؟»

اللفافتان الأخيرتان كانتا مختلفتين كلياً عن اللفافات الأخرى وكأنهما لا تنتميان إليها. أول ما يقال عنهما إنهما جديدتان أكثر، وتحويان حروفاً بدل الأرقام، وكانت اللفافة الأولى مكتوبة باليونانية.

إن القمة نفسها مسطحة بأغلبها وقاحلة كلياً، وتبدو التربة أشبه بالرماد وفيها حفر شبيهة بالكهوف من صخور مسْوَدَّة وكأن النار سفعتها. يبدو أن هذه المنطقة تعرّضت للاحتراق فيما مضى واحتوت حفراً شبت فيها النيران ثم انطفأت نتيجة نقص في الوقود. لا شك أن هذا هو سبب خصوبة الأرض في المنطقة المحيطة بها، كحال الأرض في كاتانا حيث يقال إن التربة التي امتزجت بالرماد الذي

twitter @baghdad_library

قُذف بفعل ثوران إتنا قد جعل هذه الأرض مناسبة جداً لزراعة الكرمة. إن التربة المخصّبة تحوي كلاً من المواد التي تحرق الإنتاج والمواد التي تزيده. عندما تفيض بالمواد المخصبة تصبح قابلة للإحراق كحال جميع المواد الكبريتية ولكن عندما ينضح كل هذا وتُطفأ النيران تصبح التربة شبيهة بالرماد ومناسبة للزراعة.

اضطر أتيليوس إلى قراءة هذا النص مرتين مقرِّباً اللفافة من المشعل، ليفهم معنى الكلمات. مرر اللفافة إلى كوريليا. القمة؟ قمة ماذا؟ ربما قمة فيسوفيوس. فهذه القمة هي الوحيدة الموجودة في هذه الأنحاء. ولكن هل تمتع إكزومينوس ـ الكسول والمسن والسكير ومحب العاهرات ـ بالقوة اللازمة لتسلق جبل فيسوفيوس والوصول إلى قمته وسط القحط لتدوين ملاحظاته باليونانية؟ يعتبر هذا الأمر عصياً على التصديق. واللغة ـ حفر شبيهة بالكهوف من صخور مسودّة... خصوبة الأرض في المنطقة المحيطة ـ هذا الكلام لا يبدو صادراً من مهندس. لأن فيه نفحة أدبية أكثر من اللازم، وهذه الجمل لا تشبه أبداً الجمل التي قد تخطر على بال شخص مثل إكزومينوس الذي لم يكن بكل تأكيد أكثر طلاقة من أتيليوس نفسه في اللغة اليونانية. لا بد وأنه نسخ هذا النص من مكان ما، أو كلف أحداً بنسخه له. لعل أحد الناسخين في المكتبة العامة الموجودة في ساحة بومبي العامة قد قام بنسخه له.

كانت اللفافة الأخيرة أطول ومكتوبة باللاتينية، ولكن محتواها كان غريباً بقدر اللفافة السابقة:

لوسيليوس يا صديقي الطيب. لقد سمعت لتوي أن بومبي، المدينة المشهورة في كامبانيا، قد دمرها الزلزال الذي ألحق أيضاً الضرر بالمناطق المحيطة. بالإضافة إلى ذلك ثمة جزء من مدينة هيركيولانيوم أصابه الدمار والمباني التي ظلت موجودة أصبحت مخلخلة، كما فقدت نيابوليس أيضاً العديد من مساكنها الخاصة. وهناك ما زاد على هذه النكبات: لقد قيل إن قطيعاً مؤلفاً من مئات الخراف قد نفق، وتصدعت التماثيل، وأصاب الذهول بعض الناس الذين أخذوا يهيمون في الأرجاء غير قادرين على مساعدة أنفسهم.

قلت إن قطيعاً مؤلفاً من مئات الخراف نفق في مدينة بومبي، وليس ثمة داع يجعلك تفكِّر بأن هذه الخراف نفقت نتيجة الخوف، إذ يقال إنه في العادة يتفشى مرض الطاعون إثر حدوث زلزال كبير وهذا ليس أمراً مفاجئاً، فالعديد من مسببات الموت تقبع مخبأة في الأعماق. إن الهواء نفسه هناك، وهو غير نقي إما بسبب الصدع الذي أصاب الأرض أو بسبب الركود والعتمة الخالصة التي تلف المكان، يؤذي هؤلاء الذين يتنشقونه. ولا أتفاجأ لأن الخراف أُصيبت بالمرض فتلك الخراف التي تتمتع ببنية حساسة جداً لأنها تُبقي رأسها على مسافة قريبة جداً من الأرض، تأثرت بتسمم الهواء الموجود قريباً من الأرض نفسها. لو أن الهواء صدر بكميات أكبر لكان تسبب بالأذى للناس أيضاً ولكن توافرَ الهواء النقي قضى على الهواء المسمم قبل أن يرتفع في الجو بشكل كاف ليتنفسه الناس.

ومن جديد بدت اللغة أكثر تنميقاً من قدرة إكزومنيوس على كتابتها، وبدا أن يداً محترفة جداً نفذت النص. بأي حال من الأحوال، لماذا يدّعى إكزومنيوس أنه سمع فحسب عن زلزال حدث قبل سبع عشرة سنة؟ ومن هو لوسيليوس؟ كانت كوريليا قد انحنت إلى الأمام لتقرأ الوثيقة من فوق كتفيه. فأخذ يشتمّ رائحة عطرها وأحسّ بنفسها يلفح خده، ولامس ثديها ذراعه. قال: «هل أنت واثقة أن هاتين الوثيقتين كانتا مع الوثائق الأخرى؟ قد يكون مصدرهما مكان مغاير».

«كانتا في الصندوق نفسه. إلام ترمز هاتان الوثيقتان؟»

«ألَم تري الرجل الذي جلب الصندوق لوالدك؟»

هزت كوريليا برأسها نافية: «لم أتمكن إلا من سماعه فقد كانا يتحدثان عنك. والكلام الذي قالاه دفعني إلى المجيء والبحث عنك». تحركت بعض الشيء مقتربة منه وخفّضت صوتها: «لقد قال والدي إنه لا يريد لك أن تعود من هذه الرحلة حياً».

«حقاً؟» بذل مجهوداً ليضحك: «وماذا قال الرجل الآخر؟»

twitter @baghdad_library

«قال إنه ما من مشكلة في ذلك».

عمّ الصمت. ثم شعر بيدها تلامس يده، حيث ممرت أصابعها على جروحه وخدوشه المؤلمة، ثم أسندت رأسها على صدره. لقد كانت منهكة القوى. وللمرة الأولى منذ ثلاث سنوات سمح لنفسه باختبار الشعور الناتج عن وجود جسد امرأة بالقرب من جسده.

فأخذ يفكر: إذاً هذا هو معنى أن يكون الإنسان حياً. كان قد نسي هذا الإحساس.

* * *

بعد فترة قصيرة غطّت في النوم. فأزاح ذراعه ببطء حتى لا يوقظها. تركها وسار عائداً إلى القناة.

وصلت أعمال التصليحات إلى مرحلة حاسمة وكفّ العبيد عن إخراج الركام من النفق وبدأوا بإنزال قطع الآجر إليه. هز أتيليوس برأسه بحذر متوجهاً بنظره إلى بريبكس وموسى اللذين كانا يقفان سوياً ويتبادلان الحديث. صمت الرجلان بمجرد أن اقترب منهما وأخذا ينظران إلى خلفه، إلى المكان الذي كانت كوريليا تستلقي فيه ولكنه تجاهل حشريتهما.

كان ذهنه مشوّشاً فكون إكزومنيوس رجلاً فاسداً ليس بالأمر المفاجئ، وقد تقبل هذا الأمر، وافترض أن عدم أمانته علّلت سبب اختفائه. ولكن هاتين الوثيقتين الأخريين، القطعة المكتوبة باليونانية والمقطع المنتقى من رسالة، توجِّهان اللغز إلى مكان مغاير تماماً. والآن أصبح واضحاً أن إكزومنيوس كان قلقاً بشأن التربة التي تمر فيها الأوغوستا ـ التربة الكبريتية الملوثة ـ على الأقل قبل ثلاثة أسابيع من تلوث القناة. كان قلقاً بما فيه الكفاية إلى حد دفعه للإتيان بمخطوطات أصلية والتوجّه لإجراء الأبحاث في مكتبة بومبي.

أخذ أتيليوس يحدّق بذهن مشتت في أعماق شبكة الإمدادات. كان يتذكّر الحديث الذي تبادله مع كوراكس في البيسينا ميرابيليس عصر اليوم الفائت وسخرية كوراكس حيث قال: «كان يعرف هذه المياه أكثر من أي شخص آخر.

وكان سيتنبأ بحدوث مثل هذا الأمر» ثم تذكّر ردّه الذي جاء دون تفكير مسبق: «لعله كان كذلك ولهذا السبب لاذ بالفرار». للمرة الأولى انتابه إحساس داخلي بقرب حدوث شيء فظيع لم يستطيع تحديده. ولكن كان يحدث الكثير من الأمور وكلها خارج إطار العادي ـ تعطّل شبكة الأنابيب، ارتجاجات الأرض، الينابيع التي ترتد إلى داخل الأرض، التلوّث بالكبريت. لقد شعر إكزومنيوس بذلك هو الآخر.

أخذت نيران المشاعل تتلألأ في النفق.

«موسى؟»

«نعم أيها الساقي؟»

«من أين كان إكزومنيوس أصلاً؟»

«من صقلية أيها الساقي».

«نعم، نعم أنا أعرف صقلية. من أي مكان منها تحديداً؟»

«أظن أنه من شرق صقلية». عبس موسى وأضاف: «من كاتانا. لماذا؟»

ولكن المهندس اكتفي بإرسال نظراته عبر السهول الضيقة التي ينيرها ضوء القمر باتجاه فيسوفيوس المظلّل، وامتنع عن الإجابة.

twitter @baghdad_library

جوبيتير

الرابع والعشرون من شهر آب

يوم ثوران البركان

twitter @baghdad_library

أورا بريما

الساعة: ٠٦:٢٠

في مرحلة معيّنة تفاعلت الصهارة الساخنة مع المياه الجوفية التي كانت تنز نزولاً عبر البركان، فتسبّب ذلك بظهور الحدث الأول أي الثوران الصهاري الناتج عن المياه الجوفية الساخنة، الذي خلّف انهمار كسرات بركانية رمادية دقيقة فوق الجوانب الشرقية للبركان. حدث هذا على الأرجح خلال ليل الرابع والعشرين من شهر آب أو صباحه.

البراكين: منظور أرضي

احتفظ بقلقه المتزايد لنفسه طوال الليلة الحارة وهم يعملون على ضوء المشاعل لتصليح خط الأنابيب. وقدّم يد العون لكورفينوس وبولايتس في مزج الإسمنت في أجران خشبية، حيث سكبوا الكلس السريع والرمل الأحمر المحلي الناعم وأضافوا كمية قليلة من المياه، كمية لا تزيد عن كوب واحد لأن هذا كان السر الأساسي لتحضير الكلس الجيد: كلما كان المزيج جافاً كان أقوى. ثم ساعد العبيد في حمله وإنزاله في سلال إلى خط الأنابيب ونشره لتشكيل قاعدة جديدة للخط. وساعد بريبكس في تحطيم الأحجار التي استخرجوها في وقت سابق، ثم أضافا بضع طبقات منها إلى القاعدة من أجل تدعيمها. وساعد في نشر الألواح الخشبية التي استخدموها لتغطية الجدران وللتنقل زحفاً على الإسمنت الطري. وأخذ يمرر قطع الآجر إلى موسى الذي قام برصفها. وأخيراً ساعد كورفينوس لوضع طبقة رقيقة من الغطاء (وهنا يكمن السر الثاني للإسمنت الجيد: سحنه بأقصى قوة ممكنة، أي شقه كما يُشق

twitter @baghdad_library

الخشب، لعصر آخر قطرة هواء أو مياه منه والتي قد تشكل لاحقاً مصدر ضعف).

حينما بدأت السماء فوق الفتحة تتحول إلى اللون الرمادي أدرك أنهم قاموا بما يكفي لإعادة تدفق المياه في الأوغوستا، وسيتحتم عليه العودة لاحقاً لتصليحها بشكل أفضل، ولكنها في الوقت الراهن ومع قليل من الحظ ستصمد. مشى حاملاً مشعله إلى نهاية القسم المرقّع متفحصاً كل قدم منه. إن طبقة الغطاء المضادة للمياه سيبدأ مفعولها وستظل طرية حتى مع عودة المياه إلى التدفق من جديد. وفي نهاية اليوم الأول ستصبح صلبة وفي نهاية اليوم الثالث ستصبح أقوى من الصخر. هذا إن كان لا يزال لجملة (أقوى من الصخر) أي معنى! ولكنه احتفظ بهذه الفكرة لنفسه.

قال لموسى حينما عاد: «إن الإسمنت الذي يجف تحت المياه هو معجزة حقاً».

ترك الآخرين يصعدون قبله. لقد بيّن لهم ضوء الفجر أنهم ثبّتوا خيمتهم في مرعى قاحل فيه صخور ضخمة وتحيط به الجبال. إلى جهة الشرق هناك جروف أبينينوس الشديدة الإنحدار، وهناك مدينة نولا التي أخذت تظهر للعيان على بُعد خمسة أو ستة أميال. ولكن الصدمة كانت في اكتشاف مدى قربهم من فيسوفيوس، فالجبل يقع على جهة الغرب مباشرة حيث يرتفع مستوى الأرض على بُعد بضع مئات من الخطوات من القناة، ويصل الارتفاع إلى حد عالٍ لدرجة أن المهندس اضطر إلى إرجاع رأسه إلى الوراء لرؤية القمة. وانتابه القلق الشديد حينما رأى بعد زوال العتمة، خطوطاً باللون الأبيض المائل إلى الرمادي بدأت تظهر على أحد جُوانب الجبل. بدت واضحة جداً مقابل الغابة المحيطة وكان لها شكل رؤوس الرماح وتتجه نحو القمة. ولو لم يكن شهر آب لأقسم أنها مصنوعة من الثلج. وقد لاحظ الآخرون وجودها أيضاً.

تساءل بريبكس قائلاً وهو يحدق ببلاهة في الجبل: «ثلج؟ ثلج في شهر آب؟»

سأل موسى: «هل سبق لك ن رأيت مثل هذا المنظر أيها الساقي؟» فهز أتيليوس برأسه نافياً. كان يفكر في الكلام الموجود على ورقة البردي والمكتوب باليونانية: «إن الرماد الذي تقذفه نيران إتنا يجعل الأرض صالحة جداً لزراعة الكرمة».

قال بتردّد وكأنه يتوجّه بالكلام إلى نفسه: «أيعقل أن يكون رماداً؟»

فاعترض موسى قائلاً: «ولكن كيف يعقل أن يكون هناك رماد من دون نار. ولو أنه كان ثمة نار بهذا الحجم الكبير خلال الليل لكنا رأيناها».

«هذا صحيح». أخذ أتيليوس يجول بنظره في وجوههم المنهكة والخائفة. كانت علامات عملهم منتشرة في كل مكان، كومات من الركام، أمفورات فارغة، مشاعل مطفأة، رقع محترقة في المكان الذي أضرمت فيه النيران ليلاً وتُركت حتى تنطفئ وحدها. وكانت البحيرة قد اختفت ولاحظ أتيليوس أن الطيور اختفت معها أيضاً، ولم يسمعها حين غادرت. كانت الشمس قد بدأت تبزغ فوق قمة جبلية مقابل فيسوفيوس. وكان في الجو سكون غريب حيث لاحظ أنه لا يُسمع أية زقزقة للعصافير، وليس ثمة ترانيم عند الفجر، وهذا من شأنه أن يثير تخوّف العرافين. «هل أنت واثق أنه لم يكن لهذا المنظر وجود حينما وصلت إلى هنا البارحة مع كوراكس؟»

قال موسى وهو يحدّق في فيسوفيوس: «أجل». أخذ يمسح يديه بقلق بقميصه الوسخ «لا بد وأن هذا حدث الليلة الفائتة حينما اهتزت الأرض. أتذكر؟ لا بد وأن هذا السبب. لقد تصدّع الجبل وتقيّأ».

اندلعت بين الرجال تمتمات تدل على توترهم ونادى أحدهم قائلاً: «هذا ليس إلا من فعل العمالقة!».

مسح أتيليوس العرق عن عينيه. كانت الحرارة قد بدأت ترتفع منذرة بيوم حار آخر. وثمة شيء أكثر من الحرارة، شد من نوع ما، كجلد الطبل الذي تم شده بشكل مبالغ فيه. هل كان عقله يضلِّله أو أن الأرض تهتز قليلاً تحتهم؟

twitter @baghdad_library

دبّت فيه موجة من الخوف أوقفت الشعر على مؤخر فروة رأسه. وبدأ يفكر بالشيء الذي يمكن أن يكون إكزومنيوس قد عرفه.

قال بسرعة: «حسناً. دعونا نغادر هذا المكان». توجّه ناحية كوريليا. ونادى من فوق كتفيه: «أخرجوا كل شيء من خط الأنابيب في الحال. لقد فرغنا من العمل هنا».

* * *

كانت لا تزال نائمة أو على الأقل هكذا حسبها. فوقف ينظر إليها متفحصاً جمالها الذي هو في غير موضعه لتواجدها في مثل هذا المكان النائي، وكأنها إيجيرا متواجدة بين قعقعة أدوات مهنته.

«لقد صحوتُ منذ ساعات» ثم انقلبت على ظهرها وفتحت عينيها: «هل فرغتم من العمل؟»

«فرغنا بالقدر الكافي». ركع وبدأ يجمع أوراق البردي: «سوف يعود الرجال إلى بومبي، وأريد منك أن تسيري أمامهم. سأرسل معك مرافقاً».

فجلست بسرعة وقالت: «لا!»

كان يعرف ما ستكون عليه ردة فعلها، فقد أمضى نصف الليل وهو يفكر بهذا الأمر. ولكن أي خيار آخر يملك؟ قال بسرعة: «يجب عليكِ إعادة هذه الوثائق من حيث أخذتها. إذا انطلقت الآن فستصلين إلى بومبي قبل منتصف النهار. مع قليل من الحظ لن يكتشف والدك أبداً أنك أخذت هذه الأوراق أو جلبتها إليّ».

«ولكنها الدليل على فساده..».

«لا» ثم رفع يده لإسكاتها: «لا إنها ليست الدليل على فساده. هذه الأوراق وحدها لا تعني شيئاً. فالدليل على فساده سيكون في حال أدلى إكزومنيوس بشهادته أمام مجلس حاكم. ولكني لا أعرف أين هو، ولا أملك المال الذي دفعه والدك له أو حتى دليلاً واحداً يثبت أنه أنفق شيئاً من هذا المال، فقد كان

في غاية الحذر. بنظر العالم، يُعتبر إكزومنيوس في غاية الصدق. إضافة إلى ذلك، هذا الأمر ليس بأهمية إبعادك عن هذا المكان. إذ أن ثمة ما يحدث للجبل، ولا أعرف ما هو. لقد راود إكزومنيوس شكوك بأمره منذ أسابيع. وكأن. . ». ثم كف عن الكلام لأنه لم يكن يعرف كيف يصوغ الوضع بكلمات. فأضاف باختصار: «ستكونين بأمان أكثر في بومبي».

أخذت تهز رأسها مستنكرة: «وماذا ستفعل أنت؟»

«سأعود إلى ميسينوم وأنقل تقريراً إلى الأميرال حول واقع الحال. إن كان ثمة من يستطيع تفسير ما يحصل فهو الأميرال».

«بمجرد أن تصبح وحدك سيحاولون قتلك».

«لا أظن ذلك. لو أنهم أرادوا القيام بذلك لكانوا فعلوا الليلة الفائتة، فقد تسنت لهم الكثير من الفرص. سأكون بأمان. لدي حصان وهم يسيرون على أقدامهم. لن يستطيعوا الإمساك بي حتى لو حاولوا ذلك».

«أنا أيضاً لدي فرس. خذني معك».

«هذا مستحيل».

«لماذا؟ أنا أجيد امتطاء الخيل».

أخذ يتخيّل صورتهما وهما يصلان إلى ميسينوم سوياً. إبنة صاحب فيللا أورتنسيا تشاطره غرفته المزرية في البيسينا ميرابيليس. ثم يعمد إلى تخبئتها حينما يأتي أمبلياتوس للبحث عنها. كم من الوقت سينفذان بفعلتهما هذه؟ مدة يوم أو يومين. ثم ماذا؟ إن قوانين المجتمع غير قابلة للتغيير كحال قوانين الهندسة تماماً.

أمسك بيديها وقال: «إسمعي يا كوريليا». لو أن بوسعي القيام بأي شيء لمساعدتك مقابل ما فعلته لأجلي فاعلمي أنني سأفعل. ولكن تحدي والدك ليس إلا جنوناً».

فقبضت بقوة على يديه وأجابت: «أنت لا تفهمني. لا أستطيع العودة.

twitter @baghdad_library

لا ترغمني على العودة. لا أطيق رؤيته من جديد أو الزواج من ذاك الرجل. . ».

«ولكنك تعرفين القانون، فحينما يتعلق الأمر بالزواج فأنت ملك والدك كحال أي من العبيد الموجودين هنا». ماذا عساه يضيف؟ كان يمقت الكلمات التي يتلفّظ بها فلم يجد بداً من قول: «قد يتبين أن الأمر ليس بقدر السوء الذي تخشينه». عند ذلك أخذت تتأوه وسحبت يديها وغطت بهما وجهها. بينما هو يواصل التفوه بالحماقات: «لا يسعنا الهرب من قدرنا. صدقيني ثمة أوضاع أسوأ من الزواج برجل غني. إذ يمكن لك أن تعملي في الحقول وتموتي بعمر العشرين، أو تكوني عاهرة في طرقات بومبي الفرعية. تقبّلي ما هو في طريقه إليك. وتعايشي مع الأمر. ستعتادين عليه. سترين».

رمقته بنظرة طويلة وهادئة، فلم يدرِ أكانت نظرة ازدراء أم كراهية؟: «أقسم لك إنني قد أصبح عما قريب عاهرة».

«وأنا أقسم لك أنك لن تصبحي عاهرة» وأخذ يتكلم بمزيد من الحدّة: «أنتِ صغيرة في السن وما الذي تعرفينه عن طريقة عيش الناس؟»

«أنا أعرف أنني لا أستطيع الزواج بشخص أمقته. هل تستطيع أنت ذلك؟». ثم أخذت تحدّق فيه وأضافت: «لعلك تستطيع».

أشاح بنظره عنها وقال: «لا يا كوريليا».

«هل أنت متزوج؟»

«لا».

«ولكنك كنت متزوجاً».

فأجاب بهدوء: «أجل كنت متزوجاً وماتت زوجتي».

أسكتتها هذه الجملة لبعض الوقت: «وهل كنت تكرهها؟»

«بالطبع لا».

«هل كانت تكرهك؟»

«لعلها كانت تفعل».

وبعد فترة صمت سألته: «وكيف ماتت؟»

لم يسبق لأتيليوس أن خاض في هذا الأمر قط، حتى أنه لم يفكر فيه. وإن حصل في بعض الأحيان وخصوصاً قبل ساعات الفجر حينما كان النوم يجافيه وينحرف ذهنه إلى ذاك الطريق التعيس، كان يعمد إلى إرجاع ذهنه ووضعه على مسار مختلف، وقد درّب نفسه جيداً على ذلك. ولكن الآن ثمة شيء في كوريليا. لقد نفذت إلى روحه، واندهش حينما وجد نفسه يخبرها.

«لقد كانت تشبهك نوعاً ما، وكانت تتمتع بمزاج حاد مثلك أيضاً». ضحك قليلاً وهو يتذكّر: «دام زواجنا مدة ثلاث سنوات» وشعر أن ما يفعله ضرب من الجنون ولكنه لم يقوَ على إيقاف نفسه: «كانت في مرحلة المخاض ولكن كانت رِجلا الطفل داخل الرحم موجهتين إلى الأسفل، مثل أغريبا. وهذا ما يرمز إليه الإسم أغريبا ـ أي مولود بصعوبة ـ هل كنت تعرفين هذه المعلومة؟ حسبتُ في البداية أن تشابه ولادة ساقٍ مستقبلي مع ولادة العظيم أغريبا هي فأل حسن، وكنت واثقاً أنه صبي. ولكن أخذت ساعات النهار تمر، وقد كنا في شهر حزيران آنذاك في روما، والطقس حار يماثل في شدة حرارته هذا المكان، وأبى الطفل أن يتحرك بالرغم من وجود طبيب وامرأتين معها، ثم بدأت تنزف». أغمض عينيه وتابع: «أتوا إلي قبل هبوط الليل قائلين: يا ماركوس أتيليوس اختر بين زوجتك وطفلك! فقلت إنني أختار الاثنين معاً. فقالوا لي إن هذا مستحيل، فقلت بالطبع أختار زوجتي. ودخلت إلى الغرفة لأكون بقربها فوجدتها في غاية الضعف ولكنها رفضت قراري. وأخذت تتجادل معي حتى في ذاك الظرف الصعب. كان لديهم مقص كذاك الذي يستخدمه البستاني وسكين وخطّاف. فعمدوا إلى قطع إحدى رِجلي الطفل ثم قطعوا الأخرى، ثم استخدموا السكين وقطّعوا الجسم ثم الخطاف لسحب الرأس. ولكن رغم ذلك لم يتوقف

twitter @baghdad_library

نزيف سابينا وفي صباح اليوم التالي ماتت هي الأخرى. لذا لستُ أدري، لعلها في النهاية كانت فعلاً تكرهني».

* * *

أعادها إلى بومبي برفقة بولايتس. ليس لأن العبد اليوناني كان أقوى مرافق متوافر بين يدي أتيليوس أو أفضل فارس، وإنما لأنه كان الوحيد الذي يثق به. أعطاه حصان كورفينوس وطلب منه ألا يدعها تبتعد عن ناظريه إلى أن تصل إلى ديارها بأمان.

في النهاية ذهبت معه على مضض ولم تنطق بأية كلمة، وقد خالج أتيليوس الشعور بالخجل مما قاله. لقد أفلح في إسكاتها ولكن بطريقة جبانة تفتقر إلى الرجولة ومثيرة للشفقة. هل سبق لأي محام مُداهِن من محامي روما أن استخدم وسيلة خطابية أرخص لإقناع المحكمة بوجهة نظره من تلك الخطبة البشعة التي استخدمها مستحضراً فيها روحَيْ زوجته وطفله الميتين؟

ألقت عباءتها على كتفيها ثم أرجعت رأسها إلى الوراء رافعة شعرها الأسود الطويل فوق قبة العباءة، وكان ثمة شيء مثير للدهشة في حركتها هذه يشير إلى أنها مستعدة للقيام بما يطلبه منها ولكنها ترفض الإذعان إلى أنه محق فيما يقول. لم تلتفت إليه أبداً وهي تركب على ظهر الفرس بكل مهارة، وأصدرت صوت طقطقة بلسانها وشدت اللجام وانطلقت وراء بولايتس.

تحكم أتيليوس في نفسه إلى أبعد الحدود كي يمتنع عن اللحاق بها، حيث وجد أن إعادتها إلى ديارها هي مكافأة سيئة على كل المخاطر التي عرّضتْ نفسها لها من أجله. ولكن ماذا توقّعتْ منه سوى ذلك؟ أما بالنسبة إلى القدر ـ موضوع خطبته الصغيرة الزائفة ـ فإنه فعلاً يؤمن بالقدر. فالمرء مرتبط به منذ الولادة وكأنه عربة متحرّكة. ليس بالإمكان تغيير وجهة الرحلة وإنما يمكن فحسب تغيير الطريقة التي يسير بها المرء. بإمكانه أن يختار المشي واقفاً على رجليه أو أن يُجر على الرمال وهو يتذمّر.

ومع ذلك ظل يشعر بالمرارة وهو يشاهدها تغادر، حيث كانت الشمس تنير

المكان في الوقت الذي أخذت فيه المسافة بينهما تتزايد مما أتاح له مراقبتها لمدة طويلة إلى أن مر الحصانان أخيراً خلف مجموعة من أشجار الزيتون، فاختفت بعدها.

* * *

في ميسينوم كان الأميرال مستلقياً على فراشه في غرفته الخالية من النوافذ وغارقاً في الذكريات. كان يتذكر الغابات المسطّحة والموحلة في أعالي ألمانيا، وأشجار البلوط الكبيرة التي تنمو على امتداد شاطئ البحر الشمالي ـ إن كان يمكن للمرء التكلم عن شاطئ لا حدود فيه بين اليابسة والبحر ـ والأمطار والرياح والطريقة التي تقتلع فيها الأشجار خلال هبوب العاصفة فتعلق أكوام كبيرة من التربة في جذورها وتنجرف بشكل عمودي وتنتشر أوراقها كالخرق فوق السفن الرومانية الهشة. كان لا يزال يرى في خياله البرق والسماء القاتمة ووجوه محاربي الشوسي الصفراء وسط الأشجار، ورائحة الوحل والأمطار، والرعب الناتج عن اصطدام الأشجار بالسفن الراسية، ورجاله وهم يغرقون في ذاك البحر البربري القذر.

ارتجف ثم فتح عينيه أمام الضوء الخافت ورفع نفسه إلى الأعلى وسأل إلى أين وصل، فعمد سكرتيره الجالس بمحاذاة الكنبة بالقرب من الشمعة والحامل لمرقمهٔ إلى النظر نزولاً على لوحة الشمع.

قال أليكسيون: «لقد وصلنا إلى دوميتيوس كوربيولو أيها الأميرال، حينما كنت في سلاح الفرسان تقاتل الشوسي».

«آه. أجل هذا صحيح. الشوسي. لقد تذكرت».

ولكن ما الذي كان يذكره؟ ما فتئ الأميرال يحاول منذ شهور كتابة مذكراته ـ وبدا واثقاً أنه كتابه الأخير ـ وقد ألهته هذه الكتابة عن أزمة القناة. ولكن في هذه الأيام يبدو له أن كل الذي رآه وفعله وقرأه وأُخبر عنه ممتزج ببعضه البعض وكأنه حلم لا ينتهي. يا للأشياء التي شهدها! الإمبراطورة ـ لوليا بولينا زوجة كاليغولا، التي كانت تشع كالنافورة تحت ضوء الشموع خلال مأدبة خطوبتها

twitter @baghdad_library

وتتزين بعقد من اللآلئ والزمرد بقيمة أربعين مليون سسترس. والإمبراطورة أغريبينا المتزوجة من كلوديوس الأخرق، وقد رآها تمر من أمامه بعباءة مصنوعة كلها من الذهب.

لقد شاهد عملية البحث عن الذهب حينما كان وصياً شمالي إسبانيا حيث يقوم عمال المناجم بحفر جانب الجبل ويتدلون على حبال فإذ بهم يبدون عن بُعد أشبه بطيور عملاقة تنقر الصخر. يا له من عمل! ويا لخطورته! وما هي الغاية منه؟ مسكينة أغريبينا، فقد قُتلت هنا في هذه المدينة بالتحديد على يد أنسيتوس، وهو سلفه الذي كان يشغل منصب أميرال فيلق ميسين، تلبية لأوامر ابنها الإمبراطور نيرون الذي عمد إلى إرسال والدته إلى عرض البحر على متن قارب ما لبث أن غرق لاحقاً، ثم جعل البحارة يطعنونها حتى الموت حينما حاولت الدفاع عن نفسها على الشاطئ. يا لهذه القصص! كانت هذه مشكلته، إذ لديه الكثير من القصص لا يتسع لها كتاب واحد.

الشوسي!. كم كان يبلغ من العمر حينئذ؟ أربعاً وعشرين سنة كانت حملته الأولى. ثم بدأ يتكلم من جديد: «أذكر أن الشوسي كانوا يعيشون على منصات خشبية عالية هرباً من المد الغادر في تلك المنطقة، وكانوا يجمعون الوحل بأيديهم العارية ويقومون بتجفيفه بواسطة الرياح الشمالية المثلجة ويحرقونه لاستخدامه كوقود. ومن أجل الشرب كانوا يعتمدون على مياه الأمطار فحسب بحيث يجمعونها في خزانات أمام منازلهم، وهي إشارة واضحة إلى افتقارهم للحضارة. يا لهم من سفلة بائسون هؤلاء الشوسي!» ثم توقف هنيهة وأضاف بعدها: «إنسَ هذه الجملة الأخيرة».

فُتح الباب قليلاً فدخل إلى الغرفة خط من الضوء الأبيض الساطع. وسُمع هدير البحر المتوسطي وأصوات الدق في المسافن، وهذا يعني أن الصباح قد حل. لا بد وأنه ظل صاحياً منذ ساعات طويلة. أُقفل الباب من جديد، ومشى عبد على أطراف أصابعه حتى وصل إلى السكرتير وهمس في أذنه. قلب بليني جسده السمين على جنبه ليحظى برؤية أفضل.

«كم الساعة؟»

«إنها نهاية الساعة الأولى أيها الأميرال».

«هل تم فتح السدود في الخزان؟»

«أجل أيها الأميرال. وصلتنا رسالة تفيد بأن الخزان لم تعد فيه ولا قطرة واحدة».

أنّ بليني وعاد وارتمى على وسادته.

«ويبدو يا سيدي أنه حدث اكتشاف مهم جداً».

* * *

غادرت فرقة العمل بعد كوريليا بنصف ساعة. لم يحصل أي توديع مؤثر، إذ إن عدوى الخوف انتقلت من الرجال إلى موسى وكورفينوس وبالتالي بات الجميع يتحرّقون للعودة إلى بومبي حيث الأمان. حتى بريبكس المجالد السابق، ذاك البطل الذي لم يُهزم في ثلاثين قتالاً، ظل يوجه عينيه السوداوتين الصغيرتين بتوتر ناحية فيسوفيوس. لقد نظّفوا خط الأنابيب وسحبوا المعدات وقطع الآجر غير المستخدمة والأمفورات الفارغة ونقلوها إلى ظهر العربتين. وأخيراً قام بضعة عبيد بتنظيف الأرض بالرفوش وأزالوا بقايا نيران المساء ودفنوا الندب الرمادية التي خلفها الإسمنت. وحينما فرغوا من العمل بدا وكأنهم لم يأتوا إلى هذا المكان أبداً.

وقف أتيليوس أمام فتحة التفحص والقلق يعتريه مكتفاً ذراعيه، ثم أخذ يشاهدهم يتحضرون للمغادرة. تعتبر هذه اللحظة الأشد خطورة على حياته وذلك بعد أن تم الانتهاء من العمل، إذ إنه من المتوقع من أمبلياتوس أن يحرص على الاستفادة من المهندس حتى آخر لحظة قبل التخلّص منه. كان مستعداً للدخول في عراك والتضحية بحياته إذا لزم الأمر.

كان لدى موسى الحصان الثاني الذي لا يوجد غيره، وبمجرد أن أصبح على السرج نادى أتيليوس قائلاً له: «هل ستأتي؟»

twitter @baghdad_library

«لا ، ليس بعد. سألحق بك لاحقاً».

«لماذا لا تأتي الآن؟»

«لأنني سأتسلق الجبل».

نظر موسى إليه باندهاش وسأله: «لماذا؟»

إنه سؤال جيد. لأن الجواب على ما كان يحدث هنا لا بد وأنه يقبع هناك، ولأن من واجبي أن أحافظ على تدفق المياه، ولأنني أشعر بالخوف.

هزّ المهندس بكتفيه «بداعي الفضول. لا تقلق فأنا لم أنسَ وعدي، إن كان هذا ما يثير قلقك. خذ». رمى لموسى كيس النقود الجلدي: «لقد أبليتم حسناً. إشترِ للرجال بعض الطعام والنبيذ».

فتح موسى الكيس وتفحّص ما بداخله: «يوجد الكثير من المال هنا أيها الساقي. إنه كاف لتأمين امرأة أيضاً».

ضحك أتيليوس: «مع السلامة يا موسى. أراك قريباً إما في بومبي أو في ميسينوم».

رمقه موسى بنظرة ثانية وبدا أنه على وشك التفوه بكلام ما، ولكنه ما لبث أن غيّر رأيه ثم أنطلق وراء العربتين فبات أتيليوس وحده.

ومن جديد صعقه السكون الغريب الذي يميز هذا النهار وكأن الطبيعة تحبس أنفاسها. أخذت أصوات العربتين العالية تخفت مع بُعد المسافة وبات جل ما يسمعه هو رنين جرس معزاة يصدر بين حين وآخر وأصوات الصرصار الصادرة من كل مكان، عندئذ باتت الشمس عالية جداً. أخذ يجول بنظره صوب الريف المهجور ثم استلقى على بطنه وراح ينظر إلى خط الأنابيب، فسطعت الشمس بقوة على ظهره وكتفيه. راح يفكر بسابينا وكوريليا وبالصورة الفظيعة لابنه الميت، فبدأ ينتحب. لم يحاول أن يوقف نفسه عن البكاء، وللمرة الأولى استسلم للدموع. أخذ يغص ويرتجف نتيجة الحزن الشديد ويتنشق هواء النفق

المفعم برائحة الإسمنت الرطب الباردة والمرّة، وشعر أن ذاته قد انفصلت وكأنه انقسم إلى شخصين أحدهما يبكي والآخر يتفرج عليه.

بعد فترة كف عن البكاء ورفع نفسه ومسح وجهه بكم قميصه، وحينما عاود النظر إلى الأسفل من جديد لمحت عيناه شيئاً ما، رأى انعكاساً ضئيلاً للضوء وسط الظلام. أرجع رأسه إلى الوراء بعض الشيء لتدخل أشعة الشمس مباشرة عبر الفتحة فرأى أرض القناة تلمع. فرك عينيه وعاود النظر من جديد، وخلال مراقبته بدا أن نوعية الضوء تتغير وتصبح أقوى حيث أخذت تترقرق وتتسع في الوقت الذي راح فيه النفق يمتلئ بالمياه.

همس لنفسه قائلاً: «ها قد عادت تتدفق!»

بعد أن شعر بالرضا لكونه لم يخطئ ولأن المياه عادت تتدفّق في الأوغوستا، دحرج الغطاء وغطى به الفتحة. أنزله ببطء، ساحباً أصابعه في اللحظة الأخيرة ليدعه يسقط. وعندها تم إغلاق النفق مصدراً صوتاً مكتوماً.

فك قيد حصانه وصعد على السرج. ووسط الحرارة العالية كانت الأحجار الموسومة بعلامات والخاصة بالقناة تتلألأ على المسافة البعيدة وكأنها خط من الأحجار المغطّسة في الماء. جذب اللجام ووجّه ظهره للأوغوستا مواجهاً فيسوفيوس، ثم لكز الحصان وراح يسير على امتداد الخط الذي يؤدي إلى الجبل. في البداية سار الحصان بخطى بطيئة ثم سرّع خطواته حينما بدأت الأرض ترتفع.

* * *

في البيسينا ميرابيليس لم يعد ثمة قطرة واحدة من المياه وبات الخزان الكبير فارغاً، وهو شيء يندر حدوثه. كان قد حدث ذلك في العقد الماضي وذلك من أجل أعمال الصيانة حتى يتمكن العبيد من إخراج المواد المترسبة بواسطة الرفوش وتفقّد الجدران بحثاً عن أية تصدعات. أخذ الأميرال يصغي بإمعان لدى شرح العبد لكيفية عمل نظام جر المياه، فلطالما كان يبدي اهتماماً بالشؤون التقنية.

twitter @baghdad_library

«وما هي المواقيت التي يجدر فيها القيام بذلك؟»

«عادة كل عشر سنوات أيها الأميرال».

«إذاً كان ذلك سيتم في وقت قريب».

«أجل أيها الأميرال».

وقف بليني وابن أخته غايوس وسكرتيره أليكسيون والعبد المسؤول عن المياه درومو على سلالم الخزان في منتصف الطريق نزولاً وكان بليني قد أصدر أمراً بعدم التحرك قيد أنملة إلى حين وصوله، وقد تم وضع حارس من القوات البحرية عند الباب لمنع دخول الأشخاص الذين لا يملكون تصريحاً بالدخول. انتشر خبر هذا الاكتشاف، فوقف ذاك الحشد البشري في الباحة.

بدت أرضية البيسينا أشبه بالشاطئ الموحل إثر مبارحة المد له. وكان ثمة برك صغيرة هنا وهناك، حيث الترسبات مجوفة بعض الشيء، وفضلات مبعثرة من الأغراض: معدات صدئة، أحجار، أحذية. سقطت في المياه على مر السنوات وغرقت إلى الأسفل. كان البعض منها مغطى بالكامل فبدا وكأنه مجرد كومة صغيرة على السطح الأملس. كان قارب التجذيف يقع على أرض الخزان. وبدت العديد من آثار الأقدام مرتسمة من أسفل السلالم ناحية وسط الخزان حيث يقبع شيء أكبر ثم تعود منها. سأل درومو الأميرال إن كان يود منه جلبه.

قال بليني: «لا. أريد رؤيته بنفسي في مكانه. ساعدني يا غايوس». أشار إلى حذائه فركع ابن أخته وفك إبزيم الحذاء واستند الأميرال على أليكسيون ليتمكن من الوقوف. شعر بحشرية طفولية، وتفاقم هذا الشعور لديه حينما نزل على آخر درجة وأنزل قدميه بحذر في المواد المترسبة. برزت من بين أصابع رجليه أوساخ سوداء اللون وكانت باردة فبعثت فيه الراحة. وعلى الفور عاد صبياً من جديد في منزل العائلة في كوموم التي تقع شمالي نهر البو في إيطاليا حيث كان يلعب على شواطئ البحيرة، وباتت السنوات التالية لتلك المرحلة ـ التي تقدّر بنصف قرن من الزمن تقريباً ـ مجرد حلم. كم مرة كان يحدث هذا الأمر خلال النهار؟ لم يحدث البتة. ولكن في الآونة الأخيرة بات كل شيء

تقريباً يولد هذا الشعور ـ رائحة ما، لمسة، صوت، وميض لون ـ وعلى الفور تتدفق عليه ذكريات لم يكن يعلم أنه لا يزال يمتلكها وكأنه لم يعد ثمة ما بقي منها سوى كيس ساكن من الذكريات.

رفع طيات التوغة التي كان يرتديها وبدأ يخطو بنشاط على السطح، وقدماه تغرقان عميقاً في الوحل الذي أخذ يصدر صوتاً كلما رفع قدميه. سمع غايوس ينادي من خلفه: «إنتبه يا خالي!» ولكنه هز برأسه وأخذ يضحك. ظل بعيداً عن آثار الأقدام التي خلفها الآخرون، ووجد متعة أكبر في وطأ قدميه على الوحول التي لم تطأها قدم والتي بدأت تقسو بسبب الهواء الحار. وتبعه الآخرون على مسافة دالة على الاحترام.

راح يفكر في مدى تميز بناء هذا القبو الجاثم تحت الأرض بأعمدته التي يبلغ طول كل منها عشرة أضعاف طول الرجل. يا للمخيلة التي تخيلته للمرة الأولى، ويا للإرادة والقوة التي حولته إلى بناء من أجل تخزين المياه التي تم جرها من مسافة ستين ميلاً! لم يكن لديه اعتراض قط على تأليه الأباطرة ففلسفته تقول: «إن الإله يكمن في مساعدة الإنسان للإنسان». لقد استحق أغسطس العظيم موقعه في البانتيون لمجرد أنه نفّذ قناة جر المياه في كامبانيا والبيسينا ميرابيليس.

حينما وصل إلى وسط الخزان كانت قد انقطعت أنفاسه نتيجة الجهد الذي بذله حينما أخذ يرفع قدميه مراراً وتكراراً من وسط الترسبات اللاصقة. أسند نفسه على عمود حتى وصل غايوس إليه، ولكنه كان مسروراً لكونه بذل المجهود. كان العبد المسؤول عن المياه حكيماً في قرار استحضاره إلى هنا، إذ يجدر به أن يرى هذا الشيء بكل تأكيد: إنه لغز الطبيعة وقد تحوّل إلى لغز للإنسان.

كان الشيء الموجود في الوحل أمفورة مستخدمة لتخزين الكلس السريع ملقاة بشكل عمودي تقريباً وجزؤها السفلي مدفون في الطبقة الناعمة من الخزان. منذ أمد بعيد كان ثمة حبل رفيع مربوط بمسكتيها، وقد التفّت كتلة

twitter @baghdad_library

متشابكة من الخيوط حولها، أما الغطاء الذي كان مثبتاً بالشمع فقد تم رفعه. وكان في الوحل أشياء مبعثرة لامعة لعلها كانت مئة من النقود الفضية الصغيرة.

قال درومو بحماسة: «لم يتم تحريك شيء من مكانه أيها الأميرال. لقد طلبت منهم إبقاء كل شيء في مكانه».

نفخ بليني خديه: «كم تقدر كميتها يا غايوس؟»

أغمد ابن أخته كفيه في الأمفورة وكوّمهما ثم أراهما إلى الأميرال. كانا يطفحان بالدنانير الفضية: «إنها ثروة يا خالي».

«ثروة غير مشروعة بكل تأكيد. إنها تفسد الوحل الصادق». لم تكن الآنية الخزفية ولا الحبل مكسوّين بطبقة كثيفة من الوحل، فوجد بليني أن هذا يشير إلى أنه لم يمض مدة طويلة على تواجدها على أرض الخزان، شهر كأقصى حد. نظر إلى الأعلى ناحية السقف المقنطر. وقال: «لا بد وأن أحداً ما جذّف وخرج من هنا وأنزلها على الجانب».

«ثم ترك الحبل؟» قال غايوس ذلك وهو ينظر إلى خاله بتعجب، ثم تساءل: «ولكن من عساه يفعل مثل هذا الشيء؟ كيف أمِلَ باستعادة الأمفورة؟ لا يمكن لأي غطاس أن يغطس إلى هذا العمق».

«صحيح». أغمد بليني يده في النقود وتفحصها بكفيه وفرّقها عن بعضها البعض بإبهامه. كانت صورة فيسباسيان الجانبية العابسة المألوفة تزين جهة من النقود ونقوش العرافة المقدسة تشغل الجهة الأخرى. وتُظهر الكتابات الموجودة حول الأطراف أنها وُجدت أيام العهد الثالث للإمبراطور قبل ثماني سنوات. «إذاً علينا الافتراض أن مالكها لم يكن ينوي استعادتها بواسطة الغطس يا غايوس وإنما عبر تجفيف الخزان. والرجل الوحيد الذي يمتلك صلاحية إفراغ الخزان حينما يحلو له هو ساقينا المفقود إكزومنيوس».

أورا كوارتا

الساعة: ١٠:٣٧

يشير معدل مستويات ارتفاع الصهارة الذي تم التوصل إليه في الدراسات الحديثة إلى أن الصهارة التي كانت موجودة في الحجرة الصهارية تحت جبل فيسوفيوس بدأت بالارتفاع بسرعة تزيد عن ٢،٠ متر في الثانية داخل قناة البركان قبل أربع ساعات من ثورانه، أي في حوالي الساعة التاسعة صباح يوم الرابع والعشرين من شهر آب.

بوكهارت مولر ألريخ (محرر)، ديناميكيات البراكين

كان مجلس الأربعة أي حكام بومبي المُنتخَبون يعقدون جلسة طارئة في غرفة الرسم لدى لوشيوس بوبيديوس. وكان العبيد قد جلبوا لكل منهم كرسياً وطاولة صغيرة مستديرة جلسوا حولها وظلوا معظم الوقت صامتين مكتوفي الأيدي في حالة انتظار. أما امبلياتوس، ومراعاة لكونه ليس عضواً حاكماً، فقد جلس على كنبة في الزاوية وهو يأكل حبة تين ويقوم بمراقبتهم. كان يرى عبر الباب المفتوح بركة السباحة ونافورتها الساكنة، ثم وقع نظره أيضاً على هرة تلعب بعصفور صغير في زاوية الحديقة المرصوفة بالآجر. إن مشاهد العنف والموت هذه تأسره. كان المصريون يعتبرون الهرة حيواناً مقدساً: إذ أنها من بين جميع المخلوقات الأقرب ذكاء إلى الإنسان. وفي الطبيعة كلها وحدهما الهر والإنسان ـ على حد تصوره ـ يستمدان المتعة من العنف. هل هذا يعني أن العنف والذكاء متشابكان؟ يا لهذه الفكرة المثيرة للاهتمام!

twitter @baghdad_library

أكل حبة تين أخرى، فأجفل بوبيديوس من صوت ابتلاعها: «أرى أنك تبدو واثقاً إلى أقصى الحدود يا أمبلياتوس» وظهر قليل من الانزعاج في صوته.

«أنا واثق إلى أقصى الحدود. عليك أن ترتاح».

«يسهل عليك جداً قول هذا الكلام، فاسمك ليس موجوداً على خمسين إشعاراً موزعاً في أنحاء المدينة نطمئن فيه الناس أجمعين بأن المياه ستعاود التدفق عند حلول منتصف النهار».

«إنها المسؤولية العامة. ثمن انتخابك كحاكم يا عزيزي بوبيديوس». ثم لعق أمبلياتوس أصابعه المبللة، وحمل إليه عبد قدراً فضياً صغيراً، غمس فيه كفيه ونشّفهما بقميص العبد: «ثقوا بالهندسة الرومانية يا سادة وسيكون كل شيء على ما يرام».

كان قد مضى أربع ساعات على استفاقة بومبي على نهار حار جديد خال من الغيوم، واكتشاف أمر تعطل قناة جر المياه. لقد سبق لأمبلياتوس أن أثبت صدق إحساسه فيما سيحصل تالياً. إن حدوث الجفاف في صباح اليوم التالي لقيام معظم أهل المدينة بتقديم الأضاحي إلى فولكان يصعّب على الناس، حتى هؤلاء الذين لا يؤمنون جداً الخرافات، عدم اعتبار هذا الأمر دليلاً آخر على الامتعاض الإلهي. بعد انبلاج الفجر بوقت قصير بدأت الحشود الغاضبة تتجمع في زوايا الطرقات، وكان ثمة إعلانات موقّعة من قبل لوشيوس بوبيديوس الثاني معلقة في الساحة العامة وعند كبريات النوافير تشير إلى أنه بوشر بالتصليحات في القناة وأن المياه ستعاود التدفق عند حلول الساعة السابعة. ولكن هذا الكلام لم يطمئن كثيراً أولئك الذي شهدوا الزلزال الفظيع الذي حدث قبل سبع عشرة سنة ـ فقد كفت المياه حينها عن التدفق أيضاً ـ فانتشرت حالة من التوتر في أرجاء البلدة ظلت طيلة الصباح. لم تتمكن بعض المحال من فتح أبوابها، وغادر بضعة أشخاص بعد أن كدسوا أغراضهم فوق العربات معلنين بأن فولكان عزم على تدمير بومبي للمرة الثانية. والآن انتشر خبر أن مجلس الأربعة مجتمع في منزل آل بوبيديوس، فتجمّع حشد من الناس في الطريق خارج المنزل. بين

الفينة والأخرى أمكن للحاضرين في قاعة الرسم المريحة سماع أصوات الحشود: دمدمة شبيهة بأصوات الوحوش المُحتجَزة داخل القفص في أنفاق المدرج قرابة إطلاق سراحها لمقاتلة المجالدين.

ارتجف بريتيوس وقال: «قلت لكم إنه ما كان علينا أبداً مساعدة المهندس ذاك».

ووافقه كوسبيوس القول: «هذا صحيح. هذا ما قلته في البداية. والآن أنظروا إلى أين وصلنا».

راح امبلياتوس يفكر أن بوسع المرء معرفة الكثير من خلال وجه المرء: إلى اي مدى يغمس نفسه في ملذات الطعام والشراب، وأية مهنة يمتهن، ومقدار كبريائه وجبنه وقوته. لذا فبوبيديوس يتّسم بالوسامة والضعف، أما كوسبيوس فهو مثل والده شجاع ومتوحش وغبي، وبريتيوس منغمس في ذاته، وهولكونيوس نكد جداً ولاذع، إن هذه المجموعة مزيج من كل الأصناف.

قال أمبلياتوس بتحبب: «تجلّدوا وفكروا بالأمر. لو أننا لم نساعده لكان بكل بساطة لجأ إلى نولا طلباً للمساعدة ولكنا خسرنا مياهنا بكل الأحوال بعد يوم واحد فحسب. وكيف كان سيبدو هذا الأمر حينما يتناهى إلى أسماع روما؟ إننا بهذه الطريقة نعلم مكانه وهو بين أيدينا».

لم يلحظ الآخرون شيئاً ولكن هولكونيوس قال على الفور. «وما أهمية علمنا بمكانه؟»

بدا أمبلياتوس حائراً لا يملك جواباً فضحك بهدف التمويه: «هيا يا هولكونيوس! أليس من المفيد دوماً معرفة أكبر قدر ممكن من الأمور؟ وهذا يساوي ثمن إقراضه بعض العبيد وبضعة أخشاب وكلساً. أليس من الأسهل التحكم بالمرء بمجرد أن يصبح مديوناً لك؟»

فقال هولكونيوس بطريقة جافة: «هذا صحيح بكل تأكيد»، ثم نظر إلى بوبيديوس الجالس مقابله.

twitter @baghdad_library

حتى بوبيديوس لم يكن في غاية الغباء لتفوته هذه الإهانة، فاحمر وجهه وقال: «ماذا تقصد؟» وأرجع كرسيه إلى الوراء.

قال أمبلياتوس وقد أراد إيقاف هذا الحديث قبل أن يتمادى أكثر: «اسمعوا. أود أن أطلعكم على نبوءة حصلت عليها هذا الصيف حينما بدأت الاهتزازات».

«نبوءة؟» عاود بوبيديوس الجلوس من جديد وقد أبدى اهتماماً بالموضوع على الفور. كان يحب مثل هذه الأمور وقد أدرك أمبلياتوس ذلك جيداً: «إنها بيريا العجوز بيديها البرونزيتين السحريتين المغطاتين برموز غامضة وقفصها المليء بالأفاعي وعينيها البيضاوين اللتين تعجزان عن رؤية وجه إنسان في الوقت الذي تكشفان فيه المستقبل».

«هل استشرت العرافة؟ وماذا قالت؟»

أغدق أمبلياتوس الحزن على تقاسيم وجهه ملاءمة للموضوع: «لقد قدمتْ أفاعي كأضاحٍ لسابازيوس وسلختها بحثاً عن المعلومات فيها. لقد كنت حاضراً حينها». أخذَ يتذكر النيران على المذبح والدخان واليدين اللامعتين والبخور وصوت العرافة المتهدج: ذاك الصوت العالي النبرة والذي بالكاد يعتبر صوتاً بشرياً، ويشبه صوت لعنات تلك المرأة المسنة التي أُطعم ابنها إلى أسماك الأنقليس. لقد روّعته تلك الطقوس رغماً عنه. «لقد رأت مدينة ـ مدينتنا ـ بعد عدة سنوات من الآن. بعد ألف سنة وربما أكثر». جعل حدة صوته تخفت لتصبح همساً: «رأت مدينة يذيع صيتها على امتداد العالم: معابدنا، مدرجنا، طرقاتنا، تفيض بأناس ينطقون بلغات متعددة. هذا ما رأته في أحشاء الأفاعي. بعد أمد طويل من زوال الإمبراطورية وتحول القياصرة إلى رماد سيظل ما بنيناه هنا صامداً في وجه العصور».

أرجع ظهره إلى الوراء، وكاد يقنع نفسه بهذا الكلام. وتنفس بوبيديوس الصعداء وقال: «بيريا أونوماستيا لا تخطئ أبداً».

سأل هولكونيوس مشككاً: «وهل ستكرّر هذا الكلام كله؟ هل ستدعنا نستخدم نبوءتها؟»

فأكد له أمبلياتوس قائلاً: «سوف تفعل. حري بها أن تفعل، فقد دفعت لها الكثير من المال مقابل هذه النبوءة». حسب أنه سمع شيئاً ما، فنهض عن الكنبة وخرج إلى الحديقة حيث تسطع الشمس. كانت النافورة التي تغذي حوض السباحة بالماء على شكل حورية تصب من إبريق، حينما اقترب منها أكثر سمع الصوت من جديد، قرقرة خافتة، ثم ما لبثت المياه أن بدأت تسيل من فوهة الأنبوب. في البداية ضعف دفق الماء، ثم انبجس بشكل قوي، ثم بدا وكأنه توقف، ولكنه عاود التدفّق بشكل أقوى. فجأة شعر بأن القوى الغامضة التي أطلقها أثّرت به كثيراً. فطلب من الآخرين أن يأتوا ويلقوا نظرة: «أترون لقد قلت لكم. النبوءة صحيحة».

وسط التعليقات الدالة على البهجة والارتياح حتى هولكونيوس أفلح في رسم ابتسامة صغيرة على وجهه: «هذا جيد».

نادى أمبلياتوس القهرمان: «سكوتاريوس! إجلب لمجلس الأربعة أفضل نبيذ عندنا. إجلب النبيذ الكاكوبي. لمَ لا؟ والآن يا بوبيديوس هل أنقل الخبر إلى الحشد أم تقوم أنت بذلك؟»

«قُمْ أنت بذلك يا أمبلياتوس فأنا بحاجة إلى مشروب».

مشى أمبلياتوس عبر القاعة الرئيسية باتجاه الباب الأمامي، وأشار إلى ماسافو كي يفتحه ثم خرج ووقف على العتبة. كان يحتشد في الطريق ما يقارب المئة شخص تقريباً وكان يحب اعتبارهم شعبه. رفع يديه طلباً للهدوء وصرخ قائلاً حينما خفتت همهمة الأصوات: «أنتم جميعاً تعرفون من أنا، وتعرفون أن بوسعكم الوثوق بي».

نادى أحدهم من الخلف قائلاً: «لِمَ عسانا نثق بك؟»

فتجاهله أمبلياتوس: «لقد عاودت المياه التدفق من جديد! إن لم تصدقوني كذاك الفتى الوقح الواقف هناك فاذهبوا والقوا نظرة على النوافير لتروا بأم

twitter @baghdad_library

أعينكم. لقد تم تصليح القناة! وسيتم في وقت لاحق اليوم الإعلان عن نبوءة رائعة أطلقتها العرافة بيريا أونوماستيا. سيتطلب الأمر أكثر من مجرد بضعة اهتزازات في الأرض وفصل صيف حار لإخافة مستعمرة بومبي!»

هلّل بعض الأشخاص فابتسم أمبلياتوس ولوّح بيده: «نهار سعيد لكم جميعاً أيها المواطنون! فلنعد إلى أعمالنا. يحيا الربح! الربح رائع!» ثم عاد إلى الردهة. همس لسكوتاريوس وهو لا يزال يبتسم للحشود: «إرمِ لهم بعض المال يا سكوتاريوس ولكن ليس الكثير. إرمِ لهم ما يكفيهم لشراء بعض النبيذ». تريّث قليلاً حتى يسمع نتائج كرمه، فأخذت الحشود تتدافع للحصول على النقود، ثم عاد إلى القاعة الرئيسية وهو يفرك يديه بفرح غامر. إن اختفاء إكزومنيوس هز توازنه وهو لا ينكر هذا الأمر ولكن خلال أقل من يوم عالج المشكلة وبدأت المياه تتدفق من النافورة بغزارة، وإن لم يكن ذاك الساقي الشاب ميتاً فإن الموت سيخطفه قريباً، وهذا سبب يدعو إلى الاحتفال! تعالت من قاعة الرسم أصوات الضحك ورنين الكريستال. كان على وشك الالتفاف حول حوض السباحة للانضمام إليهم حينما رأى عند قدميه جثة العصفور الذي كان يراقبه وهو يُقتل. لكزه بإصبع رجله ثم توقف ليلتقطه. كان جسده الصغير لا يزال دافئاً: رأس أحمر وخدان أبيضان وجناحان أبيضان وأصفران، وكان ثمة قطرات من الدم في عينه.

إنه حسون، ولم يتبقَّ منه سوى الريش والزغب. وزنه بيده لوهلة ودارت فكرة سوداء في رأسه ثم تركه يسقط وصعد بسرعة على السلالم المؤدية إلى الحديقة المعرّشة في منزله القديم. لمحت الهرة قدومه وهرعت من أمامه مختبئة في شجيرة ولكن لم يكن أمبلياتوس يأبه لأمر اللحاق بها. كانت عيناه مثبتتين على القفص الفارغ الموجود على شرفة كوريليا وعلى نوافذ غرفتها المغلقة والمعتمة. صرخ منادياً: «سيلسيا!» فأتت زوجته راكضة. «أين كوريليا؟»

«لقد كانت مريضة فتركتها تنام. .».

«أحضريها! حالاً!» ودفعها باتجاه السلالم ثم استدار وتوجه مسرعاً إلى مكتبه.

«لا يعقل أن. .»

«إنها لا تجرؤ. .»

أدرك أن ثمة خطباً ما لحظة التقط الفانوس وأخذه إلى طاولة مكتبه. كان أمبلياتوس يلجأ إلى خدعة قديمة تعلّمها من سيده السابق ـ حيث يلصق شعرة على فتحة الجارور ليتبين من خلالها إن كان ثمة يد خفية تعبث بأغراضه ـ لقد نجحت هذه الخطة جيداً، وكان قد أفهم الجميع بأنه سيصلب العبد الذي يشك بأمانته.

لم تكن الشعرة موجودة. وحينما فتح الصندوق المتين وأخرج علبة الوثائق لم يجد أوراق البردي أيضاً. جمد في مكانه كالمخبول مقلّباً العلبة الفارغة ثم أخذ يهزها كالساحر الذي نسي بقية خدعه، ثم قذف بها إلى آخر الغرفة حيث ارتطمت بالحائط وتكسّرت. أخذ يركض خارجاً إلى الباحة بينما كانت زوجته تفتح باب غرفة كوريليا وتقف على الشرفة ويداها تغطيان وجهها.

* * *

حينما عبرت كوريليا بوابة فيسوفيوس ودخلت إلى القلعة المائية كان ظهرها مواجهاً للجبل. كانت المياه قد عاودت التدفق في النوافير من جديد ولكن لا يزال تدفقها ضعيفاً، ومن هذا الموقع العالي تسنى لها رؤية الغطاء الكثيف الذي لف بومبي والناتج عن حشود الناس المتنقلة في الطرقات الخالية من المياه. تعالت أصوات الضجيج الناتجة عن النشاط العارم فوق السقوف الحمراء.

كانت قد أخذت وقتها في رحلة العودة إلى المنزل ولم تحث فرسها ولا مرة واحدة على الإسراع، فأخذت الفرس تسير الهوينا وهي تلتف حول فيسوفيوس وتقطع السهل. وعندما كانت تنزل على التل باتجاه تقاطع الطرق الكبير وبولايتس يسير خلفها باحترام بدا وكأن جدران المنازل البيضاء ترتفع عن

twitter @baghdad_library

جانبيها لتطوقها وكأنها في سجن. هذه الأماكن كانت موجودة منذ الطفولة ـ الأحواض المخفية وحدائق الزهور العطرة، والمتاجر بأقمشتها وحليها، والمسارح والحمامات المليئة بالضجيج ـ كلها باتت بنظرها ميتة وكأنها رماد. لاحظت الغضب والإحباط يعتلي وجوه الناس الموجودين عند النوافير حيث كانوا يتدافعون لوضع أوانيهم تحت قطرات الماء فعاودت التفكير في الساقي. تساءلت عن مكانه وعما يفعله. لقد ظلت قصة زوجته وابنه تطاردها طيلة طريق عودتها إلى بومبي.

أدركت أنه على حق، فمصيرها محتوم. لم تعد تشعر لا بالغضب ولا بالخوف وهي تقترب من منزل والدها. باتت لا تشعر بهذه الأحاسيس البتّة ولكنها كانت منهكة وعطشانة ووسخة. لعل هذا ما ستكون عليه حياتها من الآن فصاعداً، حيث سيواصل جسدها القيام بحركات الوجود الروتينية ولكن روحها ستكون في مكان آخر، حذرة ومنفصلة. رأت حشداً من الناس في الطريق على مسافة قريبة، إنه حشد أكبر من المتسوِّلين المعتادين الذين ينتظرون ساعات على أمل التحدث مع والدها. أخذت تراقبهم فبدوا لها وكأنهم ينخرطون في رقصة طقسية غريبة حيث يقفزون في الهواء ويمدون أيديهم ثم يخرون على ركبهم ويرتطمون بالأرض. مرت دقيقة من الوقت حتى أدركت أنهم يلتقطون المال الذي يتم رميه لهم فأدركت أن هذا فعل معهود من قِبَل والدها، ذاك القيصر المحلي الذي يحاول شراء محبة الناس معتقداً نفسه أنه يتصرف مثل الأشخاص الأرستقراطيين غير منتبه البتة إلى سوقيته الواضحة.

فجأة أصبح ازدراؤها يفوق كراهيتها له مما قوّى شجاعتها. توجهت إلى خلف المنزل ناحية الإصطبل، فخرج سائس مسن على وقع ضرب حوافر الفرس على الحصى المرصوفة، وحينما رأى منظرها الأشعث تفاجأ فاتسعت حدقتاه ولكنها لم تلحظه. قفزت عن ظهر الفرس وأعطته اللجام وقالت لبولايتس: «شكراً لك». ثم توجهت إلى السائس بالقول: «احرص على توفير الطعام والشراب لهذا الرجل».

انتقلت بسرعة من تحت نور الطريق الساطع إلى عتمة المنزل وصعدت على

السلالم الموجودة في مقر العبيد، وخلال سيرها سحبت لفافات البردي من تحت عباءتها. كان ماركوس أتيليوس قد طلب منها إعادتها إلى مكتب والدها على أمل ألا يكون قد لاحظ غيابها، ولكنها لن تفعل ذلك بل سوف تعطيها لأبيها بنفسها. وحتى أنها ستقوم بما هو أفضل من ذلك، ستخبره أين كانت، وسيعرف أنها اكتشفت الحقيقة ثم ليفعل بها ما يشاء فهي لا تهتم. ماذا هنالك أسوأ من القدر الذي حضّره لها؟ لا يمكن للمرء معاقبة الميت.

دخلت عبر الستارة إلى منزل آل بوبيديوس بنفس التمرد وسارت باتجاه حوض السباحة الذي يشكل قلب الفيللا. سمعت أصواتاً على يمينها ورأت زوجها المستقبلي وأعضاء مجلس بومبي الحاكم في قاعة الرسم. التفتوا ونظروا إليها في الوقت الذي ظهر فيه والدها مع أمها وأخيها على السلالم المؤدية إلى منزلهم القديم. رأى أمبلياتوس اللفافات في يدها ورأت الخوف في عينيه. صرخ قائلاً: «كوريليا!» وهرع باتجاهها ولكنها استدارت وركضت إلى قاعة الرسم ونثرت أسراره على الطاولة وعلى السجادة قبل أن تتسنى له فرصة إيقافها.

* * *

بدا للمهندس أن فيسوفيوس يمارس معه لعبة إذ إنه لا يقترب منه أبداً على الرغم من محاولته الجاهدة للوصول إليه. في بعض الأحيان حينما كان ينظر إلى الوراء مخبئاً عينيه من حرارة الشمس كان يدرك أنه تسلق إلى ارتفاع شاهق، وبعد وقت قصير تسنى له رؤية نولا بوضوح. كانت الحقول المروية حولها أشبه بمربع أخضر واضح لا يكبر في حجمه عن منديل دمية قابع غير مطوي على سهل كامبانيا البني. حتى أن نفسها بدت أشبه بدمى أطفال منثورة على حافة جبل بعيد. لا بد أن المواطنين حظوا بالمياه الآن. هذه الفكرة مدته بثقة منعشة.

كان يريد الوصول إلى حافة أقرب سلسلة بيضاء رمادية ووصل إليها قبل منتصف الصباح. وصل إلى النقطة التي انتهى فيها الكلأ في المنحدرات السفلى وبدأت حدود الغابة. لم يمر بأي مخلوق حي، لا إنسان ولا حيوان. كان بيت المزرعة الموجود قرب المسار مهجوراً، ففكّر أن الجميع قد لاذوا بالفرار إما

twitter @baghdad_library

ليلاً حينما سمعوا الانفجار أو في ساعات الفجر الأولى عندما صحوا على هذا الغطاء الأبيض من الرماد الذي كان منتشراً على الأرض وكأنه غطاء من الثلج قابع بسكون تام إذ لا يوجد هواء يحرك سكونه. عندما قفز عن ظهر الحصان أحدث غيمة من الغبار التصقت برجليه المتعرّقتين. غرف بيده بعضاً من هذا الرماد فوجده دقيقاً جداً ولا رائحة له ودافئاً بسبب حرارة الشمس. وقد غطى الرماد أيضاً أوراق الأشجار البعيدة وكأنه انهمار خفيف للثلج.

وضع القليل من الرماد في جيبه ليأخذه معه ويريه إلى الأميرال وشرب بعض الماء ليتخلّص من طعم الغبار الجاف الذي يملأ فمه. نظر نزولاً على المنحدر فرأى فارساً آخر يبعد ميلاً على الأرجح ويتوجه هو الآخر إلى النقطة ذاتها مدفوعاً على ما يبدو بالفضول نفسه لاكتشاف ما حدث. فكر أتيليوس في انتظاره لتبادل الآراء معه لكنه عاد وغيّر رأيه إذ أراد المضي قدماً. بصق المياه وعاد وركب على ظهر الحصان وعاود التوجه إلى جانب الجبل بعيداً عن الرماد ليسير على المسار الذي يؤدي إلى الغابة.

بمجرد أن أصبح بين الأشجار أحاطت به الغابة من جميع الجهات وسريعاً أضاع الطريق. لم يكن بالأمر الصعب إيجاد الطريق إذ ما عليه إلا اتباع خط سير الصيادين الذي يمتد بين الأشجار فوق مسارات الينابيع الجافة متلوياً من جانب إلى آخر، ولكن لا ينفك المسار يقوده إلى الأعلى. نزل عن ظهر الحصان ليتبوّل فأحدثت السحليات حفيفاً بين الأوراق اليابسة لدى هروبها. رأى عناكب حمراء صغيرة وبيوتها الهشة ويرقات كثيفة الشعر بحجم سبابته، وكان هناك شجيرات من التوت البري الأحمر فتذوقها ووجد مذاقها حلواً. كانت النباتات الموجودة في المكان عادية ـ شجر جار الماء، العليق، اللبلاب ـ فأخذ يفكر أن قبطان السفينة توركواتوس كان محقاً إذ بدا له أن تسلق فيسوفيوس أسهل مما يبدو عليه وحينما تكون الينابيع متفجرة بالماء سيتوفر في المكان ما يكفي جيشاً بأكمله من طعام وشراب. فتخيل على الفور المجالد الثراسي سبارتاكوس يقود أتباعه على هذا المسار نفسه منذ قرن ونصف القرن متسلقاً إلى القمة ليجد له ملجأ

احتاج على الأرجح ساعة أخرى حتى قطع الغابة، فهو لم يكن على علم بالوقت بشكل دقيق. الشمس تحجبها الأشجار تقريباً ويتسرّب منها بعض الأشعة من بين الأوراق الكثيفة، أما السماء التي كسّرتها أوراق الأشجار إلى قطع فبدت زرقاء لامعة. وكان الهواء ساخناً ويعطره عبق الصنوبر والأعشاب الجافة، وكانت الفراشات تتطاير بين الأشجار، ولم يكن يُسمع أي صوت ما عدا نعيب حمام الخشب الذي يصدر بين الفينة والأخرى. شعر بالنعاس وهو يتأرجح على السرج تحت وطأة الحرارة، فأخذ رأسه يهتز. حسب نفسه يسمع حيواناً كبيراً يتحرك على المسار خلفه ولكن حينما توقف ليسمع الصوت وجده قد اختفى. بعد فترة قصيرة بدأت الغابة تضيق، لكنه تابع السير حتى وصل إلى أرض مقطوعة الشجر.

والآن بدا له وكأن فيسوفيوس قرر ممارسة لعبة أخرى. إذ مرّ عليه ساعات بدا له خلالها أنه لم يقترب بتاتاً من القمة، وفجأة ظهرت هذه القمة شاهقة نصب عينيه. يبلغ ارتفاعها بضع مئات من الأقدام وهي شديدة الانحدار، وتتكوّن في أغلبها من الصخور، وليس ثمة تربة كافية لينمو فيها ما يكفي من النبات، ما خلا بعض الشجيرات والنباتات المنتشرة في غير اتساق إضافة إلى بعض الأزهار الصفراء الصغيرة. وجد المكان تماماً كما وصفه الكاتب اليوناني: قمة سوداء وقد سفعتها النيران منذ أمد طويل. في بعض الأماكن كانت الصخور ناتئة إلى الأمام فبدت وكأنه قد تم دفعها من الأسفل، مما تسبب بحدوث انهمار خفيف للحصى على المنحدر. وفي أماكن أخرى على هذا الجبل حدثت انهيارات أكبر، حيث ثمة صخور ضخمة بحجم الإنسان قد انهارت وعلقت على الأشجار، وبالنظر إليها بدا أن ذلك قد حدث منذ آونة قريبة. ثم تذكّر أتيليوس تردّد الرجال في مغادرة بومبي.

العمالقة تتجول في الهواء، وأصواتها تشبه قصف الرعد... لا بد وأن الصوت انتقل مسافة أميال.

بدت القمة شديدة الانحدار بحيث تعذّر على الحصان تسلقها، فنزل عن ظهره ووجد مكاناً مظلّلاً ربط فيه اللجام بشجرة. بحث في الأرجاء عن عصا

twitter @baghdad_library

فوجد واحدة يبلغ عرضها نصف سماكة معصمه، ناعمة ورمادية اللون ومتيبّسة منذ أمد طويل. استخدمها ليتسنّد عليها وانطلق ليبدأ تسلقه الأخير.

كانت الشمس في هذا المكان العالي عديمة الرحمة وكانت السماء ناصعة جداً فبدت بيضاء تقريباً. انتقل من الصخور العادية إلى الصخور الرمادية تحت أشعة الشمس الحارقة، والهواء نفسه بدا وكأنه يحرق رئتيه حيث استحال شبيهاً بالشفرة المسحوبة من النار لشدة جفافه. ليس ثمة سحليات تسير تحت الأقدام هنا وليس ثمة طيور تحلق فوق الرؤوس. كان تسلقاً باتجاه الشمس مباشرة. وشعر بالحرارة تخترق نعليْ حذائه ولكنه أجبر نفسه على مواصلة السير دون النظر إلى الوراء، إلى أن باتت الأرض مستوية ولم يعد أمامه الصخور السوداء بل السماء الزرقاء. وقف على القمة وأخذ ينظر إلى العالم من هذا المكان الشديد الارتفاع.

لم تكن قمة فيسوفيوس بقدر الانحدار الذي بدت عليه من الأسفل وإنما مجرد أرض منبسطة مستديرة ووعرة، ويبلغ قطرها مئتي خطوة تقريباً، وهي عبارة عن برية من الصخور السوداء إضافة إلى بضع بقع بنية من النباتات الواهنة التي لا تشير إلا إلى يباسها. إنها لا تبدو بأنها تعرّضت للاحتراق في الماضي كما تشير ورقة البردي اليونانية ولكن بدا عليها وكأنها تحترق في هذه الساعة. وكانت تتصاعد أعمدة رفيعة من البخار الرمادي من ثلاثة أماكن وقد أخذت ترفرف وتهسهس وسط السكون، وكانت تفوح من الماء رائحة الكبريت الكريهة نفسها التي كانت تفوح من الأنابيب في فيللا أورتنسيا، فقال أتيليوس في نفسه: هذا هو المكان. هذا هو قلب الشر. كان يشعر بوجود شيء خطير ومؤذ. بوسع المرء أن يدعوه فولكان أو ما يشاء من أسماء، ويمكن للمرء أن يعبده كإله، ولكن كان وجوده محسوساً، فأخذ يرتجف.

ظل محاذياً لأطراف القمة وأخذ يدور حولها وقد تفاجأ بداية لوجود غيوم الكبريت التي تنبعث من الأرض ثم تفاجأ بالمناظر الخلابة التي تطل عليها القمة. وبعيداً على يمينه كانت الصخور الجرداء ممتدة إلى الأسفل ناحية طرف الغابة، ثم لم يعد هناك شيء ما عدا الغطاء الأخضر المتموّج. لقد قال

توركواتوس إن بوسع المرء الرؤية على مسافة خمسين ميلاً ولكن بالنسبة إلى أتيليوس بدا له أن إيطاليا بأكملها منتشرة تحته. حينما انتقل من جهة الشمال إلى الغرب وقع خليج نيابوليس تحت بصره، فميّز بكل سهولة الرأس البحري الموجود في ميسينوم، والجزر المحاذية لها، ومعتزل كابري الإمبراطوري. ووراء هذ كله بدا الخط الرفيع جداً الأشبه بطرف الشفرة الذي يتقاطع فيه البحر الأزرق مع السماء الأقل زرقة. كانت المياه لا تزال مرقطة بالأمواج التي لاحظها في الليلة الفائتة، أمواج مندفعة في بحر لا رياح فيه. ولكنه بدأ يشعر الآن أن ثمة نسيماً خفيفاً قد بدأ بالهبوب. كان يشعر به يلفح خده: إنه النسيم المسمى كوروس ويهب من الجهة الشمالية الغربية ناحية بومبي التي بدت تحت قدميه كمجرد لطخة رملية على مسافة قريبة من الشاطئ. تخيّل كوريليا متوجهة إلى هناك وقد بات الوصول إليها الآن مستحيلاً، إذ باتت نقطة ضمن نقطة، وضاعت منه إلى الأبد.

بمجرد النظر نزولاً شعر بالدوار وكأنه هو نفسه ليس سوى ذرة لقاح قد يرفعها الهواء الساخن في أية لحظة وينفخها في زرقة المكان. شعر برغبة جامحة في الاستسلام لهذا الإحساس ـ توق إلى عالم النسيان الأزرق ذاك وقد كان توقاً شديداً جداً بحيث اضطره إلى إجبار نفسه على الالتفات بعيداً ـ دبت الرجفة في جسده وبدأ يجد السير متجهاً من جهة إلى أخرى على القمة إذ أراد العودة إلى حيث كان مبتعداً عن أعمدة الكبريت المتصاعدة والتي بدت وكأنها تتضاعف من حوله. كانت الأرض تهتز بل تنتفخ، وأراد أن يلوذ بالفرار في الحال بكل ما أوتي من قوة. ولكن كان الطريق وعراً ووجد على جانبي مساره انحدارات سحيقة وفجوات من الصخور السوداء أشبه بالكهوف، تماماً كما قال الكاتب اليوناني فوجب عليه أن يحذر أين تطأ قدماه. ولهذا السبب ـ لأنه كان يوجه رأسه نزولاً ـ اشتم رائحة جثة قبل أن يقع بصره عليها.

أوقفته الرائحة الكريهة القوية عن المضي قدماً، بحيث اخترقت أنفه وفمه وغلّفتهما بلفافة زلقة. وكانت تنبعث من قدر الغبار الضخم الموجود أمامه مباشرة والذي يبلغ عمقه على الأرجح ست أقدام ويبلغ عرضه ثلاثين قدماً

twitter @baghdad_library

ويغلي مثل المرجل في سديم الحر. والأفظع من كل شيء كان حينما نظر إلى جانبه فوجد كل شيء ميتاً، ليس الرجل فحسب، ذاك الذي يرتدي قميصاً أبيضاً وأطرافه سوداء ضاربة إلى لون الأرجوان وهو الأمر الذي دفع بأتيليوس في البداية إلى الظن بأنه نوبي، وإنما هناك مخلوقات أخرى نافقة ـ أفعى وطائر كبير ومجموعة من الحيوانات الصغيرة- وكلها منتشرة في فجوة الموت هذه. حتى النباتات كانت مسفوعة ومسمّمة.

كانت الجثة ملقاة على جانبها في قاع الحفرة وذراعاها مفتوحتان، وثمة قارورة مياه وقبعة من القش بعيدة عن متناول يد الجثة وكأن الشخص قد مات وهو يحاول جاهداً الوصول إليهما. لا بد وأنه مضى أسبوعان على الأقل على وجود الجثة في هذا المكان حيث أخذت تتعفن تحت حرارة الشمس. ولكن العجب هو مقدار ما تبقى منها. لم تهاجمها الحشرات أو تنقرها العصافير والحيوانات حتى حدود العظم. ولا يوجد غيوم من ذبابات السّرُوء تحط على لحمها نصف المطبوخ. بل بدا أن لحمها المحروق قد سمّم كل شيء حاول أن يتغذى منه.

ابتلع ريقه بصعوبة في محاولة منه لعدم التقيؤ، وأدرك على الفور أنه لا بد وأن الجثة تعود إلى إكزومنيوس. فقد مضى أسبوعان او أكثر على غيابه، ومَنْ غيره يغامر بالصعود إلى هنا في شهر آب؟ ولكن كيف عساه يتأكد؟ فهو لم يسبق له اللقاء بالرجل، ومع ذلك شعر بالتردد في النزول إلى سجادة الموت تلك. أجبر نفسه على الجلوس القرفصاء بالقرب من شفة الفجوة ثم راح يحدق بالوجه المحترق. شاهد صفاً من الأسنان وكأنها بذور في حبة فاكهة منفطرة، وعين باهتة نصف مغمضة تنظر باتجاه الذراع الممدوة. لم يكن ثمة أثر لأية جروح، ومع ذلك كان الجسد بأكمله عبارة عن جرح، حيث تملؤه الكدمات والتقيّحات. ما عساه يكون السبب وراء مقتله؟ لعله استسلم للحر؟ لعل قلبه توقف عن الخفقان؟ مال أتيليوس إلى الأسفل أكثر وحاول لكزه بعصاه وعلى الفور شعر بأنه سيُغمى عليه. أخذت الأنوار البيضاء تتمايل وترقص أمامه وكاد

يسقط إلى الأمام. أخذ يحفر بيديه في التراب وأفلح في دفع نفسه إلى الوراء متلهفاً لالتقاط أنفاسه.

تأثير الهواء الملوث بالقرب من الأرض نفسها...

شعر بالدوار في رأسه وتقيّأ سائلاً مرّاً وكريهاً، وكان لا يزال يسعل ويبصق حينما سمع طقطقة نباتات جافة وهي تتكسر جراء الدوس عليها أمامه. رفع رأسه ونظر إلى الأعلى بترنح. فرأى رجلاً يتقدم باتجاهه على القمة في الجهة المقابلة من الفجوة، على مسافة لا تتعدّى الخمسين خطوة. في البداية حسبها مجرد تهيؤات ناجمة عن الهواء الملوث، فوقف بجهد بالغ وهو يترنّح كالسكير ويرمش بعينيه ليزيل العرق عنهما محاولاً التركيز، ومع ذلك ظل الشخص يتقدم ويحيط بصورته أعمدة بخار الكبريت المتصاعدة وبيده سكين تلمع.

إنه كوراكس.

لم يكن أتيليوس في حالة تسمح له بالقتال وودّ لو تمكّن من الهرب ولكنه بالكاد أمكنه رفع قدميه عن الأرض.

تقدم المراقب من الفجوة بحذر، وربض على الأرض فاتحاً ذراعيه على وسعهما ثم أخذ يسير خطوة خطوة بخفة مثبّتاً عينيه على المهندس وكأنه يتوقع منه مكيدة ما. رمق الجثة بنظرة سريعة وعبس في وجه أتيليوس ثم نظر إلى الأسفل من جديد، وقال بصوت خافت: «لماذا كل هذا أيها الفتى الوسيم؟» بدا وكأنه يشعر بالمهانة، فقد خطّط بإحكام لاعتدائه وقطع مسافة طويلة لتنفيذ هذه الخطة وانتظر في العتمة حتى طلوع النهار ولحق بطريدته إلى مسافة بعيدة ـ فراح أتيليوس يقول في نفسه: لا بد وأنه الفارس الذي رأيته خلفي ـ وظل كل الوقت يقلّب فكرة الانتقام في رأسه. لم يتكبّد كل هذا العناء حتى تخفق خططه في اللحظة الأخيرة. دلت تعابير وجهه على شعوره بأن هذا ليس عدلاً إنه مجرد شخص آخر في سلسلة العوائق الطويلة التي رمتها الحياة في طريق غافيوس كوراكس: «لقد سألتك سؤالاً: «لماذا كل هذا؟»

حاول أتيليوس التكلّم، فأتى صوته ثقيلاً ومبهماً. أراد القول إن إكزومنيوس

twitter @baghdad_library

لم يكن مخطئاً وأن ثمة خطراً داهماً هنا ولكنه عجز عن لفظ الكلمات. كان كوراكس ينظر إلى الجثة وهو عابس ويهز برأسه: «يا له من رجل مسن غبي لقيامه بالتسلق إلى هذا الارتفاع في سنه هذا! هل هذا بداعي القلق على الجبل؟ ومقابل ماذا؟ من دون مقابل! لا شيء إلا إجبارنا على أن نعمل معك» ثم عاد وصب نظراته على أتيليوس: «لقد أتى شاب متحاذق أخرق من روما ليعلمنا كيف نعمل. أما زلت ترجو النفاذ مني أيها الوسيم؟ لم يعد لديك ما تقوله الآن؟! حسناً لِمَ لا أفتح لك فماً آخر لنرى ما عساه يصدر منه؟»

تقدّم إلى الأمام وأخذ ينقّل سكينه من يد إلى أخرى وارتسمت على وجهه علامات الجهوزية للقتل. بدأ يحوم حول الفجوة، فما كان من أتيليوس سوى الالتفاف بتعثر في الاتجاه المعاكس. حينما توقف المراقب، توقّف أتيليوس، وحينما سار في الاتجاه المعاكس وبدأ يركض، بدأ أتيليوس يركض أيضاً واستمر الوضع على هذا الحال لفترة من الوقت، ولكن بدا واضحاً أن هذا الأمر أثار غضب كوراكس فصرخ قائلاً: «تباً لك، سوف لن أمارس ألاعيبك الغبية!» وفجأة اندفع بسرعة نحو طريدته. نزل راكضاً عن جانب الفجوة وهو يبذل جهداً لالتقاط أنفاسه وسط الحر الشديد ثم راح يعبرها وحينما وصل إلى طرفها الآخر توقّف. راح ينظر نزولاً إلى رجليه وحاول ببطء شديد التقدم إلى الأمام، وأخذ يفتح فمه ويغلقه كالسمكة. رمى السكين من يده وخرّ على ركبتيه وهو يطرف بعينيه بضعف واندهاش ناظراً أمامه ثم سقط إلى الأمام على وجهه.

لم يكن بمقدور أتيليوس سوى مراقبته وهو يُسفع بحرارة الشمس المرتفعة. أقدم كوراكس على بضع محاولات واهنة للتحرك، وبدا في كل مرة وكأنه يحاول أن يمد يده للوصول إلى شيء يفوق قدرته على الوصول إليه، كما فعل إكزومنيوس على ما يبدو، ثم استسلم واستلقى بسكون على جنبه. وما لبثت أن خفت وتيرة تنفسه تدريجياً إلى أن توقفت كلياً، ولكن قبل أن تتوقف بوقت طويل تركه أتيليوس وانحدر عن قمة الجبل المهتزة والمنتفخة وعبر أعمدة الكبريت الآخذة في الاتساع والتي اتجهت الآن بفعل النسيم إلى ناحية بومبي.

* * *

في البلدة أسفل الجبل هبت رياح خفيفة خلال الفترة الأكثر حرارة في النهار فلقيت ترحيباً كبيراً من الناس. وأحدثت رياح الكوروس دوامات صغيرة من الغبار في الطرقات التي أخذت تفرغ من الناس حيث توجّهوا لأخذ قيلولة، فراحت ترفرف المظلّات الملونة فوق الحانات والمطاعم الصغيرة وتتلاعب بأوراق الأشجار الضخمة القريبة من المدرج. وفي منزل آل بوبيديوس أخذت تموّج سطح المياه في حوض السباحة، وراحت أقنعة الباخوسيات وآلهة الحقول والقطعان الصغيرة الراقصة والمعلقة بين العمدان تتحرك وترن. طارت إحدى أوراق البردي المرمية على السجادة وتدحرجت ناحية الطاولة، فوضع هولكونيوس قدمه مقابلها لتوقيفها.

سأل: «ما الذي يجري؟»

كان أمبلياتوس يميل إلى ضرب كوريليا حتى وهي في هذا المكان ولكنه تحكّم بأعصابه حيث فكّر ووجد أن ضربه لها على الملأ سيكون نوعاً من الانتصار لها. كان عقله يعمل بسرعة، وكان يعلم كل ما هنالك حول السلطة، كما كان يدرك أن ثمة أوقاتاً يُعتبر فيها من الحكمة الاحتفاظ بالسر: أن يحتفظ بمعلوماته لنفسه، وكأنها حبيب مفضّل، يجدر عدم مشاركته مع أحد، وأن ثمة أوقاتاً حينما يتم فيها الكشف عن الأسرار بحذر تام يمكن أن يكون لها نفس أثر أطواق الفولاذ، بحيث تُخضع الآخرين له. وفي ومضة وحي، رأى أن الحالة الراهنة هي من ضمن هذه الأوقات.

قال: «إقرأوها فليس لدي ما أخفيه عن أصدقائي». انحنى وجمع اللفافات وكدّسها على الطاولة. قال بريتيوس: «يجب علينا المغادرة» ثم شرب كأس النبيذ حتى آخر قطرة ونهض على رجليه.

أمر أمبلياتوس قائلاً: «إقرأوها!» فجلس أعضاء المجلس الحاكم بحدة: «أعذروني رجاء، ولكني أصر على أن تقرأوها» ثم ابتسم: «إن مصدرها غرفة إكزومنيوس. آن الأوان كي تعلموا. تفضلوا بشرب المزيد من النبيذ. سأغيب لحظة فحسب. تعالي معي يا كوريليا؟» أمسكها من كوعها ووجّهها ناحية

twitter @baghdad_library

السلالم، وأخذت تجر قدميها ولكنه كان أقوى منها بكثير. بالكاد لاحظ وجود زوجته وابنه اللذين كانا يتبعانه، وعندما غابوا عن النظر وباتوا في زاوية حديقة منزلهم القديم المعمّدة فتل لحمها بين أصابعه. وهمس قائلاً: «هل حقاً ظننت أن بوسع فتاة ضعيفة مثلك أن تؤذيني؟»

قالت وهي تتملّص وتكافح للتخلّص من قبضته: «لا ولكني على الأقل حسبت أن بوسعي المحاولة».

أثارت غضبه ببرودة أعصابها: «حقاً؟» ثم جذبها إليه وسألها: «وكيف خطر لك القيام بذلك؟»

«عبر عرض الوثائق على الساقي، وعبر كشفها أمام الجميع، حتى يروا جميعاً ما أنت عليه».

«وما أنا عليه بالضبط؟» كان وجهها قريباً جداً من وجهه: «لص وقاتل وأدنى حتى من مستوى عبد. .».

حينما نطقت آخر كلمة سحب يده وكان هذه المرة بكل تأكيد يتحضر لضربها ولكن أمسك سيلسينوس بمعصمه من الخلف:

«لا يا أبتاه سوف لن نتحمل المزيد من هذا».

منعت الصدمة أمبلياتوس من الكلام فقال: «أنت؟ أنت أيضاً؟» نفض يده وحررها من قبضة ابنه ثم حدّق فيه: «أليس لديك شعيرة دينية ما لتحضرها؟ ثم نظر إلى زوجته وقال: «وأنتِ؟ ألا يفترض بك الصلاة للعقيلة ليفيا من أجل إرشادك؟» ثم بصق وقال: «أغربا عن وجهي أنتما الإثنان» جر كوريليا ناحية السلالم في حين لم يتحرك أخوها وأمها. استدار ودفعها للصعود إلى السلالم ثم جرها في الممر ودفعها إلى غرفتها: «يا لك من إبنة خائنة ضالة».

نظر في الأرجاء بحثاً عن شيء ما لينزل بها العقاب ولكن لم تقع عيناه إلا على أدوات أنثوية واهنة مرتبة بدقّة ـ مشط عاجي، شال حريري، مظلة، سبحة من الخرز ـ وبضع دمى قديمة تم الاحتفاظ بها لتقديمها إلى فينوس قبل زفافها.

وفي الزاوية ثمة دمية خشبية لها أطراف متحركة كان قد اشتراها لها بمناسبة عيد مولدها منذ سنوات، وحينما نظر إلى هذه الدمية شعر بخيبة الأمل. ما الذي حدث لها؟ لقد كان يحبها كثيراً. كانت فتاته الصغيرة. كيف تحوّل الحب إلى كراهية؟ شعر بالإرتباك فجأة وأخذ يفكّر: ألم يفعل كل شيء، وبنى كل ما بناه، ورفع نفسه من الحضيض من أجلها هي وأخيها؟ وقف يلهث مهزوماً وهي تحدق فيه. لم يدرك ما عساه يقول، فأنهى الحديث بطريقة واهنة: «سوف تبقين هنا إلى أن أقرر ماذا سأفعل بك». ثم خرج من الغرفة وأوصد الباب وراءه.

كان ابنه وزوجته قد غادرا الحديقة فأخذ ينفّس عن غضبه حين أدار ظهره بالقول إنهم متمردون جبناء. لطالما كانت كوريليا تتمتع بجرأة تفوق جرأة الإثنين معاً. ولطالما ناداها بفتاته الصغيرة!

في قاعة الرسم كان أعضاء المجلس الحاكم منحنين إلى الأمام ويتهامسون. وحينما اقترب منهم التزموا الصمت والتفتوا لينظروا إليه وهو يتوجه ناحية الطاولة ليسكب لنفسه كأساً من النبيذ. ضربت حافة الإناء بالكأس محدثة طقطقة. هل كانت يده ترتجف؟ تفحص يده، باطنها وظاهرها لأن هذا ليس من شيمه، فبدت ثابتة بالقدر الكافي. شعر بحال أفضل بعد أن شرب الكأس حتى آخر قطرة، ثم سكب لنفسه كأساً أخرى ورسم على وجهه ابتسامة واستدار ناحية أعضاء المجلس الحاكم:

«حسناً؟»

كان هولكونيوس أول الناطقين: «من أين حصلت على هذه اللفافات؟»

«لقد جلبها لي كوراكس، المراقب في الأوغوستا، عصر يوم البارحة. وجدها في غرفة إكزومنيوس».

«أتعني أنه سرقها؟»

«وجدها، سرقها .» نفض أمبلياتوس يده.

«وجب عليك لفت نظرنا إلى هذه الأوراق على الفور».

twitter @baghdad_library

«ولماذا أفعل يا حضرات؟»

فقاطع بوبيديوس الحديث بحماسة: «أليس الأمر جلياً؟ يعتقد إكزومنيوس أنه سيحدث زلزال كبير آخر!»

«هدئ من روعك يا بوبيديوس. ما زلت تتذمر من الزلازل منذ سبع عشرة سنة. لو كنت مكانكم ما كنت لآخذ هذه المعلومات على محمل الجد».

«لقد أخذها إكزومنيوس على محمل الجد».

«إكزومنيوس!» نظر أمبلياتوس إليه بازدراء: «لطالما كان إكزومنيوس رجلاً شديد الارتياب».

«لعله كان. ولكن لِمَ كان يقوم بنسخ الوثائق؟ وهذه الوثيقة بالذات. برأيك ما الذي أراده منها؟» لوّح بواحدة من اللفافات.

نظر أمبلياتوس إليها وأخذ رشفة أخرى من النبيذ. «إنها باليونانية وأنا لا أجيد قراءة اليونانية. لقد نسيتَ يا بوبيديوس أنني لم أحظَ بالتعليم الذي حظيت به.

«حسناً أنا فعلاً أقرأ اليونانية وأظنني أعرف مصدر هذه الكتابة. أعتقد أنه نص لسترابو، عالم الجغرافيا، الذي سافر إلى هذه الأصقاع في عهد أغسطس العظيم. إنه يكتب هنا حول قمة مسطحة وجرداء، تعرضت للحريق في الماضي. لا بد أنه يشير إلى قمة فيسوفيوس. ويضيف أن التربة الخصبة في بومبي تذكّره بكاتانا، حيث الأرض مغطاة بالرماد الذي قذفته حمم إتنا».

«إذاً؟»

سأل هولكونيوس: «أليس إكزومنيوس صقلياً؟ من أي بلدة كان؟»

لوح أمبلياتوس بكأسه بطريقة لا مبالية. «أعتقد أنه من كاتانا. ولكن ماذا في ذلك؟» وراح يفكر أن عليه تعلم اللغة اليونانية. فإن أمكن لأخرق مثل بوبيديوس إتقانها فأي شخص بوسعه ذلك.

أضاف بوبيديوس: «أما بالنسبة إلى هذه الوثيقة اللاتينية فأنا أعرفها بكل تأكيد. إنها جزء من كتاب وأنا أعرف الرجل الذي كتبها والرجل المرسلة إليه. كتبها أنايوس سينيكا معلم نيرون. لا بد أنك سمعتَ به؟».

احمرّ وجه أمبلياتوس: «إن مهنتي هي البناء وليس الكتب. لم كانا يخوضان في هذه الأمور كلها؟».

«إن لوشيوس الذي يشير إليه هو لوشيوس الإبن وهو مواطن محلي من هذه المدينة كان يمتلك منزلاً بالقرب من المسرح. كان موظفاً في ما وراء البحار، في صقلية كما أذكر. يقوم سينيكا بوصف زلزال كامبانيا الكبير، وهذه الوثيقة من كتابه المسمى مسائل طبيعية. أعتقد أن ثمة نسخة منه في مكتبتنا في الساحة العامة. إنه يعرض أسس الفلسفة الرواقية».

أخذ أمبلياتوس يهزأ قائلاً: «الفلسفة الرواقية! وماذا كان إكزومنيوس يفعل بالفلسفة الرواقية؟»

كرّر بوبيديوس بغضب متزايد: «مرة أخرى أقول لك أليس الأمر واضحاً؟» ثم وضع الوثيقتين جنباً إلى جنب وقال: «كان إكزومنيوس يعتقد أن ثمة رابطاً بين الإثنين، أفهمت؟» أشار إلى وثيقة ثم إلى الأخرى. «إتنا وفيسوفيوس. الخصوبة في أرض كاتانا وأرض بومبي. النذائر الفظيعة التي حصلت قبل سبع عشرة سنة وتسمّم الخراف. والنذائر التي حصلت من حولنا هذا الصيف. لقد كان من صقلية، ورأى أمارات تدل على الخطر والآن اختفى».

لم ينطق أحد بكلمة لمدة من الوقت وأخيراً قال بريتيوس: «أعتقد أنه يجدر دراسة هذه الوثائق في اجتماع كامل لأعضاء مجلس تقويم الأعياد والطقوس بأسرع وقت ممكن».

فاعترض أمبلياتوس: «لا».

«ولكن مجلس تقويم الأعياد والطقوس هو المجلس الحاكم في المدينة! من حقهم أن يعلموا. . .».

twitter @baghdad_library

عاد أمبلياتوس وشدّد على رفضه قائلاً: «لا ما عدد المواطنين الأعضاء في هذا المجلس؟»

أجاب هولكونيوس: «خمسة وثمانون عضواً».

«أنت قلتها   سينتشر الخبر في جميع أرجاء المدينة خلال ساعة. هل تريد التسبب بحالة ذعر في الوقت الذي بدأنا فيه نقف على أرجلنا؟ وفي الوقت الذي بتنا نملك فيه نبوءة العرافة لنعطيها لهم ونفرحهم بها؟ تذكّروا من الذي صوّت لكم يا سادة. إنهم التجار. سوف لن يشكروكم في حال أخفتم زبائنهم وأبعدتموهم. لقد رأيتم ما حدث هذا الصباح بمجرد أن المياه كفت عن التدفق في النوافير لبضع ساعات. وما الذي ينفعنا من هذا الأمر؟ ما همنا لو كان إكزومنيوس قلقاً بشأن اهتزازات الأرض؟ وما همنا لو كانت تربة كامبانيا رمادية مثل تربة صقلية وفيها منافذ تنبعث منها أبخرة كريهة الرائحة؟ ما همنا بكل هذا؟ فهذه الأبخرة كانت موجودة في منطقة الخليج منذ عهد رومولوس، كما أن هذه ليست المشكلة الحقيقية». سأل هولكونيوس: «وما هي المشكلة الحقيقية؟»

«الوثائق الأخرى. تلك التي تظهر المبالغ المالية التي كان إكزومنيوس يتقاضاها ليمد هذه المدينة بمياه رخيصة».

قال هولكونيوس بتسرع: «استرخ يا أمبلياتوس فاتفاقياتك الصغيرة لا تهمنا البتة».

ضحك أمبلياتوس وقال: «اتفاقياتي الصغيرة! كم هذا مضحك!» وضع الكأس ورفع الإناء ليسكب لنفسه كأساً أخرى، ومن جديد أصدر إناء الكريستال الثقيل رنيناً. كان قد بدأ يشعر بالثمالة ولكنه لم يعبأ. «هيا يا سادة لا تدّعوا أنكم لم تكونوا على علم بذلك! كيف برأيكم انتعشت هذه المدينة بعد الزلزال بهذه السرعة الكبيرة؟ لقد وفرت عليكم مبالغ طائلة عبر اتفاقياتي الصغيرة هذه. نعم، وساعدت نفسي للدخول في عالم التجارة. أنا لا أنكر ذلك. ولكنكم لم تكونوا هنا لولاي. حمّاماتك العزيزة يا بوبيديوس. حيث يستمتع بريتيوس بلمسات الصبية الصغار. كم تدفع ثمنها؟ لا شيء! وأنت يا كوسبيوس

ونوافيرك. وأنت يا هولكونيوس وحوض السباحة خاصتك. وكل الحمّامات الخاصة والحدائق المروية والبركة العامة الكبيرة في معهد المصارعة والأنابيب في الشقق الجديدة! لقد ظلت هذه المدينة عائمة بالمياه لأكثر من عقد من الزمن بواسطة اتفاقياتي الصغيرة مع إكزومنيوس. والآن وصل هذا الخبر إلى ذاك الساقي الحشري السافل الآتي من روما. هذه هي المشكلة الحقيقية».

قال بريتيوس وصوته يرتجف: «إنها مهانة. إن الكلام الذي يوجهه هذا العبد المعتد بنفسه إلينا هو مهانة».

«أنا لم أكن معتداً بنفسي حينما دفعت تكاليف الألاعيب التي ضمنت فوزك في الانتخابات يا بريتيوس. والمسلخ الموجود في الوسط حيث يمكن للجميع رؤيته. هذا ما طلبته وهذا ما أعطيتك إياه».

رفع هولكونيوس يديه وقال: «حسناً يا سادة. دعونا نهدأ».

قال كوسبيوس: «ولكن بكل تأكيد بوسعنا عقد صفقة مع هذا الساقي الجديد كما فعلت مع ذاك الساقي السابق؟»

«لا يبدو ذلك، فقد لمّحت له البارحة وما كان منه إلا أن نظر إلي وكأنني وضعت يدي على عضوه التناسلي. شعرت بأنه يهين كرمي. إني أعرف هذا النوع من الناس. سوف يوصل الأمر إلى روما وسوف يعمدوا إلى التدقيق في الحسابات وإرسال بعثة إمبراطورية لنا قبل نهاية السنة».

سأل بوبيديوس: «إذاً ماذا عسانا نفعل؟ إن انتشر هذا الأمر سيشوه صورتنا جميعاً».

ابتسم له أمبلياتوس من فوق حافة كأسه: «لا تقلقوا، لقد حللت المشكلة».

«كيف؟»

حذره هولكونيوس بسرعة: «بوبيديوس! إنتبه».

توقّف أمبلياتوس. ولم يرغبوا بالمعرفة ففي النهاية هم أعضاء المجلس

twitter @baghdad_library

الحاكم في المدينة. براءة الجهل. هذا ما كانوا يبتغونه. ولكن لِمَ عساهم ينعمون براحة البال؟ سوف يغمس أيديهم في الدم إلى جانب يديه.

نظر من حوله وقال: «سوف يذهب للقاء أسلافه. قبل أن يعود إلى ميسينوم سوف يتعرض إلى حادث في الريف. هل يعارضني أحد؟ تكلّموا إن كنتم لا توافقونني الرأي؟ بوبيديوس. هولكونيوس. بريتيوس. كوسبيوس. .» انتظر بعض الوقت. كان الأمر برمته عبارة عن تمثيلية إذ بحلول تلك اللحظة وجب أن يكون الساقي ميتاً مهما قالوا: فقد كان كوراكس يتحرق لقطع عنقه: «سأعتبر الأمر اتفاقاً. هلّا شربنا نخب هذا الاتفاق؟»

مد يده للإمساك بالإناء ولكنه توقف وجمدت ذراعه في الهواء. لم يعد إناء الكريستال يهتز الآن فحسب بل كان يتحرك على الجانبين على سطح الطاولة الخشبي الناعم. نظر إليه وعبس بغباء إذ لا يعقل أن هذا يحدث فعلاً. وصل الإناء إلى طرف الطاولة ووقع على الأرض وانكسر. نظر إلى الأرض المرصوفة، فكان ثمة اهتزازات تحت قدميه تفاقمت قوتها تدريجياً، ثم مرت في أرجاء المنزل لفحة من الهواء الساخن وكانت قوية بالقدر الكافي لتغلق المصاريع بقوة. وبعد برهة سُمع على مسافة بعيدة دوي انفجار هائل بوضوح تام وبشكل لم يعهده من قبل، لا هو ولا غيره.

أورا سكستا

الساعة: ١٢:٥٧

انفجر سطح البركان بُعيد فترة الظهر مما سمح بتفجّر جسم الصهارة الأساسي... قُدّرت سرعة خروج الصهارة بحوالي ١٤٤٠ كيلومتراً في الساعة (ماك ١). ونقلت عملية الحمل الحراري الغازات المتوهِّجة وأحجار الخفّاف الصغيرة إلى ارتفاع ٢٨ كيلومتراً.

بشكل عام، يمكن احتساب الطاقة الحرارية التي انبعثت خلال عملية الثوران برمتها باستخدام المعادلة التالية:

الطاقة الحرارية=الحجم ×الجاذبية×الحرارة×عدد ثابت

حيث أن وحدة قياس الطاقة الحرارية هي الجول، والحجم يُقاس بالكيلومتر المكعب، وتبلغ قيمة الجاذبية المحدّدة (١,٠)، وتبلغ حرارة المقذوفات (٥٠٠ درجة مئوية)، ويتضمن العدد الثابت حرارة الصهارة المحددة والمكافئ الميكانيكي للحرارة (٨,٣٧ × ١٠^١٤^).

وبالتالي فإن الطاقة الحرارية التي انبعثت خلال الثوران البركاني الذي حدث عام ٧٩ بعد الميلاد يُقدّر تقريباً بقيمة ٢× ١٠^١٨^ جول أو ما يوازي مئة ألف مرة قوة انفجار القنبلة الذرية في هيروشيما.

ديناميكيات الانفجارات البركانية

بعد حين أخذ الناجون يقارنون قصصهم مع بعضهم البعض فراحوا يتساءلون كم بدت اللحظة مختلفة لكل منهم. سُمع الصوت في روما على مسافة مئة وعشرين ميلاً كصوت مكتوم وكأنه صوت صادر عن سقوط تمثال ثقيل أو

twitter @baghdad_library

شجرة ما. أما الذين هربوا من بومبي التي تقع على بُعد خمسة أميال باتجاه الريح فأقسموا أنهم سمعوا صوت ضربتين قويتين. في حين أنه في كابوا، التي تبعد ما يقارب العشرين ميلاً، بدا الصوت من البداية وكأنه قصف رعد متواصل وعنيف. ولكن في ميسينوم التي تعتبر أقرب من كابوا لم يُسمع أي صوت على الإطلاق وإنما ظهر فجأة عمود ضيق من الركام البني وانبجس كماء النافورة صوب السماء الخالية من الغيوم.

بدا الأمر لأتيليوس أشبه بموجة كبيرة وجافة اتجهت فوق رأسه وتحطّمت. كان قد وصل تقريباً على بُعد ميلين من القمة، متبعاً مساراً قديماً للصيادين عبر الغابة، وكان ينزل بسرعة على ظهر الحصان على طرف الجبل الغربي. كان تأثير التسمّم قد تقلّص واستحال ومضة ألم صغيرة تنقر وراء عينيه، وحلّ محل الدوار شعور بأن كل شيء عالٍ وحاد على نحو غريب. لم يكن لديه أي شك بشأن ما هو قادم إليه، وكان ينوي الوصول إلى الطريق الساحلي في هيركيولانيوم والتوجه مباشرة إلى ميسينوم لتحذير الأميرال، وأدرك أنه سيصل إلى هناك عند منتصف العصر. كان الخليج يلمع تحت أشعة الشمس بين الأشجار، وكان قريباً منه بما فيه الكفاية ليميز خطوط الأمواج. كان يشاهد بيوت العنكبوت المتلألئة والتي تتدلى بحرية بين أوراق الأشجار، إضافة إلى غيمة من الذبابات الصغيرة التي تحوم تحت غصن أمامه، ثم فجأة اختفت من أمام ناظريه.

صدمته قوة الانفجار من الخلف وأوقعته إلى الأمام. كان الهواء ساخناً وكأن باب فرن قد انفتح، ثم بدا له أن شيئاً انفجر في أذنيه واستحال العالم مكاناً ساكناً مليئاً بالأشجار الملتوية. تعثر حصانه وكاد يقع، فتمسك برقبته وهما ينزلان على المنحدر، حيث كان الإثنان في تلك اللحظة يخوضان في غمرة موجة محرقة، ثم فجأة اختفت. عادت الأشجار وانتصبت إلى الأعلى، وهدأ الركام، وعاد الهواء ليصبح قابلاً للتنفس. حاول التكلم مع الحصان ولكن صوته اختفى، وحينما التفت إلى الوراء ونظر إلى قمة الجبل وجدها قد اختفت

وحل محلها عمود يغلي من الصخور بينما كان يُقذف إلى الأعلى.

* * *

في بومبي بدا المشهد وكأن ذراعاً بنية قوية انبثقت من قمة الجبل واتجهت إلى السماء لتصنع فيها فجوة ـ بانغ بانغ: صوت الانفجار المزدوج ـ ثم تلك الدمدمة القوية التي لا يوجد صوت يشبهها في الطبيعة، والتي أخذت تهدر على امتداد السهل. هرع أمبلياتوس مع أعضاء المجلس الحاكم إلى الخارج. من الفرن المجاور وصولاً إلى آخر الطريق، كان الناس يخرجون ويحدقون في فيسوفيوس، مظلّلين أعينهم بأيديهم، ووجوههم متجهة ناحية شروق الشمس القاتم الجديد والحاصل في الشمال على قاعدة صخرية هادرة. علت بضع صرخات بين الناس ولكن لم تنتشر حالة من الرعب فيما بينهم. فما زال الوقت مبكراً جداً، وما يحصل بدا مذهلاً للغاية ـ حيث هو في غاية الغرابة والبُعد ـ لذا لم يعتبروه خطراً محدقاً بهم.

أخذ أمبلياتوس يفكر أن هذا الوضع سيتوقف في أية لحظة، وأراده بشدة أن يتوقف. فليخمد في الحال وعندها سيظل بالإمكان التحكّم بالوضع. إنه يتمتع بالجرأة، وبقوة الشخصية، وكل شيء رهن بكيفية إظهاره للناس. بوسعه معالجة كل الأمور حتى هذا الأمر: «لقد أعطتنا الآلهة إشارة أيها المواطنون! دعونا نلتفت إلى تعليماتها! دعونا نبني عموداً ضخماً تقليداً لهذا العمود السماوي الموحى إلينا! إننا نعيش في بقعة يحبذها الآلهة!» ولكن هذا الشيء لم يتوقف، بل ظل يرتفع أكثر فأكثر. التفت ألف رأس إلى الوراء وكأنهم رأس واحد ليراقبوا مساره، ثم تدريجياً تزايدت الصرخات التي دبت بين الناس. فقد أخذ ذاك العمود، الضيق من الأسفل، بالاتساع لدى ارتفاعه حيث راحت قمته تصبح مسطحة في عنان السماء.

صرخ أحدهم قائلاً بأن الرياح توجهه باتجاههم.

كانت هذه اللحظة التي أدرك أنه سيخسر فيها قدرة التأثير على الناس، لأنهم يمتلكون بضع غرائز بسيطة ـ مثل الطمع والشهوة والقسوة ـ وبالتالي

twitter @baghdad_library

بوسعه التلاعب بهم وكأنهم أوتار قيثارة وذلك لأنه من سواد الناس وهم منه. ولكن الرعب الخالص قضى على كل شيء، ومع ذلك ظل يحاول. توجه إلى وسط الطريق وفتح ذراعيه ونادى قائلاً: «انتظروا! يا كوسبيوس ويا بريتيوس أشبكوا أيديكم بيدي! فلنعطِهم مثالاً يحتذون به!» ولكن الحشود لم تنظر إليه.

كان هولكونيوس أول من هرب حيث أخذ يدس كوعيه القاسيين وسط الحشود الكبيرة ليفتح لنفسه طريقاً وينزل عن التل. تبعه بريتيوس ثم كوسبيوس، فاستدار بوبيديوس وعاود الدخول إلى المنزل. في أعلى الطريق كانت الحشود تتزايد إثر تدفق المزيد من الناس من الطرقات الجانبية للانضمام إليهم. باتوا يولّون ظهورهم إلى ناحية الجبل ويديرون وجوههم إلى جهة البحر وكلهم يرتجون أمراً واحداً ألا وهو الهرب. كان آخر ما رآه أمبلياتوس هو وجه زوجته الأبيض الواقفة عند الباب ثم دفعته الحشود المسرعة فجعلته يفتل وكأنه إحدى الدمى الخشبية الدوّارة التي كانوا يستخدمونها في التمرينات في مدرسة المجالدين. أخذوا يدفعونه في كل الجهات ويفتلونه حتى كاد يُسحق بين أقدامهم، لكن ماسافو رآه وهو يسقط وجره إلى الدرج حيث بر الأمان. رأى امرأة تُسقط طفلها من بين يديها وسمع أصوات صرخاته إثر قيام الحشود بسحقه بين أرجلها، ورأى امرأة مسنة تضرب رأسها في الجدار المقابل ثم تنزلق وتفقد الوعي وتختفي عن الأبصار خلال تواصل فرار الحشود دون أن يولوها أي انتباه. كان البعض يتصارخون، والبعض الآخر ينتحبون. أما أغلب الناس فلا يتلفظون بكلمة بقصد توفير طاقتهم لاستخدامها في المعركة التي ستنشب في أسفل التل، حيث سيضطرون إلى الكفاح للتمكن من عبور البوابة.

استند امبلياتوس على الباب وأحس بوجود بعض البلل على وجهه وحينما لمس أنفه بظاهر كفه وجد أنها ملطخة بالدماء، ونظر من فوق رؤوس الحشود إلى الجبل فلم يجده. كانت تتجه إلى المدينة غيمة سوداء هائلة قاتمة مثل العاصفة لكنه أدرك أنها ليست عاصفة ولا غيمة، بل شلال هادر من الأحجار. نظر بسرعة إلى الجهة الأخرى. فوجد قاربه القرمزي والذهبي لا يزال يرسو في المرفأ ففكّر أن بوسعهم الإبحار ومحاولة التوجه إلى فيللا ميسينوم والاختباء

هناك. ولكن حشود الناس المتدافعة عند البوابة امتدت حتى حدود أعلى التل، لذا لن يفلح أبداً في الوصول إلى المرفأ. وحتى لو وصل، كان سيجد أفراد الطاقم يلوذون بالفرار لإنقاذ أرواحهم.

فما كان منه إلا أن حسم قراره، وقال في نفسه: ليكن الأمر. هذا بالضبط ما حصل قبل سبع عشرة سنة حيث لاذ الجبناء بالفرار أما هو فبقي، ثم ما لبثوا جميعاً أن عادوا زاحفين إلى المكان. شعر بأنه يستعيد قوته وثقته القديمتين، ومن جديد سيعطي العبد السابق درساً لأسياده في الشجاعة الرومانية فالعرّافة لم تخطئ قط. رمق ذاك النهر من الناس المذعورين المتدفق أمامه بنظرة تأملية أخيرة ثم رجع إلى الوراء وأمر ماسافو بإغلاق الباب لأنهم سيمكثون ويتحمّلون الوضع.

* * *

في ميسينوم بدا لهم المشهد دخاناً. خرجت أخت بليني، جوليا، إلى الترّاس حاملة مظلتها لتقطف آخر ورود الصيف من أجل وضعها على طاولة العشاء، وافترضت أنه ليس سوى حريق آخر شب على جانب التل كحال جميع الحرائق التي أنهكت الخليج طيلة الصيف. ولكنها لم تَرَ مثيلاً لمدى ارتفاع الغيمة وحجمها وسرعة صعودها، فارتأت أنه حري بها إيقاظ أخيها الذي كان غافياً فوق كتبه في الحديقة في الأسفل.

حتى رغم وجوده في ظل الشجرة الوارف استحال وجهه جمراً بلون الورود الموجودة في سلتها. ترددت في إزعاجه لأنه بالطبع سيشتعل حماسة، وذكّرها منظره بشكل والدهما قبل موته بأيام ـ البدانة نفسها وقصر النفس نفسه، وحدة الطبع نفسها ـ ولكنها في حال تركته نائماً سيزداد غضباً لأنه لم يَرَ منظر الدخان الغريب، لذلك ربّتت على شعر رأسه وهمست قائلة: «إصحَ يا أخي فهناك شيء قد تود رؤيته».

فتح عينيه على الفور وقال: «المياه!. هل عادت إلى التدفق؟»

«يبدو أن حريقاً هائلاً شبّ في الخليج على جبل فيسوفيوس».

twitter @baghdad_library

«فيسوفيوس؟» غمز بعينيه في وجهها ثم نادى العبد القريب منه قائلاً: «أحضر حذائي بسرعة!»

«ولكن يا أخي لا تجهد نفسك كثيراً..».

لم ينتظر حتى وصول حذائه بل هرع للمرة الثانية في ذاك اليوم حافي القدمين وأخذ يركض على العشب الجاف باتجاه الترّاس، وحينما وصل إليه وجد معظم عبيد المنزل مصطفين على الدرابزين ينظرون شرقاً إلى الخليج باتجاه شيء بدا أشبه بمظلة هائلة مصنوعة من الدخان المنبعث فوق الساحل. كان ينبعث على مسافة أميال في الهواء جذع بني سميك عليه لطخات بيضاء وسوداء ويتفرع منه عند قمته مجموعة من الفروع الكثيفة. وبدت هذه الفروع العريضة بدورها تتكسّر عند أطرافها السفلى حيث بدأت تمطر غمامة دقيقة بلون الرمال إلى الأرض.

كان من الحقائق المؤكّدة لدى الأميرال والتي كان يحب تكرارها دائماً أنه كلما راقب الطبيعة أكثر قلّ ميله إلى اعتبار أن ثمة حدثاً فيها يستحيل تصديقه. ولكن هذا الحدث هو بكل تأكيد مستحيل، إذ أنه لم يقرأ شيئاً ـ وقد سبق له أن قرأ كل شيء ـ يشبه ولو إلى حد بعيد ما يحصل. لعل الطبيعة تمن عليه بشرف أن يشهد حدثاً لم يُسجَّل من قبل في التاريخ؟ تلك السنوات الطويلة من مراكمة الحقائق، والدعاء الذي ختم به كتاب التاريخ الطبيعي ـ بوركت أيتها الطبيعة، يا أم كل المخلوقات، اعلمي أنني أنا وحدي من بين جميع رجال روما مدحتكِ في كل تجلياتك لذا تحلي بالكرم تجاهي» ـ هل كافأته الطبيعة أخيراً؟ لو أنه لم يكن سميناً جداً لكان خرّ على ركبتيه. وهمس قائلاً: «شكراً لكِ، شكراً لكِ».

يجدر به البدء بالعمل في الحال. قمة على شكل مظلة... جذع طويل... فروع كثيفة... أراد تسجيل كل هذه المعلومات من أجل الأجيال القادمة طالما أن الصور لا تزال عالقة في رأسه. نادى أليكسيون طالباً منه جلب ورقة وقلم وطلب من جوليا إحضار غايوس.

«إنه في الداخل يعمل على الترجمة التي طلبتها منه».

«حسناً أخبريه بأن يحضر إلى هنا في الحال. إنه لا يود تفويت هذا المنظر عليه». راح يفكر أنه لا يعقل أن يكون دخاناً، فهو في غاية السماكة، كما أنه لا توجد أية إشارة إلى وجود نار في قاعدته. ولكن إن لم يكن دخاناً فما عساه يكون؟ «تباً لكم أصمتوا!» لوّح للعبيد ليكفوا عن التمتمة. في حال أنصت المرء جيداً يسهل عليه سماع دمدمة خافتة ومتواصلة تنتقل عبر الخليج. فإذا كان يُسمع لها هذا الصوت عن بُعد خمسة عشر ميلاً إذاً ما عسى يكون الصوت عليه من مسافة قريبة؟

توجه إلى آلكمان بالقول: «أرسل أحداً إلى المدرسة البحرية لإيجاد قبطان بارجة الأميرال، وأخبره أنني أريد منهم تجهيز سفينة حربية صغيرة ووضعها تحت تصرفي».

«لا يا أخي. لا!»

«جوليا! أعلم أن نيتك حسنة ولكن وفري العناء على نفسك. إن هذه الظاهرة، مهما كان نوعها، هي إشارة من الطبيعة. إنها ملكي».

* * *

فتحت كوريليا مصراعيْ الباب ووقفت على الشرفة. كانت تتقدم على يمينها فوق سطح القاعة المركزية المسطح غيمة عملاقة في غاية السواد وكأنها ستارة سميكة تُسدل على السماء، وقصف الرعد يهز أركان الجو. وكانت تسمع الصرخات تتعالى من الطريق، والعبيد يتراكضون في حديقة الباحة رواحاً وجيئة، من دون وجهة محددة. ذكّرها منظرهم بقوارض الزّغبة المحتجزة في إناء قبل إخراجها وطهيها. شعرت بأنها معزولة عما يجري، مجرد مشاهِدة في صندوق في آخر المسرح تشاهد عملاً متقناً، وفي أية لحظة سيتم إنزال إله من الأعلى لينقلها إلى بر الأمان، فصاحت بهم: «ماذا يجري؟» ـ ولكن لم يولها أحد انتباهاً. حاولت سؤالهم من جديد ولكنها أدركت أنهم لا يبالون لها.

كانت أصوات الدمدمة الصادرة من الغيمة تزداد ارتفاعاً، فهرعت ناحية

twitter @baghdad_library

الباب وحاولت فتحه ولكن القفل كانَ أقوى من قدرتها على كسره. عاودت الركض إلى الشرفة فوجدتها أعلى من قدرتها على القفز عنها. رأت في الأسفل وعلى جهة اليمين بوبيديوس وهو يصعد على الدرج من جهة منزله برفقة والدته المسنة تيديا الثانية التي تسير أمامه، وكان يتبعهما بضعة عبيد يحملون لهم الحقائب. نادته: «بوبيديوس!»، وعند سماعه لاسمه توقف ونظر من حوله. لوحت له بيدها: «ساعدني، لقد احتجزني وأقفل الباب علي».

هز رأسه بيأس: «إنه يحاول احتجازنا جميعاً! لقد جنّ جنونه!»

«أرجوك إصعد إلى هنا وافتح لي الباب!»

بدر عنه بعض التردّد حيث أراد مساعدتها وكان على وشك القيام بذلك. وحينما تقدم خطوة باتجاهها ارتطم شيء ما بالسقف المرصوف وراءه وارتد وسقط في الحديقة. كان حجراً خفيفاً بحجم قبضة طفل، وشاهده وهو يحط على الأرض. وضرب حجر آخر بالتعريشة. وفجأة خيم الظلام على المكان وبات الهواء مليئاً بالمقذوفات. أخذ يتعرض للضرب بشكل متكرر على رأسه وكتفيه. بدت أحجاراً خفيفة: كتل إسفنجية بيضاء ومتحجرة، ليست ثقيلة وإنما مؤذية. وكأن المرء علق في عاصفة بَرَد مفاجئة، عاصفة بَرَد دافئة ومظلمة وجافة، إن كان ثمة سبيل إلى تخيل مثل هذا الوضع. هرع ليختبئ تحت سقف القاعة المركزية متجاهلاً صرخات كوريليا ودافعاً والدته أمامه، لكنه وجد الباب أمامه مفتوحاً فخرج منه إلى الطريق.

لم تَرَه كوريليا وهو يفر، ولجأت إلى غرفتها هرباً من المقذوفات. كان آخر ما رأته عن العالم الخارجي ذاك الجو الظليل المليء بالغبار، ثم ما لبث أن اختفى النور كلياً ولم يعد بالإمكان رؤية أي شيء في غمرة الظلام الدامس، ولم يعد يُسمع أي صوت ـ حتى أصوات الصرخات اختفت ـ ما عدا هدير شلال الأحجار.

* * *

في هيركيولانيوم كانت الحياة طبيعية جداً، فالشمس مشرقة والزرقة الفاتحة

تغمر السماء والبحر. حينما وصل أتيليوس إلى الطريق الساحلي رأى صيادين يبحرون بقواربهم ويستخدمون شبكات الصيد، فبدا الأمر وكأنه خدعة يفتعلها الطقس الصيفي حيث أن نصف الخليج غاب عن النظر وسط عاصفة شعواء في حين أن النصف الثاني ينعم بحظه الجيد ولا يزال يتمتع بالنهار. حتى الصوت الصادر من الجبل بدا أنه لا يشكل أي خطر. دمدمة خلفية تنتقل مع حجاب الركام ناحية شبه جزيرة سورنتوم.

تجمع خارج بوابة هيركيولانيوم حشد من الناس لمراقبة مجريات الأمور وكان بضعة تجار ينصبون الأكشاك لبيع المعجنات والنبيذ. كان ثمة صف من المسافرين الذين يغطيهم الغبار يتهادون على الطريق، حيث يسير أغلبهم على أقدامهم حاملين أمتعتهم، أما البعض الآخر فمعهم عربات كدسوا عليها حاجياتهم فوصلت إلى ارتفاع عال. وكان الأطفال يركضون وراءهم مستمتعين بالمغامرة في حين أن الخوف يرتسم على وجوه أوليائهم، فشعر أتيليوس وكأنه في حلم. وسأل رجل سمين فمه ممتلىء بالكعك عما يجري هناك فأجابه أحد الأشخاص: «الجو معتم في أوبلونتس وكأنه منتصف الليل، ولا بد أن الحال في بومبي أسوأ».

تساءل أتيليوس بحدة: «بومبي؟» وقد أيقظه هذا الكلام «ما الذي يجري في بومبي؟»

هز مسافر برأسه مقرباً إصبعه من حلقه فخاف أتيليوس وتذكّر كوريليا.

عندما أجبرها على مغادرة القناة كان يحسب نفسه يبعدها عن الأذى. ولكن الآن، وهو يتبع بعينيه ملتويات الطريق باتجاه بومبي إلى النقطة الي اختفت فيها المدينة وسط الظلام، أدرك أنه فعل العكس. أخذت المقذوفات التي يطلقها فيسوفيوس تتوجه بفعل الرياح صوب المدينة مباشرة. حذره الرجل قائلاً: «لا تذهب بهذا الاتجاه أيها المواطن فالطريق مسدود».

ولكن أتيليوس كان قد غيّر وجهة حصانه وبات مواجهاً لدفق اللاجئين.

* * *

twitter @baghdad_library

كلما مضى قُدُماً في طريقه وجد الطريق أمامه مسدوداً أكثر ووجد الناس الهاربين في حالة يُرثى لها، حيث يغطي أغلبهم الغبار الرمادي السميك وشعرهم متجمد ويغطي وجوههم ما يشبه أقنعة الموت حيث تلطخها بقع الدماء. وكان البعض يحملون المشاعل المضاءة: بدوا كجيش مهزوم من الرجال المسنين الذين يكسوهم البياض، وهم يفرون من الأشباح ومن هزيمة قاتلة غير قادرين على النطق. وكانت حيواناتهم ـ الثيران والحمير والأحصنة والكلاب والقطط ـ أشبه بتماثيل المرمر التي دبت فيها الحياة وأخذت تصدر صريراً. وتركوا خلفهم على الطريق العام آثار العجلات والأقدام التي غطاها الرماد.

انهارت على أحد جانبيه بضعة أغصان من أشجار الزيتون. وعلى الجانب الآخر بدا البحر وكأنه يغلي إذ ظهر فيه عدد ضخم من النوافير الصغيرة. كان هناك كومة من الصخور أمامه على الطريق، فتوقف حصانه وخفض رأسه ورفض المضي قُدُماً. فجأة أخذت حافة الغيمة التي بدت على بُعد نصف ميل تقريباً تهرع باتجاههم. كانت السماء قاتمة وتحوم فيها المقذوفات الصغيرة، وبطرفة عين انتقل اليوم من عصر مشمس إلى مغيب وبات أتيليوس يتعرض للقصف. الأحجار ليست صلبة وإنما هي عبارة عن كتل صغيرة بيضاء من الرماد المتحجر التي تسقط عن ارتفاع شاهق وترتد على كتفيه ورأسه. بدت أشكال الناس وعرباتهم أكبر حجماً في ذاك الضوء الخافت، وأخذت النساء تطلقن الصيحات، وانطفأت المشاعل وسط الظلام، فجفل حصانه واستدار. لم يعد أتيليوس منقذاً وبات جزءاً من دفق اللاجئين المذعور، محاولاً بنفاذ صبر أن يلوذ بنفسه من عاصفة الركام. انزلق حصانه على جانب الطريق ووقع في مصرف مياه. ثم خف الهواء وبات بنياً وعادت أشعة الشمس.

كان الجميع يركضون خائفين من التهديد الكامن وراءهم، فأدرك أتيليوس أن الطريق إلى بومبي ليس مسدوداً فحسب بل هناك تغيير بسيط في اتجاه الريح أخذ ينشر الخطر غرباً باتجاه الخليج. جلس زوجان مسنان ينتحبان على جانب الطريق حيث أنهكهما التعب وباتا عاجزين عن مواصلة الركض. وانقلبت عربة

وثمة رجل يسعى جاهداً إلى تقويمها في حين كانت زوجته تهدئ طفلاً بين يديها وفتاة صغيرة تتعلق بثيابها. راح صف الناس الهاربين يتدفق من حولهم وقد انجرف أتيليوس مع تيار الناس هذا عائداً إلى الطريق باتجاه هيركيولانيوم.

عند بوابة المدينة لاحظوا تغير مسار الأحجار المنهمرة، وعند وصول اتيليوس إلى البوابة وجد التجار يجمعون بضائعهم. وبدأت الحشود تتفرق حيث يتجه بعضهم لإيجاد ملجأ لهم في البلدة والبعض الآخر ينفرون منهم للانضمام إلى الهاربين الذين يركضون على الطريق. مع ذلك، وبالرغم من كل تلك الجلبة رأى أتيليوس من بين الأسقف المرصوفة بالقرميد حركة الصيادين العادية على الخليج ووراءهم سفن الحبوب الكبيرة القادمة من مصر ناحية الرصيف في بيتيولي. البحر، أخذ يفكر به: إن أمكن له بطريقة ما الإبحار بواسطة قارب عندئذ بوسعه الفرار من انهمار الأحجار والتوجه إلى بومبي من جهة الجنوب، واقتنع بأنه لن يجديه نفعاً المكافحة لشق طريقه نزولاً إلى الواجهة البحرية في هيركيولانيوم. ولكن في الفيللا الكبيرة خارجها ـ منزل السيناتور بيديوس كاسكوس مع فريقه من الفلاسفة ـ يمكن أن يكون لديهم قارب ما بوسعه استخدامه.

سار على ظهر جواده على الطريق العام المزدحم إلى أن وصل إلى عموديّ بوابة كبيرين، اعتقد أنه لا بد وأنهما يعودان إلى فيللا كالبورنيا. ربط حصانه بدرابزين في الباحة وجال بنظره في المكان باحثاً عن أية إشارة تدل على الحياة، ولكن بدا له القصر الهائل مهجوراً. دخل من الباب المفتوح إلى القاعة المركزية الرحبة ثم مشى على جانب الحديقة المغلقة. كان يسمع أصوات صرخات وأصوات أقدام تتراكض في الأروقة الرخامية ثم ظهر عبد من حول زاوية يجر عجلة يد مكدسة بلفافات أوراق البردي. تجاهل العبد صرخة أتيليوس وتوجه إلى مدخل عريض وخرج منه إلى ضوء العصر الساطع في حين هرع عبد آخر كان يقوم بجر عجلة يد أخرى فارغة ودخل المنزل، فسدّ المهندس الطريق أمامه.

twitter @baghdad_library

«أين السيناتور؟»

«إنه في روما». كان العبد صغيراً في السن ومرتعباً ويتصبب عرقاً.

«أين سيدتك؟»

«بجانب حوض السباحة. أرجوك دعني أمر».

تنحى أتيليوس جانباً سامحاً له بالمرور وهرع إلى الخارج. تحت التراس كان هناك حوض السباحة الضخم، الذي رآه من السفينة الحربية الصغيرة التي أبحر على متنها إلى بومبي، ويوجد حوله الكثير من الأشخاص: عشرات من العبيد والعلماء الذين يرتدون ملابس بيضاء حيث يهرعون رواحاً وجيئة ينقلون بين أيديهم الكثير من لفافات البردي وأخذوا يكدسونها في صناديق عند حافة الماء، في حين وقفت مجموعة من النسوة على جنب يحدقن عبر الساحل في العاصفة البعيدة التي بدت من هذا المكان مثل غمامة بحرية بنية هائلة.

بانت المراكب البعيدة عن شاطئ هيركيولانيوم مجرد أغصان أشجار صغيرة مقابلها. لقد توقف الصيد وأخذت الأمواج ترتفع. كان أتيليوس يسمع الصوت المتواصل لتكسر الأمواج على الشاطئ: إذ بمجرد أن تنكسر موجة على الشاطئ تتبعها أخرى على الفور. كان بعض النسوة ينتحبن ولكن المرأة المسنة التي كانت واقفة وسط المجموعة وهي ترتدي ثوباً أزرق غامقاً كانت هادئة، وحين اقترب منها تذكرها. إنها المرأة التي كانت تتزين بالعقد ذي اللآلئ الكبيرة.

«هل أنت زوجة بيديوس كاسكوس؟» فهزت له برأسها.

«أنا ماركوس أتيليوس مهندس إمبراطوري. لقد قابلت زوجك منذ ليلتين في فيللا الأميرال».

نظرت إليه بتوتر. «هل أرسلك بليني؟»

«لا، لقد أتيت متوسلاً خدمة. أريد أن أطلب منك قارباً».

بانت الخيبة على تقاسيم وجهها: «هل تظنن أنه في حال كان لدي قارب كنت سأقف هنا؟ لقد أخذه زوجي البارحة إلى روما».

جال أتيليوس بنظره في أرجاء المكان الرحب، في تماثيله وحدائقه والكنوز الفنية والكتب التي يتم تكديسها على العشب، فاستدار بهدف المغادرة.

نادته قائلة: «مهلاً! يجدر بك مساعدتنا».

«ليس بوسعي فعل أي شيء. سيتوجب عليك أن تجربي حظك وتسيري على الطريق مع الآخرين».

«أنا لست خائفة على نفسي. ولكن على المكتبة، يجدر بنا إنقاذ المكتبة. ثمة عدد كبير جداً من الكتب بحيث يصعب نقلها عبر البر».

«أنا أحمل هم الناس وليس الكتب».

«الناس يرحلون ولكن الكتب تظل ولا تفنى».

«إذاً في حال كانت الكتب غير فانية فسوف تنجو من دون مساعدتي».

وبدأ يصعد على الطريق عائداً باتجاه المنزل.

فركضت وراءه وهي تصيح: «مهلاً إلى أين تذهب؟»

«أنا ذاهب لإيجاد قارب».

«بليني يملك القوارب. يوجد تحت إمرة بليني أكبر فيلق في العالم».

«بليني موجود على الجانب الآخر من الخليج».

«انظر عبر البحر! ثمة جبل بأكمله مهدد بالسقوط علينا! هل تحسب أن رجلاً واحداً في قارب واحد صغير بوسعه القيام بأي شيء؟ إننا نحتاج إلى فيلق. تعال معي».

تبعها إلى الممشى المعبّد وسارا حول الحوض ثم صعدا على درج ودخلا إلى مكتبة. كانت معظم أقسام المكتبة خالية من الكتب وهناك بضعة عبيد ينقلون ما تبقى منها على عجلة يد. وكان هناك وجوه رخامية لفلاسفة قدماء تحدق نزولاً وكأنه أصابها الذهول جراء ما يحصل.

«إننا نحتفظ هنا بالكتب التي جلبها أسلافي من اليونان. مئة وعشرون

twitter @baghdad_library

مسرحية كتبها سوفوكل وحده، وجميع أعمال سقراط والبعض منها مكتوب بخط يده. إنها لا تُعوض. لم نسمح أبداً بنسخها». ثم أمسكت بذراعه وقالت: «الناس يعيشون ويموتون بالآلاف كل ساعة. ما نفعنا نحن؟ إن هذه الأعمال العظيمة هي كل ما سيبقى منا. سوف يتفهم بليني الأمر». جلست مقابل الطاولة الصغيرة، وحملت قلماً وغطسته في حامل الحبر النحاسي المزخرف، وراحت شمعة حمراء تومض ثم تخبو بجانبها.

«خذ هذه الرسالة له. إنه يعرف هذه المكتبة. قل له إن ركتينا ترجو منه المساعدة».

كان أتيليوس يرى وراءها بعد التراس ذلك الظلام الدامس يتحرك بسرعة على امتداد الخليج وكأنه ظل على ساعة شمسية. اعتقد في البداية أنه سيتقلص ولكن على العكس بدأت سرعته تتزايد. لقد كانت محقة، سيتطلب الأمر سفناً كبيرة. سفناً حربية لإحداث أي تأثير على عدو بمثل هذا الحجم الكبير. لفت الرسالة وأقفلتها بالشمع المتقطر وضغطت بخاتمها على الشمع الطري. «هل تملك حصاناً؟»

«سأسير بوتيرة أسرع إن كان معي حصان جديد».

«لكَ ذلك». نادت أحد العبيد: «خذ ماركوس أتيليوس إلى الإصطبل وأسرج أسرع حصان لدينا». أعطته الرسالة فمد يده ليأخذها وإذ بها تلف أصابعها الجافة والنحيلة حول معصمه! «لا تخذلني أيها المهندس».

حرّر يده من قبضتها وركض وراء العبد.

أورا نونا

الساعة: ١٥:٣٢

إن الانبعاث المفاجئ لكتل الصهارة الضخمة يغير جغرافية نظام أنابيب المياه، ويزعزع استقرار الخزان الضحل، ويتسبب بانهيار بنيوي. غالباً ما يزيد مثل هذا الوضع من حدة الثوران محدثاً تلامساً بين السوائل الساخنة والصهارة، إضافة إلى حدوث تفجرات للنظام الحراري المائي المرتبط بالخزان الضحل.

موسوعة البراكين

\استغرق أتيليوس ما يقارب الساعتين للوصول إلى ميسينوم، حيث واجه مشقة في التنقل على ظهر الخيل. كان الطريق الممتد على خط الساحل، يمتد أحياناً على حافة المياه مباشرة وأحياناً أخرى يرتفع داخل الأرض، ويمر عبر الفيللات الضخمة التي يملكها نخبة الرومان. على طول الطريق مر بمحاذاة مجموعات صغيرة من المشاهدين الذين كانوا يتجمعون عند حافة الطريق العام لمشاهدة الظاهرة البعيدة. في أغلب الوقت كان يدير ظهره إلى الجبل ولكن حينما استدار حول حافة الخليج الشمالية وبدأ ينزل باتجاه نيابوليس عاد ورأى ذلك الشيء على يساره ولكنه بات خارق الجمال. كان عبارة عن غطاء رقيق من الغمامة البيضاء لف نفسه حول العمود المركزي مرتفعاً ميلاً بعد آخر على شكل أسطوانة شفافة رائعة، وكان يرتفع ليلامس الطرف السفلي للغيمة التي لها شكل حبة الفطر وتحوم فوق الخليج.

لم يكن ثمة وجود للذعر في نيابوليس، فهو مكان يحث على النوم في

twitter @baghdad_library

أغلب الأحيان. كان قد تخطى كثيراً اللاجئين المنهكين الخائفين الذين يفرون من تحت انهمار الأحجار، ولم يصل بعد أي خبر للمدينة عن الكارثة التي وقعت في بومبي. وكانت المعابد والمسارح المبنية على الطراز الروماني والمواجهة للبحر تتلألأ ببياضها تحت أشعة شمس العصر، والسواح يسيرون الهوينا في الحدائق. وعلى التلال خلف المدينة رأى قنطرة الأكوا أوغوستا القرميدية حيث تمتد فوق السطح، فتساءل إن كانت المياه قد عاودت التدفق ولكنه لم يجرؤ على التوقف لتفقد الأمر وهو في الحقيقة لم يكن يأبه للأمر. إن ما بدا في وقت سابق أهم مسألة في العالم لم يعد بذات أهمية البتة. أوَلَمْ يصبح إكزومنيوس وكوراكس الآن رماداً ومجرّد ذكرى؟ وتساءل عما يكون قد حل بالرجال الآخرين. ولكن الصورة التي عجز عن انتزاعها من تفكيره هي صورة كوريليا والطريقة التي أرجعت فيها شعرها إلى الوراء وهي تمتطي الفرس، والطريقة التي اختفت فيها مع ابتعاد المسافة بينهما حينما كانت تتبع الطريق الذي رسمه لها لتتوجه إلى مصيرها الذي حدده لها هو وليس القدر.

مر عبر نيابوليس ثم خرج إلى الريف المفتوح من جديد ودخل في النفق الهائل الذي شقه أغريبا حول الرأس البحري في بوسيليبون ـ حيث لم تقو مشاعل عبيد الطريق العام، وفقاً لما لاحظه سينيكا، على اختراق العتمة وتنوير المكان ـ ثم عَبَر أرصفة الحبوب الإسمنتية الضخمة في مرفأ بيتيولي ـ وهو مشروع آخر من مشاريع أغريبا ـ ثم عبَرَ ضواحي كيومي ـ حيث يقال أن العرافة موجودة في قارورتها وتتمنى الموت ـ ثم مر على مرابي المحار في بحيرة أفيرنوس، ثم مر على حمامات بايي ذات التراسات الكبيرة، ثم مر بمحاذاة السكارى المتواجدين على الشواطئ ومتاجر التذكارات بأوانيها الزجاجية ذات الألوان الناصعة، وطيارات الأطفال الورقية، والصيادين الذين يقومون بتصليح شبكاتهم الكتانية على جانب الرصيف، والرجال الذين يلعبون بالنرد في ظلال نباتات الدفلى، ثم مر على كتيبة القوات البحرية المرتدية هندامها وركض ضمن طابورين اثنين نزولاً باتجاه القاعدة البحرية. لقد مر على كل مظاهر الحياة المحتشدة للقوة الرومانية المتفوقة، في الوقت الذي كان فيسوفيوس على

الجهة المقابلة يصدر انفجاراً هادراً ثانياً، محوّلاً نافورة الأحجار من اللون الرمادي إلى اللون الأسود ودافعاً إياها إلى مسافة أعلى.

* * *

كان خوف بليني كله ينحصر في احتمال انتهاء هذه الظاهرة قبل وصوله إليها، لذا غمد بين الفينة والأخرى إلى الخروج من مكتبته لتفقد حال العمود المتصاعد، وكل مرة يطمئن إلى أنه لا يزال موجوداً، بل يتزايد ارتفاعاً أيضاً، حيث استحال تقدير مدى ارتفاعه بشكل محدد. يعتبر بوسيدونيوس أن الغمامات والرياح والغيوم لا ترتفع عن الأرض أكثر من خمسة أميال، ولكن قدّر معظم الخبراء بأن ارتفاع العمود يبلغ مئة وأحد عشر ميلاً وقد أخذ بليني هذه الآراء بعين الاعتبار وتبنى رأي الأغلبية. ومهما كانت الحقيقة فإن هذا الشيء أي العمود أو «التجلّي» كما قرر تسميته كان هائلاً.

ولتكون ملاحظاته دقيقة بقدر الإمكان أمر بإنزال ساعته المائية إلى المرفأ وتثبيتها على السطح المرتفع عند مؤخر السفينة الحربية الصغيرة. وخلال تنفيذ هذا الأمر وتحضير السفينة للانطلاق، راح يبحث في مكتبته عن مراجع تشير إلى فيسوفيوس، إذ لم يسبق له من قبل ان أبدى اهتماماً كبيراً بالجبل لأنه كان ثابتاً في مكانه لا يتزحزح، وكان ضخماً وجلياً جداً، لذلك فضّل بليني التركيز على مظاهر الطبيعة الأكثر خفاء. ولكن أول كتاب فتحه ويدعى (الجغرافيا) للمؤلف سترابو لفت انتباهه كثيراً:

«يبدو أن هذه المنطقة تعرضت لحريق في الماضي وتحوي فتحات من اللهب...»

لماذا لم يلاحظ هذا الكتاب من قبل؟ نادى غايوس ليدخل ويلقي نظرة:

«أترى هنا؟ إنه يقارن الجبل بإتنا؟ ولكن كيف يعقل هذا؟ لإتنا فتحة يبلغ عرضها ميلين. لقد رأيتها بأم عيني وهي تتوهج من فوق البحر ليلاً. وكل تلك الجزر التي تقذف اللهب ـ سترونجايل، التي يحكمها أيولوس، إله الريح، وليباري والجزيرة المقدسة حيث يقال إن فولكان يعيش ـ بوسعك رؤيتها كلها

twitter @baghdad_library

تحترق. ولكن لم يصلنا أي خبر من أي شخص عن وجود جمر في فيسوفيوس».

أشار له ابن أخته بالقول: «إنه يقول إن فتحات اللهب قد انطفأت في النهاية بفعل النقص في الوقود. لعل هذا يعني أن الجبل أنتج مصدراً جديداً من الوقود وأعادها إلى الحياة». رفع غايوس رأسه ونظر بحماسة: «ألا يعلل هذا سبب وصول الكبريت إلى مياه القناة؟»

نظر إليه بليني نظرة احترام. أجل، كان الفتى محقاً. لا بد وأن هذا ما حدث. إن الكبريت هو الوقود العالمي لكل هذه الظواهر ـ لفّة اللهب في كومفانتيوم في باكتريا، حوض الأسماك المتأجج في سهل بابل، حقل النجوم بالقرب من هيسبيريوس في إثيوبيا. ولكن معاني هذا الأمر فظيعة: فليباري والجزيرة المقدسة قد ظلتا تحترقان فيما مضى لأيام متواصلة إلى أن أبحرت إليهما بعثة من مجلس الشيوخ من أجل القيام بطقس استرضائي. إذا نشبت نار متفجرة مشابهة داخل البر الرئيسي الإيطالي وسط حشود غفيرة من الناس لا يمكن لذلك إلا أن يكون كارثة بكل المقاييس.

نهض على رجليه بصعوبة وقال: «حري بي النزول إلى سفينتي. لماذا لا تأتي معي يا غايوس؟ أترك الترجمة التي تقوم بها». ومدّ له يده وابتسم وقال: «أنا أعتقك من درسك».

«حقاً يا خالي؟» حدّق غايوس في الخليج ولعق شفته. بدا جلياً أنه هو أيضاً يعي النتائج المحتملة لحدوث إتنا ثانية في الخليج: «هذا لطف من قِبلك ولكن بصراحة لقد وصلت إلى مقطع صعب. ولكن بالطبع إن كنت تصر. . .».

أحس بليني أنه يشعر بالخوف، ومن عساه يلومه؟ حتى هو شعر بخوف يجتاحه رغم أنه محارب قديم. خطر في باله أن يأمر الفتى بمرافقته إذ لا يجدر بأي روماني أبداً الخضوع للخوف: ما الذي حدث للقيم الصارمة التي تعلمها في صغره؟ ـ ولكنه عاد وفكر في جوليا. هل من العدل تعريض ابنها الوحيد إلى خطر هو بغنى عنه؟ فقال ببهجة مصطنعة: «لا لا، لن أصر. يبدو البحر

هائجاً. وسوف يصيبك بالدوار. إبق أنت هنا واعتن بوالدتك». قرص خد ابن أخته المليء بالبثور ونفّش شعره الزيتي: «سوف تغدو محامياً جيداً يا غايوس بلينيوس، بل محامياً عظيماً. أنا أراك عضواً في مجلس الشيوخ يوماً ما. ستكون وريثي، وستصبح كتبي ملكاً لك. سيعيش اسم بليني عبرك. .». ثم كف عن الكلام. إذ بدأ الوضع يشبه إلقاء خطبة وداع. فقال بفظاظة: «عد إلى دروسك. أخبر والدتك إنني سأعود عند حلول الليل».

استند الأميرال إلى ذراع سكرتيره ودمدم وهو يخرج من مكتبته دون أن يلقي نظرة واحدة إلى الوراء.

* * *

كان أتيليوس قد عبَرَ البيسينا ميرابيليس ومر فوق الممر ودخل إلى المرفأ وبدأ ينزل على الطريق المنحدر ناحية فيللا الأميرال، حينما رأى فرقة من القوات البحرية أمامه تفسح طريقاً لمرور عربة بليني. تسنى له الوقت لينزل عن ظهر الجواد ويتوجه إلى الطريق قبل أن تصل إليه الفرقة:

«أيها الأميرال».

عمد بليني الذي كان يحدق أمامه إلى الالتفات باستغراب باتجاهه فرأى شخصاً لم يتعرف عليه، وهو مغطى بالغبار وقميصه ممزق ويداه ورجلاه ووجهه ملطخة بالدماء الجافة. تكلم هذا الشخص من جديد قائلاً: «أيها الأميرال! أنا ماركوس أتيليوس!»

«المهندس؟» أشار بليني طالباً توقيف العربة: «ما الذي حدث لك؟»

«إنها كارثة أيها الأميرال. إن الجبل يتفجّر ويمطر أحجاراً. .». ثم لعق أتيليوس شفتيه المتقرحتين: «هناك مئات الشخاص يفرون شرقاً على الخط الساحلي. إن بومبي وأوبلونتيس تُردمان تحت الركام. لقد أتيت من هيركيولانيوم، ولدي رسالة لك. .». ثم فتش في جيبه وأضاف: «إنها من زوجة بيديوس كاسكوس».

twitter @baghdad_library

«ركتينا؟» أخذ بليني الرسالة من يديه وفتح الختم. قرأها مرتين وراحت تعابير وجهه تتجهّم ثم بدا فجأة الشحوب على وجهه، الشحوب والصدمة. مال على جانب العربة وأخذ يري أتيليوس الخربشة التي كُتبت على عجل: «بليني يا صديقي العزيز. إن المكتبة في خطر. أنا وحيدة. أتوسل إليك أن تأتي إلينا عبر البحر ـ في الحال ـ إن كنت لا تزال تحب هذه الكتب القديمة وصديقتك القديمة المخلصة ركتينا». ثم سأل: «أحقاً هذا صحيح؟ فيللا كالبورنيا مهددة؟»

«إن الساحل بأكمله مهدد أيها الأميرال». ما خطب هذا الرجل المسن؟ هل افقده النبيذ والسن حواسه كلياً؟ أو هل حسب أن الأمر برمته مجرد استعراض في المدرج يقدم تكريماً له؟ «إن الرياح تحمل الخطر. إنها تفتل مثل الدوراة. قد يصل الخطر حتى إلى ميسينوم».

كرر بليني قائلاً: «قد يصل الخطر حتى إلى ميسينوم أيضاً. وركتينا وحدها» بينما كانت بعض الدموع تلمع في عينيه. لفّ الرسالة وأومأ إلى سكرتيره الذي كان يركض مع القوات البحرية بجانب العربة.

«أين أنتيوس؟»

«على جانب الرصيف أيها الأميرال».

«علينا التحرك بسرعة. إصعد واجلس بقربي يا أتيليوس». دق بخاتمه على جانب العربة وقال: «تقدموا!» حشر أتيليوس نفسه بجانبه وتوجهت العربة نزولاً على التل: «والآن أخبرني عن كل ما رأيته».

حاول أتيليوس ترتيب أفكاره ولكنه وجد صعوبة في التكلم بشكل متماسك. ومع ذلك ظل يحاول إيصال الفكرة حول القوة التي شهدها حينما ارتفع سقف الجبل. وأضاف إن انفجار القمة ليس إلا الذروة لمجموعة من الظواهر الأخرى ـ الكبريت في التربة، والأحواض التي تحوي الغازات الضارة بالصحة، واهتزازات الأرض وانتفاخها الذي خرّب شبكة أنابيب القناة، واختفاء الينابيع المحلية ـ كل هذه الأمور مرتبطة ببعضها البعض.

قال بليني وهو يهز برأسه: «ولم ينتبه أي منا إليها. لقد أصابنا العمى بقدر بومبونيانوس المسن الذي حسب هذا الأحداث من صنيعة يد جوبيتير».

«هذا غير صحيح أيها الأميرال. لقد لاحظ الأمر رجل واحد، وهو من سكان منطقة محاذية لإتنا: سلفي إكزومنيوس».

قال بليني بحدة: «إكزومنيوس؟ الذي خبأ ربع مليون سسترس في قعر خزانه؟» لاحظ الارتباك يعلو وجه المهندس: «لقد اكتشفنا الأمر هذا الصباح حينما جفت آخر قطرة من المياه. لماذا؟ هل تعلم كيف حصل على هذا المال؟»

كانوا يدخلون المرفأ، فرأى أتيليوس مشهداً مألوفاً ـ المينيرفا التي ترسو بجانب الرصيف وشراعها الأساسي مرفوع وجاهز للإبحار ـ وراح يفكر بمدى غرابة سلسلة الأحداث والظروف التي أتت به إلى هذا المكان في هذا التوقيت. لو أن إكزومنيوس لم يولد صقلياً ما كان أبداً غامر بالمجيء إلى فيسوفيوس وما كان اختفى، وما كان اتيليوس بُعث من روما وما كان وطأ بقدميه على أرض بومبي، وما كان تعرّف على كوريليا أو أمبلياتوس أو كوراكس. لبرهة من الوقت استعرض في ذهنه المنطق غير العادي للأحداث كلها، من الأسماك المسممة إلى الفضة المخبأة، وحاول التفكير بأفضل طريقة يمكن له بواسطتها أن يصف الأمور إلى الأميرال. ولكنه بمجرد أن بدأ بالكلام، لوّح له بليني بوجوب التوقف.

قال بنفاد صبر: «يا لحقارة الإنسان وجشعه! يمكن تأليف كتاب برمته حول هذا الموضوع. ولكن ما أهمية هذا كله الآن؟ فلتحضّر تقريراً حول هذا الأمر وتجهزه لدى عودتي. ماذا عن القناة؟»

«لقد تم تصليحها أيها الأميرال. أو بأي حال من الأحوال، كانت كذلك حينما تركتها هذا الصباح».

«إذاً أبليت حسناً أيها المهندس. وأعدك أنه سيصل أصداء ذلك إلى روما. والآن عد إلى مقرك وخذ قسطاً من الراحة».

twitter @baghdad_library

كانت الرياح تضرب الحبال بشراع المينيرفا بينما كان توركواتوس يقف بجانب المعبر الموجود في مؤخر السفينة يتكلم إلى قائد بارجة الأميرال أنتيوس ومجموعة من سبعة ضباط. لفت نظرهم اقتراب عربة بليني.

«بعد إذنك أيها الأميرال أود لو أبحر معك».

نظر إليه بليني ثم ابتسم وربّت بيده المنتفخة على ركبته: «عالم! أنت مثلي تماماً! لقد أدركت ذلك عندما رأيتك! سوف نقوم بأمور عظيمة اليوم يا ماركوس أتيليوس». أخذ يصدر الأوامر مطلقاً صفيراً لدى تنفسه منذ اللحظة التي كان فيها سكرتيره يخرجه من العربة: «توركواتوس فلنبحر على الفور. سوف ينضم إلينا المهندس. أنتيوس أطلق الإنذار العام بالخطر. أرسل إشارة إلى روما باسمي: لقد انفجر فيسوفيوس قبيل الساعة السابعة. وسكان الخليج مهددون. سوف أرسل الفيلق بأكمله إلى البحر لإخلاء الناجين».

حدّق فيه أنتيوس: «الفيلق بأكمله أيها الأميرال؟»

«كل ما يمكن له أن يطفو على وجه الماء. ماذا لديك هناك؟»

حدّق بليني إلى المرفأ الخارجي حيث ترسو السفن الحربية وتهتز في المياه: أرى الكورنكورديا أليس كذلك؟ والليبيرتاس، والجوستيتيا، وما هي تلك؟ البيتاس، واليوروبا؟» لوح بيده وأضاف: «كلها. وكل ما هو في داخل المرفأ الداخلي وليس في الحوض الجاف. هيا يا أنتيوس! كنت تتذمر الليلة الفائتة قائلاً إن لدينا الفيلق الأقوى في العالم ولكنه لم يَرَ أي تحرك فعلي بعد. حسناً، إليك التحرك الآن».

«لكن التحرك يتطلب عدواً أيها الأميرال».

«ها هو عدوك». وأشار إلى الغيمة الداكنة التي تنتشر على مسافة بعيدة: «إنه عدو أكبر من أية قوة واجهها القيصر».

لأول وهلة لم يتحرك أنتيوس وتساءل إن كان بوسعه التفكير في عدم الإطاعة، ولكن سرعان ما لمعت عيناه فالتفت إلى الضباط: «لقد سمعتم

أوامركم. إبعثوا إشارة إلى الإمبراطور وأطلقوا أمر التجمع العام. وانشروا خبر أنني سأخصي كل قبطان لا يحضر إلى البحر خلال نصف ساعة».

* * *

أشارت ساعة الأميرال المائية إلى حلول منتصف التاسعة وحينذاك تحركت المينيرفا من جانب الرصيف وبدأت ببطء تدور لتواجه البحر المفتوح. احتل أتيليوس مكانه القديم بجانب الدرابزين وهز برأسه لتوركواتوس. رد عليه القبطان بهزة بسيطة من رأسه وكأنه يقول إنه يعتبر هذه المغامرة ضرباً من الجنون.

أمر بليني قائلاً: «سجّلوا التوقيت»، فقام أليكسيون الجالس القرفصاء بجانبه بتغطيس قلمه في الحبر ودوّن رقماً.

تم تجهيز كرسي مريح ذي يدين للإسناد وظهر عال من أجل الأميرال على ظهر السفينة الصغير، ومن هذا الموقع المرتفع أخذ يمسح بعينيه المناظر التي تظهر أمامه. لقد كان حلماً راوده على مدى السنتين الماضيتين ألا وهو قيادة الفيلق ضمن معركة ـ أن يسحب هذا السيف الهائل من غمده ـ على الرغم من علمه أن فيسباسيان عينه مديراً سلمياً لمجرد أن يدرء عن حد السيف الصدأ. ولكن كفانا تدريبات، وسيتمكن أخيراً من رؤية كيف تبدو عليه أجواء التحضر للمعارك الحقيقية: نفير الأبواق العالي الذي يجذب الرجال من كل زاوية في ميسينوم، قوارب التجذيف التي تنقل أوائل البحارين إلى السفن الحربية الكبيرة، حرس التقدم الذين يصعدون على متن السفن الحربية وينتشرون على سطحها، رفع الصواري العالية، وتجهيز المجاذيف. كان أنتيوس قد وعده بأنه سيُنزل عشرين سفينة إلى الميدان على الفور، أي أربعة آلاف رجل في كل فيلق.

حينما كانت المينيرفا تتوجه شرقاً تم تغطيس صف المجاذيف المزدوج في الماء، وبدأت الطبول تُقرع تحت سطح السفينة وباتت تتقدم إلى الأمام. كان يسمع رفرفة عَلَمه الخاص المزخرف بالنسر الإمبراطوري، حيث كانت تعبث به الرياح على ساريته في مؤخر السفينة خلفه. أخذ النسيم يلفح وجهه فشعر بطفرة حماسة تعتمل في صدره. لقد اهتمت المدينة كلها بمراقبة ما يحدث. رآهم

twitter @baghdad_library

يصطفون في الطرقات، ويطلون من نوافذهم ويقفون على السطوح، وسُمعت صرخة ابتهاج خفيفة في أرجاء المرفأ. أخذ يفحص جانب التل بعينيه بحثاً عن فيللته فرأى غايوس وجوليا واقفين خارج المكتبة، فرفع يده ولوح لهما، فردا على تحيته بصرخة ابتهاج أخرى.

نادى أتيليوس بسعادة قائلاً: «هل ترى حالة التقلّب لدى عامة الناس؟ الليلة الفائتة بصقوا عليّ في الطريق، واليوم بتُّ بطلاً. إن كل ما يعيشونه عبارة عن مظاهر» ثم لوّح من جديد.

تمتم توركواتوس قائلاً: «نعم، وانتظر حتى ترى ما سيفعلونه في الغد إن فقدوا نصف رجالهم».

أُخذ أتيليوس على حين غرة بفعل القلق الذي ظهر في كلامه وقال بصوت خافت: «هل تعتقد أننا معرضون إلى هذا القدر من الخطر؟»

«إن هذه السفن تبدو قوية أيها المهندس ولكنها مرتبطة ببعضها البعض بواسطة الحبال. أنا مستعد بكل سرور لمقاتلة عدو فانٍ. ولكن وحده المجنون هو الذي يبحر بنيّة مقاتلة الطبيعة!».

أطلق القبطان في مقدمة السفينة تحذيراً فعمد مدير الدفة الواقف وراء الأميرال إلى فتل ذراع الدفة. مرت المينيرفا بين السفن الحربية الراسية وبات أتيليوس على مسافة كافية جعلته يرى وجوه البحارة على متن هذه السفن، ثم استدارت من جديد ومرت بمحاذاة الجدار الصخري الطبيعي في المرفأ، الذي بدا أنه يفتح ببطء وكأنه باب مدولب في معبد كبير. للمرة الأولى باتت لديهم فكرة واضحة عما كان يحدث في الخليج.

تمسّك بليني بذراعي كرسيه حيث عجز عن الكلام. ولكنه عاد وتذكر واجباته تجاه العلم. أخذ يملي على سكرتيره بتردد قائلاً: «وراء الرأس البحري في بوسيليبون تغلف غيمة سميكة كامل فيسوفيوس والساحل المحيط به، ولون هذه الغيمة أبيض مائل إلى الرمادي، وملطّخ بالسواد». ولكنه عاد وفكر أن هذا الكلام غير مشوق إذ عليه أن يوصل إحساساً بالدهشة: «وفوق هذا كله يبرز

عمود مركزي ضخم جداً منتفخ ومستقيم وكأن أعماق الأرض الساخنة يتم جذبها إلى الخارج وتوجيهها ناحية السماء». هذا تعبير أفضل. ثم أكمل: «إنه يتنامى وكأنه مدعوم بانفجار متواصل. ولكن على قمته تصبح المواد المفرزة ثقيلة جداً وبالتالي نتيجة ضغطها نزولاً تنهمر على الجوانب». توجه إلى المهندس بالقول: «ألا توافقني الرأي؟ إن الثقل هو الذي يجعلها تنهمر على كل الجوانب». رد عليه المهندس بصوت عال: «بسبب الثقل أيها الأميرال أو بسبب الرياح».

«أجل إنها نقطة سديدة. أضفها إلى المعلومات يا أليكسيون. تبدو الرياح أقوى في الأعلى، وبالتالي تقلب هذا العمود باتجاه جنوب شرق». أومأ إلى توركواتوس: «علينا استغلال هذه الرياح أيها القبطان! فلترفع كامل الشراع».

قال توركواتوس لأتيليوس بصوت خافت جداً: «هذا جنون. أي قائد هذا يلاحق عاصفة؟» ولكنه نادى ضباطه قائلاً: «إرفعوا الشراع الأساسي!»

تم رفع العمود الداعم للشراع من المكان الذي يقبع فيه وسط السفينة، فاضطر أتيليوس إلى أن يتوجه بعجل صوب مؤخرة السفينة فيما أخذ البحارة في كلا الجانبين يمسكون بالحبال وبدأوا يسحبون الشراع بواسطتها. كان الشراع لا يزال ملتفاً وحينما وصل إلى موقعه تحت (كوب الشرب) كما اصطلحوا على تسمية منصة المراقبة، تسلق فتى صغير لا يتخطى عمره العشر سنوات الشراع لتحريره. توجه إلى عارضة الشراع وفك رباطها، وحينما تحررت نزل الشراع القطني الثقيل وملأ المكان على الفور وأخذ يشتد مع قوة الرياح. بدأت المينيرفا تصدر صريراً وزادت سرعتها فأخذت تندفع وسط الأمواج مخلّفة لفافات من الرغوة البيضاء على جانبي مقدمتها المستدقة، وكأنها منحت ينقش الخشب الناعم.

شعر بليني بأن معنوياته ترتفع لدى الإبحار، فأشار إلى جهة اليمين. «ها هي وجهتنا أيها القبطان. هيركيولانيوم!»

«حاضر أيها الأميرال. يا مدير الدفة خذنا شرقاً».

twitter @baghdad_library

طقطق الشراع ومالت السفينة جانبياً. بللت موجة من الرذاذ أتيليوس، ويا له من إحساس رائع! مسح الغبار عن وجهه ومرر كفيه في شعره الوسخ. تحت سطح السفينة زادت الطبول من وتيرة ضرباتها كثيراً ولم تعد تُرى المجاذيف في غمرة الأمواج المتلاطمة والرذاذ، مما اضطر سكرتير بليني إلى وضع ذراعيه فوق أوراقه لمنعها من الطيران. نظر أتيليوس إلى الأميرال فرآه منحنياً إلى الأمام على كرسيه، وخداه المنتفخان يلمعان نتيجة رذاذ البحر، والحماسة تشع من عينيه، وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه، وقد غابت كل آثار الإنهاك الذي كان يشعر به سابقاً. لقد عاد ليكون فارساً على صهوة جواده ويجدّ السير في السهل الألماني وبيده رمحه ليُنزِل الويل بالبرابرة.

«سوف ننقذ ركتينا والمكتبة وننقلهما إلى بر الأمان ثم ننضم إلى أنتيوس وبقية الفيلق للمساعدة في إخلاء الناس إلى مكان آخر على الساحل. ما رأيك بكلامي أيها القبطان؟»

أجابه توركواتوس بجفاء: «كما تشاء أيها الأميرال. هل لي بسؤالك عن الوقت الذي تشير إليه ساعتك؟»

قال أليكسيون: «إنها تشير إلى بداية الساعة العاشرة».

رفع القبطان حاجبيه وقال: «إذاً لم يتبق لنا سوى ثلاث ساعات من ضوء النهار».

ترك معاني كلامه معلقة في الهواء ولكن لم يأبه لها الأميرال البتة: «أنظر إلى السرعة التي نسير بها أيها القبطان! سوف نصل قريباً إلى الساحل».

«أجل والرياح التي تقودنا إلى الأمام ستصعّب علينا جداً الرجوع إلى البحر من جديد».

أخذ الأميرال يسخر قائلاً: «يا للبحارة!» خافضاً صوته الذي علا عليه صوت تلاطم الأمواج: «هل تسمع أيها المهندس؟ أقسم إنهم أسوأ من المزارعين عندما يتعلق الأمر بالطقس. حيث يشتكون حينما لا تكون هناك رياح ويشتكون أكثر حينما تكون الرياح موجودة!»

حيّاه توركواتوس بالقول: «أيها الأميرال! عن إذنك!» استدار وفكاه مقفلان وأخذ يترنح متوجهاً ناحية مقدمة السفينة.

قال بليني: «ملاحظات الساعة العاشرة. هل أنت جاهز يا أليكسيون؟» لامس أطراف أصابعه ببعضها البعض وعبس. إنه لتحدٍ تقني هائل القيام بوصف ظاهرة لم تُخترع الكلمات المناسبة لوصفها بعد. بعد فترة من الوقت، بدا أن الاستعارات اللغوية المختلفة مثل ـ أعمدة، جذع الشجرة، النوافير، وما شابه ـ تجعل المعاني مبهمة بدل توضيحها، لعجزها عن إيحاء مدى القوة الهائلة التي كان بليني يشهدها وجب عليه جلب شاعر معه فهو أكثر فائدة من قبطانه الحذر. بدأ بالقول: «لدى الاقتراب أكثر، يبدو لنا هذا التجلّي كغيمة ماطرة ثقيلة وضخمة وفي غاية السواد، كونه عاصفة مرئية عن بُعد عدة أميال. يُحتمل أننا نرى بضعة أعمدة فردية من الأمطار تنجرف مثل الدخان عن السطح القاتم. ولكن وفقاً للمهندس ماركوس أتيليوس، فهذا انهمار أحجار وليس أمطار». أشار إلى السطح المرتفع عند مؤخرة السفينة بجانبه: «إصعد إلى هنا أيها المهندس وصِف لنا مجدداً ما رأيته من أجل تدوين المعلومات».

تسلق أتيليوس السلم القصير إلى المنصة. إن الطريقة التي رتب فيها الأميرال المكان حوله ـ بوجود عبده وطاولته المحمولة وكرسيه الأشبه بالعرش وساعته المائية ـ لا تتناسب أبداً مع السرعة التي يبحرون بها. فعلى الرغم من كون الرياح في ظهره بات يمكنه في تلك اللحظة سماع الهدير الصادر من الجبل. وفجأة بات شلال الأحجار أكثر قرباً منهم، فأصبحت سفينتهم هشة نظير هشاشة ورقة شجر في قعر شلال مائي. عاود إعطاء الأوصاف من جديد وعندها ضربت صاعقة برق وسط الغيمة الهائلة، لم يكن البرق أبيض اللون وإنما شريط ضوئي أحمر ضيق ومقرّض. ظل معلقاً في الهواء وكأنه عرق حي من الدم، فبدأ أليكسيون يقرق بلسانه، وهي الطريقة التي يعبد فيها المؤمنون بالخرافات البرق.

أمره بليني قائلاً: «أضف هذا إلى لائحة الظواهر. البرق نذير خطير».

صرخ توركواتوس: «بتنا نبحر على مسافة قريبة جداً».

twitter @baghdad_library

من وراء كتفي الأميرال أمكن لأتيليوس رؤية السفن رباعية المجاذيف التابعة لفيلق الميسين وهي لا تزال تحت ضوء الشمس وتخرج من المرفأ على شكل ٧ وكأنها سرب من الإوز الطائر. ولكنه عاد ولاحظ أن العتمة أخذت تلف السماء. وعلى يمينهم راح وابل من الأحجار المنهمرة يسقط على سطح مياه البحر، مقترباً منهم بسرعة شديدة. اختفت مقدمات السفن الرباعية التجذيف وأشرعتها وباتت أشبه بسفن أشباح بعد أن امتلأ الهواء بالأحجار المتساقطة.

* * *

وسط هذا الهرج الصاخب كان توركواتوس يصدر الأوامر في كل اتجاه، فأخذ الرجال يركضون على ظهر السفينة بسرعة البرق. تم فك الحبال التي تربط عارضة الشراع وبالتالي أُنزل الشراع، واستدار مدير الدفة إلى أقصى اليسار. وبعد برهة هبطت صاعقة برق من عنان السماء ولمست أعلى الصارية وخرقتها نزولاً ثم خرقت عارضة الشراع. تسنى لأتيليوس في غمرة الضوء الذي نشرته هذه الصاعقة فوق المكان رؤية الأميرال حاني الرأس ويداه على مؤخر عنقه وسكرتيره ينحني إلى الأمام لحماية أوراقه. كسرت كرة النار حافة العمود ورمتها في البحر محدثة دخاناً كبريتياً، ثم خمدت بصوت هسيس عنيف آخذة ضوءها معها، عندئذ أغمض عينيه. لو أن الشراع لم يتم إنزاله لكانت النيران أكلته بكل تأكيد. كان يشعر بضربات الحجارة المتساقطة على كتفيه ثم سمعها تتدحرج على ظهر السفينة، وأدرك أنه لا بد وأن المينيرفا تسير على حافة العاصفة، وكان توركواتوس يحاول إخراجهم من تحتها وقد أفلح في ذلك على نحو مفاجئ. حصل انهمار أخير من المقذوفات ثم عادوا وخرجوا إلى ما تحت ضوء الشمس.

سمع أتيليوس بليني يسعل ثم فتح عينيه ليرى الأميرال ينفض الركام عن طيات التوغة التي يلبسها. كان قد أمسك بكومة صغيرة من الأحجار ثم أرجع ظهره بتثاقل على كرسيه وأخذ يتفحصها في راحة يده. وعلى طول السفينة كان الرجال ينفضون ملابسهم ويتحسسون أبدانهم بحثاً عن أية جروح. كانت المينيرفا لا تزال تتوجه مباشرة ناحية هيركيولانيوم وبات يفصلها عنها أقل من ميل واحد

وقد أصبحت على مرأى العين. ولكن كانت الرياح تشتد ومعها ارتفعت الأمواج مما اضطر بمدير الدفة إلى المكافحة لإبقاء السفينة على مسارها.

قال بليني بهدوء: «التعرض لتأثير هذا التجلّي». توقف ليمسح وجهه بكمه ثم سعل من جديد: «هل تدون ما يحصل؟ كم الساعة الآن؟»

نفض أليكسيون الأحجار عن أوراقه ونفخ الغبار عنها. ثم انحنى ناحية الساعة: «لقد انكسرت أيها الأميرال». كان صوته يرتجف وكاد يبكي.

«حسناً، لا يهم. دعنا نقول إنها الساعة الحادية عشرة». رفع بليني قطعة من الحجارة وأخذ يتفحصها عن كثب. «إن المواد المتساقطة عبارة عن أحجار خفّاف خفيفة فقاعيّة ولونها أبيض مائل إلى الرمادي. إنه بخفة الرماد ويسقط على شكل قطع لا تفوق إبهام المرء حجماً». ثم توقف لوهلة وعاد وأضاف: «إحمل قلمك يا اليكسيون إن كان ثمة شيء لا أحتمله فهو الجبن».

كانت يد السكرتير ترتجف، ووجد صعوبة في الكتابة حيث أن السفينة كانت تهتز بعنف. انزلق قلمه على سطح ورقة البردي مشكلاً خربشة غير مفهومة، وانزلق كرسي الأميرال على متن السفينة فأمسكه أتيليوس. قال: «يجدر بك النزول إلى ما تحت سطح السفينة»، ثم اقترب منهم توركواتوس متعثراً دون خوذة على رأسه.

«خذ خوذتي أيها الأميرال».

«شكراً لك أيها القبطان ولكن هذه الجمجمة القديمة التي أملكها توفر لي حماية مناسبة».

«أيها الأميرال أنا أتوسّل إليك، سوف تقودنا هذه الرياح إلى قلب العاصفة مباشرة لذا يجب علينا العودة».

تجاهله بليني وأكمل كلامه: «إن قطع الخفّاف أقل من الحجر الصخري وأقرب إلى كسرات خفيفة من غيمة متجمدة». مد عنقه ليحدق من فوق جانب

twitter @baghdad_library

السفينة. «إنها تطفو على سطح البحر وكأنه كتل من الجليد. هل ترون؟ يا للغرابة!»

لم يكن أتيليوس قد لاحظ الأمر من قبل. كانت المياه مغطاة بسجادة من الحجارة. فأخذت المجاذيف تحركها جانباً مع كل ضربة ولكن ما يلبث أن يطفو المزيد منها ليحل محلها. ركض توركواتوس باتجاه الجدار المنخفض لسطح السفينة. لقد باتوا محاصرين.

انكسرت موجة من قطع الخفاف أمام السفينة. «أيها الأميرال. . ».

«الحظ يحالف الشجعان يا توركواتوس، وجّه السفينة إلى الشاطئ!»

أفلحوا في مواصلة الإبحار لفترة قصيرة ولكن كانت حركة المجاذيف تضعف، والسبب في ذلك لا يعود إلى الرياح أو الأمواج بل إلى ثقل قطع الخفاف الذي يعوّق تقدمهم على سطح المياه. زاد عمقها مع اقترابهم من الساحل فبلغ عمقها قدمين أو ثلاث أقدام، وبانت أشبه بموجة جافة هائلة. لذا فشلت راحات المجاذيف في اختراقها، حيث أنها عجزت عن بذل الضغط وبدأت السفينة تنجرف مع الرياح باتجاه شلال الحجارة. باتت فيللا كالبورنيا قريبة ولكنها صعبة المنال، ووقع نظر أتيليوس على المكان الذي وقف فيه مع ركتينا. رأى صور أشخاص تتراكض على الشاطئ، ورأى كومات الكتب، وأثواب الفلاسفة الأبيقوريين البيضاء المرفرفة.

كفّ بليني عن إملاء ملاحظاته وبمساعدة أتيليوس نهض ووقف على قدميه. كانت الأخشاب تصدر صريراً من حولهم حيث أن الحجارة أخذت تضغط على بدن السفينة. وشعر المهندس بأن بعض الضعف ألمّ بالأميرال حيث بدا أنه للمرة الأولى أدرك أنهم خسروا. مد يده تجاه الشاطئ، وتمتم قائلاً: «ركتينا».

كانت بقية سفن الفيلق قد بدأت تتبعثر، وضاعت تشكيلة ٧ التي كانت عليها وأخذت السفن تكافح لإنقاذ نفسها ثم لفّت العتمة المكان من جديد وغطى الصوت المألوف لطَرَقات قطع الخفاف المنهمرة على كل صوت آخر.

صرخ توركواتوس قائلاً: «لقد فقدنا القدرة على التحكّم بالسفينة! فلينزل الجميع إلى ما تحت سطح السفينة. أيها المهندس ساعدني على رفعه وإنزاله من هنا».

عارض بليني قائلاً: «ملاحظاتي المدوَّنة».

«إنها مع أليكسيون أيها الأميرال» أمسكه أتيليوس بإحدى ذراعيه وأمسكه القبطان بالذراع الأخرى. ولكنه كان في غاية الثقل. فتعثر على الدرجة الأخيرة وكاد يقع على طوله ولكنهما أفلحا في إسناده وجرّاه بمشقة على ظهر السفينة ناحية الباب الأفقي المفتوح الذي يؤدي إلى مراكز التجذيف في الأسفل في الوقت الذي تحول فيه الهواء إلى حجارة. صرخ توركواتوس: «أفسحوا المجال للأميرال!» ثم كادوا يرمونه عن السلم. نزل أليكسيون بعده حاملاً الأوراق العزيزة وأخذ يطأ على كتفي الأميرال ثم قفز أتيليوس نزولاً مع شلال من الحجارة وأخيراً قفز توركواتوس وأغلق الباب بعنف وراءه.

twitter @baghdad_library

فيسبيرا

الساعة: ٢٠:٠٢

خلال المرحلة الأولى كان قطر الفجوة يقارب المئة متر. ومع تواصل الثوران سبّب التوسع الحاصل للفجوة بارتفاع مستويات الثوران أكثر فأكثر. وعند حلول مساء يوم الرابع والعشرين من الشهر تزايد طول العمود. وتدريجياً أخذت المستويات الأعمق في حجرة الصهارة تتصاعد إلى الأعلى، إلى أن وصلت بعد حوالي سبع ساعات كتل الخفاف الرمادية المحتوية على كمية أكبر من الحديد والمغنيسيوم إلى القمة، وقُذفت بمقدار يقارب ١,٥ مليون طن في الثانية، وحُملت بفعل الحمل الحراري إلى ارتفاعات فائقة تصل إلى **٣٣** كيلومتراً.

البراكين: منظور أرضي

وسط الحرارة العالية والظلمة التي عمت المكان تحت سطح سفينة المينيرفا جلس الجميع القرفصاء وراحوا ينصتون إلى صوت ارتطام الحجارة فوقهم. عم الهواء روائح العرق والنفس المنبعثة من مئتي بحّار، وبين الفينة والأخرى، يعلو صوت أجنبي متكلماً بلغة غير معروفة، ولا تُسكته سوى صرخة صادرة من صوت أجش يعود إلى أحد الضباط. وراح رجل بالقرب من أتيليوس يتكلم بشكل متواصل باللغة اللاتينية قائلاً إنها نهاية العالم، وهذا بالضبط ما بدا الوضع عليه بالنسبة إلى المهندس. لقد عكست الطبيعة نفسها، فباتوا الآن يغرقون تحت الحجارة في عرض البحر ويهيمون في أعماق العتمة بينما هم في وضح النهار. كانت السفينة تهتز بعنف ولكن لم يكن أي من المجاذيف يتحرك.

twitter @baghdad_library

لم يكن ثمة جدوى من القيام بأي نشاط إذ لا يملكون أدنى فكرة عن الوجهة التي ينجرفون إليها. لم يكن بيدهم ما يفعلونه سوى الصبر، لذا غرق كل رجل في بحر أفكاره.

لم يستطع أتيليوس أن يحسب المدة التي تواصل فيها هذا الوضع. لعله طال لساعة من الزمن أو ربما ساعتين، حتى أنه لم يكن يعرف أين يقبع تحت سطح السفينة. كان يدرك أنه يتمسك بمسند خشبي رفيع، بدا أنه ممتد على طول السفينة والبحارة الجالسين على صف مزدوج محشورون على مقاعد على كلا الجانبين. كان يسمع صوت بليني وهو يصفر في مكان قريب منه وأليكسيون يتنشق بصوت مسموع كالطفل. أما توركواتوس فكان يلتزم الصمت المطبق. وما لبث صوت الارتطام المتواصل للحجارة، الذي بدا قوياً في بداية الأمر حينما كانت الحجارة تنزل على الخشب الذي يغطي سطح السفينة، أن أصبح بشكل تدريجي مكتوماً بعد أن باتت الحجارة تسقط فوق بعضها البعض مما عزلهم عن بقية العالم. وبالنسبة إليه كان هذا أسوأ ما في الأمر، الإحساس بثقل الحجارة الذي يضغط عليهم ببطء ويدفنهم أحياء. ومع مرور الوقت بدأ يتساءل عن مدى قدرة أرضية السفينة على الصمود، أو ما إذا كان ثقل المواد المتراكمة فوقهم سيدفعهم إلى ما تحت الأمواج. حاول تعزية نفسه بفكرة أن هذه الحجارة خفيفة الوزن: حيث أن المهندسين في روما كانوا أحياناً يعمدون عند بنائهم القبب إلى استخدام حجارة الخفاف هذه لمزجها مع الإسمنت بدل الحجارة الصخرية وقطع القرميد. وبرغم ذلك أخذ يعي تدريجياً أن السفينة قد بدأت تميل، وبعد ذلك بفترة قصيرة صدرت صرخة ذعر من أحد البحارة الموجودين على يمينه تفيد بأن المياه تتدفق عبر فتحات المجاذيف. صرخ توركواتوس عليه بقسوة طالباً منه التزام الصمت، ثم نادى بليني الموجود بقرب المسند الخشبي قائلاً إنه بحاجة إلى أخذ مجموعة من الرجال إلى سطح السفينة لمحاولة إزالة الحجارة المنهمرة بواسطة الرفوش.

أجاب الأميرال: «إفعل ما يتوجب عليك فعله أيها القبطان». كان صوته هادئاً، وفجأة علا صوته فوق زئير العاصفة وقال: «أنا بليني! وأتوقع من كل

رجل أن يصمد كصمود المقاتل الروماني! وأعدكم أنه حينما نعود إلى ميسينوم سيتم التعويض عليكم!»

صدرت بعض الملاحظات الساخرة من وسط العتمة:

«هذا إن عدنا!»

«أنت من أغرقنا في هذه الورطة!»

صرخ توركواتوس قائلاً: «سكوت! هلا ساعدتني أيها المهندس؟» كان قد صعد على السلم القصير ناحية الباب الأفقي وراح يحاول دفعه ليفتح ولكن ثقل كتل الخفاف لم يسمح له برفعه. فطفق أتيليوس يتلمّس طريقه على امتداد المسند الخشبي ثم انضم إليه على السلم. تمسك بالسلم بإحدى يديه وراح باليد الأخرى يرفع اللوح الخشبي فوق رأسه. وسوياً رفعاه ببطء، فانهمر شلال من الركام فوق رأسيهما وتناثر على الأضلاع الخشبية في الأسفل. أمر توركواتوس قائلاً: «أحتاج إلى عشرين رجلاً أنتم الجالسون على صفوف التجذيف الخمسة. إتبعوني».

تسلق أتيليوس السلم وخرج وراءه إلى ما تحت حجارة الخفاف المتساقطة. كان ثمة ضوء غريب وبني اللون، وكأن هناك عاصفة رملية، وحينما قوّم وقفته أمسك توركواتوس بذراعه وأشار بيده. استغرق أتيليوس بعض الوقت حتى فهم قصده ثم رأى ما رآه توركواتوس ـ صف من الأنوار الصفراء المتلألئة تظهر بشكل خافت وسط العتمة. فراح يفكر: إنها بومبي. كوريليا!

صرخ القبطان قائلاً: «لقد انجرفنا إلى ما تحت المكان الأسوأ واقتربنا من الساحل! الآلهة وحدها تعلم مكاننا! سنحاول أن نجعل السفينة تسير على الأرض! ساعدني لتحريك الدفة». استدار وأرسل أقرب مجذّف ليعود إلى الباب الأفقي: «عد إلى الأسفل واطلب من الآخرين التجذيف. فليجذفوا لينجوا بحياتهم! وليعمد بقيتكم إلى رفع الشراع!»

ركض على جانب السفينة باتجاه مؤخرتها، فتبعه أتيليوس ورأسه منحنٍ ورجلاه تغرقان في طبقة الخفاف الأبيض الكثيفة التي تغطي سطح السفينة

twitter @baghdad_library

كالثلج. كانت السفينة غارقة في الماء، لدرجة أنه شعر أن بوسعه النزول والدوس على طبقة الحجارة والسير للوصول إلى الشاطئ. تسلق بجهد إلى السطح المرتفع في مؤخر السفينة وبمساعدة توركواتوس أمسك بالدفة الكبيرة التي توجّه السفينة. ولكن على الرغم من قيام الرجلين بفتلها، إلا أن راحة المجذاف أبتْ التحرك وسط هذه الكتل العائمة.

أفلح بصعوبة في رؤية الشراع الذي بدأ يرتفع أمامهم، وسمع صوت الطقطقة لدى تحركه، وفي الوقت نفسه حصلت حركة خفيفة على صفي المجاذيف. اهتزت الدفة بعض الشيء تحت أيديهما، وأخذ توركواتوس يدفع وأتيليوس يبذل جهداً كبيراً في توجيه الدفة فإذ برجليه تجاهدان للتحرك وسط الحجارة المتناثرة تحته إلى أن شعر بأن المقبض الخشبي قد بدأ يتحرك ببطء. بدأت السفينة تميل دون أن تتقدم ثم ما لبثت أن جرتهم عاصفة ريح إلى الأمام. سمع الطبول التي عاودت القرع من جديد في الأسفل وأخذت المجاذيف تجذف بوتيرة ثابتة، فبدأ يظهر شكل الساحل أمامهم وسط حلكة الظلام: حائل أمواج، شاطئ رملي، صف من الفيللات وعلى تراساتها مشاعل مضاءة، أناس يتحركون عند حافة البحر حيث تضرب الأمواج بالشاطئ، يرفعون القوارب من المياه الضحلة ويسحبونها إلى اليابسة. أدرك بخيبة أمل كبيرة أن هذا المكان يستحيل أن يكون بومبي.

فجأة فتلت الدفة وتحركت بحرية تامة فظن أنها انكسرت ففتلها توركواتوس بأقصى قوته موجهاً السفينة ناحية الشاطئ. لقد نفذوا من حبات الخفّاف المعيقة لتحركهم، وباتوا بين الأمواج المتلاطمة، حيث عمدت قوة البحر والرياح إلى جرهم صوب الشاطئ مباشرة. رأى حشود الناس على الشاطئ، والجميع يحاولون نقل أغراضهم إلى القوارب فالتفت وحدق بهم باندهاش فرآهم يتفرقون ويتبعثرون لدى اقتراب السفينة منهم. نادى توركواتوس: «تمسّكوا جيداً!» وبعد هنيهة حف بدن السفينة بالصخور فسقط أتيليوس على سطح السفينة، ولكن خفّف غطاء حجارة الخفّاف الذي يغمر الأرض من قوة ارتطامه بها.

استلقى على الأرض وراح يتنفس بصعوبة، وخده مطبق على قطع الخفّاف

الجافة والدافئة في الوقت الذي أخذت فيه السفينة تتحرك تحته. سمع صرخات البحارة وهم يصعدون من تحت سطح السفينة، وأصوات ترشيش المياه التي أحدثوها وهم يقفزون في المياه. نهض بنفسه ورأى الشراع يتم إنزاله والمرساة تُطرح على جانب السفينة. كان ثمة رجال يحملون حبالاً ويركضون صعوداً باتجاه الشاطئ محاولين إيجاد أماكن لتثبيت السفينة. كان وقت الغسق ـ ليس الغسق الذي خلفه الثوران الذي انجروا إلى وسطه مباشرة ـ وإنما الغسق الطبيعي وهو غياب الشمس. كان انهمار الحجارة خفيفاً ومتقطعاً، وقد ضاعت أصوات ارتطام الحجارة بسطح السفينة ونزولها في المياه وسط ضجيج الأمواج المتكسرة وهدير الرياح. خرج بليني من الباب الأفقي وراح يطأ بقدميه بحذر على قطع الخفاف وأليكسيون يقوم بإسناده ـ بدا أنه يتمتع بشخصية صلبة وجليلة وسط كل الرعب الذي يحيط بالمكان ـ ولو كان يشعر بأي خوف فقد أخفاه. حينما اقترب أتيليوس منه رفع ذراعه بطريقة تدل على الابتهاج والسرور.

«حسناً لقد كان حظنا طيباً أيها المهندس. هل ترى أين نحن؟ أنا أعرف هذا المكان جيداً. هذه ستابيي وهي مدينة ممتازة لقضاء فترة المساء. توركواتوس!» وأومأ إلى القبطان: «أقترح أن نبيت هذا المساء هنا».

نظر إليه توركواتوس بعين الشك: «ليس لدينا أي خيار آخر أيها الأميرال. لا يمكننا الإبحار بأية سفينة وسط هذه العاصفة. ولكن السؤال هو: إلى متى ستظل الحجارة تنهمر علينا؟»

قال بليني: «لعلها لن تتوقف». حدّق من فوق الأمواج المتكسرة في أضواء المدينة الصغيرة الناتئة فوق جانب التل المنخفض. يفصل الطريق الساحلي الممتد حول الخليج هذه المدينة عن الشاطئ، وكان الطريق العام مسدوداً بنفس اللاجئين المنهكين الذين صادفهم أتيليوس في وقت سابق في هيركيولانيوم. على الشاطئ نفسه احتشد مئة شخص تقريباً إلى جانب أغراضهم آملين التمكن من الفرار عبر البحر لكنهم كانوا عاجزين عن القيام بما هو أكثر من مجرد التحديق بالأمواج المتكسرة دون أي حول أو قوة. كان ثمة رجل سمين ومسن يقف بمنأى عن الآخرين ويحيط به أهل بيته، وبين الحين الآخر يرفع يديه في حالة

twitter @baghdad_library

من التفجع، فشعر أتيليوس أنه يعرفه نوعاً ما. وقد لاحظ بليني وجوده أيضاً فقال بحزن: «هذا صديقي بومبونيانوس ذاك الأخرق المسكين. هو في أحسن الظروف لا يكف عن التوتر. سوف يحتاج إلى مؤازرتنا، ويجدر بنا أن نريه وجوهنا الشجاعة. ساعدني للوصول إلى الشاطئ».

قفز أتيليوس في المياه وتبعه توركواتوس فوصلت المياه إلى حدود خصرهما في لحظة واحدة وفي اللحظة التالية وصلت إلى حدود رقبتيهما. لذا لم يكن نقل شخص مثل الأميرال، بوزنه وحالته، بالمهمة السهلة. بمساعدة أليكسيون أفلح بليني أخيراً بالجلوس على مؤخرته وجر نفسه إلى الأمام، وحينما أمسكا بيديه قفز في المياه. أفلحا في إبقاء رأسه فوق مستوى المياه، ثم أبدى بليني قدرة لافتة على التحكم بنفسه، حيث أبعد أيديهما عنه وأخذ يسير باتجاه الشاطئ وحده.

قال توركواتوس وهما يشاهدانه يسير صعوداً إلى الشاطئ ويحتضن بومبونيانوس: «يا له من مسن غبي!. إنه مسن غبي رائع وشجاع. كاد يتسبب بمقتلنا مرتين وأقسم أنه سيحاول ذلك مجدداً».

نظر أتيليوس عبر الساحل باتجاه فيسوفيوس ولكنه لم يستطع رؤية الكثير وسط حلكة الظلام ما عدا خطوط الأمواج البيضاء المضيئة التي تهرع لضرب الساحل ووراءها الأحجار السوداء المتساقطة. ضربت صاعقة برق حمراء أخرى السماء فقسمتها بينما كان أتيليوس يسأل: «كم نبعد عن بومبي؟»

أجابه توركواتوس: «ثلاثة أميال، وربما أقل. يبدو أنهم ينالون القسم الأسوأ من هذه الظاهرة. يا لهم من مساكين! هذه الرياح. حري بالرجال أن يبحثوا لأنفسهم عن ملجأ أفضل».

وبدأ يسير بتثاقل باتجاه الشاطئ تاركاً أتيليوس وحده.

إذا كانت ستابيي تبعد ثلاثة أميال عن بومبي وفيسوفيوس يقع على بُعد خمسة أميال على الجانب الآخر من المدينة، إذاً لا بد أن طول هذه الغيمة العملاقة يبلغ ثمانية أميال. ويبلغ عرضها على الأقل خمسة أميال نظراً لى

المدى الذي وصلت إليه في البحر. فإذا لم تكن كوريليا قد لاذت بالفرار في وقت مبكر جداً، فلن يتسنى لها أي فرصة للهرب.

وقف في مكانه لفترة من الوقت وأمواج البحر تقارعه، إلى أن سمع الأميرال يناديه من مسافة بعيدة. استدار دون أي حول أو قوة وشق طريقه وسط المياه الضحلة المتهادية ثم صعد على الشاطئ للانضمام إلى البقية.

* * *

يمتلك بومبونيانوس فيللا على الواجهة البحرية لا يتطلب الوصول إليها سوى بضع خطوات على الطريق، فاقترح بليني أن يتوجهوا جميعاً إليها. سمعهم أتيليوس يتجادلون لدى اقترابه منهم، وكان بومبونيانوس الخائف يعارض هذه الفكرة بصوته العالي قائلاً إنهم في حال غادروا الشاطئ سيخسرون فرصتهم في الحصول على مكان على متن القارب. ولكن بليني أعرب عن معارضته لهذه الفكرة بتلويح يده وقال: «لا جدوى من الانتظار هنا». بدت نبرة صوته ملحة: «كما أنه بوسعك الإبحار معنا حينما يصبح وضع الرياح والبحر أفضل. تعال. ليفيا تأبطي بذراعي». وقفت زوجة بومبونيانوس على أحد جانبي بليني وأليكسيون على الجانب الآخر وتجمع عبيد المنزل وراءهم ـ حاملين تماثيل رخامية نصفية وسجاداً وصناديق وشمعدانات ـ وقادهم جميعاً إلى الطريق.

كان يسير بأقصى سرعة ممكنة وخداه منتفخان، فراح أتيليوس يفكر أن بليني يعرف جيداً من خلال ملاحظاته ما هو على وشك الحدوث. وحينما وصلوا إلى بوابة الفيللا تعرضوا مجدداً إلى ما يشبه العاصفة الصيفية: أولاً بضع قطرات ثقيلة كإنذار، ثم ما لبث أن انفجر الهواء فوق نباتات الآس والباحة المرصوفة. شعر أتيليوس بأن ثمة أحداً يضغط عليه بجسده من الخلف، فاندفع ناحية الرجل أمامه وسوياً تعثرا عند الباب ودخلا إلى الفيللا المهجورة المعتمة. كان الناس ينتحبون ويرتطمون بالأثاث في حالة عمى، وسمع صراخ امرأة ثم صوت ارتطام، وظهر أمامه صورة مبهمة لوجه عبد وقد أضاءه من الأسفل قنديل زيتي ثم اختفى الوجه، وسمع الصوت المألوف الذي يسمعه عند

twitter @baghdad_library

إشعال أي مشعل. احتشدوا جميعاً، الأسياد والعبيد على حد سواء، في بحبوحة الضوء، في الوقت الذي أخذت فيه قطع الخفاف ترتطم بسقف الفيللا المصنوع من التراكوتا وتتدحرج إلى الحديقة المزينة في الخارج. توجّه أحد ما حاملاً القنديل الزيتي لجلب المزيد من المشاعل وبعض الشموع، وظل العبيد يشعلون المزيد والمزيد منها بالرغم من توفر ضوء كافٍ وكأنه في حال ازداد المكان نوراً ازداد أمناً. وسرعان ما لف القاعة المزدحمة جو احتفالي، وعندها ألقى بليني ذراعه حول كتفيّ بومبونيانوس المرتجفين وأعلن أنه يود تناول الطعام.

* * *

لم يكن الأميرال يؤمن بالحياة بعد الموت: «لا الجسد ولا الروح يملكان أي إحساس بعد الموت تماماً كما كانا عليه قبل الولادة». وبالرغم من ذلك راح ينشر حساً بالتحلي بالشجاعة على مدى الساعات التالية لن ينساه الأشخاص الذين نجوا من أحداث هذه المساء. كان منذ أمد طويل قد ارتأى أنه حينما تأتيه ساعة المنية سيعمد إلى ملاقاتها بروحية ماركوس سيرجيوس الذي بجّله في كتابه (التاريخ الطبيعي) كونه الرجل الأشجع في الحياة، فقد تعرّض للإصابة ثلاثاً وعشرين مرة على مدى الحملات التي قام بها، وتُرك معوّقاً، ووقع مرتين في أسر هنيبعل وظل مكبلاً بالسلاسل على مدى عشرين شهراً بشكل متواصل. وانطلق سيرجيوس إلى معركته الأخيرة ويده اليمنى مصنوعة من الحديد وقد حلت كبديل عن اليد التي خسرها. لم يحرز نجاحاً بقدر القيصر أو سكيبيو ولكن ما أهمية ذلك؟ لقد كتب بليني قائلاً: «إن المنتصرين الآخرين قد هزموا جميعاً الرجال ولكن سيرجيوس قد تغلب على الحظ أيضاً».

«التغلب على الحظ». هذا ما يجدر بالرجل المكافحة لتحقيقه. ووفقاً لذلك وفي الوقت الذي كان فيه العبيد يحضرون له العشاء قال لبومبونيانوس المذهول إنه يود أولاً أن يأخذ حماماً، ثم توجّه مصحوباً بأليكسيون ليستحم بالماء البارد. نزع عنه ملابسه القذرة ونزل في المياه النظيفة وغمس رأسه كلياً في العالم الصامت. عاد ونهض بنفسه فوق سطح الماء وأعلن أنه يود إملاء

بضع ملاحظات أخرى ـ وكحال المهندس قدّر أبعاد هذه الظاهرة بحوالي ثمانية أميال بستة ـ ثم سمح لعبد من عبيد بومبونيانوس الذين يعتنون له بجسمه أن ينشف له جسمه ويعطره بزيت الزعفران ثم ارتدى توغة نظيفة من توغات صديقه.

جلس الخمسة لتناول العشاء ـ بليني وبومبونيانوس وليفيا وتوركواتوس وأتيليوس ـ إنه ليس بالعدد المثالي من ناحية الآداب واللياقات العامة، وقد وجدوا صعوبة في تبادل الحديث بسبب أصوات ارتطام قطع الخفّاف على السقف. مع ذلك كان هذا يعني أن لديه كنبة ليجلس بمفرده عليها ومجالاً ليتمدّد عليه، حيث تم نقل الطاولة والكنبات من غرفة الطعام إلى القاعة المضاءة. وكان الطعام يفتقر إلى الجودة المطلوبة لأن النار مطفأة، وبالتالي أفضل ما أمكن لعمال المطبخ تحضيره هو قطع باردة من لحم الماشية والدجاج والسمك. ثم عمد بومبونيانوس بعد حث بليني له بكل لطف إلى التعويض عن ذلك بتقديم النبيذ. قدم نبيذاً يعود إلى ما قبل مئتي سنة، نبيذاً معتقاً من عهد احتلال لوشيوس أوبيميوس لمنصب القنصل. كانت الجرة الأخيرة لديه فأوضح بكآبة: «ليس ثمة جدوى من الاحتفاظ بها بعد الآن».

على ضوء الشموع بدا لون النبيذ يماثل لون العسل السميك، ثم تمت تصفيته ومزجه بنبيذ أحدث منه إذ إنه مر للغاية بالتالي يصعب شربه دون تخفيف. ولكن قبل مزجه أخذه بليني من العبد واشتمه فأعادته رائحته العتيقة بالذاكرة إلى أيام الجمهورية القديمة: ذكّرته برجال أمثال كايتو وسيرجيوس، وبمدينة تكافح لتصبح إمبراطورية، وبرفات كامبوس مارتيوس، وبالحكم بالحديد والنار.

كان الأميرال أكثر المتحدثين وقد حاول أن يبقي أحاديثه مرحة متفادياً ذكر أمور مثل ركتينا والمكتبة الثمينة في فيللا كالبورنيا أو مصير الفيلق الذي ظنّ أنه لا بد أن يكون قد تفرق الآن وتشتت في جميع أرجاء الساحل. (أدرك أن هذا وحده كافٍ للتسبب بمقتله: فقد امر الفيلق بالنزول إلى البحر دون انتظار أمر إمبراطوري، وقد لا يسامحه تايتوس). وعوضاً عن ذلك اختار الخوض في

twitter @baghdad_library

موضع النبيذ، فهو يعرف الكثير عن أمور النبيذ. كانت جوليا تدعوه «مدمن نبيذ». ولكن ما همه؟ ففي ذلك ميزة للسن والرتبة. فلولا النبيذ لكان قلبه ذبل منذ سنوات.

«تفيدنا السجلات بأن الصيف أيام احتلال أوبيميوس منصب القنصل كان مشابهاً لهذا الصيف. إذ كانت الأيام طويلة وحارة وكانت الشمس ساطعة، أو (يانعة) كما يدعوها مصنعو النبيذ». أخذ يدوّر النبيذ في كأسه ثم اشتمه. «من يدري؟ ربما بعد قرنين من الآن قد يشرب الرجال النبيذ من أيامنا هذه ويتساءلون عما كنا عليه. عن مهاراتنا وشجاعتنا».

بدت أصوات ارتطام الحجارة في حالة تزايد، فتشظّى الخشب في مكان ما، وسُمع صوت تحطم قطع قرميد. جال بليني بنظره حول طاولة العشاء متفحصاً الجالسين: نظر إلى بومبونيانوس الذي كان يحدق في السقف ويتمسك بيد زوجته، وإلى ليفيا التي أفلحت في مبادرته بابتسامة صغيرة مقتضبة (لطالما كانت تتحلى بضعفي شجاعة زوجها)، وإلى توركواتوس الذي كان ينظر إلى الأرض مقطب الجبين، وأخيراً إلى المهندس الذي لم ينبس ببنت شفة طيلة فترة العشاء. كان يكن تقديراً للساقي حيث إنه رجل علم موهوب أبحر بحثاً عن المعرفة.

اقترح قائلاً: «دعونا نشرب نخب عبقرية الهندسة الرومانية. نخب الأكوا أوغوستا التي أعطتنا تحذيراً لما هو على وشك الحدوث. ويا ليتنا تنبهنا له». رفع كأسه باتجاه أتيليوس: «نخب الأكوا أوغوستا!»

«نخب الأكوا أوغوستا!»

شربوا ولكن بنسب متفاوتة من الحماسة وقد وجده الأميرال نبيذاً من النوع الجيد فعمد إلى لعق شفتيه. إنه مزيج ممتاز من النبيذ القديم والجديد، نظيره هو والمهندس. وفي حال تبين أنها الكأس الأخيرة التي سيشربها، عندها لا بأس بذلك فهو من النوع المناسب الذي سيختم به حياته.

عندما أعلن أنه سيتوجه إلى النوم رأى بكل وضوح أنهم اعتبروه يمزح.

ولكن لا ، عاد وأكد لهم أنه جدي بكلامه. لقد درب نفسه على الإغفاء بحكم إرادته حتى لو كان واقفاً أو على صهوة جواد أو وسط الغابة الألمانية القارسة البرودة. أما هذا الوضع؟ إنه لا شيء: «أيها المهندس هلّا تكرّمت علي ومددت ذراعك؟» ثم تمنى لهم جميعاً ليلة هانئة.

حمل أتيليوس مشعلاً بيد ورفعه عالياً وباليد الأخرى أسند الأميرال، وسوياً خرجا إلى الباحة الرئيسية. كان بليني قد نزل في هذا المكان عدة مرات على مر السنوات. وقد آثر هذا الموقع على غيره: الضوء الأرقش على الحجر الزهري، وعبق الزهور، والهديل الصادر من برج الحمام الموجود في الحائط فوق الشرفة. ولكن في الوقت الراهن، الحديقة غارقة في الظلام الدامس وتهتز بفعل صخب الأحجار المتساقطة. كانت قطع الخفّاف تتناثر على الممشى المغطى، فيسبّب الغبار الناتج عن الأحجار الجافة والهشة بزيادة حالة الصفير لديه. توقف خارج باب غرفته المعتادة وانتظر أتيليوس لكي يفسح المجال حتى يتمكن من فتحه، وتساءل عما حلّ بالطيور. هل طارت قبل بدء هذه الظاهرة، مقدِّمة نذيراً بحدوثها، لو أنه كان ثمة عرّاف في متناول اليد ليفهم هذا النذير؟ أو أنها في مكان ما وسط الليل المظلم مصابة بالجروح ورابضة سوياً؟ «هل أنت خائف يا ماركوس أتيليوس؟»

«أجل».

«هذا جيد. إن التحلي بالشجاعة يقتضي حكماً الشعور بالخوف أولاً». أسند يده على كتف المهندس وراح يخلع حذاءه من رجليه ثم قال: «الطبيعة إلهة رحيمة. لا يدوم غضبها إلى الأبد. فالنيران تنطفئ، والعاصفة تهدأ، والفيضان ينحسر. وهذه الظاهرة ستنتهي أيضاً. سترى، إذهب وخذ قسطاً من الراحة».

ودخل بتثاقل إلى الغرفة الخالية النوافذ تاركاً أتيليوس ليغلق الباب وراءه.

* * *

ظل المهندس في مكانه متكئاً على الحائط مراقباً سقوط حجارة الخفّاف.

twitter @baghdad_library

وبعد هنيهة سمع أصوات الشخير العالية صادرة من غرفة النوم، فوجده أمراً في غاية الغرابة. إما أن الأميرال يدّعي الوقوع في غياهب النوم، وهو الأمر الذي شكّك به، أو أن هذا الرجل السمين غرق في النوم فعلاً. نظر إلى السماء، يُفترض أن بليني محق فيما قاله، ويجدر بهذا (التجلي) كما أصر على تسميته أن يبدأ في الانحسار. ولكن هذا الأمر لم يكن يحصل، حيث أن العاصفة كانت تشتد. لاحظ صوتاً مختلفاً عن أصوات تساقط الأحجار وأكثر منه خشونة، وبدأت الأرض تحته تهتز كما كانت تفعل في بومبي. مشى بحذر خطوة واحدة من تحت السقف موجهاً مشعله ناحية الأرض وعلى الفور تعرض لضربة على ذراعه فكاد يوقع المشعل من يده. أمسك بكومة من الحجارة المتساقطة حديثاً، وحشر نفسه بالحائط وراح يتفحص هذه الحجارة تحت الضوء.

بدت أقتم لوناً من قطع الخفّاف السابقة وأكثر كثافة وأكبر حجماً وكأنه تم صهر عدة قطع من الخفاف ببعضها البعض، وراحت ترتطم بالأرض بقوة أكبر.

لقد كان انهمار الحجارة البيضاء الهشة مزعجاً ومخيفاً ولكن ليس مؤلماً، أما التعرض لضربة من هذه الحجارة فهو كفيل بإفقاد المرء وعيه. كم مضى على تساقط هذه الحجارة؟

حمل الحجارة إلى القاعة وأعطاها إلى توركواتوس. وقال: «إن الأمر يزداد سوءاً. في الوقت الذي كنا نتناول فيه الطعام كان ثقل الحجارة يتنامى». ثم توجه إلى بومبونيانوس بالقول: «ما هو نوع السقوف الموجودة هنا يا سيدي؟ مسطح أم مقوّس؟

أجابه بومبونيانوس: «مسطحة وتشكل الترّاسات. أنت تعلم أن ذلك من أجل الإطلالات على الخليج».

راح أتيليوس يفكر: «آه. أجل. تلك الإطلالات المشهورة. ربما لو أمضوا وقتاً أقل في التحديق خارجاً صوب البحر وعوضاً عن ذلك نظروا من

فوق أكتافهم ناحية الجبل القابع وراءهم لكانوا تحضّروا لهذا الحدث بشكل أفضل.

«وما هو عمر المنزل؟»

أجابه بومبونيانوس بفخر: «لقد تم توارثه في عائلتي منذ أجيال. لماذا؟»

«إنه ليس آمناً. فنظراً إلى تساقط الحجارة الثقيلة فوقه ووجود الخشب القديم، سوف تضعف عارضات التدعيم عاجلاً أم آجلاً علينا التوجه إلى الخارج».

رفع توركواتوس الحجارة بيده: «إلى الخارج؟ إلى حيث يوجد مثل هذه؟»

في البداية لم يتكلم أحد، ثم بدأ بومبونيانوس ينتحب قائلا إنه انتهى أمرهم وإنه وجب عليهم تقديم الأضاحي إلى جوبيتير تماماً كما اقترح في البداية ولكن لم يصغِ أحد إليه. قالت زوجته: «أصمت. لدينا وسائد وشراشف وملاءات؟ بوسعنا حماية أنفسنا من الحجارة».

قال توركواتوس: «أين الأميرال؟»

«إنه نائم».

«لقد استسلم للموت أليس كذلك؟ كل هذه الترهات حول النبيذ! ولكني لست مستعداً للموت، وماذا عنك؟»

«لا، لست مستعداً له». تفاجأ أتيليوس بالحزم الذي بدا في إجابته. فبعد وفاة سابينا أكمل حياته وكأنه مصاب بالخدار ولو قيل له إن وجوده على وشك الوصول إلى نهايته ما كان ليأبه كثيراً للأمر. أما الآن فهو لا يشعر أنه كذلك.

«إذاً لنعد إلى الشاطئ».

أخذت ليفيا تصرخ للعبيد طالبة منهم جلب الوسائد والقطنيات فيما هرع أتيليوس عائداً إلى الباحة. كان لا يزال شخير بليني يعلو في الأرجاء. دق على الباب وحاول فتحه ولكن كان الممر قد امتلأ من جديد بالركام حتى خلال هذا

twitter @baghdad_library

الوقت القصير الذي غاب فيه. مما اضطره للركوع لتنظيف المكان ثم فتح الباب وأخذ يركض حاملاً المشعل. هز كتف الرجل المسن الممتلئة فأنّ وأخذ يرمش بعينيه تحت الضوء.

«دعني وشأني».

وحاول أن يستدير على جنبه فلم يجادله أتيليوس بل وضع كوعه تحت إبط بليني ورفعه على قدميه. راح يترنح تحت ثقل الأميرال المحتج، فدفعه ناحية الباب وحينما كادا أن يصلا إلى العتبة سمع أتيليوس إحدى عارضات السقف تتصدع وراءهما، ثم انهار جزء من السقف على الأرض.

* * *

وضعوا الوسائد على رؤوسهم بحيث غطت أطرافها آذانهم وقاموا بربطها لتثبيتها في مكانها بواسطة قصاصات من الملاءات وعقدوها بإحكام تحت ذقونهم، فبات منظر رؤوسهم البيضاء المنتفخة أشبه بالحشرات العمياء الزاحفة تحت الأرض. ثم حمل كل منهم قنديلاً أو مشعلاً بيد ووضع اليد الأخرى على كتف الشخص الواقف أمامه ـ عدا توركواتوس الذي قاد المسيرة والذي كان يعتمر خوذته بدل الوسادة ـ ثم انطلقوا باتجاه الشاطئ متحدين الصعاب.

بدأ يصدر ضجيج عال من حولهم، البحر المتلاطم الأمواج والحجارة المتساقطة وأصوات السقوف التي تتعرض للتصدع.

كان أتيليوس يشعر بين الفينة والأخرى بالحجارة المتساقطة التي تحدث ضربات خافتة حينما ترتطم بجمجمته وأخذت أذناه ترنان حيث كان قد نسي هذا الشعور مذ كان يتعرض للضرب من قبل أساتذته في المدرسة حينما كان طفلاً. بدا الأمر أشبه بالتعرّض للرجم من قِبَل عصابة وكأن الآلهة أعلنت انتصار فولكان، وهذا الانتقال للسلطة المجرد من الكرامة الإنسانية هو الطريقة التي اختارها لإذلال آسريه. انطلقوا إلى الأمام على مهل وقد غرقت أرجلهم حتى حدود الركبة في قطع الخفّاف المتناثرة على الأرض فعجزوا عن السير بخطى أسرع من خطى الأميرال الذي بدا أن حالة سعاله وصفيره تزداد سوءاً مع كل

خطوة إلى الأمام. كان يستند على أليكسيون، وأتيليوس يضع يده على كتفه من الوراء، ووراء المهندس تسير ليفيا ووراءها بومبونيانوس والعبيد يشكلون صفاً حاملين المشاعل في الخلف.

إن قوة الحجارة المتساقطة أخلت الشوارع من اللاجئين المارة ولكن كان ثمة ضوء على الشاطئ وقد أخذ توركواتوس يقودهم باتجاه هذا الضوء، حيث بادر بضعة مواطنين من ستابيي وبضعة رجال من سفينة المينيرفا إلى تكسير إحدى السفن البالية وإضرام النيران فيها. وبواسطة الحبال وشراع السفينة الحربية السميك ومجموعة من المجاذيف بنوا لأنفسهم ملجأ كبيراً بجانب النيران، فلجأ الأشخاص الذين كانوا يهربون على خط الساحل إلى النزول عن الطريق توسلاً للحماية، وتجمع حشد يصل إلى مئات الأشخاص ملتمسين حماية هذا الملجأ. رفضوا السماح للقادمين الجدد ذوي المناظر المنفّرة مشاطرتهم خيمتهم المؤقتة، فحصل بعض التدافع والسخرية عند المدخل إلى أن صرخ توركواتوس قائلاً إن معه الأميرال بليني وسوف يصلب أي جندي بحري يرفض إطاعة أوامره.

فُسح المجال لهم بامتعاض شديد، وعندها وضع أليكسيون وأتيليوس بليني على الرمال بجانب المدخل. طلب بليني بوهن بعض الماء، فأخذ أليكسيون قربة مياه من عبد ورفعها إلى شفتيه، فشرب بعض الماء ثم سعل واستلقى على جنبه. فك أليكسيون الوسادة بلطف ووضعها تحت رأسه، ثم رفع رأسه ونظر إلى أتيليوس فهزّ المهندس كتفيه. لم يعرف ما عساه يقول وبدا له من غير المرجح أن يحتمل هذا الرجل المسن مزيداً من هذا الوضع الصعب.

استدار وأخذ ينظر إلى داخل هذا الملجأ فوجد الازدحام شديداً للغاية حيث لا يوجد أي مجال للتحرك. كان ثقل حجارة الخفّاف يتسبب بانخفاض السقف، فيعمد بعض البحارة بين الفينة والأخرى إلى التخلص منها عبر رفع السقف بواسطة أطراف مجاذيفهم موقعين بذلك الحجارة. كان الأطفال يبكون وأحد الصبية ينتحب باحثاً عن أمه، وما عدا ذلك لم يكن أحد يتكلم أو يصرخ. حاول أتيليوس أن يعرف التوقيت فافترض أنهم في منتصف الليل ولكن من جديد اقتنع باستحالة معرفة التوقيت حيث يمكن أن يكون الوقت فجراً.

twitter @baghdad_library

تساءل كم سيقدرون على التحمل. فعاجلاً ام آجلاً سيضطرون بسبب الجوع أو العطش أو ضغط قطع الخفاف على أحد جانبيْ الخيمة إلى ترك الشاطئ. وعندها ماذا عساهم يفعلون؟ هل ستعمد الحجارة إلى خنقهم ببطء؟ هل سيتعرضون إلى موت جديد يفوق إبداعاً كل ما سبق للإنسان أن أوجده على المجتلد الروماني؟ سحقاً لما قاله بليني حول أن الطبيعة إلهة رحيمة!

فك الوسادة وأزاحها عن رأسه المتعرّق، وحينما حرّر رأسه سمع شخصاً ينادي باسمه. وسط هذا الجو المعتم والمحتشد عجز في بداية الأمر عن التعرف على المنادي، وحتى حينما اقترب منه الرجل لم يعرفه، إذ بدا أنه مصنوع من الصخر فوجهه مغطى بالغبار الأبيض وشعره ناتئ إلى الأعلى مثل ميدوسا. لم يتعرف عليه إلا حينما نطق باسمه فعرف أنه أحد أوصياء بومبي: «هذا أنا لوشيوس بوبيديوس».

أمسك أتيليوس بذراعه: «كوريليا؟ هل هي معك؟»

«لقد انهارت أمي على الطريق» ثم أخذ بوبيديوس ينتحب وقال: «لم أعد أقوى على حملها فاضطررت إلى تركها».

هزّه أتيليوس: «أين كوريليا؟»

كانت عينا بوبيديوس أشبه بفجوتين فارغتين في قناع وجهه، وبدا أشبه بالصور القديمة المعلقة على جدار منزله، وكان يبتلع ريقه بصعوبة.

قال أتيليوس: «يا لك من جبان!»

فأنّ بوبيديوس قائلاً: «لقد حاولت جلبها ولكن ذاك المجنون عمد إلى احتجازها في غرفتها».

«إذاً فقد تركتها؟»

«ما عساي أفعل سوى ذلك؟ لقد أراد أن يحبسنا جميعاً!» تمسك بقميص أتيليوس وأخذ يرجوه قائلاً: «خذني معك. هذا بليني القابع هناك أليس كذلك؟ لديكم سفينة؟ أتوسل إليك لا يسعني المضي قُدُماً وحدي. .».

دفعه أتيليوس بعيداً عنه وتعثر باتجاه مدخل الخيمة. كانت نيران المشعل قد انطفأت بفعل هطول الحجارة فوقها فعمت الشاطئ ظلمة لا تشبه ظلمة الليل ولا حتى ظلمة الغرفة المغلقة. أخذ يجهد عينيه بالنظر باتجاه بومبي. من الذي يسعه القول إن العالم بأسره لا يتعرض لعملية الدمار هذه نفسها؟ وإن القوة نفسها التي تمسك بالكون أي اللوجوس كما ينعتها الفلاسفة لا تتعرض للتفكّك؟ خرّ على ركبتيه ودسّ يديه بالرمال وأدرك في تلك اللحظة، فيما تنسل حبيبات الرمل بين أصابعه، أن كل شيء يتعرض للإبادة، هو وبليني وكوريليا والمكتبة في هيركيولانيوم والفيلق والمدن المحيطة بالخليج وقناة جر المياه وروما والقيصر وكل ما كان على قيد الحياة أو تم بناؤه: سيستحيل كل شيء إلى كومة من الحجارة وبحر متهدج لا نهاية له. لن يخلّف أي منهم وراءه أي شيء، ولن يفلح في ترك ذكرى له. سيتمدد هنا على الشاطئ مع البقية حيث تُسحق عظامهم لتتحول إلى ذرات.

ولكن لم يفرغ الجبل منهم بعد. سمع امرأة تصرخ فرفع عينيه ورأى هالة من النار في السماء.

twitter @baghdad_library

فينوس

الخامس والعشرون من شهر آب

اليوم الأخير للثوران البركاني

twitter @baghdad_library

إنكليناتيو

الساعة: ١٢:٠٠

يصل الثوران إلى مرحلة تثور فيها كمية كبيرة جداً من الصهارة وبسرعة شديدة بحيث تصبح كثافة عمود الثوران عالية جداً مما يمنع تواصل وجود عملية الحمل الحراري. وحينما يحدث هذا الأمر ينهار عمود الثوران فيولّد تدفقاً واندفاعاً لفلذ بركانية تعتبر مدمرة أكثر بكثير من الكِسْرات البركانية.

البراكين: منظور أرضي.

انتقل الضوء ببطء نزولاً من اليمين إلى اليسار، وأخذت غيمة مضيئة على شكل منجل ـ طبقاً لوصف بليني ـ تزحف نزولاً على منحدر فيسوفيوس الغربي مخلفة وراءها رقعاً من النيران. كان البعض منها نقاطاً صغيرة ومعزولة ومضيئة ـ بيوت مزارع وفيللات هبت فيها النيران ـ وعدا تلك الأمكنة كانت جميع أرجاء الغابات تشتعل ناراً بقوة، وراح لهب النيران القوي الأحمر والبرتقالي اللون يضيء الجو الذي تسوده العتمة. واصلت الغيمة التي لها شكل المنجل تحركها دون توقف طيلة المدة التي يستغرقها المرء ليعد فيها إلى المئة على أقل تقدير، ثم توهّجت لوقت قصير وبعدئذ اختفت.

أملى بليني على عبده قائلاً: «إن الظاهرة قد انتقلت إلى مرحلة أخرى».

أما بالنسبة إلى أتيليوس فكان ثمة شيء مريب بكل تأكيد بصدد هذه الغيمة المتحركة الساكنة من حيث ظهورها الغامض واختفائها المبهم. بعد أن تكوّنت

twitter @baghdad_library

على قمة الجبل المتفجر لا بد أنها اتجهت لتغرق نفسها في البحر. تذكر حقول الكرمة الخصبة، وعناقيد العنب الثقيلة، والعبيد المغلولين. لن يكون ثمة ثمار عنب هذه السنة، لا يانعة ولا أي شيء آخر.

قال توركواتوس: «يصعب التنبؤ من هنا، ولكن وفقاً لموقع غيمة اللهب، أعتقد أنها مرت لتوها فوق هيركيولانيوم».

أجاب أتيليوس: «ولكنها لا تبدو مشتعلة».

«يبدو ذاك الجزء من الساحل غارقاً في العتمة التامة. وكأن المدينة قد اختفت. . .».

نظروا باتجاه قاعدة الجبل المشتعل بحثاً عن نقطة ضوء ما، ولكنهم لم يجدوا شيئاً.

إن التأثير على شاطئ ستابيي هو تغيير ميزان الرعب، بطريقة أو بأخرى. بعد وقت قصير اشتموا رائحة النيران التي حملتها الرياح العابقة بالكبريت والرماد. صرخ أحدهم قائلاً إنهم قريباً سيحترقون أحياء فبكى الناس ولكن صوت لوشيوس بوبيديوس الذي كان ينادي أمه كان أعلى من أصواتهم. ثم قال شخص آخر، وهو أحد البحارة الذي كان ينظف السقف بمجذافه إن الشراع الثقيل لم يعد يرتخي. وقد هدّأ قوله هذا من الرعب العاصف في قلوب الحاضرين.

مد أتيليوس يده بحذر إلى خارج الخيمة، ووجه راحة يده إلى الأعلى وكأنه يتفحص هطول المطر. كان البحار على حق حيث أن الهواء لا يزال مليئاً بالمقذوفات الصغيرة ولكن لم تعد العاصفة بالعنف الذي كانت عليه في السابق. وكأن الجبل قد وجد منفذاً مختلفاً لتفجير طاقته الصاخبة، وذلك عبر اندلاع النيران الجنوني بدل القذف المتواصل للحجارة. وفي تلك اللحظة حسم أمره. من الأفضل له أن يموت وهو يحاول القيام بشيء ما. من الأفضل له أن يقع بجانب الطريق العام الساحلي ويقبع في قبر لا شاهد له على أن يجثم مرتعداً تحت هذا الملجأ المتداعي المليء بالتخيلات المخيفة وأن يكون متفرجاً ينتظر

نهايته. مد يده ليأخذ الوسادة التي انتزعها عن رأسه وأعاد تثبيتها على رأسه ثم تحسس الرمال من حوله بحثاً عن قطعة القماش. سأله توركواتوس بصوت خافت عما يفعله فأجاب: «سوف أذهب».

«ستذهب؟» رفع بليني الجاثم على الرمال حيث تنتشر ملاحظاته من حوله، وتحته كومات من أحجار الخفّاف، رأسه ونظر بحدة. «لن تفعل ذلك. أنا أرفض تماماً إعطاءك الإذن بالذهاب».

«مع فائق احترامي أيها الأميرال أنا أتلقى أوامري من روما وليس منك». كان متفاجئاً أن بعض العبيد لم يعمدوا أيضاً إلى الهرب لينجوا بحياتهم. لمَ عساهم لا يفعلون؟ فافترض أنهم لم يفعلوا ذلك بحكم العادة. العادة، إضافة إلى عدم وجود مكان آخر يذهبون إليه.

«ولكني أحتاج إليك هنا». كانت ثمة نبرة تملّق في صوت بليني الأجش. «ماذا لو حصل لي شيء ما؟ لا بد وأن يحرص أحد ما على ألا تضيع ملاحظاتي، فيفقدها الجيل القادم».

«هناك آخرون يسعهم القيام بذلك أيها الأميرال، أما أنا فأفضل أن أجرب حظي على الطريق».

«ولكنك رجل علم أيها المهندس. أنا أوقن بذلك، ولهذا السبب أتيت إلى هنا. أنت أكثر قيمة بكثير لي هنا. توركواتوس أوقفه. . ».

تردّد القبطان ثم فك رباط ذقنه وخلع الخوذة عن رأسه وقال: «خذ هذه. فالمعدن يحمي أكثر من الريش». بدأ أتيليوس يحتج ولكن توركواتوس دسّها بين يديه: «خذها، وأتمنى لك حظاً طيباً».

«شكراً لك». أمسك أتيليوس بيده: «أتمنى لك أنت أيضاً الحظ».

كانت الخوذة على مقاس رأسه. لم يسبق له في حياته أن اعتمر خوذة من قبل. وقف وحمل مشعلاً فشعر وكأنه مجالد على وشك دخول المجتلد.

احتج بليني قائلاً: «ولكن إلى أين ستذهب؟»

twitter @baghdad_library

خرج أتيليوس إلى ما تحت العاصفة. فأخذت الحجارة الخفيفة ترتطم بالخوذة وتنزلق عنها. كانت الظلمة تعم المكان ما عدا الأمكنة التي زُرعت فيها بضعة مشاعل حول الملجأ، وفيسوفيوس البعيد المضطرم بالنيران.

«إلى بومبي».

* * *

قدّر توركواتوس المسافة بين ستابيي وبومبي بثلاثة أميال، أي ساعة من المشي على طريق جيد في يوم جيد. ولكن الجبل قد عمد إلى تغيير قوانين الزمان والمكان، فبدا لأتيليوس لمدة طويلة أنه لا يحرز تقدماً على الإطلاق.

تمكّن من الصعود بعيداً عن الشاطئ والسير على الطريق بدون صعوبة بالغة، وقد كان محظوظاً كونه ظل يستطيع رؤية فيسوفيوس، إذ إن النيران ساعدته على تحديد وجهة سيره. لقد أدرك أنه طالما ظل يسير باتجاه النيران فلا بد أن يصل إلى بومبي في النهاية. كان يسير بعكس اتجاه الريح، لذا بالرغم من أنه عمد إلى إبقاء رأسه منحنياً، وظل متحدياً الظروف بالسير بصعوبة على رجلين ضعيفتين فوق رقعة الحجارة، واصلت أمطار الخفّاف الارتطام بوجهه وملأ فمه وفتحتي أنفه بالغبار. مع كل خطوة يخطوها كان يغرق حتى ركبتيه بقطع الخفّاف وبالنتيجة بدا له وكأنه يحاول تسلق تلة من الحصى أو حظيرة مليئة بالحبوب. منحدر لا شكل له ولا نهاية أخذ يحف جلده وينهك عضلات أعلى فخذيه. عمد كل بضع مئات من الخطوات إلى التوقف، واضطر بطريقة ما، وهو يحمل المشعل، إلى جر أول رجل ثم الأخرى لتخليصها من قطع الخفّاف اللاصقة وإخراج الحجارة من حذائه.

انتابته رغبة شديدة بالاستلقاء وأخذ قسط من الراحة، ولكن مع ذلك وجب عليه مقاومة هذه الرغبة وقد كان يدرك ذلك جيداً لأنه راح بين الحين والآخر يتعثر بجثث الذين استسلموا من قبله. أظهر مشعله أشكالاً غير واضحة، مجرد أشكال بشرية تبرز منها في بعض الأحيان قدم أو تظهر منها يد ممدودة في الهواء. ليس الناس فحسب هم الذين ماتوا على الطرقات، إذ صادف مجموعة

من الثيران كانت قد علقت في الركام وحصاناً نفق بين عريشيْ عربة مهجورة حيث عجز عن جر حملها لثقله: بدا كحصان حجري يجر عربة حجرية. كل هذه الأشياء ظهرت كخيالات ضمن دائرة الضوء الخافتة المنبعثة من مشعله. لا بد أن ثمة المزيد لم يستطع رؤيته لحسن الحظ. أحياناً كان الأحياء إضافة إلى الأموات يظهرون من وسط حلكة الظلام: رجل يحمل قطة، صبية عارية ومروَّعة، زوجان آخران يحملان شمعداناً مدلى على أكتافهما حيث يقف الرجل في المقدمة والمرأة وراءه، كانا يتجهان في عكس اتجاهه. وراحت تصدر عن جانبيه أصوات صرخات وأنّات متقطعة وشبه بشرية شبّهها بتلك الأصوات التي يمكن للمرء سماعها في أرض المعركة بعد انتهاء القتال. لم يتوقف إلا مرة واحدة حينما سمع بكاء طفل ينادي والديه. توقف وأخذ يصغي ومكث في مكانه لبرهة محاولاً إيجاد مصدر الصوت ثم نادى الطفل استجابة لبكائه ولكن ما لبث أن صمت الطفل ربما بسبب الخوف من سماع صوت غريب وفي النهاية كف عن التفتيش.

بعد ذلك بفترة عاد وظهر هلال الضوء فوق قمة فيسوفيوس زاحفاً نزولاً متبعاً المسار نفسه الذي اتبعه من قبل. راح يشع أكثر وحينما وصل إلى الشاطئ أو ما ظنّ أنه الشاطئ لم يختف مباشرة ولكن اتجه إلى البحر قبل الاختفاء في العتمة، وخفّ تساقط الأحجار بعده. ولكن هذه المرة بدا أنه أطفأ النيران على منحدرات الجبل بدل إعادة إشعالها. بعد ذلك بفترة وجيزة راحت نيران مشعله تفأفئ لأن معظم القار قد احترق. اندفع إلى الأمام بطاقة متجددة ناتجة عن الخوف لأنه أدرك أنه حينما ينطفئ المشعل سيُترك دون حول أو قوة وسط الظلام. وحينما تأتي هذه اللحظة ستكون بكل تأكيد فظيعة، وأفظع مما كان يخشى. لقد اختفت رجلاه ولم يعد بمقدوره رؤية أي شيء، حتى ولو قرب يده من عينيه.

انطفأت أيضاً النيران على جانب فيسوفيوس وباتت نافورة صغيرة تصدر شرارات برتقالية. وراح المزيد من صواعق البرق الأحمر يمد الجانب السفلي في الغيمة السوداء بوهج زهري. لم يعد واثقاً بأي اتجاه يسير. لقد ضاع

twitter @baghdad_library

وبات وحده بكل ما للكلمة من معنى مدفوناً حتى حدود فخذيه تقريباً بالحجارة، والأرض من حوله ترتعد وتتحرك. رمى مشعله الذي انطفأ وترك نفسه يغرق إلى الأمام. مدد يديه واستلقى في مكانه وراح يشعر بأكوام قطع الخفاف تتجمع ببطء حول كتفيه، وقد مده ذلك بشعور من الراحة وكأنه نائم في فراشه ليلاً كحال الأطفال. ألقى خده على الحجارة الدافئة وترك نفسه تسترخي فغمره إحساس بالسكينة الرائعة. إن كان هذا هو الموت فلا بأس به. بوسعه القبول به وحتى الترحيب به كحال المرء الذي ينال قسطاً من الراحة في نهاية يوم مضن تحت رواق القناة المقنطر. راوده في الحلم أن الأرض تذوب وهو يسقط ويتشقلب في كتلة من الحجارة ناحية مركز الأرض.

* * *

أفاق بفعل الحرارة ورائحة الحريق، ولم يعرف كم مضى عليه وهو نائم. وإنما وجد أنه نام مدة كافية لأنه دُفن بكامله تقريباً. لقد بات في قبره. ونتيجة للذعر الذي انتابه راح يدفع بساعديه، إلى أن شعر ببطء أن الثقل الموجود على كتفيه قد بدأ يخف ويزول، فسمع حفيف الحجارة وهي تتدحرج عنه. نهض بنفسه وهز رأسه وبصق الغبار من فمه ورمش بعينيه وهو لا يزال مدفوناً من تحت خصره.

كان انهمار قطع الخفّاف قد توقف في أغلبه ـ إشارة التحذير المألوفة ـ ورأى أمامه مباشرة على مسافة بعيدة، في مكان منخفض في السماء، هلال الغيمة المضيئة المألوف. ما عدا أنه هذه المرة بدل التحرك كالمذنب من اليمين إلى اليسار كان ينزل بسرعة وينتشر بشكل جانبي ويتقدم باتجاهه. ووراءه مباشرة تسود الظلمة التي ما لبثت أن تحولت إلى نيران بعد بضع لحظات حيث وجدت الحرارة وقوداً جديداً على حافة الجبل الجنوبية. وقبل ذلك صدر صوت انفجار مدوٍ، محمولاً بواسطة الرياح الساخنة. لو أنه كان محل بليني لكان غيّر كلمات الاستعارة التي استخدمها ووصفها بالموجة وليس الغيمة. موجة تغلي من البخار الأحمر الساخن سفعت خديه وأدمعت عينيه. اشتم رائحة شعره الذي أخذ يحترق.

تلوّى ليحرر نفسه من قبضة الخفّاف في الوقت الذي راح فيه الفجر الكبريتي يتسابق في السماء وصولاً إليه. كان ثمة شيء قاتم يتنامى في وسطه وينتأ من الأرض. لاحظ أتيليوس أن الضوء القرمزي يكشف بصعوبة عن بلدة على مسافة نصف ميل ثم اتضحت الرؤية. ميّز جدران المدينة وأبراج مراقباتها، وأعمدة معبد لا سقف له، إضافة إلى صف من النوافذ المحطمة، وأناس بل ظلال أناس يركضون في حالة من الذعر بجانب الأسوار الواقية. اتضح هذا المشهد لوقت قصير جداً بحيث كان كافياً له ليعرف أن هذه المدينة هي بومبي. ثم خفّ الوهج الذي وراءها ببطء معيداً المدينة إلى الظلام.

twitter @baghdad_library

ديلوكيولوم

الساعة: ٠٦:٠٠

يكمن الخطر في اعتبار أن الأسوأ قد زال بانتهاء مرحلة التفجر الأولية.
إن معرفة موعد انتهاء الثوران أصعب من معرفة موعد اندلاعه.

موسوعة البراكين

خلع خوذته واستخدمها كرفش، حيث أخذ يحفر في قطع الخفاف بواسطة طرفه المعدني ثم يعمد إلى إفراغه من فوق كتفيه. وخلال قيامه بذلك أمكنه تدريجياً رؤية لون ذراعيه الأبيض الفاتح. توقف ورفعهما باستغراب. يا لتفاهة هذا الأمر، إنه يوشك على البكاء نتيجة الشعور بالراحة لمجرد تمكنه من رؤية ذراعيه. عندئذ كان الصباح يبزغ وبالتالي يكافح يوم جديد كي يولد، وهو لا يزال على قيد الحياة.

أنهى الحفر وحرّر رجليه ثم رفع نفسه على قدميه. وقد عرّفته النيران التي عاودت الاندلاع على قمة فيسوفيوس على اتجاهه. لعل الأمر من نسج خياله ولكنه ظن فعلاً أنه رأى ظلال المدينة، حيث رأى هذا المكان المتموج الطيفي من وسط الظلمة الدامسة التي يقبع فيها، وقطع الخفّاف تحيط به من كل جانب. انطلق باتجاه بومبي ماشياً بتثاقل من جديد نظراً إلى وصول الحجارة حتى حدود ركبتيه والعرق يتصبب منه ويشعر بالعطش وجسمه متسخ ورائحة الحريق البشعة القارصة تملأ أنفه وقصبته الهوائية. افترض أنه بات تقريباً داخل المرفأ نظراً إلى اقتراب جدران المدينة وبأي حال يُفترض وجود نهر في مكان ما. ولكن قطع

twitter @baghdad_library

الخفاف كانت قد غمرت طريق سارنوس الفرعي فبات صحراء مليئة بالحجارة. أفلح وسط الغبار في رؤية طيف واهٍ لجدران منخفضة على جانبيه وحينما تعثر أدرك أنها ليست أسواراً وإنما مبانٍ مدفونة، وأنه كان يسير على طريق على مستوى الأسطح. لذا فلا بد أن قطع الخفّاف قد وصلت إلى ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام على أقل تقدير.

يستحيل التصديق أن الناس نجوا من مثل هذا الانفجار. إنه لم يرهم فقط يجولون على أسوار المدينة الواقية، بل بات يراهم الآن يخرجون من داخل حفر في الأرض، تحت منازلهم الأشبه بالقبور. رأى أفراداً، وأزواجاً يسندون بعضهم بعضاً، وعائلات بأكملها، وحتى امرأة حاملة طفلها. وقفوا سوياً وسط الجو المعتم المليء بالغبار ينفضون الغبار عن ملابسهم، ويحدقون بالسماء. كان انهمار الحجارة قد توقف ما عدا بعض المقذوفات التي تصدر بين الحين والآخر. ولكن كان أتيليوس واثقاً أن هذا الانهمار سيعود من جديد، لأن الأحداث تتبع نمطاً معيناً. كلما ازدادت قوة الهواء الحارق النازل على منحدرات الجبل، يسحب مزيداً من الطاقة من داخل العاصفة، وتطول أكثر مدة الهدوء الذي يسبق العاصفة التي ستعاود الاندلاع من جديد. لم يكن ثمة شك أيضاً أن التيارات الساخنة تشتد قوة. فقد بدا أن الأولى ضربت هيركيولانيوم، والثانية اتجهت إلى ما وراءها أي إلى البحر، والثالثة وصلت بعيداً إلى حدود بومبي نفسها، والعاصفة التالية قد تجتاح بكل سهولة المدينة برمتها. راح يكمل سيره.

كان المرفأ قد اختفى بالكامل ولم يعد يظهر منه سوى بضعة أشرعة ناتئة وسط بحر الخفّاف والدليل الوحيد على وجود المرفأ هو ظهور قائم خلفي لسفينة وهيكل مهشّم لبدن سفينة أخرى. كان أتيليوس يسمع صوت أمواج البحر ولكنه بدا له صوتاً بعيداً جداً. لقد تغير شكل الساحل، وبين الحين والآخر تهتز الأرض ثم يُسمع صوت تحطم الجدران من بعيد وتهشم الأخشاب وانهيار السقوف. ضربت صاعقة برق المكان وحطمت أعمدة معبد فينوس البعيد واندلعت النيران. ازدادت صعوبة التقدم أكثر فشعر أنه يتسلق منحدراً ما،

وحاول تخيل كيف كان المرفأ يبدو عليه، حيث تؤدي الطرقات المتجهة صعوداً من رصيف المرفأ وجوانب الرصيف إلى بوابة المدينة. ظهرت مشاعل من وسط الهواء المليء بالدخان ومرت بمحاذاته. لقد توقع أن يلاقي حشوداً من الناجين ينتهزون الفرصة للهرب من المدينة ولكن كان الناس يسيرون بالاتجاه المعاكس، حيث كانوا يعودون إلى بومبي. لماذا؟ فافترض أنهم يعودون للتفتيش عن الأشخاص الذين فقدوهم ليروا ما عساهم يستعيدون من منازلهم. أراد أن يقول لهم اهربوا لتنجوا بحياتكم طالما أن الفرصة سانحة ولكن أنفاسه كانت مقطوعة، ودفعه رجل من أمامه مباغتاً إياه، فأخذ يترنح من جنب إلى آخر كالدمية المتحركة، خلال سيره على الجرف.

وصل أتيليوس إلى أعلى الطريق المنحدر، وأخذ يتلمس طريقه وسط عتمة الفجر والجو المليء بالغبار إلى أن وجد زاوية فيها بناء ثقيل وراح يتلمس طريقه من حولها، فدخل في نفق منخفض وهو جل ما تبقى من مدخل المدينة الكبير. كان بوسعه مد يده إلى الأعلى ولمس السقف المقنطر. صعد أحد ما صوبه من الخلف وأمسك بيده. «هل رأيت زوجتي؟»

كان يحمل قنديلاً زيتياً صغيراً ويحمي اللهب بيده. إنه شاب وسيم ونظيف وكأنه خرج لتوه للقيام بنزهة قبل تناول الفطور.

«أنا آسف. . ».

«جوليا فيليكس؟ لا بد أنك تعرفها. فالجميع يعرفونها». كان صوته يرتجف. وأخذ ينادي: «هل رأى أحدكم جوليا فيليكس؟»

سمع صوت حركة في المكان، فأدرك أتيليوس أن هناك أشخاصاً في المكان محشورين إلى جانب بعضهم البعض مختبئون في ممر البوابة.

تمتم أحدهم قائلاً: «إنها لم تمر من هنا».

أنّ الشاب وراح يجد السير باتجاه المدينة: «جوليا! جوليا!» وأضحى صوته أعمق مع اختفاء ضوء قنديله في العتمة: «جوليا!»

twitter @baghdad_library

قال أتيليوس بصوت عال: «أي بوابة هذه؟»

أجابه الرجل ذاته: «إنها بوابة ستابيي».

«إذاً هذا هو الطريق الذي يؤدي إلى بوابة فيسوفيوس؟»

همس صوت آخر قائلاً: «لاتخبره! إنه مجرد غريب أتى لسرقتنا».

وكان ثمة رجال آخرون يحملون المشاعل ويشقون طريقهم صعوداً.

نادت امرأة قائلة: «لصوص! إن ممتلكاتنا تفتقر إلى الحماية! لصوص!»

سُمع صوت لكمة، وأطلق أحدهم السباب، ثم فجأة عمّ المدخل الضيق الظلال المتشابكة والمشاعل المتأرجحة. أبقى المهندس يده على الجدار وتقدم إلى الأمام وهو يطأ على الأجساد، فأطلق رجل السباب وأحكم آخر قبضة أصابعه حول كاحل أتيليوس، فهز قدمه وحرّرها من قبضته. وصل إلى نهاية البوابة ونظر إلى ورائه فرأى مشعلاً يرتطم بوجه امرأة، فاندلعت النار في شعرها، وظل صراخها يلاحقه فيما استدار وحاول الهرب متحرفاً للنفاذ من هذا الشجار الذي بدا أنه راح يجذب أشخاصاً من الأزقة المجاورة، رجالاً ونساء يظهرون من وسط الظلمة، أي ظلال من ظلال، ينسلون وينزلقون على المنحدر للمشاركة في الشجار.

جنون: لقد أصاب المدينة برمتها الجنون.

أخذ يتهادى صعوداً على التل باتجاه المكان الذي يرجوه.

كان واثقاً أن هذا هو الطريق إلى بوابة فيسوفيوس ـ حيث رأى اللهب البرتقالي الناتج عن النيران المندلعة على الجبل الواقع على مسافة بعيدة ـ وهذا يعني أنه لم يعد بعيداً عن منزل آل بوبيديوس الذي يجب أن يكون في هذا الشارع بالذات. كان على يساره مبنى كبير وقد انهار سقفه ويندلع حريق في مكان ما في داخله وتنعكس وراء النوافذ صورة الوجه الملتحي العملاق للإله باخوس، هل هو مسرح؟ وعلى يمينه هناك أشباه المنازل الصغيرة وكأنه صف من الأسنان المهشمة حيث لا يُرى منها سوى بضعة أقدام من الجدران، أخذ

يمشي متأرجحاً باتجاهها. كانت المشاعل تتحرك، وتم إضرام عدد قليل من النيران، والناس يحفرون بفزع شديد. البعض منهم يحفرون بألواح من الخشب والبعض الآخر يحفرون بأيديهم العارية. وكان البعض ينادون بأسماء ويخرجون صناديق وسجاداً وقطعاً من الأثاث المهشّم. وثمة امرأة مسنة تصرخ مرتعدة، ورجلان يتشاجران حول شيء ما ـ لم يسعه رؤيته ـ ورجل آخر يحاول الهرب حاملاً تمثالاً نصفياً من الرخام بين يديه.

رأى مجموعة من الأحصنة مجمّدة في نصف مشية ناتئة وسط الظلمة فوق رأسه فحدّق بها بغباء إلى أن أدرك أنها تمثال الأفراس الموجود على تقاطع الطريق الكبير. عاد ونزل من جديد على التل ومر بمحاذاة ما كان يذكر أنه فرن وأخيراً لمح بصعوبة بالغة كلاماً محفوراً على جدار يصل إلى مستوى الركبة: يحثكم جيران لوشيوس بوبيديوس الثاني على انتخابه كوصي. سيبرهن لكم عن جدارته.

* * *

أفلح في حشر نفسه عبر نافذة على أحد الطرقات الفرعية وشق طريقه بين الركام وأخذ ينادي باسمها، ولكن لم يكن في المكان إشارة تدل على الحياة.

كان لا يزال بالإمكان تمييز المنزلين عن بعضهما البعض من خلال جدران الطوابق العليا. كان سقف القاعة المركزية قد انهار ولكن ذاك المجال المسطح المجاور لها لا بد وأنه المكان الذي كان يقع فيه حوض السباحة ولا بد من وجود الباحة الثانية. أقحم رأسه إلى بعض الغرف التي كانت فيما مضى تشكل الطابق العلوي، وأمكنه بصعوبة تمييز قطع مهشّمة من الأثاث، وأوان فخارية محطّمة، وقصاصات من الستائر المدلاة. أما السقوف التي انهارت فإنها تقبع تحت أنقاض الحجارة. كان ثمة أكوام من الخفّاف ممتزجة مع آجر التراكوتا والقرميد والروافد المكسّرة. ووجد قفص عصافير فارغاً في مكان يُفترض أنه كان شرفة، وعبر من خلالها إلى غرفة نوم مهجورة مفتوحة. من الواضح أن الغرفة تعود إلى شابة: فهناك مجوهرات مرمية ومشط ومرآة مكسورة. ووسط

twitter @baghdad_library

العتمة الملأى بالغبار وجد دمية مدفونة جزئياً تحت بقايا السقف، وقد بدت بشكل مخيف أشبه بطفلة ميتة. رفع عن السرير شيئاً حسبه ملاءة في البداية ثم وجده عباءة. جرب فتح الباب فوجده موصداً فجلس على السرير وأخذ يتفحص العباءة عن كثب.

لم يكن يفقه كثيراً بملابس النساء. اعتادت سابينا القول إنها حتى لو ارتدت خرقاً بالية فهو لن يلاحظها بتاتاً. ولكنه كان واثقاً أن هذه العباءة تعود إلى كوريليا، فقد قال بوبيديوس إنها كانت محتجزة داخل غرفتها، وهذه غرفة نسائية. لم يكن ثمة إشارة إلى وجود جثة لا هنا ولا في الخارج. وللمرة الأولى تجرأ على التفكير بأنها ربما تكون قد هربت. ولكن متى؟ وإلى أين؟

قلّب العباءة بين يديه وحاول التفكير فيما يمكن لأمبلياتوس أن يكون قد فعل. لقد أراد احتجازنا جميعاً، هذا ما قاله بوبيديوس. من المحتمل أنه عمد إلى سد جميع المخارج وأمر الجميع بالمكوث في الداخل. ولكن لا بد أنه أتت لحظة ما لدى حلول المساء، حينما بدأت السقوف تنهار، أدرك فيها أمبلياتوس نفسه، أن هذا المنزل الكبير بات مصيدة للموت. إنه ليس من النوع الذي يحتمل الانتظار والموت دون قتال. وفي الوقت نفسه ما كان ليهرب من المدينة: هذا ليس من شيمه، كما أنه من المستحيل قطع مسافة بعيدة جداً حينئذ. لا، كان سيحاول أخذ عائلته إلى مكان آمن.

رفع أتيليوس عباءة كوريليا إلى وجهه واشتم رائحتها. لعلها حاولت الهرب من أبيها إذ كانت تكرهه، ولكن ما كان أبداً ليسمح لها بذلك. تخيل أنهم اجتمعوا وخرجوا سوياً كما حدث في فيللا بومبونيانوس في ستابيي، حيث لفوا الوسائد والملاءات حول رؤوسهم، وحملوا المشاعل لينيروا طريقهم، وخرجوا إلى ما تحت الحجارة المتساقطة. ثم ماذا بعد؟ إلى أين توجهوا؟ أين هو ذاك المكان الآمن؟ حاول التفكير كمهندس. أي نوع من السقوف يتمتع بمتانة كافية تحتمل ضغط ثمانية أقدام من الخفّاف فوقها؟ ليس السقوف المسطحة بكل

تأكيد، بل بناء مشيد بطراز حديث. القبة هي البناء المثالي الذي يحتمل الضغط. ولكن أين يوجد قبة حديثة الطراز في بومبي؟

ترك العباءة من يده وعاد إلى الشرفة.

* * *

ثمة مئات من الأشخاص في الطرقات يتجولون على مستوى السطوح وسط جو شبه مظلم مثل النمل الذي تحولت أعشاشه إلى حطام. كان البعض منهم يسيرون دون هدى ضائعين في حيرة من أمرهم ويلفهم الحزن. رأى رجلاً يخلع ملابسه ببطء ويقوم بطيها وكأنه يتحضر للسباحة، وبدا أشخاص آخرون يدركون جيداً ما يفعلون حيث يشغلون أنفسهم بالبحث أو الهرب. لعلهم لصوص أو ربما مالكو المكان الحقيقيون: من يسعه معرفة ذلك بعد الآن؟ كانوا يهرعون إلى الأزقة حاملين كل ما يسعهم حمله. وأسوأ ما في الأمر هي الأسماء التي يتم المناداة بها وسط الظلام. هل رأى أحدكم فيليسيو أو فيروسا أو فيروس أو أبوليا زوجة نارسيسوس؟ أو سبيكيولا أو المحامي تيرينتيوس نيو؟ لقد انفصل الأهالي عن أولادهم. والأولاد وقفوا يصرخون خارج أنقاض المنازل. كان يتم توجيه المشاعل إلى وجه أتيليوس على أمل أن يكون شخصاً آخر ـ أب أو زوج أو أخ ـ فيلوح بيده مبعداً المشاعل عن وجهه ويهز بكتفيه نافياً أسئلتهم عازماً على عد المباني التي يمر بمحاذاتها. راح يتسلق التلة باتجاه بوابة فيسوفيوس. واحد اثنان ثلاثة: فشعر أن الأمر استغرق دهراً حتى أفلح في قطع كل مبنى وكل ما كان يرجوه ألا تكون ذاكرته قد خذلته.

لقد اندلع على الأقل مئة حريق على الجانب الجنوبي للجبل وانتشرت النيران على شكل كوكبة معقدة ومتدلية من السماء على مستوى منخفض. تعلم أتيليوس كيفية التمييز بين نيران فيسوفيوس وغيرها فهذه النيران آمنة: إنها مخلفات الأزمة التي مرت، وهي تنبئ بإمكانية ظهور غيمة مضيئة أخرى فوقهم على قمة الجبل، الأمر الذي ملأ قلبه رعباً وجعله يجر قدميه المتعبتين إلى درجة تخطت الإنهاك من أجل التنقل في أرجاء المدينة المحطمة.

twitter @baghdad_library

في زاوية المبنى الرابع وجد صف المحال، مدفوناً حتى حدود الثلاثة أرباع فتسلق على تلة الخفّاف إلى السقف المنخفض. جلس القرفصاء مباشرة وراء الحَرْف الذي بدا منظره واضحاً، وفكّر أنه لا بد من وجود حرائق خلفه فرفع رأسه ببطء. تقع وراء سطح باحة المبنى المدفون النوافذ التسع لحمامات امبلياتوس، وكل منها مضاء بشكل قوي وغير هيّاب بواسطة المشاعل وعدد من القناديل الزيتية. أمكنه رؤية بعض الآلهة المرسومة على الجدران البعيدة وأطياف رجال يتحركون أمامها. لم يكن ينقصهم سوى الموسيقى: وعندها سيبدو وكأن ثمة حفلة تدور في ذاك المكان.

أخذ أتيليوس يزلق نفسه نزولاً إلى هذا المكان المغلق ثم عَبَره. كان المكان مضاءً بقوة وحينما اقترب منه وجد أن الأطياف التي رآها ما هي إلا عبيد يقومون بتنظيف أكوام الخفّاف التي تجمّعت في الغرف الثلاث الكبيرة، غرفة تبديل الملابس والغرفة الساخنة، وحمام المياه الدافئة. أخذوا يزيلون قطع الخفّاف المتراكمة بواسطة الرفوش الخشبية وكأنها ثلج، أما في الأماكن الأخرى فعمدوا إلى إزالتها بالمكانس فحسب. كان أمبلياتوس يسير خلفهم صارخاً عليهم كي يعملوا بجهد أكبر، وبين الفينة والاخرى يحمل بنفسه رفشاً أو مكنسة ليريهم كيفية أداء عملهم قبل أن يعمد إلى معاودة سيره الهوسي. وقف أتيليوس يتفرج لبضع لحظات مختبئاً وسط العتمة ثم بدأ بحذر التسلق باتجاه الغرفة الوسطى ـ حمام المياه الدافئة ـ الواقعة خلف ما رآه مدخلاً إلى غرفة التعرّق المقبّبة.

لا يمكن دخول المكان دون أن يراه أحد، لذلك دخل بكل بساطة ـ حيث دخل عبر النافذة المفتوحة وأخذ يسير فوق قطع الخفّاف وراحت قدماه تسحقان الأرض المرصوفة بجلبة ـ فحدّق العبيد فيه باستعجاب. كان قد قطع منتصف الطريق ناحية غرفة التعرّق عندما وقع نظر امبلياتوس عليه: «الساقي!» وركض لاعتراض طريقه. كان يبتسم وراحتا يديه مفتوحتان: «أيها الساقي! لقد كنت أتوقع قدومك!».

كان ثمة جرح على صدغه وكان الشعر الذي يغطي جانب رأسه الأيسر

مخضوضباً بالدماء التي تيبّستْ. وكان خداه مخمّشين وثمة مزيد من الدماء تسيل فوق غطاء الغبار الذي يغطي وجهه ناحتة أثلاماً حمراء وسط البياض. كانت زاويتا فمه مرفوعتين إلى الأعلى: قناع هزلي. والضوء القوي ينعكس في عينيه اللتين كانتا جاحظتين جداً. وقبل أن يتمكن أتيليوس من قول أي شيء، عاود أمبلياتوس الكلام من جديد. «يجدر بنا إعادة تشغيل قناة جر المياه على الفور. أترى؟! لقد بات كل شيء جاهزاً، ولم يتعرض أي شيء للدمار. بوسعنا أن نفتح أبوابنا للزبائن غداً إن استطعنا توصيل المياه إلى هنا». كان يتكلم بسرعة شديدة، فراحت الكلمات تتدفق بعجل على شفتيه، حيث بالكاد ينهي جملة حتى يبدأ بأخرى. فهناك الكثير من الأفكار التي تدور في رأسه واحتاج إلى التعبير عنها. كان يرى كل ما سيحدث تالياً: «سوف يحتاج الناس إلى مكان واحد في المدينة غير مدمر. سوف يحتاجون إلى الاستحمام وستكون إعادة كل شيء إلى حالته الطبيعية أمراً متعباً ولكن هذا ليس جل ما في الأمر. ستكون الحمامات مركزاً للناس ليتجمعوا حوله. إن رأوا أن الحمامات لا تزال صالحة للعمل سيمدهم هذا بالثقة، والثقة هي الأساس في كل شيء. والمفتاح للحصول على الثقة يكون بواسطة المياه. المياه هي كل شيء، هل ترى هذا؟ أنا بحاجة إليك ايها الساقي. سنتقاسم كل شيء مناصفة. ما رأيك؟»

«أين كوريليا؟»

«كوريليا؟» كانت عينا أمبلياتوس لا تزالان تتطلعان إلى إجراء صفقة محتملة: «أنت تريد كوريليا؟ مقابل المياه؟»

«ربما».

«زواج؟ أنا مستعد للتفكير بهذا الأمر؟» أومأ بإبهامه وقال: «إنها هناك. ولكني أحتاج إلى محامٍ لعقد بنود الاتفاق».

استدار أتيليوس وسار في المدخل الضيق المؤدي إلى حمام البخار. كانت كوريليا جالسة على أحد المقاعد الحجرية الموجودة حول غرفة التعرّق الصغيرة المقبّبة والمضاءة بالمشاعل المرفوعة على حوامل حديدية على الجدار، ويجلس

twitter @baghdad_library

إلى جانبها أخوها وأمها. وفي الجهة المقابلة لهم يجلس القهرمان سكوتاريوس والبواب العملاق ماسافو. وكان ثمة مخرج آخر يؤدي إلى الغرفة الساخنة. حينما دخل المهندس رفعت كوريليا رأسها.

قال: «علينا المغادرة. بسرعة. جميعكم».

عمد أمبلياتوس الواقف وراءه إلى سد الباب وقال: «آه لا، لن يغادرنّ أحد. لقد تحمّلنا الأسوأ. هذا ليس الوقت المناسب للهرب. تذكّروا نبوءة العرافة».

تجاهله أتيليوس ووجّه كلامه إلى كوريليا التي بدت وكأنها أصيبت بالشلل نتيجة الصدمة: «إسمعي. إن انهمار الحجارة ليس الخطر الأساسي، فعندما يتوقف هذا الانهمار، ستنجرف رياح النيران نزولاً على الجبل. لقد رأيتها بأم عيني. وتدمّر هذه الرياح كل ما يعترض سبيلها».

قال أمبلياتوس بإصرار: «لا لا إننا بمأمن أكثر هنا. صدقوني. تبلغ سماكة الجدران ثلاثة أقدام».

توجه أتيليوس بالمحاججة التالية أمامهم جميعاً: «بمأمن من الحرارة في غرفة تعرق؟ لا تصغوا إليه. إذا وصلت الغيمة الساخنة سيستحيل هذا المكان فرناً وسيشويكم جميعاً. كوريليا». مد يده لها فنظرت بسرعة باتجاه ماسافو. فأدرك أتيليوس أنه يقوم بحراستهم: كان حمام البخار سجنهم.

كرر أمبلياتوس القول: «لن يغادرن أحد. ماسافو!»

أمسك أتيليوس بمعصم كوريليا وحاول جرها باتجاه الغرفة الساخنة قبل أن يتسنى لماسافو الوقت لإيقافهما، ولكن كان الرجل الضخم سريعاً فتوجه لسد المخرج، وحينما عمد أتيليوس إلى إزاحته بكتفه أمسكه بساعده من رقبته وجره معيداً إياه إلى الغرفة. ترك أتيليوس كوريليا وناضل ليبعد قبضة الرجل عن عنقه. في العادة، بوسعه تخليص نفسه من عراك ولكن ليس حينما يكون بمواجهة خصم بهذا الحجم وليس حينما يكون الإنهاك قد أضنى جسده. سمع أمبلياتوس يأمر ماسافو بدق عنقه: «دق عنقه كما يُدق عنق الدجاجة التي يُشبِهها في

جبنها!» ثم سمع صوت هبوب لهب بالقرب من أذنه، وبعدها صرخ ماسافو نتيجة الألم، فتحرر من قبضته. رأى كوريليا حاملة مشعلاً بكلتا يديها وماسافو راكعاً على ركبتيه. نادى أمبلياتوس باسمها وكان ثمة رجاء يشوب الطريقة التي نادى اسمها بها ومد يديه باتجاهها. دارت، فأخذت نار المشعل تفأفئ، ووجهت المشعل صوب والدها ثم خرجت عبر الباب إلى الغرفة الساخنة ونادت أتيليوس طالبة منه اللحاق بها.

طفق يمشي باضطراب وراءها فتوجّه إلى النفق ثم إلى الغرفة الساخنة المضاءة ثم عبَرَ الأرض المنظَّفة جيداً ومر بمحاذاة العبيد وسوياً خرجا من النافذة إلى حيث الظلمة وغرقا وسط الحجارة. عندما وصلا إلى منتصف الباحة نظر أتيليوس إلى الوراء ظناً منه أن والدها ربما استسلم، إذ لم يَرَ في بداية الأمر أية إشارة تدل على أنه مُلاحق. ولكن بالطبع ونظراً للجنون الذي يكتنف أمبلياتوس بدا جلياً أنه لم يستسلم، ولن يفعل أبداً. ظهر جسد ماسافو الضخم الذي لا يمكن إغفاله على النافذة وبجواره سيده وسريعاً خفت نور النافذة حيث تم نقل المشاعل إلى العبيد. وخرج اثنا عشر من الرجال من الغرفة الساخنة مسلحين بالمكانس والرفوش وأخذوا يتفرقون في أرجاء المكان.

راحا يصعدان وينزلقان للعودة إلى السقف، الأمر الذي بدا لهما أنه استغرق دهراً، ثم قفزا إلى الطريق. لا بد أنهما ظهرا للعيان على السقف لبرهة من الوقت، على الأقل لمدة كافية جعلت أحد العبيد يراهما ويطلق إنذاراً. شعر أتيليوس بألم حاد في كاحله وهو يحط على الأرض. أمسك بذراع كوريليا وتقدم بضع خطوات إلى أعلى التل ثم انسحب كل منهما إلى ظل الجدار في الوقت الذي ظهرت فيه مشاعل أمبلياتوس على الطريق وراءهما. لقد تم قطع خط هروبهما إلى بوابة ستابيي.

ظن حينها أن الأمر ميؤوس منه، إذ تم احتجازهما بين نارين ـ نار المشاعل ونار فيسوفيوس ـ وحتى حينما نظر بتخوف من نار إلى أخرى وجد أن شعاعاً خافتاً قد بدأ يتشكل في المكان نفسه الذي تشكل فيه في السابق في أعلى الجبل حيث تكوّنت الغيوم.

twitter @baghdad_library

خطرت له فكرة وسط اليأس الذي اعتمل في صدره، ووجدها فكرة غريبة فتجاهلها، ولكنها أبت أن تختفي. وفجأة بات يتساءل إن كانت هذه الفكرة منغرسة في رأسه طيلة الوقت. إن ما فعله في النهاية لم يكن إلا التوجّه باتجاه فيسوفيوس في الوقت الذي عمد فيه الآخرون جميعاً إما إلى الثبات في مواقعهم أو الهرب، أولاً على الطريق الساحلي من ستابيي إلى بومبي ثم إلى أعلى التل من جنوب المدينة باتجاه الشمال؟ لعله كان بانتظاره منذ البداية: إنه قدره.

أخذ يحدّق بالجبل. ليس ثمة أي شك فعمود الضوء يتنامى. همس إلى كوريليا قائلاً: «هل يسعك الركض؟»

«أجل».

«إذاً أركضي كما لم يسبق لك أن ركضتِ من قبل».

ابتعدا عن الجدار الذي أمّن لهما الحماية. كان رجال أمبلياتوس يديرون لهما ظهورهم وكانوا يحدقون وسط الظلمة باتجاه بوابة ستابيي. سمع أمبلياتوس يصدر المزيد من الأوامر: «أنتما الإثنان فتشا الطريق الجانبي وأنتم الثلاثة انزلوا على التل». ثم لم يعد أمامهما إلا البدء بشق طريقهما عبر كتل الخفّاف من جديد. أخذ لشدة الألم الذي يشعر به في رجله يصك أسنانه على بعضها البعض، أما هي فقد كانت أسرع منه، تماماً كما كانت عليه حينما تسلقت التل وهي تركض في ميسينوم ممسكة بتنورتها بيد حيث جمعتها حول فخذيها، ورجلاها الطويلتان البيضاوتان تلمعان وسط الظلام. أخذ يركض متعثراً وراءها وهو لا يزال يسمع صراخ أمبلياتوس «ها هما! إتبعوني!» ولكن حينما وصلا إلى نهاية المربع السكني غامر أتيليوس بالنظر إلى الوراء من فوق كتفه فلم يَرَ إلا مشعلاً واحداً يتأرجح وراءهما. «إيها الجبانان!» كان أمبلياتوس يزعق قائلاً: «مِمَّ أنتما خائفان؟»

بدا بشكل جلي السبب الذي دفع العبيد إلى التمرد، فقد كانت موجة النار تزحف على فيسوفيوس بشكل صارخ وتتنامى كل لحظة، ليس من حيث الارتفاع وإنما من حيث العرض، عنيفة وغازية وأكثر سخونة من اللهب: بيضاء ساخنة

ووحده المجنون يركض باتجاهها. حتى ماسافو أبى اللحاق بسيده. أخذ الناس يوقفون محاولاتهم الجاهدة لاستخراج ممتلكاتهم وطفقوا يركضون على جانب التل للهرب من الموجة. شعر أتيليوس بالحرارة تسفع وجهه، إذ أن الرياح الساخنة شكلت دوامات من الرماد والركام. التفتت كوريليا إلى الوراء ونظرت إليه ولكنه حثها على المضي قدماً باتجاه الجبل تحدياً لكل الغرائز والمنطق. مرا بمجمع سكني آخر، ولم يعد أمامهما سوى مجمع واحد. وظللت السماء المضاءة أمامهما بوابة فيسوفيوس.

صرخ أمبلياتوس قائلاً: «إنتظرا! كوريليا!» ولكن بات صوته خافتاً اكثر إذ أصبح بعيداً عنهما.

وصل أتيليوس إلى ناصية القلعة المائية ورأسه مطرق إلى الأسفل هرباً من الرياح الساخنة، بعد أن أعمى الغبار عينيه ثم أخذ يجر كوريليا وراءه إلى الزقاق الضيق. وجدا أن قطع الخفّاف قد دفنت الباب تقريباً، فلم يكن يظهر منه سوى مثلث صغير من الخشب. ركله برجله بقوة وفي المحاولة الثالثة انهار القفل وتدفّق الخفاف من الفتحة. دفعها إلى الداخل وانزلق وراءها نحو الظلمة القاتمة. أمكنه سماع المياه، فاتجه ناحيتها متحسساً حافة الخزان ثم تسلقه بجهد فوصلت المياه إلى حدود خصره. جذبها بعده وأخذا يتلمسان طريقهما عند أطراف الشبكة بحثاً عن البراغي وعندما وجدها رفع المصبعة. وجّه كوريليا إلى فم النفق وحشر نفسه وراءها.

«تحركي وسيري إلى أبعد مسافة ممكنة».

صدر هدير أشبه بالانهيار الثلجي، لذا استحال عليها سماع أتيليوس، وهو نفسه لم يسمع صوته. ولكنها أخذت تمضي إلى الأمام بشكل فطري، وتبعها هو واضعاً يديه على خصرها وراح يضغط عليها بقوة نزولاً حتى ينغمس أكبر قدر ممكن من جسدها في الماء. ثم رمى نفسه عليها وتمسكا ببعضهما البعض في المياه. وبعدها لم يكن هناك سوى حرارة حارقة ورائحة الكبريت وسط عتمة القناة تحت جدران المدينة مباشرة.

twitter @baghdad_library

أورا ألترا

الساعة: ٥٧: ٠٧

لا يحتمل جسد الإنسان التعرض لحرارة تفوق المئتي درجة حرارية لأكثر من بضع لحظات وخصوصاً وسط التدفق السريع للتيار الساخن. إن محاولة التنفس وسط غيمة الرماد الساخن الكثيفة في غياب الأوكسجين يؤدي إلى فقدان الوعي خلال بضعة أنفاس إضافة إلى التسبب بحروق بالغة في المجرى التنفسي... من ناحية أخرى هناك احتمال للنجاة من أجزاء الدفق البعيدة إن كان ثمة ملجأ مناسب ليحمي المرء نفسه من هذا الدفق الشديد ومن حرارته العالية ومن المقذوفات أيضاً (أحجار ومواد بناء) التي تجرها غيمة المواد المتحركة معها.

موسوعة البراكين

بدأت تنزل على جانب التل عاصفة رملية مضيئة باتجاه أمبلياتوس، فدمّرت الجدران التي اعترضت طريقها وفجّرت السقوف وراحت قطع القرميد والآجر والعوارض والحجارة والأجساد تتطاير باتجاهها، فبدا له خلال تلك اللحظة البطيئة التي سبقت موته أن كل هذه الأشياء تثور. ثم ضربه الانفجار وفجّر طبلتي أذنيه وأشعل النار في شعره وطيّر ملابسه وحذاءه وقلبه رأساً على عقب وضربه بجانب المبنى.

مات في اللحظة التي وصل فيها الدفق إلى الحمامات واندفع متفجراً من النوافذ المفتوحة خانقاً زوجته التي ظلت تطيع أوامره حتى الرمق الأخير من حياتها فلازمت مكانها وسط غرفة التعرّق. وضرب الدفق ابنه الذي كان قد

twitter @baghdad_library

هرب محاولاً الوصول إلى معبد إيزيس حيث رفعه عن قدميه، ثم غمر القهرمان والبواب ماسافو الذي كان يركض في الشارع باتجاه بوابة ستابيي. مر الدفق بالماخور حيث عاد مالكه أفريكانوس لأخذ أغراضه وحيث كانت زميرينا تختبئ تحت سرير إكزومنيوس. فقتل بريبكس الذي ذهب إلى مدرسة المجالدين في بداية الثوران ليكون إلى جانب رفاقه السابقين. وضرب موسى وكورفينوس اللذين قررا البقاء معه لثقتهم بأنه يعرف مكاناً آمناً للاختباء. حتى أنه قتل المخلص بولايتس الذي كان يختبئ في المرفأ والذي عاد إلى البلدة ليرى إن كان بوسعه مساعدة كوريليا. لقد قتل الدفق أكثر من ألفي شخص في أقل من نصف دقيقة وترك أجسادهم على شكل سلسلة من لوحات غريبة الشكل وظلت للأجيال المقبلة لتحدق فيها.

وعلى الرغم من أن شعور القتلى وملابسهم تعرضت لبعض الحريق إلا أن هذه الحرائق سرعان ما انطفأت نتيجة نقص الأوكسجين. وعوضاً عن الحريق تدفقت فوق المدينة موجة من الرماد الدقيق يبلغ ارتفاعها ستة أقدام اجتاحت المدينة في أعقاب التيار الساخن فغطت جميع أرجاء المكان وقولبتْ الضحايا الذين سقطوا بكل تفاصيلهم. ثم تصلّب هذا الرماد وسقط المزيد من قطع الخفّاف. وتعرضت الجثث في فجواتها المغلقة إلى البلى ومعها بليت على مر القرون الذكرى التي ترمز إلى أنه كان ثمة مدينة في تلك البقعة من الأرض. تحوّلت بومبي إلى مدينة لمواطنين مجوّفين ومقولبين بشكل ممتاز، على شكل جماعات أو أفراد، وملابسهم تطايرت عنهم أو رُفعت حتى حدود رؤوسهم ممسكين بقوة بأغراضهم المفضلة أو غير ممسكين بشيء. استحالوا إلى فراغات معلقة وسط الهواء على مستوى أسطح منازلهم.

* * *

في ستابيي ضربت الرياح المخبأ المصنوع من شراع المينيرفا وطيرته عن الشاطئ. فبات الناس مكشوفين وأمكنهم رؤية الغمامة الساخنة التي أخذت تزحف فوق بومبي وتتجه صوبهم مباشرة.

أخذ الجميع يتراكضون وفي مقدمتهم بومبونيانوس وبوبيديوس. وأمسك توركواتوس وأليكسيون ببليني من ذراعيه وأوقفاه على رجليه. ولكن السير أضنى الأميرال، وحينما طلب منهما بوهن تركه وإنقاذ نفسيهما أدركا أنه جاد بكلامه. جمع أليكسيون الملاحظات وكرّر وعده بإيصالها إلى ابن أخت هذا الرجل المسن، وقدم له توركواتوس التحية، ثم بات بليني وحده.

لقد فعل كل ما بوسعه حيث وضع توقيت هذا التجلّي بكل مراحله. ووصف مظاهره ـ العمود والغيمة والعاصفة والنار ـ واستنفذ كل ما لديه من المفردات للقيام بهذا الأمر. لقد عاش حياة مديدة ورأى الكثير من الأشياء والآن منحته الطبيعة هذه النظرة الأخيرة إلى قوتها. في هذه اللحظات الخاتمة لوجوده، ظل يراقبها بكل شغف كما كان يفعل حينما كان صغيراً. وهل يمكن للمرء أن يطلب نعمة أروع من هذه؟

كان خط الضوء ناصعاً جداً ومع ذلك بدا ممتلئاً بالظلال المتلألئة. ما الذي يعنيه ذلك؟ كان لا يزال يشعر بالفضول للمعرفة.

إن الناس يخطئون في قياس الفهم ودائماً يعمدون إلى وضع أنفسهم وسط كل شيء. هذا هو ولعهم الأكبر. أصبحت الأرض أشد سخونة ـ لا بد أنه خطأنا إن الجبل يدمرنا. إننا لم نسترضِ الآلهة! إنها تمطر كثيراً. إنها نادراً ما تمطر. من المريح التفكير بأن مثل هذه الأمور مرتبطة بطريقة ما بسلوكنا وأننا فقط لو عشنا بشكل أفضل بقليل واقتصدنا قليلاً كانت أعمالنا الحسنة ستعود علينا بالخير. ولكن ها هي ذا الطبيعة تزحف بسرعة باتجاهه، مبهمة وغازية وغير مبالية. رأى في نيرانها عبثية الادعاءات البشرية.

صعب عليه التنفس أو حتى الوقوف وسط الرياح. كان الهواء متوهّجاً ومليئاً بالغبار وحبيبات الرمال، فأحس بالاختناق ثم قبض على صدره ألم فظيع فرجع إلى الوراء.

واجِهِ الأمر، لا تستسلم.

twitter @baghdad_library

واجهه كالروماني الحق.

ثم غمره المد.

* * *

تواصل الثوران بقية النهار حيث قذف بمزيد من التدفقات وأحدث انفجارات مدوية هزت أركان الأرض. ومع حلول المساء انحسرت قوته وبدأ المطر بالهطول فأطفأت المياه النيران، وغسلت الرماد من الهواء، وبللت الكثيبات الرمادية المتموجة المنخفضة، إضافة إلى الفراغات التي طمست سهل بومبي الخصب والساحل الجميل من هيركيولانيوم إلى ستابيي، وملأت الآبار والينابيع التي أخذت تسيل نزولاً باتجاه البحر، وأخذ نهر السارنوس مجرى مختلفاً تماماً. عندما عاد الصفاء إلى الهواء عاد فيسوفيوس إلى الظهور ولكن بشكل مختلف تماماً. لم تعد تكلله قمة بل فجوة وكأن عملاقاً ما قضم هذه القمة. وبزغ قمر كبير فوق هذا العالم المتغير وقد استحال أحمر بفعل الغبار.

تم استخراج جثة بليني من الشاطئ «لقد بدا نائماً اكثر منه ميتاً» وفقاً لابن أخته، وأعيدت إلى ميسينوم إلى جانب ملاحظاته. وقد تمت برهنة دقة هذه الملاحظات بحيث دخلت كلمة جديدة إلى لغة العلم: ««البلينية» لوصف «الثوران البركاني» الذي يُقذف فيه عمود ضيق من الغاز بقوة هائلة من فتحة مركزية إلى ارتفاع يصل حتى عدة اميال قبل أن ينتشر على الجوانب.

واصلت المياه التدفق في الأكوا أوغوستا كما ستظل تفعل لقرون آتية.

أما الناس الذين هربوا من منازلهم الواقعة على أطراف الجبل الشرقية فبدأوا يرجعون بحذر قبل هبوط الليل. كثيرة هي القصص والشائعات التي أخذت تدور في أرجاء المكان في الأيام التالية. قيل إن امرأة وضعت طفلاً مصنوعاً كلية من الحجر، وشوهدت صخور دبت فيها الحياة واتخذت شكلاً آدمياً، وانتقلت مجموعة من الأشجار كانت موجودة على جانب الطريق في نولا إلى الجانب الآخر، وأثمرت فاكهة خضراء غريبة يقال إنها تشفي من كل داء، من الديدان إلى الصلع.

وما يثير العجب أيضاً هي قصص النجاة. قيل إن عبداً أعمى وجد طريقة للخروج من بومبي فدفن نفسه في بطن حصان نافق على الطريق العام المؤدي إلى ستابيي، وبهذه الطريقة نفذ من الحرارة والحجارة. ووُجد طفلان جميلان شقراوان توأمان هائمين على وجهيهما ولم يتعرضا لأي أذى، وكانا يرتديان ثوبين من الذهب ولم يتعرض جسداهما لأي خدش، ولكنهما كانا عاجزين عن النطق، أُرسلا إلى روما ووُضعا في منزل الإمبراطور.

وأروع ما سُمع هو أسطورة رجل وامرأة خرجا من تحت الأرض نفسها عند الغسق، يوم انتهى الثوران. لقد اختبآ تحت الأرض كالحشرات وقيل أنهما سارا فيها لأميال عديدة، فقطعا بومبي حتى وصلا إلى مكان أرضه آمنة وغطسا في مياه نهر جوفي طبيعي. وأُشيع أنهما كانا يسيران سوياً باتجاه الساحل، حتى حينما غابت الشمس فوق فيسوفيوس المحطم وهبّ نسيم المساء المألوف من كابري وعبث بكثيبات الرماد.

ولكن اعتُبرت هذه القصة بالذات عصيّة على التصديق وتم تجاهلها لاعتبارها خرافة من قِبلَ كل الأشخاص العقلاء.

twitter @baghdad_library

شكر وتقدير

لقد زوّدت هذه المجلدات بأسماء المراجع التي لجأت إليها. وقمت بذلك لأنه برأيي من التهذيب ومن دواعي التواضع الشديد الاعتراف بفضل أولئك الذين كانوا وراء إنجازي.

بليني، التاريخ الطبيعي، المقدمة

أخشى من أنني لا أستطيع الادعاء كبليني أنني رجعت إلى ألفي مجلد خلال قيامي بالأبحاث. ولكن هذه الرواية ما كانت لتُكتب من دون الرجوع إلى الكثير من الأشخاص. وكحال بليني أظن أنه من التهذيب، على الأقل بالنسبة إلي وليس إليهم، أن أعرض بعض المصادر التي استعنت بها.

بالإضافة إلى الأعمال التي تدور حول علم البراكين المُستشهَد بها في الكتاب أود أن أعترف بالفضل لجان بيار آدم (البناء الروماني)، وكارلين بارتون (الشرف الروماني)، وماري بيغون (الطبيعة الرومانية)، ومارسيل بريون (بومبي وهيركيولانيوم)، وليونيل كاسون (البحّارون القدامى)، وجون دارم (الرومان على خليج نيابوليس)، وجوزيف جاي ديس (هيركيولانيوم)، وجورج هوك (قناة نيموسوس)، وجون هيلي (بليني الزعيم في العلم والتكنولوجيا)، وجايمس هيغينبوثام (بيسينا)، وأ. تريفور هودج (القنوات الرومانية ومخزون المياه)، وويليلمينا فيمستر جاشيمسكي (حدائق بومبي)، وميليم جونكمان (اقتصاد بومبي ومجتمعها)، وراي لورنس (بومبي الرومانية)، وأميديو ميوري (بومبي)، وأوغست مو (بومبي: حياتها وفنها)، ودايفيد مور (البانتيون الروماني)، وسالفادتور نابو (بومبي: دليل إلى المدينة الضائعة)، ول. ريتشاردسون الإبن

twitter @baghdad_library

(بومبي: تاريخ هندسي)، وشستر ستار (البحرية الإمبراطورية الرومانية)، وأنطونيو فارون (بومبي: لغز مدينة مدفونة)، وأندرو والاس هادريل (المنازل والمجتمع في بومبي وهيركيولانيوم)، وبول زاكنر (بومبي: الحياة العامة والخاصة).

لقد تم جلب ترجمات بليني وسينيكا وسترابو بأغلبها من نسخات أعمالهم التي نشرتها مكتبة ليوب الكلاسيكية. وقد استفدت كثيراً من كتاب فيتروفيوس (عشرة كتب حول الهندسة) الذي حرّره إنغريد رولاند وطوماس نوبل هو.

ساعدني في استدعاء كامبانيا إلى الحياة أطلس بارينغتون للعالمين الروماني واليوناني الذي قام بتحريره ريتشارد تالبرت. أما التحليل البركاني للثوران الذي قام به هارالدور سيغوردسون، وستيفن سباركس في صحيفة علم الآثار الأميركية (٨٦: ٣٩ ـ ٥١) فقد كان لا يُقدّر بثمن.

لقد حظيت بشرف مناقشة موضوع الرومان على خليج نيابوليس مع جون دارم خلال مأدبة عشاء مع عائلته في حديقة إنكليزية دافئة قبيل وفاته مباشرة، وسأظل دوماً أتذكر لطفه وتشجيعه. قدّم البروفيسور تريفور هودج، الذي ساعدتني أعماله الرائدة حول القنوات الرومانية في تخيل الأكوا أوغوستا، يد العون لي عبر إجابته على تساؤلاتي. ومكّنني دعم البروفيسور جاسبر غريفين من استخدام مكتبة متحف أشمولين في أوكسفورد. وقرأتْ الدكتورة ماري بيرد، العضوة في إدارة جامعة نونام، كامبريدج، مسودة الكتاب قبل نشره، وقدمت العديد من الاقتراحات الثمينة.

أقدّم بالغ شكري لجميع هؤلاء المثقفين وأعفيهم من المسؤولية عبر تقديم هذه الجملة المألوفة: إن الأخطاء والتحريفات وإساءات التقديرات التي تشوب الحقائق المدرجة في النص تقع كلها على عاتق الكاتب.

روبرت هاريس

كنتبوري، حزيران ٢٠٠٣

المؤلف

- عمل روبيرت هاريس مراسلاً صحفياً لـ B.B.C، وكان يحرِّر في صحيفة لندن صاندي تايمز.
- بيع من كتبه ستة ملايين نسخة وترجمت أعماله إلى ٣٠ لغة.
- حاز جائزتين الأولى عام ١٩٩٢ وهي Whitbread First Novel Award والثانية عام ٢٠٠٨، وهي British Book Awards Popular Fiction Award
- يقيم حالياً في بيركشير بإنكلترا مع زوجته وأولاده الثلاثة.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

هذا الكتاب

مدينة بومبي ومدن مجاورة، تتابع الحياة بشكل اعتيادي وهي لا تعلم أنها على شفير الهاوية، أنها مهدّدة بكارثتين: كارثة انفجار بركان، وكارثة جفاف مياه الشرب...

وحده مهندس شاب مسؤول عن قناة «أكوا أوغوستا» يستشعر هَذين الخطرَيْن ويعيش هاجس رعب حقيقي. ويحاول في الوقت الصعب والفرص الضئيلة المتاحة أن يفعل شيئاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

يجنّد فريق عمل كثيراً ما كان أفراده يسخرون مما يفعل وممّا يفكر فيه لأنّهم لم يصدقوا أن ذلك سيحدث.

تصوير داخلي وخارجي لحركة الناس وردود أفعالهم حيال الكوارث وصراعهم لأجل الحياة، بكل عفوية ودون انتباه إلى أن قلم عبقري ينقلهم كما هم إلى الورق.

رواية متكاملة تمثّل بقعة من حياة لم تكن عادية ولم تعرف الهدوء.

ISBN 978-9953-88-082-2
9789953880822

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون ٩٦١١٣٥٠٧٢٢-٧٥٠٨٧٢+
تلفون+فاكس: ٩٦١١٧٥٢٥٤٧-٣٤٢٠٠٥-٣٤١٩٠٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

twitter @baghdad_library